السيرة النبوية

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع القانونى:
الترقيم الدولى:

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

التاريخ الإسلامى

مواقف وعبر

السيرة النبوية

تأليف

دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدى

الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الدعوة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

الحمد لله الذي أوجد البشر في هذه الحياة الدنيا ولم يتركهم سدى، بل بين لهم سبيله الهادي إلى سعادة الدنيا والآخرة، فأرسل لهم رسلاً مبشرين ومنذرين، وجعلهم قدوة لأممهم، ينفذون شريعة الله تعالى في الأرض، ويرفعون معالم الحياة الكاملة التي تجمع بين سعادة الدارين.

وصلى الله تعالى على سيدنا ونبينا محمد؛ الذي أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وأقام التوحيد، وهدم الشرك، وجاهد في الله حق جهاده، وبنى دولة الإسلام، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد؛

فإن السيرة النبوية مادة مهمة في مجال العقيدة والأحكام والدعوة والجهاد والأخلاق وغيرها، حيث إنها سجلٌّ حافل من مآثر سلفنا الصالح، فهي عبارة عن قوالب تختزن فيها وقائع تشتمل على نماذج حية من تطبيق الإسلام على هذه الأرض.

فالنصوص المجردة قد تتلقاها بعض النفوس بشيء من البرود وعدم التأثر، ولكن حينما تُروى ضمن وقائع حدثت فعلاً من رجال سموا إلى المعالي، وتخلصوا من ضغط الجاهلية، وجردوا أنفسهم لما يحبه الله تعالى منهم، وأصبحوا يمثلون الإسلام الواقعي المطبق في الحياة، وليس الإسلام المسطر في الكتب فحسب.. حينما تُروى على هذا النحو الحي المتحرك فإنها تهز الضمائر الحية، وتدفع النفوس الأبية إلى التأثر ومحاولة التأسي بأولئك الأماجد الكرام.

لذلك اتجهت همة العلماء -رحمهم الله تعالى- إلى جمع سيرة رسول الله ﷺ وسير الصحابة رضى الله عنهم، واستفاد منها المربون عبر الأجيال في إصلاح النشئ وتقويم السلوك.

ولما كان كل عصر له ملامحه الخاصة؛ من حيث تغير أنماط الحياة الاجتماعية واختلاف موارد الثقافة، وتعدد المناهج السياسية والاقتصادية، وتنوع وسائل الغزو

الفكري من الأعداء . . كان لا بد من إعادة دراسة السيرة النبوية، ومحاولة الاستهداء بها في تقويم حياة المسلمين على ضوء الحياة المعاصرة.

وكان من طريقتي في إعداد هذه الموضوعات والكتابة عنها أنني أجمع مادة الموضوع الذي أريد الكتابة عنه من جميع الكتب التي تتيسر لي، ثم أختار الروايات الجامعة، وأشير إلى بقية الروايات غالبًا، وإذا كان النص يشتمل على بعض الأعلام فإنني أرجع إلى كتب التراجم؛ حيث أحصل منها على فوائد في خدمة النص، وخاصة ما يتعلق بحكم العلماء على تلك النصوص، وكذلك فيما إذا كانت تشتمل على آيات من القرآن الكريم فإنني أرجع غالبًا إلى كتب التفسير بالمأثور، حيث يورد أصحابها أحيانًا تلك النصوص.

ولقد كان أصل هذا الكتاب برنامجًا إذاعيًا بعنوان «مواقف إسلامية»، وقد تمت إذاعته من إذاعة القرآن الكريم بالمملكة العربية السعودية، ثم وسعته كثيراً بما يلائم كتابًا قُصد منه استيعاب ما أمكن من مواقف رسول الله ﷺ وأصحابه.

ولما كانت البرامج تُعرض على مراقبين لإقرار صلاحيتها أو عدم ذلك، فإن أحد المراقبين؛ وهو سعادة الأستاذ هاشم محمد سعيد دفتر دار المدني، قد نوَّر الله تعالى بصيرته، فقارن بين مضمون تلك المواقف وواقع المسلمين المرِّ، فأرسل إليَّ خطاب تأييد وتشجيع، وذلك في السنة الأولى لإذاعة ذلك البرنامج؛ في عام ١٤٠٨هـ، وإنني إذ أثبت خطابه في هذه المقدمة بنصه لاعتزازي به فإنني أشكره على ما قدم من ذلك، وأدعو الله تعالى له بالتوفيق والسداد وجزيل الثواب.

***

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله؛ سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

سعادة الأستاذ الجليل الدكتور عبد العزيز الحميدي، الأستاذ في كلية الدعوة بمكة المكرمة حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد؛

فإني أُراقب الكلمات التي تذاع في المملكة كأبي تُراب، وكعَلَم الدين وسواهم، وبما أنه تُعرض عليَّ كلماتكم الرائعة ذات الأُسلوب السهل الممتنع، والفن الدقيق، والتنسيق الرائع، والقدرة على اختيار الموضوعات ذات القيمة الأدبية والروحية والإنسانية والسلمية..

هذا الاختيار راعني وايْمُ الله، وكم أعدت الكلمات وبكيت كثيرًا؛ لأني أحسُّ بعظمة الإسلام حين أسمعها، وبعظيم التضحيات من سلفنا الصالح رضوان الله عليهم، الذين قَدَّموا لهذا الدين السماوي العظيم، المُنزل من رب العالمين، والذي هو خاتم الأديان السماوية.. قدموا له كل ما يملكون في أنفسهم من فكر وعلم وعاطفة وإيمان واستقامة وتقوى، وكل ما يملكون في أيديهم من ثراء؛ لأنهم عرفوا أن العزة هي عزة الله، وأن العلم هو علم الوحي والحق، وقد ألهمكم الله أن تختاروا أعظم حوادث التاريخ التي أقيمت لها دعوة الإسلام في كل البلاد، ولا ريب أنكم ما دمتم تواصلون الجهاد والسُّهد والسهر والنصَب في بسط هذه الموضوعات القيمة في كتاباتكم؛ فأنتم ستصلون إلى حكم قضاة الإسلام العادل ومسؤولية الدم التي أباحها أعداء الله في هذا الزمان.

أجل يا أستاذ؛ إني أسمع كلماتكم بإصغاء، وأود من صميم قلبي أن يسمعها كل شاب مسلم، بل كل شاب إنساني، لذلك لا أقول: يجب أن تجمع في كتاب باللغة العربية فقط، بل تُجمع وتترجم إلى كل اللغات، وقد أشرت إلى المشرفين على الإذاعة بهذا الموضوع، وذكرت لهم تأثير أمثال هذه الكلمات حين تُتلى في الجامعات على الشبان بلغاتهم وفي النوادي.

لذلك أقدر جهادكم ونضالكم، وأضرع إلى الله تعالى أن يديم عليكم ذلك، وأن ينفع به المسلمين وغير المسلمين في كل البلاد؛ لأني رأيت في أسفاري إلى أستراليا وأوربا كثيراً من الشبان غير المسلمين حزانى لما يرون من هذه العُدد الجهنمية، ومن هذه الأحقاد التي تُذاع في كل مكان، وهذا الاستهتار بحياة الجماعات والأفراد، مما لم يسبق له مثيل في الأرض.

ناهيك يا أستاذ وقد مرت الأمم بنكبات وبأحقاد، وهي بعيدة عن وحْي الله وعن هداه، ولكن لم تمر في عصر من العصور على هذا الذي نشاهده من الدمار ومن الخراب في الأوطان، وهذه الأحقاد التي تُذاع وتدس في كل مكان.

وكان الأجدر بهم وهم في عصر العلم، ولاشيء في الوجود يوحِّد القُلوب، وينسق الأعمال، ويُطهر النيات، ويبيد لوثة الغرائز الوحشية وظلماتها من الأنفس.. مثل العلم، وأقصد بالعلم: العلم المشتمل على الإنسانية، وروح الإيمان، والخير، والبركة، والصعود الحضاري الذي يكشف أسرار عوالم الوجود وعظمة الله عز وجل، ولا أقصد بالعلم الذي ينضح بالإلحاد والفجور والنزوات الصاخبة والبلايا والأحقاد.

لذلك أُحب أمثال موضوعاتكم، لو تهتم بها الكتَبة لدينا، وفي أوربا، وفي العالم الإسلامي، لعل الله ينقذ الإنسانية من بلايا عُددها التي بلغت المدى، ولا يعلم إلا الله ما تكون النهاية.

والنهاية لا تكون بخير إلى خير إلا بالإيمان بالله جل جلاله وبخاتم الوحي الإلهي، وبأمثال كلمات الإسلام العليا التي يستنبطها أمثالكم من تاريخ الإسلام في أدواره الذهبية، وعلى كل حال فالمجال طويل، ولكن أقول هذه الأبيات وإن شاء الله ستصدق عليكم:

رأيتُك أمسِ خيرَ بني لُؤيٍّ ... وأنت اليوم خيرٌ منك أمس

وأنت غداً تزيد الخير ضِعفًا ... كذاك تزيد سادة عبد شمس

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

هاشم محمد سعيد دفتردار المدني

المقدمة

نبذة عن المنهج الأمثل في اعتماد الأخبار:

حينما يتصدى أي كاتب للكتابة عن مضمون النصوص الحديثية والتاريخية فإنه بحاجة أولاً إلى أن يتثبت من صحة نسبة الوقائع والأقوال إلى أصحابها، وسلامتها من الكذب أو الخطأ، ثم يتحدث عنها بعد ذلك بما يتناسب مع موضوعاتها.

وقد سرت في البداية على طريقة دراسة الأسانيد، والحُكم من خلال ذلك على الأحاديث، وهذه هي الطريقة السائدة في هذا العصر، ولكن من خلال عملي في هذا الموضوع وبحوث أخرى، ومن خلال إشرافي على رسائل علمية ومناقشتي رسائل أخرى تشتمل على دراسة الأسانيد.. تبيَّن لي أن هذا العمل كبير جدًّا، ولا يليق بي ولا بأمثالي اقتحام هذا الأمر، وكلما تعمقت في هذا الموضوع تبين لي أنه من اختصاص العلماء الكبار الذين تعمقوا وتوسعوا في هذا العلم؛ حيث إن الحكم على الأحاديث يحتاج مع دراسة الأسانيد إلى إحاطة بالأحاديث المروية في موضوع ذلك الحديث إذا كان في سنده مقال، حتى لا يحكم الباحث عليه بالردِّ مع وجود شواهد له ترفعه إلى القبول.

كما يحتاج الباحث إلى إحاطة بمرويات الرواة الذين جمع العلماء في الحكم عليهم بين الجرح والتعديل؛ مثل الحُكم على الراوي بأنه صدوق يخطئ أو يَهم، أو ثقة له أوهام.. ونحو ذلك؛ لأن الحكم على أحاديث هؤلاء جميعًا بالقبول يتضمن قبول أحاديث أخطؤوا فيها أو وهموا فيها، والحكم عليها جميعًا بالرد يتضمن الحكم بذلك على أحاديث أصابوا فيها.

والذي سار عليه المحققون من العلماء هو دراسة مرويات هؤلاء الرواة، واختيار ما لم يخطئوا فيه وترك ما أخطؤوا فيه.

وفي بيان هذا المنهج يقول الإمام ابن القيم بعدما ذكر ما عيب علي الإمام مسلم في إخراجه حديث مطر الوراق: «ولا عيب على مسلم في إخراج حديثه؛ لأنه ينتقي من أحاديث هذا الضرب ما يعلم أنه حفظه، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط

فيه»، ثم خطَّأ من أخرج جميع حديث الثقة وإن كان فيه غلط، وذكر أن هذه طريقة الحاكم وأمثاله، كما خطَّأ من ضعَّف جميع حديث سيئ الحفظ، وذكر أن هذه طريقة ابن حزم وأمثاله، وصوب طريقة الإمام مسلم، وذكر أنها طريقة أئمة هذا الشأن[1].

أما الباحثون في هذا العصر فمنهم من يسير على منهج ابن حزم في رد أحاديث من اتهموا بالوهم أو الخطأ أو سوء الحفظ، وفي ذلك ضياع لثروة علمية كبيرة.

وهذه الاستدراكات التي يطلقها العلماء النقاد بقولهم: يخطئ، أو يهم، أو له أوهام، لا يعنون بها جرح الراوي؛ ليُرد حديثه، وإنما يصفونه بذلك من باب الاحتياط للدين؛ ليتوقف العلماء الباحثون عند هذه الإشارات، فيبحثوا بعد ذلك في مرويات هؤلاء الرواة؛ فيتقوا رواية ما انتقدوا فيه.

وهؤلاء العلماء الذين يؤلفون الكتب في الجرح والتعديل إنما يؤلفونها للعلماء المتأهلين للحكم على الأحاديث من باب التنبيه إلى مواقع الخلل إجمالاً؛ ليقوم العلماء الباحثون بتكميل مراحل البحث في الحكم على النصوص من خلال ذلك، لا ليحكموا على الرواة، ثم على الأحاديث على ضوء تلك الكلمات الموجزة التي أطلقها أولئك العلماء النقاد.

ومن الباحثين من يتساهل فيقبل أحاديث من اتهموا بالوهم والخطأ مطلقًا من غير بحث ولا نظر في مرويات الرواة، ولا في روايات الرواة الآخرين في الموضوع نفسه، وهذا تفريط كبير، فإن هؤلاء الرواة لم يُتهموا بالخطأ أو الوهم أو الغلط إلا وفي مروياتهم شيء من ذلك.

وقلَّ من يسير على منهج المحققين من أهل هذا الشأن؛ لأن المنهج يحتاج إلى علم واسع وتفرغ طويل لهذا العلم، ولا ينجح في ذلك إلا العلماء الأفذاذ الموهوبون، الذين يدركون الخطأ في الأسانيد بمجرد سماعها؛ لسعة اطلاعهم، ولما منحهم الله تعالى من الحافظة القوية والذكاء النادر، ولهذا لم يشتهر بالنقد من العلماء الذين أمضوا أعمارهم في هذا الفن إلا نوادر في كل عصر، مع أن كثيراً من الرواة قد جعلوا هذا العلم شغلهم الشاغل، ووصلوا فيه إلى حفظ الأسانيد والمتون.

---

(١) زاد المعاد، فصل في هديه ﷺ في سجود القرآن (١/ ٣٦٤).

ومن الأمثلة الجيدة للنقد الصحيح الصادر من هؤلاء العلماء ما ذكر الإمام الذهبي من خبر عباس الدوري: حدثنا يحيى بن معين، قال: حضرتُ نعيم بن حماد بمصر، فجعل يقرأ كتابًا صنفه، فقال: حدثنا ابن المبارك عن ابن عون، وذكر أحاديث، فقلت: ليس ذا عن ابن المبارك، فغضب، وقال: ترد علي؟! قلت: إي والله، أريد زينك، فأبى أن يرجع، فلما رأيته لا يرجع، قلت: لا والله ما سمعت هذه من ابن المبارك، ولا سمعها هو من ابن عون قط! فغضب وغضب من كان عنده، وقام فدخل فأخرج صحائف، فجعل يقول وهي بيده: أين الذين يزعمون أن يحيى بن معين ليس بأمير المؤمنين في الحديث؟! نعم يا أبا زكريا: غلطت، وإنما روى هذه الأحاديث غير ابن المبارك عن ابن عون[1]!

ومن ذلك ما رواه الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: سمعت أبي -رحمه الله- يقول: جاءني رجل من جلة أصحاب الرأي من أهل الفهم منهم[2]، ومعه دفتر، فعرضه عليَّ، فقلت في بعضها: هذا حديث خطأ قد دخل لصاحبه حديث في حديث، وقلت في بعضه: هذا حديث باطل، وقلت في بعضه: هذا حديث منكر، وقلت في بعضه: هذا حديث كذب، وسائر ذلك أحاديث صحاح.

فقال لي: من أين علمت أن هذا خطأ، وأن هذا باطل، وأن هذا كذب؟ أخبرك راوي هذا الكتاب بأني غلطت وأني كذبت في حديث كذا؟!

فقلت: لا، وما أدري هذا الجزء من رواية من هو، غير أني أعلم أن هذا خطأ، وأن هذا الحديث باطل، وأن هذا الحديث كذب.

فقال: تدَّعي الغيب؟ قال: قلت: ما هذا ادعاء الغيب.

قال: فما الدليل على ما تقول؟ قلت: سل عما قلت من يحسن مثل ما أحسن، فإن اتفقنا علمت أنَّا لم نجازف ولم نقُله إلا بفهم.

قال: من هو الذي يحسن مثل ما تحسن؟ قلت: أبو زرعة.

قال: ويقول أبو زرعة مثل ما قلت؟ قلت: نعم.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٩٠).

(٢) أصحاب الرأى مصطلح يطلق فى ذلك الزمن على الفقهاء الذين ليس لهم عناية برواية الحديث.

قال: هذا عجب! فأخذ فكتب في كاغد[1] ألفاظي في تلك الأحاديث، ثم رجع إليَّ وقد كتب ألفاظ ما تكلم به أبو زرعة في تلك الأحاديث، فما قلت: إنه باطل، قال أبو زرعة: هو كذب، قلت: الكذب والباطل واحد، وما قلت: إنه كذب، قال أبو زرعة: هو باطل، وما قلت: إنه منكر، قال: هو منكر كما قلت، وما قلت: إنه صحاح، قال أبو زرعة: صحاح.

فقال: ما أعجب هذا! تتفقان من غير مواطأة فيما بينكما، فقلت: فقد علمتَ من ذلك أنا لم نجازف، وإنما قلناه بعلم ومعرفة قد أوتينا، والدليل على صحة ما نقوله بأن دينارًا مُبهرجًا يحمل إلى الناقد، فيقول: هذا دينار مبهرج، ويقول لدينار: هو جيد، فإن قيل له: من أين قلت: إن هذا مبهرج؟ هل كنت حاضرًا حين بُهرج هذا الدينار؟ قال: لا، فإن قيل له: فأخبرك الرجل الذي بهرجه أني بهرجت هذا الدينار؟ قال: لا، قيل: فمن أين قلت: إن هذا مُبَهرج؟ قال: علمًا رُزقتُ، وكذلك نحن رزقنا معرفة ذلك، قلت: فتحمل فصَّ ياقوت إلى واحد من البصراء من الجوهريين، فيقول: هذا زجاج، ويقول لمثله: هذا ياقوت، فإن قيل له: من أين علمت أن هذا زجاج وأن هذا ياقوت؟ هل حضرت الموضع الذي صُنع فيه هذا الزجاج؟ قال: لا، قيل له: فهل أعلمك الذي صاغه بأنه صاغ هذا زجاجًا؟ قال: لا، قال: فمن أين علمت؟ قال: هذا علم رُزقتُ، وكذلك نحن رزقنا علمًا لا يتهيأ لنا أن نخبرك كيف علمنا بأن هذا الحديث كذب وهذا حديث منكر إلا بما نعرفه.

قال أبو محمد: تعرف جودة الدينار بالقياس إلى غيره، فإن تخلف عنه في الحمرة والصفاء علم أنه مغشوش، ويُعلم جنس الجوهر بالقياس إلى غيره، فإن خالفه في الماء والصلابة علم أنه زجاج، ويقاس صحة الحديث بعدالة ناقليه، وأن يكون كلامًا يصلح أن يكون من كلام النبوة، ويعلم سقمه ونكارته بتفرد من لم تصح عدالته بروايته، والله أعلم[2].

---

(١) يعني في ورق.

(٢) الجرح والتعديل ١/ ٣٤٩ - ٣٥١.

ومما يبين قلة النقاد البارعين في الحكم على الأحاديث حتى في زمن ازدهار هذا العلم ما ذكره ابن أبي حاتم قال: سمعت أبي يقول: جرى بيني وبين أبي زرعة يومًا تمييز الحديث ومعرفته، فجعل يذكر أحاديث ويذكر عللها، وكذلك كنت أذكر أحاديث خطأ وعللها وخطأ الشيوخ، فقال لي: يا أبا حاتم، قلَّ من يفهم هذا، ما أعز هذا! إذا رفعت هذا من واحد واثنين فما أقل من تجد من يحسن هذا! وربما أشك في شيء أو يتخالجني شيء في حديث فإلى أن ألتقي معك لا أجد من يشفيني منه، قال أبي: وكذاك كان أمري[1].

وإذا كان لا يوجد غير اثنين ممن يحسنون الحكم على الأحاديث في ذلك الزمن المزدهر بعلوم الحديث وروايته؛ فكيف بعصرنا الحاضر؟!

ومن ذلك ما رواه أبو محمد المخلدي قال: أخبرنا أبو حامد الأعمش أن إنسانًا قرأ على الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري حديث حجاج بن محمد، عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن سهل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**كفارة المجلس إذا قام العبد أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهدُ أن لا إله إلا أنت، أستغفرُك وأتوب إليك**» فقال له مسلم - يعني: ابن الحجاج-: في الدنيا أحسن من هذا الحديث؛ ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن سهيل بن أبي صالح؟ تعرف بهذا الإسناد في الدنيا حديثًا؟ فقال محمد بن إسماعيل: إلا أنه معلول، فقال له مسلم: لا إله إلا الله، وارتعد، أخبرني به، فقال: استر ما ستر الله، هذا حديث جليل رواه الناس عن حجاج بن محمد، عن ابن جريج، فألحَّ عليه، وقبَّل رأسه، وكاد أن يبكي، فقال: اكتب إن كان ولا بد: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا وهيب، حدثنا موسى بن عقبة، عن عون بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كفارة المجلس إذا قام العبد أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**»، فقال له مسلم: لا يبغضك إلا حاسد، وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك!

وقد جاء في رواية أخرى أن الإمام مسلم جاء إلى الإمام البخاري فقبَّل بين عينيه، وقال: دعني أُقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٥٦.

علله . . ثم ذكر هذا الحديث، وأن الإمام البخاري بيَّن أن علة الإسناد المشهور هي أن موسى بن عقبة لم يُذكر له سماع من سهيل بن أبي صالح[1] .

وهذه براعة من الإمام البخاري في فهم علل الأحاديث؛ حيث إن هذا الفن أصعب فنون علوم الحديث وأشدها غموضًا .

وقد يصل إلى المقصود من ليسوا في مستوى هؤلاء في الذكاء والحفظ، ولكن بعد بذل جهد كبير ووقت طويل في البحث عن مرويات الراوي، وعن المرويات في الموضوع، بينما يكون هذا الجهد والوقت مختصرين أمام العلماء الأفذاذ؛ لسرعة تذكرهم لهذه الموضوعات .

كما أن الحكم على الأحاديث يحتاج إلى معرفة تامة بموضوع العلل؛ لأن من شرط قبول الحديث خلوه من العلل .

فإذا بلغ الباحث مرتبة الأئمة الكبار من أمثال أحمد بن حنبل، والبخاري، وأبي زرعة، وأبي حاتم، والدارقطني؛ الذين كانوا تُعرض عليهم الأحاديث فيبينون ما فيها من علل حال سماعها غالبًا . . فإنه جدير بأن يحكم على الأحاديث بأدنى نظر، وإلا فإنه - مع التوسع في هذا العلم - بحاجة إلى البحث الطويل حتى يصل إلى معرفة سلامة الحديث من العلل، وقد لا يصل إلى ذلك .

ولا يكون العالم متأهلاً للحكم على الأحاديث إلا إذا كان واسع الاطلاع على السنة بمختلف طرقها، وقد كان العلماء قديمًا يبدؤون حياتهم العلمية بالرواية عن العلماء، وكانوا يقطعون آلاف الأميال في رحلاتهم العلمية من أجل رواية أحاديث جديدة، أو الاستزادة من طرق الرواية، فإذا أنهوا هذه المرحلة، أو قاربوا على الانتهاء، واجتمع لدى الواحد منهم عددٌ من الطرق لكل حديث؛ فإنهم يدخلون مرحلة التأهل للحكم على الأحاديث، ومع ذلك فإنه لم يشتهر بالحكم المذكور إلا قليل من العلماء في كل عصر؛ لأنه من الصعب الإحاطة بالطرق المتعددة للحديث الواحد ومعرفة العلل ونحو ذلك مما يلزم للحكم على الأحاديث .

---

(١) مقدمة فتح الباري ٤٨٨ .

أما في هذا العصر فيمكن أن تتم المرحلة الأولى بدراسة كتب السنة دراسة وعي واستيعاب على شيوخ متقنين، بحيث يكون الدارس قادراً على جمع طرق الحديث الذي يريد الحكم عليه والأحاديث الواردة في موضوعه، وفي أثناء هذه الدراسة يدرس مصطلح الحديث على الشيوخ، لا ليحكم على الأحاديث في هذه المرحلة، وإنما ليفهم به تعبيرات العلماء، وليطبقه على كلامهم في كتب السنة.

ومن خلال دراسته كتب السنة واطلاعه على شروحها ستكون عنده معلومات كثيرة عن طرق الروايات، وعن كلام العلماء في الحكم على الأحاديث وعلى الرجال، ولا يمكن أن ينتقل إلى المرحلة الثانية؛ وهي: التأهل للحكم على الأحاديث، إلا بعد الانتهاء من المرحلة الأولى.

لهذا فإنني حرصت على تتبع حكم العلماء المعتبرين في هذا العلم وإثباته مع النصوص التي أوردها، فإذا حكموا على الأثر بما يشعر بقبوله، فإنني أقبله ولو تبين لي ضعف في إسناده، ولا أقبل مخالفة الباحثين المعاصرين للعلماء السابقين المتبحرين في هذا العلم؛ لأن أغلب الباحثين المعاصرين -حسب علمي- لم تتحقق فيهم أهلية الحكم على الأحاديث، فكيف أقبل مخالفتهم لعلماء قد بلغوا الأهلية في ذلك، بل قد بلغ بعضهم القمة في الكفاءة في هذا الشان؟!

ومن مسوغات ذلك أن العالم الخبير قد يحكم على الحديث بالصحة بالنظر لمجموع أسانيده، من غير أن يُصرح بأنه صحيح لغيره، فيأتي من يعارضه فيحكم له بالحسن؛ لأنه نظر إلى سند واحد ولم يستوعب دراسة أسانيد الحديث، وربما حكم العالم على الحديث بالحسن لشواهده، فيأتي من الباحثين المعاصرين من يُضعفه لما ظهر له من دراسة أحد أسانيده، وربما حكم العالم على الحديث بالصحة مع عدم بلوغ رجاله درجة الثقة لكون الرواية من صحيفة، وإذا كانت كذلك فإنه لا يشترط في رواتها أن يبلغوا تمام الضبط، فيأتي من لم يتعمق في العلم فيحكم على الحديث بالحسن أو الضعف.

وقد حدث ذلك مني؛ حيث حكمت قديمًا على روايات صحيفة علي بن أبي طلحة بالضعف؛ لأن فيها عبد الله بن صالح وقد وُصف بأنه كثير الغلط، ومعاوية بن صالح وقد وصف بأنه له أوهام.

فلما تقدمتُ في العلم في مرحلة لاحقة، حكمت على روايات هذه الصحيفة بالحسن؛ لأن الكلام الذي في معاوية بن صالح لا يضر؛ لأنه لم يَهِم في تلك الروايات، ولأن عبد الله بن صالح ثبْت في كتابه، وهذه الروايات من صحيفَة.

ثم وجدت بعد ذلك أن الحافظ ابن حجر حكم على إسناد رواية من هذه الصحيفة بالصحة فتعجبت من ذلك وقلت: كيف يحكم على هذه الصحيفة بالصحة وهو الذي تكلم على رواتها في «التقريب» بالكلام السابق؟!

ثم تبين لي بعد ذلك أن الرواية إذا كانت من صحيفة فإنه لا يشترط في رواتها اتصافهم بتمام الضبط ليحكم عليها بالصحة؛ لأنهم يروون من صحيفة مكتوبة، فإذا وصفوا بالعدالة فإن روايتهم صحيحة، ولو لم يبلغوا تمام الضبط.

فعرفت بهذا وغيره أن هذا العلم يحتاج إلى جهد كبير وزمن طويل قبل أن يصل صاحبه إلى مرتبة الأهلية للحكم على الأحاديث.

وبهذا يتبين لنا أن مخالفة العلماء المتبحرين في هذا العلم لا تليق بالباحثين المبتدئين، ولا تقبل إلا من عالم مماثل لأولئك العلماء في علمهم، أو مقارب لهم على الأقل.

وحينما لا نجد حكمًا للعلماء السابقين الذين يُعتد بحكمهم، فإن الحاجة قائمة لاجتهاد علماء هذا العصر في الحكم على تلك الأحاديث، ولكن ليس هذا من شأن المبتدئين، ولا المتوسطين في هذا العلم، وإنما هو من شأن المنتهين الذين يشهد لهم أهل العلم بالتقدم والتعمق في هذا الشأن، كما هو الحال في علماء العصور السابقة.

إن البحث في الحكم على الأحاديث يمرُّ عادة بمرحلتين:

المرحلة الأولى: الحكم على رجال الإسناد.

والمرحلة الثانية: الحكم على الحديث نفسه.

فإذا صدر الحكم من العلماء على رجال الإسناد فقط، فقد بقي مرحلة من البحث، وينبغي للعلماء المتأهلين للحكم على الأحاديث أن يكملوا هذه المرحلة، وذلك بالبحث أولاً في روايات المتكلم فيهم؛ لمعرفة الحديث المبحوث فيه؛ هل هو مما أُخذ عليهم أم لا، ثم بالبحث ثانيًا في الروايات المروية في هذا الموضوع إن كان الحديث يحتاج إلى تقوية، أما إذا صدر الحكم على الأحاديث نفسها من علماء هذا الشأن فالمنهج الصحيح

أن نقبل حكم هؤلاء العلماء، ما لم نعثر على حكم مخالف لمن هم أعلم منهم، وأن نتفرغ للأعمال العلمية الأخرى التي هي بحاجة إلى بحث.

لكن المُشاهد في هذا العصر أن بعض الباحثين يأتون إلى هذه الأحاديث التي حكم العلماء عليها بالصحة أو بالحسن، أو قبلوها في بابها وانتهى أمر البحث فيها، فيقومون باستئناف المرحلة الأولى من البحث؛ حيث يقومون بالحكم على بعض رجالها ببيان ما قيل فيهم من جرح، ثم إن بعضهم يتوقف عند هذه المرحلة من البحث؛ إما تورُّعًا عن الحكم على متون الأحاديث، أو لغير ذلك من الأسباب، وهؤلاء لم يصنعوا شيئًا سوى التشكيك في قبول نصوص السنة والسيرة، وبعضهم يقوم بالمرحلة الثانية، فيحكم على تلك النصوص بالضعف مع أنه غير مؤهل لهذا الحكم؛ لما سبق بيانه من عدم الإلمام بمرويات الرواة المتكلَّم فيهم، وعدم إحاطته بالنصوص الواردة في الموضوع، وبهذا يكون قد ألغى نصوصًا صالحة مقبولة.

هذا، وقد حاولت أن أسير في ترتيب هذه الموضوعات على التسلسل التاريخي للوقائع؛ ليكون العثور عليها سهلاً لمن أراد ذلك، ولكنني خالفت ذلك في بعض الموضوعات تغليبًا لجانب التناسب الموضوعي، وهذا لا يكون غالبًا في الموضوعات التي اشتهرت بمراحلها التاريخية.

وقد جاءت هذه الموضوعات -بحمد الله تعالى- مشتملة على مواقف متنوعة، فالأجزاء الأولى يغلب عليها جانب الدعوة والعقيدة؛ لكون أحداثها قد جرت في العهد المكي، والأجزاء التي تليها يغلب عليها الجانب الجهادي والإدراي؛ لكون أحداثها قد جرت في العهد المدني وعهد بني أمية.

توثيق الروايات المختارة:

قبل الشروع في بيان هذه المواقف، فإنني أذكر كلمة موجزة عن توثيق الروايات التي بنيت عليها المواقف المذكورة، فأقول: إنني اعتمدت في اختيار هذه الروايات على كتب السيرة والتاريخ المعتمدة عند أهل العلم؛ ومن أبرزها: سيرة الإمام محمد بن إسحاق، عن طريق ابن هشام.

كما اعتمدتُ على كتب السنة؛ حيث يوجد فيها نصوص كثيرة في السيرة، ومن أبرزها مسند الإمام أحمد بن حنبل، وصحيح الإمام البخاري.

وقد قمت بتوثيق هذه الروايات، وذلك ببيان حكم العلماء المعتدِّ بهم في هذا العلم على هذه الروايات، ومن أمثال الحفاظ: ابن كثير، والذهبي، والهيثمي، وابن حجر العسقلاني، أو اعتمادهم لها.

وليُعلَم أن ما كتبته من توثيق الروايات التي أوردتها من رواية كبار المحدِّثين، فليس ذلك لعدم الثقة بهؤلاء الحفاظ الكبار، وإنما هو لتحصيل مزيد من الثقة عند القراء الذين قد يشكُّون في بلوغ تلك الروايات درجة القبول.

منهج العلماء في قبول الأخبار:

حينما اتسعت دائرة الرواية في عهد التابعين ومن بعدهم، أصبح يقبل على الرواية رواة متفاوتون من ناحية الحفظ والعدالة، فظهرت بسبب ذلك الحاجة إلى تمييز الرواة والروايات، وتصدَّى لباب الجرح والتعديل ونقد الروايات عدد من العلماء المتبحرين في علم الحديث ورواية الأخبار، الذين أصبحوا يدركون الخلل في الروايات بمجرد سماعها بأسانيدها المختلفة.

وقد تمخضت حركة النقد هذه عن مناهج مختلفة في معايير الروايات، وذلك بعدما اتفق العلماء على قبول ما بلغ درجة الصحة أو الحسن في جميع الموضوعات التي تعرَّضت لها الروايات، واتفق العلماء المعتبرون في هذا الشأن على رد الروايات الشديدة الضعف، وهي التي قد أتى ضعفها من جانب الطعن في بعض رواتها من حيث العدالة[1].

ولكنهم اختلفوا في جانب قبول الروايات التي جاء الحكم عليها من ناحية اتهام بعض رواتها بالضعف من ناحية الحفظ.

وفي ذلك يقول الإمام البيهقي - رحمه الله - في بيان الأحاديث الضعيفة: فهي أحاديث اتفق أهل العلم بالحديث على ضعف مخرجها، وهذا النوع على ضربين: ضرب رواه من كان معروفًا بوضع الحديث والكذب فيه، فهذا الضرب لا يكون مستعملاً في شيء من أمور الدين إلا على وجه التليين، وضرب لا يكون راويه متهمًا بالوضع غير

(١) وقد ألحق بعض العلماء بذلك من فحش خطؤه وكثرت غفلته.

أنه قد عرف بسوء الحفظ، وكثرة الغلط في رواياته، أو يكون مجهولاً لم يَثْبُت من عدالته وشرائط قبول خبره ما يوجب القبول.

فهذا الضرب من الأحاديث لا يكون مستعملاً في الأحكام، كما لا تكون شهادةُ منْ هذه صفته مقبولة عند الحكام، وقد يستعمل في الدعوات والترغيب والترهيب، والتفسير، والمغازي، فيما لا يتعلق به حكم.

ثم ذكر بإسناده عن عبد الرحمن بن مهدي أنه قال: إذا روينا في الثواب والعقاب وفضائل الأعمال تساهلنا في الأسانيد، وتسامحنا في الرجال، وإذا روينا في الحلال والحرام والأحكام تشددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال.

وروى بإسناده عن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن محمد بن إسحاق، فقال: وأما محمد بن إسحاق فهو رجل تكتب عنه هذه الأحاديث - كأنه يعني المغازي ونحوها - فأما إذا جاء الحلال والحرام أردنا قومًا هكذا، وقبض أصابع يده الأربع من كل يد ولم يضم الإبهام[1]!

منهج العلماء في تدوين السيرة:

لقد كان للعلماء في تدوين السيرة مناهج متعددة؛ ولهذا كانت الكتب التي عرضت السيرة النبوية على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الكتب التي اقتصر أصحابها على ما بلغ درجة الصحة حسب معايير المحدثين، ومن ذلك ما تضمنته كتب السنة التي التزم أصحابها بإخراج الصحيح فقط، وعلى رأس هذه الكتب صحيحا الإمامين البخاري ومسلم.

النوع الثاني: الكتب التي التزم أصحابها بإخراج ما كان صالحًا في هذا الباب، وذلك يشمل: الصحيح والحسن والصالح للاعتبار، ومن ذلك كتب السنة التي لم يلتزم أصحابها بإخراج الصحيح وحده، وعلى هذا النحو أكثر كتب السنة المعتبرة؛ مثل: كتب السنن الأربع، ومسند الإمام أحمد، ومن أبرز ما يدخل في هذا الباب كتب السيرة المعتمدة، وعلى رأسها: سيرة ابن إسحاق، بالنسبة لكتب المتقدمين.

(١) دلائل النبوة ١/ ٣٣ - ٣٨، وانظر فتح المغيث ١/ ٢٦٧.

وقد جاءت بعد ذلك كتب مختارة دوَّنها أصحابها بالأسانيد، وعلى رأس هذه الكتب: «دلائل النبوة»، للبيهقي، وفي هذا المنهج الذي يدل على اختيار ما هو مقبول في هذا الباب، يقول الإمام البيهقي: «ويُعلم أن كل حديث أوردته فيه قد أردفته بما يشير إلى صحته، أو تركته مُبْهمًا وهو مقبول في مثل ما أخرجته، وما عسى أوردته بإسناد فيه ضعف أشرت إلى ضعفه، وجعلت الاعتماد على غيره.

وقد صنف جماعة من المتأخرين في المعجزات وغيرها كُتبًا، وأوردوا فيها أخبارًا كثيرة من غير تمييز منهم صحيحها من سقيمها، ولا مشهورها من غريبها، ولا مرويها[1] من موضوعها، حتى أنزلها من حسنت نيته في قبول الأخبار منزلة واحدة في القبول، وأنزلها من ساءت عقيدته في قبولها منزلة واحدة في الرد.

قال: وعادتي في كتبي المصنفة في الأصول والفروع الاقتصار من الأخبار على ما يصح منها دون ما لا يصح، أو التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح؛ ليكون الناظر فيها من أهل السنة على بصيرة مما يقع الاعتماد عليه، ولا يجد من زاغ قلبه من أهل البدع عن قبول الأخبار مغمزًا فيما اعتمد عليه أهل السنة من الآثار.

ومن أَنْعَمَ النظر في اجتهاد أهل الحفظ في معرفة أحوال الرواة، وما يقبل من الأخبار وما يرد؛ علم أنهم لم يألوا جهدًا في ذلك، حتى إذا كان الابن يقدح في أبيه إذا عثر منه على ما يوجب رد خبره، والأب في ولده، والأخ في أخيه، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا تمنعه في ذلك شجْنةُ رحم ولا صلة مال! والحكايات عنهم في ذلك كثيرة، وهي في كتبي المصنفة في ذلك مكتوبة.

ومن وقف على تمييزي في كتبي بين صحيح الأخبار وسقيمها، وساعده التوفيق؛ علم صدقي فيما ذكرته.

ومن لم يُنْعم النظر في ذلك ولم يساعده التوفيق، فلا يغنيه شرحي لذلك، وإن أكثرت، ولا إيضاحي له، وإن بلغت، كما قال الله عز وجل: ﴿**وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يونس: ١٠١][2].

---

(١) هذا فيه تجوُّز في التعبير لأن الحديث الموضوع من جملة المروي، ومن الشياق يفهم أن المراد ما له أصل ثابت وإن كان ضعيفًا.

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ١/ ٤٧.

وقد بين في موضع آخر أنه قد يورد ما لم يسغ قبوله لكونه يوضح ما سبق من الروايات المقبولة، حيث قال: «على نحو ما شرطته في مصنفاتي، من الاكتفاء بالصحيح من السقيم، والاجتزاء بالمعروف من الغريب، إلا فيما لا يتضح المراد من الصحيح أو المعروف دونه؛ فأورده، والاعتماد على جملة ما تقدمه من الصحيح أو المعروف عند أهل المغازي والتواريخ»[1].

النوع الثالث: الكتب التي اعتمد أصحابها على مجرد الرواية، وجمْع مروياتهم، وذكْر إسنادهم في ذلك؛ ليكون محل دراسة للعلماء.

وقد جاء في مقدمة تاريخ الطبري ما يُشعر بأنه قد سار في كتابه على هذا المنهج، وذلك في قوله: «فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه؛ من أجل أنه لم يعرف له وجهًا من الصحة، ولا معنى في الحقيقة.. فلْيعلم أنه لم يُؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتي من قِبل بعض ناقليه إلينا، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدِّي إلينا»[2].

وبما أنه قد صدَّر كتابه بما يشعر بعدم قيامه بانتقاء الروايات المقبولة، فإنه ينبغي عرض مروياته على روايات المحققين القدامى؛ كابن هشام، وعلى اختيارات الحفَّاظ المتأخرين؛ كابن كثير والذهبي، ونظراً لاحتمال كون الطبري لا يتقيد باختيار الروايات المقبولة فإنني لم أذكر عنه شيئًا مما يتعلق بالسيرة النبوية إلا على سبيل الاستشهاد.

وبعد أن تم تدوين السيرة في كتبها القديمة التي وصلت إلينا برواية أصحابها قام بعض العلماء في مختلف العصور بتدوين كتب في السيرة اختاروها من كتب السيرة والسنة، وكان منهجهم يقوم على إيراد الأخبار كاملة من كتب السيرة مع الإشارة إلى روايات كتب السنة، وأحيانًا يقدِّمون روايات كتب السنة إذا كانت كاملة، مع بيان الخبر، ويشيرون إلى روايات أهل السيرة.

ومن أبرز هذه الكتب: «عيون الأثر» لابن سيد الناس، «البداية والنهاية» لابن كثير، «تاريخ الإسلام» للذهبي.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٦٩.

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٨.

(٣) عيون الأثر ١/ ٧.

يقول الحافظ أبو الفتح ابن سيد الناس: وعمدتنا فيما نورده من ذلك على محمد بن إسحاق؛ إذ هو العمدة في هذا الباب لنا ولغيرنا، غير أني قد أجد الخبر عنده مرسلاً وهو عند غيره مسندًا، فأذكره من حيث هو مسند؛ ترجيحًا لمحل الإسناد[٣].

منهج الباحثين في العصر الحاضر:

لقد كان اهتمام الباحثين في بداية هذا العصر متجهًا نحو تلخيص أحداث السيرة وعرضها بأسلوب سهل، مع حذف أسانيدها وحذف المكرَّر منها، وكان لتلك الطريقة فوائدها الملموسة في تقريب السيرة إلى أذهان القراء، وخاصة المبتدئين.

ثم كان اتجاه المؤلفين في السيرة بعد ذلك إلى استنباط العبر والفوائد من النصوص، وبيان المواقف الدعوية من خلال أحداث السيرة، فقد كان اهتمام هؤلاء المؤلفين مُوجهًا إلى المقاصد المهمة من السيرة، وتوجيه الاستفادة منها في مجال الدعوة الإسلامية، ومحاولة علاج مظاهر النقص في تطبيق الإسلام في هذا العصر؛ من خلال عرض النماذج العالية لهذا التطبيق في العهد النبوي.

ولكن مما يؤخذ على بعض المؤلفين في هذين الاتجاهين أنهم سردوا أحداث السيرة مع إغفال ذكر المراجع، فأصبحت هذه الكتب تفقد سند توثيقها.

وهذا المنهج إضافة إلى كونه مخالفًا لمنهج السلف في الرواية والتدوين، فإنه يفقد الثقة بهذه النصوص، ويجعل القراء لا يطمئنون إلى ثبوت تلك الأخبار؛ لاحتمال أَنه قد اختلط فيها المقبول والمردود.

وبالتالي فإن ما بني عليها من الفوائد والعبر لا ينتج الثمرات المرجوة من أخذ العبرة والموعظة؛ لقيام الشك في النفوس في تلك الأخبار التي بنيت عليها تلك النتائج.

وإذا عرفنا أن الميزة الكبرى لتلك المؤلفات هى ما قام به أصحابها من تلخيص السيرة لتقريبها إلي الأأذهان أو استنباط الفوائد والعبر فإن هذين المقصدين لن تتحقق الفائدة منهما إلا إذا قام الباحثون بتوثيق النصوص التى بنيت عليها تلك النتائج.

ثم كان اتجاه بعض الباحثين في السيرة إلى دراسة الأسانيد، واستخراج النصوص الصحيحة، حيث ألفوا كتبًا في السيرة اقتصروا فيها على ما بلغ درجة الصحة.

وهذا المنهج له فائدته الكبرى في معرفة النصوص الصحيحة التي يمكن أن تؤخذ منها العقائد والأحكام ونحوها؛ حيث إن هذه المجالات هي التي يشترط أن يكون الحديث فيها صحيحًا أو حسنًا.

ولكن المنهج الذي سار عليه هؤلاء المؤلفون لم يحدَّد فيه هذا المقصد بوضوح، وربما كان هناك إشارات خفيفة إليه في بعض المقدمات،

ولكن الذي يفهمه غالب القراء أن هذه الكتب هي كتب السيرة المعتمدة، وأن كتب السيرة القديمة قد اختلط فيها الصحيح والضعيف، فلا يعتمد عليها.

وحينما نأخذ هذه الكتب المعاصرة التي اقتصرت على ذكر النصوص الصحيحة على أنها كتب في السيرة فإنه سيحصل بذلك نقص وفجوات في عرض الأحداث؛ لأن القصة قد تأتي بعدة أخبار يكون بعضها صحيحًا وبعضها دون ذلك، فإذا اقتصرنا على الصحيح منها حصل انقطاع في بعض مراحل القصة، أو حصل طمس لها بالكامل ما عدا الإشارة إلى خبر يعتبر من نتائج القصة أو من ملابساتها.

ومن أمثلة ذلك خبر حصار الشِّعب؛ حيث اكتفى بعض مؤلفي السيرة الصحيحة بذكر حديث للإمام البخاري جاء فيه ذكر نزول رسول الله ﷺ في المحصَّب، وأنه المكان الذي تقاسم فيه الكفار على الكفر؛ يعني: يوم أن قاطعوا بني هاشم ومن كان معهم، فهل هذا الخبر القصير يفيد شيئًا عن حصار الشعب الذي فصله أهل السيرة واستنتج منه العلماء الفوائد والعبر العظيمة؟!

وكذلك خبر خروج النبي ﷺ لدعوة أهل الطائف، قد اقتصر بعض من ألفوا في السيرة الصحيحة على إيراد حديث الإمام البخاري، الذي فيه بيان أن أشد ما مرَّ على النبي ﷺ من الأذى ما لقيه من أهل الطائف، فهل يسوغ لمؤلف أن يعقد فصلاً عن خروج النبي ﷺ إلى الطائف ثم لا يذكر إلا هذا الحديث؟!

إن هذه المؤلفات لا تصلح أن تكون كتبًا في السيرة، خاصة إذا توقعنا أنه قد يستغني بها طلاب العلم عن الرجوع إلى كتب السيرة القديمة؛ لأن وصف هذه الكتب المعاصرة بالصحة يقتضي الدعوة إلى الإعراض عما لم يُدون في هذه الكتب الصحيحة.

لقد سار بعض مصنفي كتب السنة الأوائل على اختيار الأحاديث الصحيحة في السيرة وما يقرب منها، وأدخلوها في كتبهم في مناسباتها، وهذا عمل لا غبار عليه؛

لأنهم لم يؤلفوا كتبًا في السيرة، وإنما ألفوا كتبًا في السنة، واختاروا من السيرة ما يصل إلى مستوى اختيارهم في السنة من درجة الصحة، أما تأليف كتب في السيرة تختص بما يصل إلى درجة الصحة فليس من منهج العلماء المتقدمين فيما أعلم.

وعلماء السنة الذين دونوا السيرة في كتبهم لم يقصدوا استيعاب أحداث السيرة كلها، ولا تأليفها على ترتيبها الزمني في الغالب، وإنما قصدوا اختيار بعض الأخبار التي بلغتهم على حسب منهجهم في تصنيف الكتب في السنة.

وكان الأولى بهؤلاء الباحثين الذين توجهوا إلى جمع نصوص السيرة الصحيحة أن يختار الواحد منهم كتابًا من كتب السيرة المشهورة، وأن يعلق عليه ببيان الأخبار الصحيحة التي ورد أكثرها في كتب السنة؛ حتى نحافظ على تسلسل الأخبار وتكاملها، مع معرفة ما بلغ منها درجة الصحة لمن أراد ذلك.

هذا وإن أسوأ ما في هذا المنهج أن يأتي الباحث فيستخرج ما في كتاب معين من الأحاديث والأخبار التي يراها صحيحة فيفردها في كتاب، من غير نظر إلى منهج المؤلف الذي سار عليه في قبول الأخبار.

فإذا أخذنا كتاب: «دلائل النبوة» للإمام البيهقي مثلاً، فإننا نعرف أن منهجه: أنه يُورد في كتابه الأخبار الصحيحة ويشير إلى صحتها، ويورد الأخبار المقبولة في مثل هذا الموضوع الذي ألف الكتاب لبيانه، وأنه إذا أورد خبرًا ضعيفًا بيَّن ضعفه واعتمد على غيره، كما بيَّن أنه قد يورد ما لا يقبل بعد إيراد المقبول؛ لكون المقبول لا يتضح المراد منه إلا بإيراد ذلك الخبر؛ فيورده للبيان ويكون الاعتماد على ما تقدمه من أخبار مقبولة.

وهذا لا يعني خلو الكتاب من وجود نصوص لا ينطبق عليها شرط المؤلف، فإن كثيرًا من الكتب لا تخلو من ذلك، والعلماء من أهل هذا الشأن يقومون عادة ببيان الأحاديث الشديدة الضعف مع الالتزام بمنهج المؤلف.

أما ما يفعله بعض الباحثين المعاصرين من الهجوم على كتب العلماء المحقِّقين، من غير نظر إلى منهجهم الذي ساروا عليهم، والقيام باختصار كتبهم، وذلك بالاقتصار على ذكر الأحاديث الصحيحة، وحذف كل خبر ينزل عن ذلك.. فإنه يعتبر جناية على أولئك العلماء، والذي يفعل ذلك يكون قد اقتنع بمنهج النقاد المتشددين؛ وهو عدم قبول ما نزل عن درجة الحسن مطلقًا، بينما قد يكون المؤلف يرى قبول الأخبار

الصالحة للاعتبار في مجال السيرة والدلائل ونحوها، وبهذا يكون المختصر قد ألزم المؤلف بمنهج لا يراه.

نعم لو جاء من يستدرك على الكتب التي عنونها أصحابها بالصحة؛ كصحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان، فيستخرج منها ما يراه صحيحًا، فإن هذا العلم مقبول؛ لأن من قام بهذا العمل يكون قد استدرك على المؤلف على حسب منهجه الذي التزم به ولم يحافظ عليه، مع أن المنهج السليم هو الإبقاء على كتاب المؤلف كما هو، مع التعليق عليه، هذا هو منهج علماء السلف رحمهم الله تعالى؛ فإنهم كانوا يحترمون كتب العلماء السابقين، وإن خالفوهم في الرأي والاجتهاد، ومن أمثلة ذلك ما قام به الإمام الذهبي من اختصار مستدرك الحاكم، فإنه لم يقتصر على ذكر الأحاديث التي يراها صحيحة ويلغي ما عدا ذلك، بل أثبت الكتاب كله حتى ما يراه منه موضوعًا، مع بيان رأيه في الحكم على الأحاديث التي أوردها!

إن الذي كان يقوم به العلماء قديمًا من أنواع الاختصار يتضمن فائدة لطلاب العلم من غير أن يترتب على عملهم تشويه للكتاب الأصلي، وذلك مثل ما يقومون به من حذف الأسانيد، أو حذف الأخبار المكررة، أو الجمع بين الأمرين، أو الاقتصار على ما ذكر المؤلف مما لا يوجد في الكتب المشهورة.. ونحو ذلك، من باب تسهيل المعرفة على طلاب العلم.

أما الاقتصار على ذكر بعض أخبار الكتاب ووصفها بالصحة؛ فإن ذلك يعتبر طعنًا في بقية الكتاب، إلا إذا كان ما تُرك غير مقبول حتى على منهج المؤلف نفسه.

إن العلماء السابقين المتبحرين في هذا العلم من أمثال الإمام البيهقي كانوا أقدر على استخراج الأخبار الصحيحة وإفرادها في كتاب من علماء هذا العصر وباحثيه، ولكن كان منهجهم: قبول ما كان صالحًا للاعتبار في المجالات التي حددوها، ومنها السيرة، ودلائل النبوة؛ لما يترتب على ذلك من فوائد عظيمة في مجال الدعوة والقدوة الحسنة، وفي مجال الأخلاق والسياسة والإدارة والحرب وغير ذلك، وعلى هذا المنهج سار من جاء بعدهم من العلماء الكبار؛ كالذهبي، وابن كثير، وابن حجر العسقلاني.

ولا أدري كيف يسوغ لباحث أن يلغي هذه الأخبار مع ترتب هذه الفوائد العظيمة عليها وعدم تعارضها مع أصول الإسلام وقواعده وأحكامه الثابتة؟!

الآثار السلبية لهذا المنهج:

إن هذا المنهج يقوم على اختيار النصوص الصحيحة من السيرة، وجمعها في كتب، وعرضها على أنها هي السيرة المعتمدة، بالرغم من نتيجته الإيجابية فيما يتعلق بكونه من روافد السنة التي تثبت بها العقائد والأحكام فإن له نتائج سلبية خطيرة؛ منها: أنه يعتبر اختزالاً للسيرة، وتضييعًا لثروة علمية كبرى كانت ولا تزال المصدر الثالث بعد الكتاب والسنة في الدعوة إلى الإسلام، وتقويم السلوك، وعمارة الأرض على مقتضى شريعة الله تعالى.

إن النبي ﷺ قد أذن لنا بالتحديث عن بني إسرائيل؛ حيث يقول: «**حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**» رواه الإمام البخاري[1].

وإذا كان لا حرج من التحديث عن بني إسرائيل لأخذ العبرة والموعظة، مع أن أخبارهم خالية تمامًا من الإسناد؛ فكيف بأخبار المسلمين المروية غالبًا بالسند، وإن كان بعضها لا يصل إلى درجة الصحيح أو الحسن؟!

لا شك أن الاستفادة من هذه الروايات الإسلامية في مجال الوعظ وتقويم الأخلاق، وأخذ الخبرة في مجال الحرب والإدارة؛ من أهم الأمور التي يقوم عليها بناء الأمة وربطها بماضيها المشرق الذي تفاخر به الأمم.

ومن آثار هذا المنهج السلبية: أن بعض طلاب العلم أصبحوا لا يقبلون روايات السيرة التي لم يُدخلها هؤلاء المؤلفون المعاصرون في كتبهم التي اختاروا مادتها ووصفوها بالصحة، ومن أمثلة ذلك أنني كنت يومًا أتحدث عن العبر والفوائد التربوية في خبر خروج النبي ﷺ إلى الطائف ودعوة أهلها، فقال لي أحد الحاضرين: أثبت أولاً هذا الخبر، ثم بين ما فيه من الفوائد، فقلت له: ألا يكفي أن ابن إسحاق الإمام الكبير في السيرة قد أخرجه، وأثبته ابن هشام في تهذيبه لسيرته؟! فقال: لا.. إن روايات ابن إسحاق غير صحيحة!

ومن آثار ذلك حتى على المؤلفين في السيرة: أن أحدهم ذكر رواية الإمام البخاري في قول النبي ﷺ عن أسرى بدر: «**لو كان المُطعم بن عديٍّ حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء**

(١) صحيح البخارى - كتاب أحاديث الأنبياء رقم [٣٤٦١] الفتح ٦/ ٤٩٦.

النَّتنى؛ لتـركتُـهم له»، فاستـشـهـد بذلك على أن لخـروج النبي ﷺ إلى الطائف أصلاً؛ وذلك لما جاء في خبر الخروج إلى الطائف من أن المطعم قد أجار النبي ﷺ يوم أن أراد دخول مكة.

فهل خبر خروج النبي ﷺ إلى الطائف لا يثبت إلا بمثل هذا الخبر القصير الذي لا تفهم علاقته بهذا الخروج إلا بعد معرفة تفاصيل رحلة الطائف؟ وهل فقدنا الثقة بخبر ابن إسحاق المفصَّل حتى نحتاج إلى تدعيمه بهذه الرواية التي لا تدخل ضمن أخبار رحلة الطائف؟!

ومن الآثار السلبيـة لهـذا المنهـج: أن بعض البـاحـثين يحكم على بعض النصـوص بالضعف، ثم يتبع ذلك بالكتابة عن العبر والفوائد التي يحتوي عليها النص، وفي هذا نوع من التناقض؛ لأنه ما دام قد حكم على النص بالضعف فإنه قد ألغاه من التاريخ؛ لأن الحكم على النص بالضـعف يدفع القـارئ إلى عدم الثقـة به، وصرف النظر عنه، وعن التعليق عليه.

وهؤلاء الباحثون يكونون قد تأثروا بروعة النصوص، فأحبوا أن يسهموا في إبداء مشاعرهم نحو عظمة مضامينها، ولكنهم تأثروا بالمنهج السائد الذي أصبح رائجًا في هذا العـصـر؛ وهو أن لا يثق البـاحث بأي نص كـان إلا بعـد بحث إسناده، وإن كـان مصدره قد بلغ آفاق الشهرة في العظمة والإتقان، وأقره عظماء المؤلفين من أساطين العلم، ما عدا ما اتفق علماء الأمة على استثنائه، وهو ما أخرجه الإمام البخاري أو مسلم - رحمهما الله - في صحيحيهما.

المشكلة والحل:

تبين لنا من هذا العرض أن هناك مشكلة في أخبار السيرة والتاريخ؛ وهي أن بعض الأخبار في هذا الموضوع لا تصل إلى درجة القبول عند بعض المحدثين، حيث لا يبلغ إسنادها درجة الصحيح أو الحسن.

وهذه الأخبار منها ما هو صالح للاعتبار؛ وهي أحاديث من اتهموا في حفظهم ولم يتهموا في عدالتهم ولم يصلوا إلى حد الفحش في الغلط، ومنها ما هو مردود؛ وهي أحاديث من اتهموا في عدالتهم أو فحش غلطهم، فأما هؤلاء فقد اتفق العلماء على رد أحاديثهم وعدم الاعتبار بها.

وأما الأحاديث الصالحة للاعتبار، فللعلماء أمامها موقفان:

الموقف الأول: موقف المعتدلين، وهم العلماء الذين فرَّقوا بين الموضوعات التي اشتملت عليها النصوص، حيث اشترطوا بلوغ النص درجة الحسن أو الصحة فيما إذا كان في العقائد أو الأحكام، وتساهلوا في موضوعات أخرى، منها: السيرة، والرقائق، وفضائل الأعمال، فقبلوا النصوص الصالحة للاعتبار؛ وهي التي لم تبلغ درجة الحسن لكون بعض رواتها وُصفوا بالضعف من قبل حفظهم، إذا لم يكن في متنها نكارة، وإن لم يكن لها شواهد ترفعها إلى درجة الحسن، واعتبروها من قبيل الحديث الصالح للعمل في المجالات المذكورة، بينما توقفوا عن العمل بالأحاديث الصالحة للاعتبار في مجال الأحكام، حتى يجدوا لها ما يرفعها إلى درجة الحسن.

هذا هو الذي عبر عنه الحافظ عبد الرحمن بن مهدي بقوله السابق الذكر: «إذا روينا في الثواب والعقاب وفضائل الأعمال تساهلنا في الأسانيد، وتسامحنا في الرجال، وإذا روينا في الحلال والحرام والأحكام تشدَّدنا في الأسانيد، وانتقدنا الرجال».

فهذا يعني أن الصالح للاعتبار صالح للعمل في هذه المجالات، بينما لا يكون كذلك في الأحكام، بل لا بد له من شواهد ترفعه إلى درجة الحسن.

ولا يمكن أن يحمل تسامح هؤلاء العلماء وتساهلهم على قبول الأحاديث التي بلغت درجة الحسن في هذه المجالات؛ لأن الحديث الحسن مقبول حتى في الأحكام باتفاق العلماء، فلا بد أن يُحمل كلامهم على قبول ما دون الحسن في تلك الأمور وهو الصالح للاعتبار.

وكذلك لا يمكن حمل كلامهم على التسامح في الرواية مع اعتبار تلك الأحاديث غير صالحة للعمل إلا إذا جاء ما يرفعها إلى درجة الحسن؛ لأن هذا الأمر وارد حتى في أحاديث الأحكام، فكونهم يتشددون فيما يتعلق بالأحكام دليل على أنهم لم يريدوا مجرد تدوين الأحاديث بما في ذلك الصالح للاعتبار حتى يوجد ما يقويه، وإنما أرادوا اختيار الأحاديث المقبولة الصالحة للعمل.

أما الموقف الثاني: فهو موقف المتشددين في النقد، وهم الذين لا ينظرون إلى موضوع النص، وإنما ينظرون إلى الإسناد، فيردون جميع الأحاديث الضعيفة ما لم يرد ما يسندها ويرفعها إلى درجة الحسن.

ولا شك أن مـذهب جـمـهـور العلمـاء هو الراجح، وهـو الذي عليـه عـمل أغلب العلماء الذين دونوا السنة والسيرة.

بل إن بعض كـبـار العلمـاء كـانوا يـحكمـون على بعض كـبـار المؤرخين بالإمـامـة في التاريخ كما ذكر الحافظ ابن سيد الناس والحافظ ابن حجر عن الإمام ابن إسحاق، مع أنه لم يتجاوز مرتبة الصدق في الحديث عند بعضهم[1]، وكما ذكر الحافظ الذهبي عن الواقدي بأنه إمام المؤرخين، مع أن المحدِّثين حكموا عليه بأنه متروك[2].

وهذا دليل واضح على أن العلماء يُفرقون بين معايير النقد في الحديث ومعاييره في التاريخ.

بل أبلغ من ذلك أن من الرواة من حكم له النقاد بالإمامة في القراءة مع الحكم عليه بالترك في الحديث، وهو حفص بن سليمان القارئ؛ راوي القراءة عن عاصم! حيث قال عنه الحافظ ابن حجر: متروك الحديث مع إمامته في القراءة[3].

وأساس ذلك أن من الرواة من يوجه اهتمامه الأكبر لفن من الفنون فيتقنه إتقانًا تامًا، بينما يعطي الفن الآخر بعض اهتمامه فلا يبلغ فيه حد الإتقان.

وهكذا كان المؤرخون الأوائل الأكابر أمثال ابن إسحاق والواقدي، حيث شهد لهم معاصروهم بالإجادة والإتقان في السير والمغازي؛ لكونهم وجَّهوا اهتمامهم الأكبر لهذا الباب، حتى إن بعضهم كالواقدي كان يذهب إلى مواطن الغزوات، فيسأل أهل البادية عن تلك الأماكن؛ ليطبق ما جاء في الروايات على ذلك.

ويأتي هنا تساؤل مهم، وهو: هل نحكم على هذه النصوص بالضعف، ثم نقبلها ونستفيد منها؟ أم نقبلها من غير حكم عليها بذلك؟

فالذي سار عليه جمهور العلماء الذين دونوا السيرة هو قبول تلك الروايات الصالحة للاعتبار من غير حكم عليها بالضعف، واعتبارها صالحة للعمل بها، وهو رأي جمهور علماء الحديث، كما سبق.

---

(١) تقريب التهذيب ٢/ ١٤٤، عيون الأثر ١/ ٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤١.

(٣) تقريب التهذيب ١/ ١٨٦.

وبعض العلماء المعاصرين يرون قبولها تاريخيًا مع الحكم عليها بالضعف، والذي ذهب إليه جمهور العلماء هو الراجح؛ لأن الحكم على هذه الأخبار بالضعف يفقد الثقة بها، ولا يجعل النفوس تنشط للاتعاظ بها والاستفادة منها؛ ولأن هذا هو الموافق لمنهج السلف، وهم جمهور العلماء كما سبق.

ومما ينبغي أن يتنبه له الباحثون في التاريخ أن يستبعدوا جميع الأخبار التي تشتمل على طعن في الصحابة رضي الله عنهم لأن ذلك يتنافى مع عدالتهم التي ثبتت في نصوص كثيرة صحيحة، وأن يقبلوا ما يشتمل على بيان فضائلهم إذا ورد من طريق صالح للعمل ولم يكن في متنه نكارة.

إن الذين يردون أخبار فضائل الصحابة لأن أسانيدها لم تصل إلى درجة الحسن يسيئون إليهم؛ لأنهم يُغطُّون على فضائلهم التي لا مثيل لها في الجملة في جيل آخر.

وأخيراً فإن ما ينبغي التنبه له أن يتحلى طلاب العلم بالورع، وألا يسارعوا إلى الحكم على الروايات بمجرد النظر إلى أسانيدها، فإن ذلك قد يكون فيه هدم للتاريخ، وإقامة لبناء مهلهل لا يقوم على أسس ثابتة، وأن يكتفوا بحكم العلماء السابقين المتبحرين في هذا العلم فيما حكموا عليه، أو أقروه في كتبهم على سبيل الاختيار، وأن يقتصر أمر الحكم من خلال دراسة الأسانيد على النوادر من العلماء الكبار في هذا الفن الذين أمضوا فيه عمراً طويلاً، وشهد لهم العلماء بالفهم وسعة الاطلاع.

ابن إسحاق الإمام في السيرة:

حيث إن ابن إسحاق هو أشهر من ألف في السيرة، واعتمد العلماء على سيرته[1]، وحيث إنني أوردت من رواياته في هذا الكتاب كثيراً؛ فإنني سأذكر له ترجمة موجزة أبين فيها مكانته العلمية، وخاصة في السيرة.

فهو محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار المدني، نزيل العراق، مولى قيس بن مخرمة ابن عبد المطلب بن عبد مناف[2].

---

(١) المبتدأ والمبعث والمغازي.

(٢) عيون الأثر ١/ ٨، وتقريب التهذيب ٢/ ١٤٤.

ثناء العلماء عليه وتعديله:

قال الزهري: لا يزال بالمدينة علم ما بقي هذا؛ يعني ابن إسحاق!

وقال شعبة: محمد بن إسحاق أمير المحدثين، قيل له: لم؟ قال: لحفظه.

وسئل أبو زرعة عنه؛ فقال: من تكلم في محمد بن إسحاق؟! هو صدوق.

وقال ابن المديني: مدار حديث رسول الله ﷺ على ستة.. فذكرهم، ثم قال: وصار علم الستة عند اثني عشر؛ أحدهم ابن إسحاق.

وسئل ابن شهاب الزهري عن المغازي، فقال: هذا أعلم الناس بها؛ يعني ابن إسحاق!

وقال الشافعي: من أراد أن يتبحر في المغازي فهو عيال على ابن إسحاق.

وقال أبو معاوية: كان ابن إسحاق من أحفظ الناس، فكان إذا كان عند الرجل خمسة أحاديث أو أكثر جاء فاستودعها محمد بن إسحاق، فقال: احفظها عليَّ، فإن نسيتُها كنت قد حفظتها عليَّ!

وقال أبو زرعة؛ عبد الرحمن بن عمرو النصري الدمشقي: محمد بن إسحاق قد أجمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ عنه، منهم سفيان -يعني الثوري- وشعبة، وابن عيينة، والحمَّادان، وابن المبارك، وإبراهيم بن سعد، وروى عنه من الأكابر: يزيد ابن أبي حبيب، وقد اختبره أهل الحديث فرأوا صدقًا وخيراً مع مدحة ابن شهاب له.

وقال البخاري: ينبغي أن يكون له ألف حديث ينفرد بها لا يشاركه فيها أحد!

وقال ابن معين: محمد بن إسحاق ثقة، وليس بحجة.

وقال يعقوب بن شيبة: سألت ابن معين عنه؛ فقلت: في نفسك من صدقه شيء؟ قال: لا، هو صدوق.

وقال العجلي عن ابن إسحاق: مدني ثقة.

وقال ابن عدي: ولمحمد بن إسحاق حديث كثير، قد روى عنه أئمة الناس، ولو لم يكن له من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء إلى الاشتغال

بمغازي رسول الله ﷺ ومبعثه، ومبدأ الخلق؛ لكانت هذه فضيلة سبق إليها، وقد صنفها بعده قوم فلم يبلغوا مبلغه، وقد فتشت أحاديثه الكثيرة فلم أجد فيها ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعف، وربما أخطأ أو يهم في الشيء بعد الشيء كما يخطئ غيره، وهو لا بأس به.

وقال ابن حبان: ولم يكن أحد بالمدينة يقارب ابن إسحاق في علمه، ولا يوازيه في جمعه، وهو من أحسن الناس سياقًا للأخبار.. إلى أن قال: وكان يكتب عمن فوقه، ومثله، ودونه، فلو كان ممن يستحل الكذب لم يحتج إلى النزول، فهذا يدلك على صدقه[1].

مع هذا الثناء الكثير على ابن إسحاق فقد اتُّهم باتهامات لا تصل إلى حد الجرح المؤثر، وقد أجاب العلماء على تلك الاتهامات، ومن أفضل وأوسع ما رأيت في الجواب عنها ما ذكره الحافظ ابن سيد الناس في كتابه «عيون الأثر»، فليرجع إليه من أراد معرفة ذلك[2].

وممن لخص القول في الإمام محمد بن إسحاق الحافظ ابن حجر، حيث قال: محمد ابن إسحاق بن يسار الإمام في المغازي، مختلف في الاحتجاج به، والجمهور على قبوله في السير، قد استفسر من أطلق عليه الجرح، فبان أن سببه غير قادح، وأخرج له مسلم في المتابعات، وله في البخاري مواضع عديدة معلقة عنه، وموضع واحد قال فيه: قال إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن ابن إسحاق، فذكر حديثًا[3].

ومن هذا العرض يتبين لنا أن علماء هذا الشأن قد قبلوا روايات ابن إسحاق، ومنهم من وثقه، ومنهم من وصفه بالصدق، ومن الذين وصفوه بالصدق مع وصفه بالإمامة في المغازي الحافظ ابن حجر؛ حيث يقول فيه: إمام في المغازي، صدوق، يدلس[4].

وحكم الحافظ ابن حجر ونحوه على ابن إسحاق بالصدق فقط، وعدم بلوغه عنده درجة الثقة؛ إنما كان بناء على مقارنة مروياته في الحديث مع مرويات الثقات، فهو كذلك بالنسبة للحديث، أما بالنسبة للمغازي والسير فقد حكموا له بأنه إمام في هذا الشأن، ولا يصل إلى الإمامة في العلم إلا من كان ثقة فيما يرويه، وإذا قارنا بين

(١) عيون الأثر ١/ ٨ - ١٣، وتهذيب التهذيب ٩/ ٣٩ - ٤٦.
(٢) عيون الأثر ١/ ١٣.
(٣) هدي الساري ٤٥٨.
(٤) تقريب التهذيب ٢/ ١٤٤.

مروياته في السيرة مع مرويات الآخرين ممن حازوا على التوثيق، نجده موافقًا لهم في الغالب، مع تفوقه بكثرة المرويات، ومن هذا الباب حاز على الإمامة في هذا المجال.

أما اتهامه بالتدليس فقد أجاب عنه الحافظ ابن سيد الناس بأن تدليسه ليس من النوع الذي يقدح في العدالة[1]، ويقصد بذلك أن تدليسه ليس عن الضعفاء والمجاهيل.

سيرة ابن هشام:

في هذا الكتاب يرى القارئ اعتمادي في سيرة ابن إسحاق علي رواية ابن هشام[2]، عن زياد البكائي[3]، مع الاستشهاد برواية ابن جرير الطبري[4]، بأسانيده عن ابن إسحاق، وذلك لأن سيرة ابن إسحاق لا توجد اليوم كاملة، وقد طبع جزء يسير منها بتحقيق محمد حميد الله.

وقد لقي تهذيب ابن هشام لسيرة ابن إسحاق قبولاً وإعجابًا لدى العلماء على مَرِّ الأجيال، وكان ذلك من عوامل الاحتفاظ بها والإكثار من نسخها حتى كاد ينسى أصلها!

وكان من أسباب الثقة بهذه السيرة أنها مرت على ثلاثة من الأعلام المعتبرين في هذا الشأن؛ وهم: ابن إسحاق صاحب السيرة وجامعها، وزياد البكائي راويها عنه، وابن هشام راويها عن البكائي ومهذبها.

وقد ذكر ابن هشام في مقدمة السيرة أنه أعرض عن أشياء لم ير قبولها، وأنه أعرض عن أشياء لم يقرها له البكائي[5]، وهذا دليل على أن هذه السيرة قد تعرضت لاختيار ابن إسحاق أولاً، ثم لاختيار ابن هشام، وذلك يعتبر توثيقًا لها من هؤلاء الأئمة.

---

(١) عيون الأثر ١/ ١٣.

(٢) هو عبد الملك بن هشام بن أيوب العلامة النحوي الإخباري أبو محمد الذهلي السدوسي وقيل الحميري. ذكر ذلك الإمام الذهبي وقال: الأصح أنه ذهلي كما ذكره أبو سعيد بن يونس، وقال: هذب السيرة النبوية، وسمعها من زياد البكائي صاحب ابن إسحاق - سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٢٨.

(٣) هو زياد بن عبد الله بن الطفيل العامري البكائي، قال عنه الحافظ ابن حجر: صدوق ثبت في المغازي وفي حديثه عن غير ابن إسحاق لين - التقريب ١/ ٢٦٨.

(٤) هو الإمام في التفسير والتاريخ وسائر العلوم الإسلامية أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، قال عنه الخطيب البغدادي: «كان أحد أئمة العلماء، يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره» تاريخ بغداد ٢/ ١٦٣. وقال عنه الإمام الذهبي: «كان من أفراد الدهر علمًا وذكاءً وكثرة تصانيف، قل أن ترى العيون مثله» - سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧-.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ١١.

هذا إضافة إلى أن أصحاب الكتب المختارة الذين يدونون ما يرونه مقبولاً في بابه قد ارتضوا هذه السيرة وأودعوها أو بعضها في كتبهم، وعلى رأس هؤلاء الحفاظ: ابن سيد الناس، وابن كثير، والذهبي، وابن حجر، وكفى بذلك توثيقًا لهذه السيرة.

الواقدي الإمام في المغازي:

هذا وقد ذكرت في الجزء الرابع والأجزاء التي بعده مما يتعلق بالعهد المدني شيئًا من الأخبار التي أخرجها محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى؛ لكون جمهور العلماء قبلوا رواياته في المغازي، وإن كان كثير منهم قد ردوا رواياته في السنة.

وقد كان للواقدي عناية خاصة بالمغازي، ومما يدل على ذلك ما جاء في قوله: «ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا سألته: هل سمعت أحدًا من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل؟ فإذا أعلمني مضيت إلى الموضع، فأعاينه، ولقد مضيت إلى المريسيع فنظرت إليها، وما علمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع حتى أعاينه»[1].

وكذلك ما روي عن ابن منيع قال: سمعت هارون الفروي يقول: رأيت الواقدي بمكة ومعه ركوة[2]، فقلت: أين تريد؟ قال: أريد أن أمضي إلى حُنين حتى أرى الموضع والوقعة[3].

وكذلك ما رُوي عن إبراهيم بن إسحاق الحربي قال: سمعت المسَيَّبي يقول: رأينا الواقدي يومًا جالسًا إلى أسطوانة في مسجد المدينة وهو يدْرُس، فقلنا: أي شيء تدرس؟ فقال: جزئي من المغازي، وقلنا له يومًا: هذا الذي تجمع الرجال تقول: حدثنا فلان وفلان، وجئتَ بمتن واحد، لو حدثتنا بحديث كل واحد على حدة، فقال: يطول، قلنا له: قد رضينا، فغاب عنا جمعة، ثم جاءنا بغزوة أحد في عشرين جلدًا، فقلنا: رُدَّنا إلى الأمر الأول[4]!

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٦، عيون الأثر ١٨.

(٢) الركوة إناء من جلد يحمل به الماء.

(٣) تاريخ بغداد ٣/ ٦، عيون الأثر ١٨.

(٤) سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٦٠، عيون الأثر ١٨.

ونظرًا لاهتمامه الدقيق بجمع أخبار المغازي ومعرفة تفاصيلها أثنى عليه العلماء من هذا الجانب، يقول تلميذه وكاتبه محمد بن سعد عنه: وكان عالمًا بالمغازي، واختلاف الناس، وأحاديثهم[1].

وقال فيه الإمام الذهبي: هو إمام المؤرخين[2].

وكذلك وصفه الإمام ابن تيمية، وقد لخص الحافظ ابن حجر العسقلاني القول في قبول أخباره بقوله: والواقدي إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ولا غيره من أهل المغازي فهو مقبول عند أصحابنا[3].

هذا ومن باب الاعتراف بالفضل لأهله، فإنني أُثبت أنني استفدت في الأجزاء الأولى من هذا الكتاب من التعليقات التي جاءت في هوامش الكتب التي أكثرت العزو إليها؛ مثل صحيح مسلم، وسيرة ابن هشام، ومغازي الواقدي، وقد أشرت إلى بعض ذلك في مواضعه.

*****

(١) طبقات ابن سعد ٧/ ٣٣٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤١.

(٣) التلخيص الحبير ٢/ ٢٩١.

حال العالم قبل الإسلام

قبل أن أتحدث عن المواقف والعبر من تاريخ الإسلام المشرق، فإنني أحب أن أذكر نبذة موجزة عن أوضاع الجاهلية قبل الإسلام، من باب تجلية النور بعد الظلام، واستهداء بما قام به جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في خطبته البليغة أمام النجاشي، حيث بيَّن بعض مساوئ الجاهلية، ثم انتقل إلى بيان شيء من محاسن الإسلام، واستهداء بما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أنه لا يقدر الإسلام حق قدره إلا من عرف الجاهلية.

فالعالم قبل الإسلام كان في جاهلية جهلاء في كل نواحي الحياة: من الناحية الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والمالية.. وغير ذلك، وكان القاسم المشترك بين تلك الأمم الجاهلية أنهم كانوا جميعًا لا يؤمنون بالله تعالى وحده ولا باليوم الآخر؛ ولذلك بنوا كل نواحي حياتهم على عدم النظر إلى رقابة الله عز وجل، وعدم اعتبار رضاه وسخطه، واعتبار الحياة الدنيا، وعدم النظر إلى ما بعد الموت، وإنما اختلفوا في مناهج الاستفادة من هذه الحياة الدنيا وطريقة السير على حسب ما أنتجته عقولهم المنحرفة.

الحالة الدينية:

إذا عرفنا أن التدين يعني شعور الإنسان بافتقاره إلى قوة هي أعلى من قوته وخضوعه لها، فإن ظاهرة التدين في تلك الجاهلية كلها منحرفة بكل أشكالها؛ لأنها تدور بين مخلوق يخضع ومخلوق يُخضع له، فقد اتفقت الجاهلية في هذه النقطة، واختلفت في تعيين من يستحق أن يُعبد وأن يخضع له، وقد اتفق أهل الجاهلية في شرك الطاعة؛ حيث أطاعوا جميعًا سادتهم وكبراءهم من دون الله تعالى، واختلفوا في شرك العبادة؛ حيث عبد بعضهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعبد بعضهم الأصنام المنحوتة من الحجارة أو المصنوعة من الأشجار وغيرها، وعبد بعضهم النار، وعبد بعضهم البقر، وعبد بعضهم الكواكب.. وغير ذلك، ما عدا بقايا يسيرة من أفراد كانوا يعبدون الله تعالى، كما قال رسول الله ﷺ عن تلك الجاهلية: «**إن الله نظر**

إلى أهل الأرض فمقتهم؛ عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»، أخرجه الإمام مسلم من حديث عياض المجاشعي رضي الله عنه[1].

وكان أهل الجاهلية مأسورين لخرافات وأوهام لا حقيقة لها؛ كالتشاؤم بالطيور والأيام، ونحوها، حيث رتَّبوا أمورهم من حيث الإقدام أو الإحجام على ذلك، وسيتبين لنا من الكلام على الفتوحات الإسلامية كيف تورَّط الأعداء بالتشاؤم الذي كان يحكم تصرفاتهم، وأن ذلك كان من أسباب انتصار المسلمين عليهم.

الحالة السياسية:

أما الحالة السياسية في الجاهلية فقد كان الحكم يقوم على تطبيق قوانين تعارف عليها أهل كل بلد، ولا علاقة لها بالشرائع السماوية، وهي تحمل انحرافات الفكر البشري الكثيرة، وخاصة في الجنوح نحو الظلم، وحماية الامتيازات التي تميز بها بعض طوائف البشر.

أما اختيار الزعماء فإنه يقوم عند العرب على اختيار سادة القبائل وشيوخها؛ حيث لم تكن للعرب دولة، ويعتمدون غالبًا في مؤهلات الاختيار على توفر صفات الرجولة والسيادة حسب عرفهم، مع اعتبار شرف النسب.

أما الدول ذات الحكومات كدولة الفرس والروم فإنها تقوم على النظام الطبقي، حيث يكون بعض أفراد الأمة سادة وبعضهم عبيدًا، وتختلف درجات السيادة باختلاف درجات المسؤولية، وكل طبقة تخضع للطبقة التي فوقها، وتستعبد التي تحتها.

وكان بعضهم يعتقدون في أشرافهم أنهم فوق العامة في طينتهم، وكان أشرافهم يتمتعون بالسلطة المطلقة التي لا يحكمها قانون إلا ما شرعه لهم آباؤهم الأولون، كما هو الحال في ملوك الفرس.

وبعضهم كانوا يؤلِّهون أشرافهم ويعطونهم من الامتيازات ما لا حدَّ له، كما هو الحال في الهندوس الذين يؤلهون سادتهم من البراهمة.

فالجاهلية من حيث الحكم كانت تقوم في تلك الدول على مجموعة من الطغاة المستعبدين المعتدِّين برأيهم، وقد خلَّد تلك الحكومات مدة طويلة من الزمن ما توارثته

(١) صحيح مسلم - كتاب الجنة رقم ٢٨٦٥.

شعوبها من اعتقاد أحقيتها المطلقة في الاستمرار في الحكم، مهما جرى منها من الظلم والاستئثار؛ لكونها تتميز بقداسة لا تتوفر في سائر البشر، وقد قضى ذلك على كثير من مظاهر الحرية والإبداع في أمور الحياة.

أما قبائل العرب؛ فقد كان الوضع فيها أفضل بكثير في هذا الجانب، حيث كان لدى أفرادها حرية في إبداء الرأي، وتوجيه سياسة القبيلة، غير أنهم كانوا مأسورين بمفاهيم جاهلية لا يتجاوزونها في الغالب؛ كتقديسهم لما ورثوه من الآباء والأجداد من العادات والأعراف وإن كان ظاهر البطلان.

الحالة الاجتماعية:

من مساوئ الجاهلية في الناحية الاجتماعية أن العلاقات بين الناس تقوم على أساس قومي ضيق، وقد اتفق على العصبية القومية كل الناس في ذلك الزمن، منذ أن انحسر تأثير دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ولذلك كانت الخلافات والحروب الدائمة هي الأصل في الغالب على أبناء ذلك الزمن، وخاصة عند العرب؛ بدافع حماية القوم، والاعتداء على الأقوام الآخرين، فالإغارة على الآخرين وسلب أموالهم لا تعتبر إجرامًا، بل نوعًا من البطولة، ومفخرة قومية يسجلها الشعراء في أشعارهم والخطباء في خطبهم!

ومن الغريب في حياة العرب أن هذه الأموال التي يحصلون عليها عن طريق السلب والنهب يقدمونها ولائم لإكرام الضيوف، حيث كان أكثر أموالهم من المواشي، ويفتخرون بالشجاعة والجسارة في ترويع الآمنين وسلب أموالهم، وبالكرم والسخاء في تقديم هذه الأموال لنزلائهم!

وعندما يخوضون المعارك الطاحنة من أجل هذه المبادئ التافهة فإنهم لا يعتبرون أنفسهم قد انحطُّوا في الرذائل، بل يعتبرون أنفسهم في القمة من الفضيلة، ولذلك ترى أشعارهم طافحة بالحماسة والفخر، كما في قول عمير بن شييم التغلبي المعروف بالقطامي:

ومن ربط الجِحَاش فإن فينا ... قنا سُلبًا وأفراسًا حسانا

وكنَّ إذا أغرن على جَنَاب ... وأعوزهن نهب حيث كانا

أغـرن على الضِّبـاب على حـلال وضـبـة إنه من حـانَ حـانا
وأحـيـانًا على بكر أخـينا إذا مـا لم نجـد إلا أخـانا[1]

وكانت الحروب تقوم بينهم لأسباب تافهة، فهم لا يُبالون بشن الحروب وإزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عن المُثل الاجتماعية التي تعارفوا عليها وإن كانت لا تستحق التقدير، وقد روى لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب في الجاهلية؛ مما يدل على تمكن الروح الحربية من نفوس العرب وغلبتها على التعقل والتفكير، فمن تلك الأيام مثلاً يوم البَسُوس، وقد قامت الحرب فيه بين بكر وتغلب بسبب ناقة للجَرْمي؛ وهو جار للبسوس بنت منقذ، خالة جساس بن مرة، وقد كان كليب سيد تغلب قد حمى لإبله مكانًا خاصًا به، فرأى فيه هذه الناقة، فرماها، فجزع الجرمي وجزعت البسوس، فلما رأى ذلك جساس تحيَّن الفرصة لقتل كليب، فقتله، فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدة أربعين سنة[2]!

وكذلك يوم داحس والغبراء، وقد كان سببه سباقًا أقيم بين داحس؛ وهو فرس لقيس بن زهير، والغبراء؛ وهي لحذيفة بن بدر، فأوعز هذا إلى رجل ليقف في الوادي فإن رأى داحسًا قد سبق يرده، وقد فعل ذلك، فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء؛ فسبقت الغبراء، وحصل بعد ذلك القتل والأخذ بالثأر، وقامت الحروب بين قبيلتي عبس وذبيان[3].

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج في الجاهلية وهم أبناء عم؛ حيث إن الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزدي، وكانت بدايتها حرب «سمير»، وسببها أن رجلاً غطفانيًا كان معه فرس، فقال: ليأخذ هذا الفرس أعز أهل يثرب، فسمَّى الأوسُ رجالاً، وسمَّى الخزرج رجالاً، فدفعها إلى مالك بن العجلان الخزرجي، فافتخر بذلك حليفُه كعب بن العجلان الذبياني، وقال ألم أقل لكم إن حليفي مالكًا أفضلكم؟ فغضب من ذلك رجل من الأوس يقال له: «سمير»، فترصَّد لكعب فقتله، فقامت الحرب بين الحيين، وكان الظفر فيها للأوس.

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام ١/ ٢٠٣.
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٣١٢.
(٣) المرجع نفسه ١/ ٣٤٣.

ثم استمرت الحروب بينهما بعد ذلك مائة سنة، حتى كان حرب «حاطب» وهي من أشْهَر أيامهم، وسببها أن رجلاً من بني ثعلبة نزل على حاطب بن قيس الأوسي، فرآه يزيد بن الحارث الخزرجي في السوق، فقال لرجل يهودي: لك ردائي إن كسعت هذا الثعلبي[1]، فأخذ اليهودي الرداء، وكسع الثعلبي، فنادى الثعلبي: يا لحاطب! كُسع ضيفُك وفُضح، وأُخبر حاطب بذلك، فجاءه، فسأله: من كسعك؟ فأشار إلى اليهودي، فقتله حاطب، فجاء يزيد بن الحارث الخزرجي، فأسرع ليقتل حاطبًا، فقتله وقتل رجلاً آخر من قومه، فثارت الحرب بين الأوس والخزرج، وكان الظفر فيها للخزرج، وتبع ذلك حروب أخرى.

ثم كان آخر أيامهم «بعاث»، وذلك أن حلفاء الأوس من اليهود جدَّدوا عهودهم معهم على النصرة، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يذكيها اليهود حتى يضعفوا القبيلتين؛ فتكون لهم السيادة الدائمة.. واستعان كل فريق بحلفائه من القبائل المجاورة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا كانت نهايته لصالح الأوس[2].

وهكذا قامت هذه الحروب بين أبناء العم، وكان المستفيد الأول يهود المدينة، ولم تنقطع هذه الحروب إلا بعد أن هداهم الله إلى الإسلام الذي ألف الله تعالى به بين قلوبهم، فأصبحوا الرافد الثاني لنصر الإسلام بعد المهاجرين، وسماهم النبي ﷺ الأنصار، وكانت لهم بعد ذلك المواقف العظيمة في نصرة الإسلام.

*****

(١) يعني أن يضربه بقدمه من الخلف، وذلك إهانة.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٤٠٢.

أخبار النبي ﷺ قبل البعثة

إخبار أهل الكتاب عن نبوته ﷺ قبل مولده

من ذلك ما أخرجه المؤرخ محمد بن إسحاق، من حديث سلمة بن سلامة بن وقَش رضى الله عنه، قال: كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يومًا من بيته، حتى وقف على بني عبد الأشهل، قال سَلَمَةُ: وأنا يومئذ من أحدث مَنْ فيه سنًّا، عليَّ بُردة لي، مضطجع فيها بفناء أهلي، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار، قال: فقال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثان، لا يرون أن بعثًا كائن بعد الموت؛ فقالوا له، ويحك يا فلان! أو ترى هذا كائنًا؛ أنَّ الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ويجزون فيها بأعمالهم؟! قال: نعم، والذي يُحلف به، ولودَّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار، يُحمونه، ثم يدخلونه إياه، فيطينونه عليه؛ بأن ينجو من تلك النار غدًا! فقالوا له: ويحك يا فلان! فما آية ذلك؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلى مكة واليمن؛ فقالوا: ومتى تراه؟ قال: فنظر إليَّ -وأنا من أحدثهم سنًّا- فقال: إن يَسْتنفد هذا الغلام عمره يدركه، قال سَلَمة: فوالله ما ذهبَ الليل والنهار حتى بعث الله محمدًا رسول الله ﷺ وهو حيٌّ بين أظهرنا، فآمنا به وكفر به؛ بغيًا وحسدًا! قال: فقلنا له ويحك يا فلان! ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟! قال: بلى، ولكن ليس به[1]!

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال لي: هل تدري عمَّ كان إسلامُ ثعلبةَ بن سعْية، وأُسيد بن سعية، وأسَد بن عبيْد؛ نفر من بني هَدَل إخوة بني قريظة، كانوا معهم في جاهليتهم، ثم كانوا في الإسلام؟ قال: قلت: لا والله؛ قال: فإن رجلاً من يهود من أهل الشام يقال له: «ابن الهيَّبان» قدم علينا قُبيل الإسلام بسنين، فحلَّ بين أظهرنا، لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلِّي الخمس أفضل منه، فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا المطرُ قلنا له: اخرج يا بن الهيَّبان فاستسق لنا، فيقول: لا والله، حتى تقدموا بين يدي مَخْرجكم صدقة، فنقول: كم؟ فيقول: صاعًا من تمر، أو مُدَّين من شعير، قال: فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرَّتنا، فيستسقي الله لنا، فوالله

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٢١٤، ٢١٥، وذكره الحافظ ابن حجر، وقال: وأخرجه أحمد، وصححه ابن حبان، فتح الباري: ٦/ ٥٨٣- ٥٩٥ .

ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونُسْقَى، قد فعل ذلك غير مرة، ولا مرتين، ولا ثلاث، قال: ثم حضرته الوفاة عندنا، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشر يهود، ما ترونه أخْرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟! قال: قلنا: إنك أعلم؛ قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكفُ[1] خروج نبي قد أظلَّ زمانه، وهذه البلدة مُهَاجَره، فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه، وقد أظلكم زمانه، فلا تُسبقُن إليه يا معشر يهود، فإنه يُبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه، فلما بُعث رسول الله ﷺ، وحاصر بني قريظة، قال هؤلاء الفتْية -وكانوا شبابًا أحداثًا- يا بني قريظة، والله إنه لَلنبيُّ الذي كان عهد إليكم فيه ابنُ الهيَّبان، قالوا: ليس به، قالوا: بلى والله، إنه لهو بصفته، فنزلوا وأسلموا، وأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم[2].

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني -رحمه الله-: وروى يعقوب بن سفيان بإسناد حسن، عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان يهودي قد سكن مكة، فلما كانت الليلة التي ولد فيها النبي ﷺ قال: يا معشر قريش، هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم، قال: فإنه ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة، بين كتفيه علامة، لا يرضع ليلتين؛ لأن عفريتًا من الجن وضع يده على فمه! فانصرفوا فسألوا، فقيل لهم: قد ولد لعبد الله ابن عبد المطلب غلام، فذهب اليهودي معهم إلى أمه، فأخرجته لهم، فلما رأى اليهودي العلامة خرَّ مغشيًا عليه، وقال: «ذهبت النبوة من بني إسرائيل، يا معشر قريش، أما والله ليسطونَّ بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب»[3]!

وأخرج محمد بن إسحاق من حديث حسان بن ثابت رضي الله عنه قال: «والله إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت، إذ سمعت يهوديًا يصرخ بأعلى صوته على أُطُمه[4] بيثرب: يا معشر يهود، حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له: ويلك! ما لك؟! قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به.

قال محمد بن إسحاق: فسألت سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، فقلت: ابن كم كان حسان بن ثابت مقْدم رسول الله ﷺ المدينة؟ فقال: ابن ستين سنة، وقدمها رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وخمسين سنة، فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين[5].

---

(١) أي: أتحرَّى وأنتظر.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ٢١٥- ٢١٧.

(٣) فتح الباري: ٦/ ٥٨٣.

(٤) يعني: على حصنه.

(٥) سيرة ابن هشام: ١/ ١٦٦.

فمن ذلك ما أخرجه الحافظ الطبراني من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه عن أمه: أنها حضرت آمنة أم النبي ﷺ، فلما ضربها المخاض، قالت: جعلت أنظر إلى النجوم تدلَّى، حتى أقول لتقعنَّ عليَّ، فلما ولدت خرج منها نور أضاء له البيت والدار، ذكره الحافظ ابن حجر وقال: وشاهده حديث العرباض بن سارية، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنِّي عبدُ الله وخاتم النبيِّين وإن آدم لمنجدلٌ في طينته! وسأخبركم عن ذلك: إنِّي دعوةُ أبي إبراهيم، وبشارةُ عيسى بي، ورؤيا أمِّي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يريْن**»، وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءتْ له قصور الشَّام، أخرجه أحمد، وصححه ابن حبان والحاكم، قال: وفي حديث أبي أمامة عند أحمد نحوه، وأخرج ابن إسحاق، عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ نحوه، وقالت: «أضاءت له بُصْرَى من أرض الشام»[1].

*****

(١) فتح الباري: ٦/ ٥٨٣.

رضاعه ونشأته في بني سعد

أخرج الحافظان ابن إسحاق بن راهويه، وأبو يعلى، من حديث عبد الله بن جعفر، قال: لما وُلد رسول الله ﷺ قدمتْ حَليمة بنت الحارث في نسوة من بني سعد بن بكر، يلتمسون الرُّضَعاء بمكة، قالت حليمة: فخرجت في أوائل النسوة على أتان لي قمراء[1]، ومعي زوجي الحارث بن عبد العُزَّى، أحد بني سعد بن بكر، ثم أحد بني ناضرة، قد أدمت أتاننا[2]، ومعي بالركب شارف[3]، والله ما تبضُّ[4] بقطرة من لبن، في سنة شهباء[5]، قد جاع الناس حتى خلص إليهم الجهد، ومعيَ ابن لي، والله ما ينام ليلنا، وما أجد في يدي شيئًا أعلله به، إلا أنَّا نرجو الغيث، وكانت لنا غنم فنحن نرجوها، فلما قدمنا مكة فما بقي منا أحد إلا عُرض عليها رسول الله ﷺ فكرهته، فقلنا: إنه يتيم، وإنما يُكرِم الظئرَ ويحسن إليها الوالدُ، فقلنا: ما عسى أن تصنع بنا أمه أو عمه أو جده؟! فكل صواحبي أخذ رضيعًا، فلما لم أجد غيره رجعت إليه وأخذته، والله ما أخذته إلا أنِّي لم أجد غيره! فقلت لصاحبي: والله لآخذن هذا اليتيم من بني عبد المطلب، فعسى الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحبي ولا آخذ شيئًا، فقال: قد أصبت، قالت: فأخذته، فأتيت به الرحل، فوالله ما هو إلا أن أتيت به الرحل فأمسيتُ أُقْبل ثدياي باللبن، حتى أرويتُه وأرويت أخاه! وقام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها فإذا هي حافل، فحلبها، فأرواني ورَوي، فقال: يا حليمة، تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة، ولقد أعطى الله عليها ما لَم نتمنَّ، قالت: فبتنا بخير ليلة شباعًا، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا، ثم اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي، فركبت أتاني القمراء، فحملتُه معي، فوالذي نفس حليمة بيده، لقطَّعت الرَّكْب[6] حتى إن النسوة ليقلن: أمسكي علينا، أهذه أتانك التي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها كانت أدمت حين أقبلنا، فما شأنها؟! قالت: فقلت: والله حملت عليها غلامًا مباركًا، قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيرًا حتى قدمنا والبلاد سنةٌ، ولقد كان رعاتنا يسرحون، ثم يريحون، فتروح أغنام بني سعد جياعًا، وتروح غنمي شباعًا بطانًا حُفَّلاً، فنحتلب ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزَّى وغنم حليمة،

(١) أي: على حمارة لي، لونها أبيض بخضرة.
(٢) أي: جرحت في رُكبها من أثر المشي.
(٣) أي ناقة مسنة.
(٤) أي: ما تدرُّ.
(٥) أي: مجدبة ليس فيها مطر.
(٦) أي: سبقت حمارتنا الركب.

تروح شباعًا حُفَّلاً وتروح غنمكم جياعًا، ويلكم! اسرحوا حيث تسرح رعاؤهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعًا كما كانت، وترجع غنمي كما كانت!

قالت: وكان يشبُّ شبابًا ما يشبُّه أحد من الغلمان، يشبُّ في اليوم شباب الغلام في الشهر، ويشب في الشهر شباب السنة، فلما استكمل سنتين أقدمناه مكة أنا وأبوه، فقلنا: والله لا نفارقه أبدًا ونحن نستطيع، فلما أتينا أمَّه قلنا: أيُّ ظئر! والله ما رأينا صبيًّا قط أعظم بركة منه، وإنا نتخوف عليه وباءَ مكة وأسقامها، فدعيه نرجع به حتى تبرئي من دائك[1]، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا أشهرًا ثلاثة أو أربعة، فبينا هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بَهْم[2] له، إذ أتى أخوه يشتدُّ، وأنا وأبوه في البُدْن[3]، فقال: إن أخي القرشي أتاه رجلان عليهما ثياب بيض، فأخذاه واضطجعاه، فشقَّا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشتد، فوجدناه قائمًا قد انتقع لونه[4]، فلما رآنا أجهش إلينا وبكى، قالت: فالتزمتُه أنا وأبوه فضممناه إلينا، فقلنا: مالك بأبي أنت؟! فقال: أتاني رجلان وأضجعاني فشقَّا بطني، وصنعا به شيئًا، ثم ردَّاه كما هو، فقال أبوه: والله ما أرى ابني إلا قد أصيب، الحقي بأهله فردِّيه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوف منه، قالت: فاحتملناه، فقدمنا به على أمه، فلما رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما رجَعكما به قبل أن أسألكماه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟! فقلنا: لا شيء، إلا أن قد قضى الله الرضاعة، وسرَّنا ما نرى، وقلنا: نؤديه كما تحبون أحب إلينا، قال: فقالت: إن لكما شأنًا فأخبراني ما هو؟ فلم تدعنا حتى أخبرناها، فقالت: كلا والله لا يصنع الله ذلك به، إن لابني لشأنًا، أفلا أخبركما خبره؟ إني حملت به، فوالله ما حملت حملاً قطَّ كان أخف عليَّ منه ولا أيسر منه! ثم أُريت حين حملته خرج مني نورٌ أضاء منه أعناقُ الإبل ببصُرى[5]! أو قالت: قصور بُصرى، ثم وضعته حين وضعته، فوالله ما وقع كما يقع الصبيان، لقد وقع معتمدًا بيديه على الأرض رافعًا رأسه إلى السماء! فدعاه عنكما، فقبضته وانطلقنا[6].

وذكره الحافظ الهيثمي، وقال: رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه، ورجالهما ثقات[7].

---

(١) يعني: أن أمه كانت مريضة.
(٢) يعني: صغار الغنم.
(٣) يعني: في رعي الإبل.
(٤) أي: تغير من شدة ما أصابه.
(٥) هي بلدة في الشام.
(٦) المطالب العالية، للحافظ ابن حجر: ٤/ ١٦٧- ١٧١، حديث رقم: ٤٢٥٢.
(٧) مجمع الزوائد: ٨/ ٢٢٠، ٢٢١.

شق صدره وغسله وذر السكينة فيه

أخرج الإمام أحمد من حديث عتبة بن عبد السُّلمي رضي الله عنه أنه حدثهم أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ، فقال: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: «**كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا[1] ولم نأخذ معنا زاداً، فقلت: يا أخي، اذهب فائتنا بزاد من عند أمنا، فانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طيران كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم، فأقبلا فابتدراني، فأخذاني، فبطحاني إلى القفا، فشقا بطني، فأخرجا منه علقتيْن سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج، فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء برد، فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة، فذرَّاها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خِطْه، فخاطه، وختم عليه بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألفًا من أمته في كفَّة، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخرَّ عليَّ بعضهم، قال: لو أن أمته وُزنت به لمال بهم، ثم انطلقا وتركاني، وفرقْت[2] فرقًا شديدًا، ثم انطلقت إلى أمي[3] فأخبرتها بالذي لقيته، فأشفقت عليَّ أن يكون أُلبس بي[4]، قالت: أعيذك بالله، فرَّحلتْ بعيرًا لها، فجعلتني على الرحل وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أوَ أديتُ أمانتي وذمتي؟ وحدَّثْتها بالذي لقيتُ، فلم يرُعها ذلك، فقالت: إني رأيت خرج مني نورًا أضاءت منه قصور الشام**»[5].**

وذكره الحافظ الهيثمي وقال: رواه أحمد والطبراني، وإسناد أحمد حسن[6].

وأخرجه الحاكم وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي[7].

---

(١) أي: صغار الغنم.

(٢) أي: خفت.

(٣) يعني: إلى أمه من الرضاعة حليمة السعدية.

(٤) أي: أصابه مسٌّ من الجن.

(٥) مسند أحمد: ٤/ ١٨٤، ١٨٥.

(٦) مجمع الزوائد: ٨/ ٢٢٢.

(٧) المستدرك: ٢/ ٦١٦، ٦١٧.

وأخرج الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمَه[1]، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره)، فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون..»، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره[2]

*****

(١) أي: جمع بعضه إلى بعض.

(٢) صحيح مسلم، رقم: ٢٦١، كتاب الإيمان: ١٤٧ .

وفاة أمه وكفالة جده ثم عمه له

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتًا حسنًا؛ لما يريد به من كرامته، فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب.

وقال: حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن أم رسول الله ﷺ آمنة توفيت ورسول الله ﷺ ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تُزِيرُه إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة[1].

قال: فكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جَفْر، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له شأنًا، ثم يجلسه على الفراش ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

وقال ابن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن معبد بن العباس، عن بعض أهله، أن عبد المطلب توفي ورسول الله ﷺ ابن ثماني سنين.

قال: فكان رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب مع عمه أبي طالب، وكان عبد المطلب -فيما يزعمون- يوصي به عمه أبا طالب، وذلك لأن عبد الله أبا رسول الله ﷺ وأبا طالب أخوان لأب وأم، أمهما فاطمة بنت عائذ بن عمران بن مخزوم.

قال: وكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله ﷺ بعد جده، فكان إليه ومعه[2].

---

(١) قال ابن هشام: أم عبد المطلب بن هاشم سلمى بنت عمرو النجارية، فهذه الخؤولة التي ذكر ابن إسحاق لرسول الله ﷺ فيهم.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ١٧٣، ١٧٤، ١٨٣.

حفظ الله تعالى إياه في شبابه من المخالفات السلوكية

عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمُّون به من الغناء إلا ليلتيْن، كلتاهما عصمني الله منهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا فقلت لصاحبي: أبصرْ لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر بها كما يسمر الفتيان، فقال: بلى، فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفًا وغرابيلَ ومزاميرَ، قلت ما هذا؟ قيل: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسُّ الشمس! فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئًا، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمُر بمكة، ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مسُّ الشمس! فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته بالذي رأيت، فوالله ما همَمْت ولا عُدْت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته**»، ذكره المؤرخ محمد بن يوسف الصالحي الشامي وقال: رواه ابن إسحاق، وإسحاق بن راهويه، والبزار، وابن حبان، وقال الحافظ (يعني ابن حجر العسقلاني): وإسناده حسن متصل[1].

وأخرجه أبو عبد الله الحاكم، وصححه على شرط مسلم، وأقره الحافظ الذهبي[2]، وذكره الحافظ الهيثمي، وقال: رواه البزار، ورجاله ثقات[3].

*****

(١) سبل الهدى والرشاد: ٢/ ١٤٨ .

(٢) المستدرك: ٤/ ٢٤٥ .

(٣) مجمع الزوائد: ٨/ ٢٢٦ .

شهوده ﷺ حلف الفضول

قال ابن إسحاق: تداعت قبائل من قريش إلى حلف، فاجتمعوا له في دار عبد الله ابن جدعان؛ لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيْم بن مرة، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تُرد مظلمته، فسمَّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمي، أنه سمع طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري، يقول: قال رسول الله ﷺ: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلْفًا ما أحب أن لي به حُمر النعم، ولو أُدعَى به في الإسلام لأجبتُ**»[1].

وقال الشيخ الألباني -رحمه الله-: هذا سند صحيح لولا أنه مرسل، ولكن له شواهد تقويه، فرواه الحميدي بإسناد آخر مرسلاً أيضًا كما في (البداية: ٢/ ٢٩)، وأخرجه الإمام أحمد (١٦٥٥، ١٦٧٦) من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعًا دون قوله: «لو دعيتُ به في الإسلام لأجبتُ»، وسنده صحيح[2].

*****

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ١٤٣.

(٢) هامش فقه السيرة، للغزالي: ٨٤.

سفره إلى الشام وإخبار بَحِيرَى الراهب عن نبوته ﷺ

أخرج الحافظ المؤرخ محمد بن جرير الطبري، من حديث عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري قال:

وكان عبد المطلب يوصي برسول الله ﷺ عمَّه أبا طالب، وذلك أن أبا طالب وعبد الله أبا رسول الله ﷺ كانا لأم، فكان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله ﷺ بعد جده، وكان يكون معه، ثم إن أبا طالب خرج في ركب من قريش إلى الشام تاجرًا، فلما تهيأ للرحيل وأجمع السير ضبَّ[1] به رسول الله ﷺ فيما يزعمون، فرقَّ له أبو طالب، فقال: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني ولا أفارقه أبدًا، أو كما قال، فخرج به معه، فلما نزل الركب بُصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له: بحيرى، في صومعة له، وكان ذا علم من أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة مذ قط راهب[2]، إليه يصير علمهم عن كتاب -فيما يزعمون- يتوارثونه كابرًا عن كابر، فلما نزلوا ذلك العام ببَحيرى صنع لهم طعامًا كثيرًا، وذلك أنه رأى رسول الله ﷺ، وهو في صومعته، عليه غَمامة تُظلُّه من بين القوم، ثم أقبلوا حتى نزلوا في ظل شجرة قريبًا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلَّت الشجرة، وتهصَّرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها، فلما رأى ذلك بَحيرى نزل من صومعته، ثم أرسل إليهم فدعاهم جميعًا، فلما رأى بحيرى رسول اللهَ ﷺ جعل يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، فلما فرغ القوم من الطعام وتفرقوا، سأل رسول الله ﷺ عن أشياء في حاله؛ في يقظته، وفي نومه، فجعل رسول الله ﷺ يخبره؛ فيجدها بحيرى موافقةً لما عنده من صفته.

ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، ثم قال بحيرى لعمِّه أبي طالب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا! قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، ارجع به إلى بلدك، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما

(١) أي: تعلق به.

(٢) أي: لم تخل تلك الصومعة من الرهبان منذ دهر.

عرفته ليبغنه شرًا، فإنه كائن له شأن عظيم، فأسرِعْ به إلى بلده، فخرج به عمه سريعًا حتى أقدمه مكة[1].

وأخرجه الحافظ الترمذي من حديث أبي موسى الأشعري رضى الله عنه، وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه[2].

وذكره الحافظ ابن حجر من رواية الترمذي، وقال: رجاله ثقات[3].

ونقل الشيخ الألباني تصحيح الجزري له وصححه[4].

*****

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٧٧، ٢٧٨.

(٢) سنن الترمذي، كتاب المناقب: ٥/ ٥٩١، رقم: ٣٦٢٠.

(٣) الإصابة: ١/ ١٧٩، رقم: ٧٩٥.

(٤) فقه السيرة، للغزالي: ٧٧.

خبر بنيان الكعبة وموقف الرسول ﷺ

أخرج الحافظ إسحاق بن راهويه من حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة الليثي رضي الله عنه، قال: كانت الكعبة في الجاهلية مبنية بالرَّخم[1] ليس فيه مَدَر، وكانت قدر ما يقتحمها العناق[2]، وكانت غير مسقوفة، إنما تُوضع ثيابها عليها، ثم يسدل سدلاً عليها، وكان الركن الأسود موضوعًا على سورها باديًا، وكانت ذات ركنين، كهيئة الحَلقة، مربعة من جانب ومدوَّرة من جانب، فأقبلت سفينة من أرض الروم، حتى إذا كانوا قريبًا من جُدَّة انكسرت السفينة، فخرجت قريش؛ ليأخذوا خشبها، فوجدوا روميًّا عندها، فأخذوا الخشب، فأعطاهم إياها، وكانت السفينة تريد الحبشة، وكان الرومي الذي كان في السفينة نجارًا، فقدموا بالخشب، وقدموا بالرومي، فقالت قريش: نبني بهذا الخشب بيتَ ربنا، فلما أرادوا هدمه، إذا هم بحيَّة على سور البيت، بيضاء البطن، سوداء الظهر، فجعلت كلما دنا أحدٌ إلى البيت ليهدمه أو يأخذ من حجارته سعت إليه فاتحة فاها! فاجتمعت قريش عند المقام فعجُّوا إلى الله، قال: وقالوا: رَبَّنا، لم تُرَعْ، أردنا تشريف بيتك وتزيينه، فإن كنت ترضى ذلك، وإلا فما بدا لك فافعل، فسمعوا خُوارًا في السماء، فإذا هم بطائر أعظم من النسر، أسود الظهر، أبيض البطن والرجلين، فغرز مخالبه في قفا الحية، ثم انطلق بها يجرها وذنبها ساقط، حتى انطلق بها نحو أجياد! فهدَّمتها قريش، فجعلوا يبنونها بحجارة الوادي، تحملها قريش على رقابها، فرفعوها في السماء عشرين ذراعًا، فبيْنا رسول الله ﷺ يحمل حجارة من أجياد وعليه نمرة فضاقت عليه النمرة، فذهب يضع النمرة على عاتقه، فتُرى عورته من صغر النمرة، فنودي: يا محمد، خمِّر عورتك! فلم يُرَ عريانًا بعد ذلك، وكان بين بنائها وبين ما أنزل الله عليه خمس عشرة سنة[3].

وذكره الحافظ الهيثمي، وقال: رواه الطبراني في الكبير بطوله، وروى أحمد طرفًا منه، ورجالهما رجال الصحيح[4].

(١) أي: بالحجارة الكبيرة من غير طين بينها.

(٢) الأنثى من أولاد المعز قبل استكمالها السنة.

(٣) المطالب العالية: ٤/ ١٨٢- ١٨٤، رقم: ٤٢٦٦.

(٤) مجمع الزوائد: ٣/ ٢٨٩.

وعن علي رضي الله عنه قال: لما أرادوا -يعني قريشًا- أن يرفعوا الحجرَ -يعني الحجر الأسود- اختصموا فيه، فقالوا: يحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة، قال: وكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم، فجعلوه في مرط، ثم رفعه جميع القبائل كلها، ورسول الله ﷺ يومئذ رجل شاب؛ يعني قبل البعثة.

ذكره الحافظ ابن حجر من رواية أبي بكر ابن أبي شيبة[1]، وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمام أحمد، وجاء فيه: أنهم قالوا: اجعلوا بينكم حكمًا، قالوا: أول رجل يطلع من هذا الفجِّ، فجاء النبي ﷺ، فقالوا: أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم، فأخذوا بنواحيه معه، فوضعه هو ﷺ.

قال الهيثمي: وفيه هلال بن خباب، وهو ثقة، وفيه كلام، وبقية رجاله رجال الصحيح[2].

*****

(١) المطالب العالية: ٤/ ١٨٥، رقم: ٤٢٦٧.

(٢) مجمع الزوائد: ٣/ ٢٩١، ٢٩٢.

خبر زواجه ﷺ بخديجة بنت خويلد

أخرج الإمام أحمد والطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ذكر خديجة، وكان أبوها يرغب عن أن يزوجه، فصنعت طعامًا وشرابًا، فدعت أباها ونفرًا من قريش، فطعموا وشربوا حتى ثملوا، فقالت خديجة: إن محمد بن عبد الله يخطبني فزوجني إياه، فخلَّقتْه وألبسته حلة، وكذلك كانوا يفعلون بالآباء، فلما سُري عنه سكره نظر فإذا هو مخلَّق وعليه حلة، فقال: ما شأني؟ ما هذا؟ قالت: زوجتني محمد بن عبد الله، فقال: أنا أزوج يتيم أبي طالب؟ لا، لعمري، قالت خديجة: ألا تستحي! تريد أن تسفِّه نفسك عند قريش، تخبر الناس أنك كنت سكران؟! فلم تزل به حتى رضي»!

ذكره الحافظ الهيثمي وقال: ورجال أحمد والطبراني رجال الصحيح[1].

قال المؤرخ محمد بن إسحاق: وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصًا على ذلك منها لو يقدر عليه، قال: وهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي[2]؛ يعني أنها تلتقي مع رسول الله ﷺ في جده الخامس.

قال: فولدت لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم القاسم، وبه كان يُكنى ﷺ، والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، عليهم السلام.

قال: فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا في الجاهلية، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام، فأسلمن وهاجرن معه ﷺ.

قال ابن هشام: وأما إبراهيم فأمه مارية القبطية؛ يعني الجارية التي أهداها إليه المقوقس حاكم مصر.

---

(١) مجمع الزوائد: ٩/ ٢٢٠.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ١٩٢، ١٩٣.

تسليم الحجر على رسول الله ﷺ

أخرج الإمام مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرفُ حجرًا بمكة كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبعث، إنِّي لأعرفُه الآن**»[1]!

*****

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل: ١٧٨٢، رقم: ٢٢٧٧ .

خبر أمية بن أبي الصلت عن بعثة رسول الله ﷺ

أخرج الإمام الطبراني بإسناده عن معاوية بن أبي سفيان، عن أبيه، قال: خرجت أنا وأمية بن أبي الصلت الثقفي تجاراً إلى الشام، فكلما نزلنا منزلاً أخذ أمية سفْراً له يقرؤه علينا، فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى، فجاؤوه وأكرموه وأهدوا له، وذهب معهم إلى بيوتهم، ثم رجع في وسط النهار، فطرح ثوبيه، وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما، وقال لي: هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله؟ قلت: لا إرْبَ لي فيه، والله لئن حدثني بما أحب لا أثق به، ولئن حدثني بما أكره لأجدن منه، قال: فذهب وخالفه شيخ من النصارى فدخل عليَّ، فقال: ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ؟ قلت: لست على دينه، قال: وإنْ، فإنك تسمع منه عجبًا وتراه، ثم قال لي: أثقفي أنت؟ قلت: لا، ولكن قرشي، قال: فما يمنعك من الشيخ؛ فوالله إنه ليحبكم ويوصي بكم؟

قال: فخرج من عندنا، ومكث أمية عندهم، حتى جاءنا بعد هدأة الليل، فطرح ثوبيه، ثم انجدل على فراشه، فوالله ما نام ولا قام، حتى أصبح كئيبًا حزينًا، ساقطًا غَبُوقه على صَبُوحه[1]! ما يكلمنا ولا نكلمه، ثم قال: ألا نرحل؟ قلت: وهل بك من رحيل؟ قال: نعم.

فرحلنا، فسرْنا بذلك ليلتين، ثم قال في الليلة الثالثة: ألا تحدث يا أبا سفيان؟ قلت: وهل بك مِن حديث؟! والله ما رأيت مثل الذي رجعت به من عند صاحبك، قال: أما إن ذلك لشيء لست فيه، إنما ذلك لشيء وجلت منه من منقلبي، قلت: وهل لك من منقلب؟ قال: إي والله لأموتن، ثم لأحيين، قال: قلت: هل أنت قابل أماني؟ قال: على ماذا؟! قلت: على أنك لا تبعث ولا تحاسب! قال: فضحك، ثم قال: والله يا أبا سفيان لنبعثنَّ وليدخلنَّ فريق الجنة وفريق النار، قلت: ففي أيهما أنت أخبرك صاحبك؟ قال: لا علم لصاحبي بذلك، لا فيَّ ولا في نفسه.

(١) هذا كناية عن اضطراب فكره، الغبوق بفتح الغين: هو العشاء، والصبوح بفتح الصاد: هو الغداء من اللبن.

قال: فكنا في ذلك ليلتيْن يعجب مني وأضحك منه، حتى قدمنا غوطة دمشق، فبعنا متاعنا وأقمنا بها شهرين، فارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى، فلما رأوه جاؤوه، وأهدوا له، وذهب معهم إلى بيعتهم[1]، فما جاء إلا بعد منتصف النهار فلبس ثوبيه، وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأة من الليل فطرح ثوبيه، ورمى بنفسه على فراشه، فوالله ما نام ولا قام، وأصبح حزينًا كئيبًا، لا يكلمنا ولا نكلمه.

ثم قال: ألا نرحل؟ قلت: بلى إن شئت، فرحلنا كذلك من بثِّه وحزنه ليالي، ثم قال لي: يا أبا سفيان، هل لك في المسير لنتقدم أصحابنا؟ قلت: هل لك فيه؟ قال: نعم، فسرنا حتى برزنا من أصحابنا ساعة، ثم قال: هيه صخر[2]، فقلت: ما تشاء؟ قال: حدثني عن عتبة بن ربيعة؛ أيجتنب المظالم والمحارم؟ قلت: إي والله، قال: ويصل الرحم ويأمر بصلتها؟ قلت: إي والله، قال: وكريم الطرفين[3] وسط في العشيرة؟ قلت: نعم، قال: فهل تعلم قريشًا أشرف منه؟ قلت: والله لا أعلم، قال: أمحوج هو؟ قلت: لا، بل هو ذو مال كثير، قال: وكم أتى عليه من السن؟ فقلت: قد زاد على المائة، قال: فالشرف والسن والمال أزرين به؟ قلت: ولِم ذاك يزري به؟! ولا والله بل يزيده خيرًا، قال: هو ذاك، هل لك في المبيت؟ قلت: لِيَ فيه، قال: فاضطجعنا حتى مر الثقل[4].

قال: فسرنا حتى نزلنا في المنزل وبتنا به، ثم ارتحلنا منه، فلما كان الليل قال لي: يا أبا سفيان، قلت ما تشاء؟ قال: هل لك في مثل البارحة؟ قلت: هل لك فيه؟ قال: نعم، فسرنا على ناقتين بُختيتين[5]، حتى إذا برزنا، قال: هيه صخر، هيه عن عتبة بن ربيعة، قال: قلت: هيهًا فيه[6]، قال: أيجتنب المحارم والمظالم، ويصل الرحم ويأمر بصلتها؟ قلت: إي والله إنه ليفعل، قال: وذو مال؟ قلت: وذو مال، قال: أتعلم قرشيًّا أسود منه؟ قلت: لا والله ما أعلم، قال: كم أتى له من السن؟ قلت: قد زاد على المائة[7]، قال: فإن السن والشرف والمال أزرين به؟ قلت: كلا والله، ما أزرى به ذلك، وأنت قائل شيئًا فقله.

---

(١) يعني: مكان عبادتهم.
(٢) يعني: حدثني يا صخر، وهو اسم أبي سفيان.
(٣) يعني: شريف النسب من جهة أجداده وأخواله.
(٤) يعني: بقية القافلة.
(٥) ناقة بختية: ناقة خراسانية.
(٦) يعني: كف عن الحديث عنه.
(٧) جاء في أنساب الأشراف (١/ ١٧١) أن عتبة لما قتل يوم بدر كان له سبعون سنة، وهو الظاهر؛ إذ إنه يبعد أن يقاتل وأن يبارز وعمره فوق المائة.

قال: لا تذكَّرْ حديثي، يأتي منه ما هو آت، ثم قال: فإن الذي رأيت أصابني أني جئت هذا العالم، فسألته عن أشياء، ثم قلتُ: أخبرني عن هذا النبي الذي يُنتظر، قال: هو رجل من العرب، قلت: قد علمت أنه من العرب، فمن أي العرب هو؟ قال: من أهل بيت تحجُّه العرب، قلت: وفينا بيت تحجُّه العرب، قال: هو من إخوانكم من قريش، فأصابني والله شيء ما أصابني مثله قط، وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة، وكنت أرجو أن أكون إياه.

قلت: فإذا كان ما كان فصفْه لي، قال: رجل شاب حين دخل في الكهولة، بدْء أمره يجتنب المظالم[1] والمحارم، ويصل الرحم ويأمر بصلتها، وهو محوج، كريم الطرفين، متوسط في العشيرة، أكثر جنده من الملائكة، قلت: وما آية ذلك؟ قال: قد رجفت الشام منذ هلك عيسى ابن مريم عليه السلام ثمانين رجفة كلها فيها مصيبة، وبقيت رجفة عامة فيها مصائب.

قال أبو سفيان: فقلت: هذا والله الباطل، لئن بعث الله رسولاً لا يأخذه إلا مسنًّا شريفًا، قال أمية: والذي حلفت به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان، تقول: إن قول النصراني حق! هل لك في المبيت؟ قلت: نعم لي فيه.

قال: فبتنا حتى جاءنا الثقل، ثم خرجنا، حتى إذا كان بيننا وبين مكة مرحلتان، أو ليلتان، أدركنا راكب من خلفنا فسألناه، فإذا هو يقول: أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمَّرت أهلها وأصابتهم فيها مصائب عظيمة.

قال أبو سفيان: فأقبل عليَّ أمية، فقال: كيف ترى قول النصراني يا أبا سفيان؟! قلت: أرى وأظن والله أن ما حدثك به صاحبك حق.

قال أبو سفيان: فقدمنا مكة، فقضيت ما كان معي، ثم انطلقت حتى جئت اليمن تاجرًا، فكنت بها خمسة أشهر، ثم قدمت مكة، فبينا أنا في منزلي جاءني الناس يُسلمون عليَّ، ويسألون عن بضائعهم، حتى جاءني محمد بن عبد الله وهند عندي تلاعب صبيانها، فسلم عليَّ ورحب بي، وسألني عن سفري ومقامي، ولم يسألني عن بضاعته، ثم قام.

(١) يعني: ابتداء أمره أنه يجتنب المظالم.

فقلت لهند: والله إن هذا ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها، وما سألني هذا عن بضاعته! فقالت لي هند: أو ما علمت شأنه؟ قلت وأنا فزع: ما شأنه؟! قالت: يزعم أنه رسول الله، فوقذتني[1]، وتذكرت قول النصراني فرجفت، حتى قالت لي هند: ما لك؟! فانتبهتُ فقلت: إن هذا لهو الباطل، لهو أعقل من أن يقول هذا، قالت: بلى والله إنه ليقولنَّ ذلك ويدعو إليه، وإن له لصحابة على دينه، قلت: هذا هو الباطل!

قال: وخرجت، فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بي قد لقيته، فقلت له: إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا، وكان فيها خير، فأرسلْ من يأخذها، ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي، فأبى عليَّ وقال: إذًا لا آخذها، قلت: فأرْسل فخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي، فأرسل إلى بضاعته فأخذها، وأخذت منه ما كنت آخذه من غيره.

قال أبو سفيان: فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن، ثم قدمت الطائف، فنزلت على أمية بن أبي الصلت، فقال لي: يا أبا سفيان، قلت: ما تشاء؟ قال: هل تذكر قول النصراني؟ فقلت: أذكره، وقد كان، فقال: ومن؟ قلت: محمد بن عبد الله، قال: ابن عبد المطلب؟ قلت: ابن عبد المطلب.. ثم قصصت عليه خبر هند، قال: فالله يعلم، وأخذ يتصبب عرقًا، ثم قال: والله يا أبا سفيان لعله، إن صفته لهي، ولئن ظهر وأنا حيٌّ لأطلبن من الله عز وجل في نصره عذرًا.

قال: ومضيت إلى اليمن فلم أنشب أن جاءني هنالك استهلاله[2]، وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبي الصلت بالطائف، فقلت: يا أبا عثمان، قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته، فقال: قد كان لعمري، قلت: فأين أنت منه يا أبا عثمان؟ فقال: والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدًا!

قال أبو سفيان: وأقبلت إلى مكة، فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة فوجدت أصحابه يُضربون ويحقرون، قال أبو سفيان: فجعلت أقول: فأين جنده من الملائكة؟! قال: فدخلني ما يدخل الناس من النفاسة[3]!

---

(١) يعني: كسرت نفسي وأحزنتني.

(٢) أي: ظهور دعوته.

(٣) النفاسة: التفاخر.

ذكره الحافظ ابن كثير، وقال: وقد رواه الحافظ البيهقي في كتاب الدلائل من حديث إسماعيل بن طريح به، ولكن سياق الطبراني الذي أوردناه أتم وأطول، والله أعلم.

ثم ذكر الحافظ ابن كثير رواية أخرى للطبراني من حديث أبي سفيان، وفيها أنه قال لأمية: وخرجت في ركب من قريش أريد اليمن في تجارة، فمررت بأمية، فقلت كالمستهزئ به: يا أمية، قد خرج النبي الذي كنت تنعته، قال: أما إنه حق فاتبعه، قلت: ما يمنعك من اتباعه؟ قال: ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف، إني كنت أحدثهن أني هو، ثم يريْنني تابعًا لغلام من بني عبد مناف!

ثم قال أمية: كأني بك يا أبا سفيان قد خالفته، ثم قد رُبطت كما يربط الجَدْي، حتى يؤتى بك إليه، فيحكم فيك بما يريد[1]!

وبعد، فهذا خبر عجيب فيه مواقف عالية لرسول الله ﷺ، كما أنه يشتمل على دلائل واضحات من علامات النبوة.

فمن ذلك ما جاء في هذه الرواية من أنه جاء لزيارة أبي سفيان، والسؤال عن حاله بعد السفر، ولم يسأله عن بضاعته كما سأله غيره، حتى أثار عجب أبي سفيان منه.

وهكذا فإن رسول الله ﷺ لا يجعل ماله أكبر همه؛ لأن له همًّا أكبر وأعظم من ذلك بكثير، إنه يحمل هم تبليغ رسالة ربه جل وعلا، وهداية الناس الحيارى والضالين إلى الصراط المستقيم، ثم المال - إن وجد - يكون مسخرًا لخدمة هذا الهدف، ولإعفاف النفس والأسرة، والإحسان إلى المحتاجين.

وموقف آخر يتعلق بالمال أيضًا، وهو أن أبا سفيان لمَّا عرض على رسول الله ﷺ ألا يأخذ منه مقابل التجارة بماله كما يأخذ من غيره؛ رفض وأبى أن يأخذ بضاعته إلا بعد أن يأخذ أبو سفيان حقه في ذلك.

وهذا مثال للعفَّة والقناعة، وهما من مكارم الأخلاق العالية، ومكارم الأخلاق من أهم الدعائم التي تقوم عليها الدعوة الناجحة.

---

(١) البداية والنهاية: ٢/ ٢٠٥- ٢٠٨، انظر: دلائل النبوة، للبيهقي: ٢/ ١١٦، والسيرة النبوية، لابن كثير، تحقيق الدكتور: مصطفى عبد الواحد، وقد صححت منه بعض أخطاء النص: ١/ ١٢٣.

كما أن في عزوف النبي ﷺ عن قبول عرض أبي سفيان هذا ترفُّعًا عن الخضوع للكفار؛ لأن من بُذل له المعروف يكون أسيرًا لباذله، فلا ينبغي لمسلم أن يكون لكافر عليه منة أو معروف.

وبهذا يبين لنا رسول الله ﷺ شيئًا من معالم الطريق في معاملة الكفار.

وفي هذا الخبر عبرة عظيمة في ذكر شيء من صفات النبي ﷺ في كتب أهل الكتاب، وكانت تلك الصفات من الشهرة بحيث علم بها المتنصِّرون من العرب، ولقد كانت آية عظيمة، يهتدي بها من تجرَّد قلبه من اتباع الهوى المنحرف، وفي بيان عظمة هذه الآية يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ [الشعراء: ١٩٧].

*****

العهد المكي
من البعثة إلى نهاية الهجرة
إشراقة النور الإلهي (بدء الوحي)

بينما كانت البشرية تعيش في دياجير الظلمات الحالكة، وتعاني من أنماط الحياة المهلكة، حيث ختم عليها الطغيان البشري الضاغط، والجهل العالمي الجاثم، والاستسلام للشهوات المنحرفة من غير رادع ولا زاجر. . إذا بشعاع النور الإلهي يهبط فجأة من السماء؛ لينير جنبات الأرض، يحمله الروح الأمين عليه السلام، فيفاجئ به سيد المرسلين ﷺ وهو في غار حراء، قد خلا للتأمل والتعبد بعيداً عن جلبة الناس وضجيجهم.

وإن أفضل من يحدثنا عن هذا الحادث العظيم الذي تغير له وجه التاريخ؛ أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها- حيث قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه (وهو التعبد) الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ، فقال: اقرأ، قال: «**ما أنا بقارئ**»، قال: «**فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد**(١)**، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ: فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني، فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾**، فرجع بها(٢) رسول الله ﷺ يرجف فؤاده.

---

(١) الغط بمعنى الضغط والمقصود منه تنبيه النبى ﷺ. ولئن كانت وسائل التنبيه عند العرب تتحدد بدلالات الألفاظ كالحض والاستفهام مثل قولهم هلا أنبئك وألا أنبئك، كما تتحدد بتغيير هيئة الجلوس، فإن الوسائل التى استخدمها جبريل عليه السلام كانت بالضغط الشديد ثلاث مرات، وما ذاك إلا لإشعار النبى ﷺ بأن ما هو مقدم على سماعه وتبليغه أمر في غاية العظمة، وإن تلقيه يحتاج إلى تفريغ الفكر من كل العلائق الدنيوية ليكون فى غاية الاستجماع والتركيز.

(٢) يعني بأول سورة العلق.

فدخل على خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- فقال: «**زَمِّلوني زمِّلوني**»، فَزَمَّلوه، حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة.. وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفسي**»، فقالت خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ابن عم خديجة، وكان امرءًا تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عمٍّ، اسمع من ابن أخيك، قال له ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى عليه السلام، يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجيَّ هم؟!**»، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا، ثم لم ينشب ورقة أن تُوفي، وفتر الوحي[1].

لقد كانت الأرض كلها تعيش في ذلك الزمن في ظلمات الجاهلية، فكانت بداية انطلاق النور الإلهي في تلك اللحظة التي خاطب بها جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ.

ولقد حلَّ ذلك النور في قلب رسول الله ﷺ حتى تحول إلى مصباح متحرك يضيء لمن حوله، وأصبح يراه من زالت عن عينيه الغشاوة، فينجذب إليه ويترقى بهديه نحو الكمال.

لقد كان وقع نزول الوحي شديدًا على رسول الله ﷺ كما هو واضح من هذا النص، على الرغم من أنه كان أشجع الناس وأقواهم قلبًا، كما دلت على ذلك الأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة؛ وذلك لأن الأمر ليس مخاطبة بشر لبشر، ولكنه كان مخاطبة عظيم الملائكة وهو يحمل كلام الله تعالى؛ ليستقبله من اصطفاه الله -جل وعلا- لحمل هذا الكلام وإبلاغه لعامة البشر.

لقد كان موقفًا رهيبًا، ومسؤولية عظمى لا يقوى عليها إلا من اختاره الله - تبارك وتعالى- لحمل هذه الرسالة وتبليغها.

---

(١) صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي - رقم ٣، صحيح مسلم - كتاب الإيمان - رقم ١٦٠.

ومما يصور رهبة هذا الموقف ما جاء في هذه الرواية من قول رسول الله ﷺ: «**لقد خشيت على نفسي**»! وقول عائشة -رضي الله عنها- في هذا الحديث: «فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها- فقال: «**زملوني زملوني**»، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع»!

ومما يبين شدة نزول الوحي على رسول الله ﷺ ما أخرجه الإمامان البخاري ومسلم - رحمهما الله - من حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: «ولقد رأيته (تعني رسول الله ﷺ) ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقًا»[1]!

وما أخرجه الإمام مسلم من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: «كان نبي الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كُرب لذلك وتربَّد وجهه»[2].

*****

(١) صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي - رقم ٢، صحيح مسلم - الفضائل رقم ٢٣٣٣.
(٢) صحيح مسلم، الفضائل رقم ٢٣٣٤.

أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة

إسلام خديجة بنت خويلد وجهودها في الدعوة

من المعروف أن المجتمع مكون من الرجال والنساء، وأنه كما أن للرجال جهوداً مشكورة في خدمة الإسلام، فإن للنساء جهوداً مشكورة كذلك، وإن كانت هذه الجهود قد تختلف في بعض أنواعها حسب اختلاف تكوين الرجال والنساء.

وأمامنا في هذه المرحلة التي يدور حولها الحديث مثلٌ من جهود المرأة الصالحة في حياة زوجها الداعية.

فحينما أنزل الله تعالى الوحي بواسطة جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ فوجئ به، كما تقدم في خبر بدء الوحي الذي أخرجه الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها؛ فكان موقف خديجة - رضي الله عنها - عالياً في تثبيت النبي ﷺ، حيث قالت: «والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»، ثم في ذهابها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وعرضها الموضوع عليه؛ رجاء أن تجد عنده ما يُسَرِّي عن النبي ﷺ ويقوي قلبه.

وهكذا كان موقف خديجة - رضي الله عنها - الذي يدل على قوة قلبها؛ حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر الخارق للعادة، ولعل ما كانت تسمعه من ابن عمها ورقة بن نوفل من انطباق صفات النبي المنتظر على محمد ﷺ كان له الأثر الأكبر في ثباتها ويقينها، حيث غاب عنها عامل المفاجأة، واستقبلت الأمر بهدوء وسكينة، ولا أدل على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة، وعرض الأمر عليه.

ومن أجل هذا التصديق برسالة رسول الله ﷺ من ورقة بن نوفل، ولَمَا صدر منه من ذلك الموقف الذي ثبَّت به النبي ﷺ؛ فإنه ﷺ قد شهد له بالجنة، كما جاء في رواية أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال: «**لا تسبُّوا ورقة، فإني رأيت له جنَّة أو جنتين**»، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وأقره الذهبي[1].

---

(١) المستدرك ٢/ ٦٠٩، وذكره الهيثمي من رواية الطبراني، قال: ورجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٩/ ٤١٦.

وذكر الصالحي أن البزار وابن عساكر رواياه بإسناد جيد، وقال: وروى الإمام أحمد بسند حسن عن عائشة، أن خديجة -رضي الله عنها- سألت رسول الله ﷺ عن ورقة، فقال: «**قد رأيتُه فرأيت عليه ثيابًا بيضًا، فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض**» قال: وروى أبو يعلى بسند حسن عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ سئل عن ورقة بن نوفل، فقال: «**أبصرتُه في بطنان الجنة وعليه السُّندس**»(١).

كما أن موقف خديجة من خبر الوحي يدل على سعة إدراكها؛ حيث قارنت بين ما سمعت وواقع النبي ﷺ، فأدركت أن من جُبل على مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبدًا، فقد وصفته بأنه يصل الرحم، وكون الإنسان يصل أقاربه دليل على استعداده النفسي لبذل الخير والإحسان إلى الناس، فإن أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه، فإن نجح في احتواء أقاربه وكسبهم بما له عليهم من معروف كان حريًا به أن ينجح في كسب الآخرين من البشر، وإن هو أخفق مع الأقربين كان إخفاقه مع الأبعدين من باب أولى.

ووصفتْه ببذل المعروف والإحسان، حيث قالت: «وتحمل الكَلَّ»، والكَلُّ هو العاجز الذي لا يستقل بأمر بنفسه، بل يحتاج لمعونة غيره.

كما وصفته بالكرم النادر المثال؛ حيث قالت: «وتُكسبُ المعدومَ»؛ يعني: وتعطي غيرك المال المعدوم؛ أي نفائس المال التي يعدم نظيرها، والَذي تسخو نفسه بنفائس المال سيعطي ما هو دون ذلك من باب أولى، وهذا من أبلغ الوصف في الكرم.

وخصَّت بالذكر إكرام الضيف وهو من الكرم؛ لسمو من يتصف بذلك عند العرب.

ثم وصفته بالنجدة عند الشدائد، حيث قالت: «وتعين على نوائب الحق»، وهذه صفة من يعيش لغيره أكثر مما يعيش لنفسه، وهي من أبرز صفات السادة النجباء.

وجاء في روايات أخرى عند البخاري: «وتصدُق الحديث وتؤدي الأمانة»، وهذه تكملة لسلسلة عظيمة من مكارم الأخلاق، قلَّما تجتمع في رجل واحد.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٢٤٤، وذكره الهيثمي من رواية أبي يعلي وقال: فيه مجالد، وهذا مما مدح من حديث مجالد وبقية رجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٩/ ٤١٦.

وفي آخر هذا الخبر موقف كريم لورقة بن نوفل - رحمه الله - في آخر لحظات من عمره، حيث ثبَّت النبي ﷺ وقوى قلبه بما أخبره به من أن الذي خاطبه هو صاحب السرِّ الأعظم؛ الذي يكون سفيراً بين الله تعالى وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

ومما يدل على أثر كلام ورقة في تثبيت قلب النبي ﷺ وطمأنته، ما جاء في رواية أخرى أخرجها ابن إسحاق، وفيها: «فرجعت (يعني خديجة رضي الله عنها) إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته بما قال لها ورقة، فسهل ذلك عليه بعض ما هو فيه من الهم بما جاءه»، وفي موضع آخر من الرواية: «ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله، وقد زاده الله عز وجل من قول ورقة ثباتًا، وخفَّف عنه بعض ما كان فيه من الهم»[1].

ولقد كان الباعث على الاطمئنان إلى كلامه علمه السابق بكتب أهل الكتاب التي فيها وصف مفصل لرسول الله ﷺ ومبعثه.

وهكذا تبيَّن لنا أثر المرأة الصالحة في نجاح الدعوة، وذلك في موقف خديجة - رضي الله عنها - وما قامت به من تثبيت قلب النبي ﷺ وهو يواجه الوحي لأول مرة.

وفي بيان مواقفها بعد ذلك يقول محمد بن إسحاق - رحمه الله -: وآمنت به خديجة بنت خويلد، وصدَّقت بما جاءه من الله، ووازرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله، وصدق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ، لا يسمع شيئًا مما يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عليه، وتصدِّقه وتهون عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى»[2].

لقد كانت خديجة - رضي الله عنها - تثبت قلب النبي ﷺ وتسكنه، وتهون عليه مخالفة الناس إياه، وكان يطلعها على جلية أمره مع المجتمع الذي يدعوه ويكابد صدوده وعداءه.

ولا شك أن الزوجة الصالحة المؤهلة لحمل مثل هذه الرسالة لها دور عظيم في نجاح زوجها في مهمته في هذه الحياة، وبخاصة الأمور التي يعامل بها الناس، وإن الدعوة إلى الله تعالى هي أعظم أمر يتحمله البشر، فإذا وُفق الداعية بزوجة صالحة ذات كفاءة فإن ذلك من أهم عوامل نجاحه مع الآخرين.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ١/ ١٤٦.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٤٥.

فالإنسان يقضي مع الناس جزءًا من وقته، ولكنه يقضي في بيته الجزء الأكبر، فإذا وفق بمثل هذه الزوجة فإنه يفضي إليها بما قام به من دعوة الناس وما واجهوه به من لين أو عنف، واستجابة أو امتناع، ويبثها همومه، ويشرح لها مشكلاته، وهي بما لديها من صلاح وكفاءة إذا وضع زوجها بها هذه الثقة ستبذل كل ما في طاقتها من تفكير ومقدرة على العمل، فتبدأ أولاً بتقوية قلبه وتخليصه شيئًا فشيئًا مما يعانيه من الهم والقلق، ثم تكون عونًا له على إكمال مهمته بنجاح، إلى جانب قيامها بمهمتها في الدعوة فيما يتعلق بالنساء، وقيام زوجها بتأييدها وتثبيتها، وإكمال ما تحتاج إليه لنجاحها في مهمتها، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»[1].

وخديجة - رضي الله عنها - قد قامت بدور مهم في حياة النبي ﷺ، لما لها من شخصية في مجتمع قومها، ولما جبلت عليه من الكفاءة في المجالات النفسية التي تقوم على الأخلاق العالية من الرحمة والحلم والحكمة والحزم.. وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

والرسول ﷺ إلى جانب ما حباه الله به من الكمالات البشرية في جميع المجالات، وإلى جانب كونه قبل ذلك محفوفًا بعناية الله - جل وعلا - وتأييده في كل خطوة يخطوها.. فإن الله تعالى وفقه بهذه الزوجة الصالحة؛ لأنه قدوة للعالمين، وخاصة الدعاة إلى الله تعالى، فقيام خديجة بذلك الدور الكبير إعلام من الله تعالى لجميع حملة الدعوة الإسلامية بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال من التأسي برسول الله ﷺ؛ حتى يتحقق لهم بلوغ المقاصد العالية التي يهدفون إليها.

ولقد كان رسول الله ﷺ مثالاً عاليًا للوفاء ورد الجميل لأهله، فقد كان يعامل خديجة - رضي الله عنها - بغاية الإكرام والتقدير حال حياتها، وظل يذكرها ويثني عليها بعد وفاتها، كما أخرج الإمامان البخاري ومسلم، من حديث علي بن أبي طالب رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة**»[2]، وبشرها ﷺ ببيت في الجنة حال حياتها، وأبلغها سلام الله جل وعلا وسلام جبريل عليه السلام، كما أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: أتى

---

(١) صحيح مسلم رقم ١٤٦٧، ص١٠٩٠، كتاب الرضاع.

(٢) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، رقم ٣٨١٥ (٧/ ١٣٣)، صحيح مسلم ١٨٨٦ رقم ٢٤٣٠، كتاب فضائل الصحابة.

جبريل عليه السلام النبي ﷺ، فقال: «يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتك، معها إناء فيه إدام - أو طعام أو شراب- فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومني، وبشِّرها ببيت في الجنة من قصب[1] لا صخب فيه ولا نصب»[2].

وتذكر عائشة - رضي الله عنها - وفاء النبي ﷺ لخديجة بعد وفاتها بقولها: «ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتُها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟! فيقول: «**إنها كانت وكانت.. وكان لي منها ولد**»[3]!

بل إنه أظهر البشاشة والسرور لأخت خديجة لما استأذنت عليه لتَذَكُّره خديجة، كما أخرج الإمام مسلم من حديث عائشة قالت: «استأذنتْ هالةُ بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة[4]، فارتاح لذلك، وقال: «**اللهم هالة بنت خويلد**»، فغرت، فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين[5]، هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرًا منها»[6]! وأخرجه الإمام أحمد بنحوه من غير ذكر هالةَ بنت خويلد، وزاد: فتمعَّر وجهه تمعُّرًا ما كنت أراه إلا عند نزول الوحي، أو عند المخيلة[7]؛ حتى ينظر أرحمة أم عذاب[8].

وذكره الحافظ ابن كثير، وقال: تفرد به أحمد، وهذا إسناده جيد[9].

وهذا يصوِّر مقدار غضب رسول الله ﷺ لخديجة، وحفظه حقها رضي الله عنها.

---

(١) يعني من لؤلؤ أو ذهب.

(٢) صحيح مسلم ١٨٨٧ رقم٢٤٣٢، كتاب فضائل الصحابة.

(٣) صحيح البخارى البخارى رقم ٣٨١٨، كتاب مناقب الأنصار (٧/ ١٣٢).

(٤) يعني لتشابه صوتيهما.

(٥) يعني لا أسنان لها من الكبر.

(٦) صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة رقم ٢٤٣٧ ص ١٨٨٩.

(٧) يعني السحاب.

(٨) مسند أحمد ٦/ ١٥٠.

(٩) البداية والنهاية ٣/ ١٢٦. وذكر نحوه الهيثمي عن الإمام أحمد والطبراني بعدة أسانيد وحسنها - مجمع الزوائد ٩/ ٢٢٤.

ونجد أن النبي ﷺ يُظهر الحفاوة بامرأة كانت تأتيهم زمن خديجة، ويبين أن حفظ العهد من الإيمان، وقد أخرج خبر ذلك الحاكم من طريق ابن أبي مليكة، عن عائشة - رضي الله عنها- قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: «**من أنت؟**»، قالت: أنا جثامة المزنية، فقال: «**بل أنت حسانة المزنية! كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟**»، قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال: «**إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حُسن العهد من الإيمان**»!

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، فقد اتفقا على الاحتجاج برواته في أحاديث كثيرة، وليس له علة، وأقرَّه الذهبي[1].

إن هذه الأخبار تعدُّ أمثلة مهمة في الدفاع عن أهل الفضل والتقدم في حال غيبتهم، فالمسلم يُحفظ له حقه في حال حضوره وغيبته، وفي حال حياته وموته؛ لأن الحفاظ على ذلك ليس مبعثه محاسبة صاحب الحق، وإنما مبعثه رقابة الله عز وجل في حقوق المسلمين أوَّلاً، ثم الوفاء لأصحاب المواقف العالية في بذل النفس والمال من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - ونصرة المسلمين.

وفي وصف عائشة -رضي الله عنها- غضب النبي ﷺ بالشدة، دليل على أن الغضب يكون محموداً إذا انتهكت حرمات الله تعالى أو حرمات المسلمين، مع امتلاك النفس؛ بحيث يتصرف المسلم بالحكمة، أما عدم الغضب والحالة هذه فإنه دليل على ضعف الإيمان، وعلى قدر الإيمان يكون التأثر والغضب فيما يتعلق بأمور الدين، بخلاف أمور الدنيا فإن الأمر يكون بضد ذلك.

هذا ومن مناقب خديجة - رضي الله عنها - أنها أول من آمن برسول الله ﷺ على الإطلاق، وهي أول من صلَّى معه.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم: أن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقِبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه

(١) المستدرك ١/ ١٥ - ١٦.

عين، فتوضأ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ليُريه كيف الطُّهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل توضأ، ثم قام به جبريل فصلى به، وصلى رسول الله ﷺ بصلاته، ثم انصرف جبريل عليه السلام.

فجاء رسول الله ﷺ خديجة، فتوضأ لها؛ ليريها كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله ﷺ، ثم صلى بها رسول الله ﷺ كما صلى به جبريل، فصلت بصلاته[1].

*****

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٤٨، وأخرجه الحافظ البيهقي من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق، وذكر نحوه - دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٦٠.

أول من أسلم

ذكرنا أن أول من أسلم على الإطلاق وآمن برسول الله ﷺ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

ثم أسلم عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، كما أخرج ابن هشام من طريق البكائي، قال: قال ابن إسحاق: ثم كان أوَّلُ ذَكَرٍ من الناس آمن برسول الله ﷺ معه وصدَّق بما جاءه من الله تعالى؛ علَيٌّ بن أبي طالبٍ بن عبد المطلب بن هاشم، رضوان الله وسلامه عليه، وهو يومئذ ابن عشر سنين.

وكان مما أنعم الله به على عليٍّ بن أبي طالب رضى الله عنه أنه كان في حِجْر رسول الله ﷺ قبل الإسلام.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج، قال: كان من نعمة الله على عليٍّ بن أبي طالب، ومما صنع الله له، وأراده به من الخير؛ أن قريشًا أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه -وكان من أيسر بني هاشم-: يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً، فنكْفُلهُما، فقال العبَّاس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفِّف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما عَقِيلاً فاصنعا ما شئتما، قال ابن هشام: ويقال: عقيلاً وطالبًا.

فأخذ رسول الله ﷺ عليًّا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه، فلم يزل عليٌّ مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبيًّا؛ فاتبعه عليٌّ رضي الله عنه؛ وآمن به وصدَّقه، ولم يزل جعفر عند العبَّاس حتى أسلم واستغنى عنه[1].

قال ابن إسحاق: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيًا من أبيه أبي طالب،

(١) وأخرج هذا الجزء من الخبر الحاكم في المستدرك ٣/ ٥٧٦.

ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا.

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يومًا وهما يُصليان؛ فقال لرسول الله ﷺ: يا بن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: «أي عمِّ، هذا دين الله، ودين ملائكته، ودين رسله، ودين أبينا إبراهيم (أو كما قال رسول الله ﷺ) بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عم، أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه»، أو كما قال، فقال أبو طالب: أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يُخْلَص إليك بشيء تكرهه ما بقيتُ.

وذكروا أنه قال لعلي: أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟

فقال: يا أبت، آمنت بالله وبرسول الله، وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته، فزعموا أنه قال له: أما إنه لم يدْعُك إلا إلى خير، فالزمْه[1].

وأخرجه الطبري من طريق سلمة بن الفضل الأبرش عن ابن إسحاق، وذكر مثله[2].

ولا شك أن دخول علي بن أبي طالب - على صغر سنه- في الإسلام الذي لم يكن يمثله إلا رسول الله ﷺ وخديجة، ومخالفته دين أبيه وأعمامه.. يُعدُّ موقفًا جليلاً.

ثم دخل في الإسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق: ثم أسلم زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزَّى بن امرئ القيس الكلبي، مولى رسول الله ﷺ، وكان أول ذَكرٍ أسلم بعد علي بن أبي طالب.

ثم ذكر ابن هشام خبر استرقاقه ومصيره إلى رسول الله ﷺ، وإعتاقه وتبنِّيه إياه، وذلك قبل أن يوحى إليه[3].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٠.
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣١٣.
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٢.

فهؤلاء الثلاثة: خديجة، وعليٌّ، وزيد، هم أول من أسلم، وكلُّهم كانوا في بيت النبي ﷺ، أما أول من أسلم خارج بيت النبي ﷺ فهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، كما سيأتي، وعلى ذلك يُحمل ما جاء من الأخبار عنه بأنه أول من أسلم، وذلك كالخبر الذي أخرجه الحاكم من حديث الشعبي قال: سألت ابن عباس - أو سئل-: من أول من أسلم؟ فقال: أما سمعت قول حسان رضي الله عنه:

إذا تذكرتَ شجواً من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعَلا
خير البرية أتقاها وأعدلُها ... بعد النبي وأوفاها بما حملا
الثاني التالي المحمودُ مشهده ... وأول الناس منهم صدَّق الرسلا[1]

****

(١) المستدرك ٣/ ٦٤ وسكت عنه الحاكم والذهبي.

إسلام أبي بكر واهتمامه بالدعوة

أسلم أبو بكر رضى الله عنه بدعوة من النبي ﷺ في أوائل المرحلة السرية.

قال ابن إسحاق بعدما ذكر إسلام خديجة وعليٍّ وزيد رضى الله عنه: ثم أسلم أبو بكر بن أبي قحافة.

قال: وكان رسول الله ﷺ يقول -فيما بلغني-: «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكَم حين ذكرته له وما تردَّد فيه».

وقوله «كبوة» أي: امتناع، و «عكم» أي: تلبث[1].

وبعد أن أسلم أبو بكر دعا إلى الله في هذه المرحلة الحرجة، حتى أسلم على يده شباب كان لهم دور كبير في مستقبل الجهاد والدعوة.

وقد ذكر محمد بن إسحاق - رحمه الله - شيئًا من مآثره في الدعوة، حيث قال: فلما أسلم أبو بكر رضى الله عنه أظهر إسلامه (يعني لخاصة من يثق به)، ودعا إلى الله تعالى وإلى رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر رجلاً مؤلفًا لقومه، محببًا سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير أو شر، وكان رجلاً تاجرًا، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله تعالى وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه.

ثم ذكر الخمسة الذين أسلموا على يديه في أول الإسلام؛ وهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم.

قال: فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له، فأسلموا وصلَّوا[2].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٥.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٤.

هذا النص يبين لنا شيئًا من مآثر أبي بكر رضى الله عنه في الدعوة إلى الإسلام، فهؤلاء الخمسة المذكورون الذين أسلموا على يديه، كلهم أصبحوا من المبشَّرين بالجنة، ومن أكابر أهل الحل والعقد في الإسلام، وهم إضافة إلى عليٍّ بن أبي طالب رضى الله عنه كانوا أهل الشورى الذين جعل عمر رضى الله عنه الخلافة فيهم.

فكم هي فضائل أبي بكر رضى الله عنه، وكم هي سوابقه على المسلمين! إنه لم يكتف بأنه غامر بنفسه فاتَّبع دينًا لا يمثله خارج بيت النبي ﷺ أحد، وفي ذلك ما فيه من المغامرة، بل صار يدعو من يثق بهم سرًا إلى اتباع هذا الدين الجديد، فاستجاب له هؤلاء العظماء الذين صار لهم في مستقبل الإسلام شأن كبير.

ولا شك أن الذين أسلموا واتَّبعوا النبي ﷺ وهو وحيد ليس معه أحد، أو معه النفر اليسير.. لا شك أن لهم مكانة وفضلاً كبيراً في الإسلام، فإن الإقدام على دين جديد يهدم الأديان السائدة في المجتمع أمر له خطورته، وهؤلاء الذين أقدموا على الإسلام آنذاك يدركون خطر ما توجهوا إليه؛ لذلك أمرهم النبي ﷺ بكتمان دعوتهم، وظلوا يدعون إلى الله تعالى سرًا حتى أذن لهم النبي ﷺ بإعلان الدعوة بعد ثلاث سنوات من البعثة.

وإن استمرار هؤلاء الصحابة على دعوتهم السرِّية ومقدرتهم على كتمانها طيلة هذه المدة أمر يستحق الإشادة والتقدير، والدراسة والتأمل، خاصة مع ملاحظة عيشهم في مجتمع صغير بالقياس إلى حياة المدن في العصر الحاضر، فكم هي الإحراجات التي مروا بها مع أهليهم وقومهم؟ وكيف استطاعوا التخلص منها؟!

إن كتمان الدعوة يحصر انتشارها بلا شك، وكان هذا واقعًا اضطراريًّا تمليه هيمنة الباطل، ولكنه مع ذلك يصنع رجالاً كاملين في مواهبهم وقدراتهم؛ لأنهم يحسون من أول خطوة في الطريق أنهم يواجهون معركة بعيدة المدى، فيخرجهم هذا الشعور من حياة الدَّعة والسكون التي قد تُعطل بعض المواهب والقدرات، وهكذا تمت تربية أولئك العظماء في تلك الفترة.

وفي قوله عن أبي بكر: «وكان رجال من قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته».. إشارة إلى عامل مهم من عوامل نجاح الداعية،

وهو أن يكون متعدِّد المواهب، له مشاركة في عدد من الجوانب التي تربطه بالمجتمع، فيأتي إليه في كل جانب طائفة من الناس، فإذا توفر لديه مع ذلك الدافع القوي الذي يجعله يبذل كل طاقته في سبيل دعوته، فإنه يعمل عمل عدد من الناس، وينجح في اجتذاب الكثير منهم.

هذا وقد بذل أبو بكر ماله في سبيل خدمة الدعوة الإسلامية، كما جاء في خبر ذكَره الحافظ ابن حجر، عن يعقوب بن سفيان، بإسناده عن عروة بن الزبير رضي الله عنه، قال: «أسلم أبو بكر وله أربعون ألفًا، فأنفقها في سبيل الله ...»! ثم ذكر المماليك السبعة الذين أعتقهم[1].

*****

(١) الإصابة ٢/ ٣٣٤.

دعوة بني عبد المطلب
وموقفٌ لعلي رضي الله عنه

أخرج الإمام أحمد بإسناده عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال: «جمع رسول الله ﷺ - أو قال: دعا رسول الله ﷺ- بني عبد المطلب، فيهم رهط كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرق»[1].

قال: فصنع له مُدًّا من طعام، فأكلوا حتى شبعوا، قال: وبقي الطعام كما هو كأنه لم يُمسَّ، ثم دعا بَغمْر[2]، فشربوا حتى رووا، وبقي الشراب كأنه لم يمس، أوْلم يُشرب، فقال: «**يا بني عبد المطلب، إني بعثت لكم خاصة وإلى الناس بعامة، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم، فأيُّكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي؟**»، قال: فلم يقم إليه أحد، قال: فقمت إليه وكنت أصغر القوم، قال: فقال: «**اجلسْ**» قال: ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه، فيقول لي: اجلس، حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي[3].

وهكذا بدأ النبي ﷺ بعشيرته الأقربين فدعاهم إلى الإسلام وحماية دعوته، فلم يستجب منهم غير عليٍّ بن أبي طالب رضى الله عنه، على الرغم من مشاهدتهم تلك المعجزة الظاهرة من تكثير الطعام والشراب وبقائه بعد أكلهم وشربهم وكأنه لم يُمس، مع أن فيهم - كما في الرواية - من اشتهروا بكثرة الأكل والشرب.

لقد اجتمع في ذلك الموقف أكابر بني عبد المطلب، ومع رهبة الموقف فإن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه أبدى استعداده ثلاث مرات لبيعة النبي ﷺ، رغم صغر سنه، وهذا دليل واضح على قوة إيمانه وشجاعته المبكرة، التي أصبحت فيما بعد مضرب الأمثال.

---

(١) الجذعة الشاة الصغيرة، والفرق بفتح الراء مكيال بتسع لستة عشر رطلاً، وقوله «كلهم» أي كل واحد منهم.

(٢) يعني بشراب كثير.

(٣) مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٢/ رقم ١٣٧١، وقال أحمد شاكر رحمه الله: إسناده صحيح. وذكره الإمام الهيثمى من رواية الإمام أحمد وقال: رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٨/ ٣٠٢.

مثل من ثبات الصحابة على دينهم واعتزازهم به
(خبر سعد بن أبي وقاص وأصحابه)

قال ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلّوا، ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عَليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلَحْيِ بعير فشجَّه، فكان أول دمٍ هُريق في الإسلام[1].

هذا الخبر يدل على مقدار ما واجهه الصحابة رضى الله عنهم في مبدأ الإسلام من محاصرة المشركين ومتابعتهم إياهم؛ حتى اضطروهم إلى الاستخفاء بصلاتهم في الشِّعاب النائية، ومع ذلك وصل إليهم المشركون، فناكروهم، وعابوهم، وقاتلوهم.

إن محافظة هؤلاء الصحابة على دينهم وحماسهم في الدعوة إليه مع ذلك الاضطهاد الشديد من أعدائهم دليل على قوة إيمانهم، وهو موقف جليل يُكتب في سجلهم الحافل بالمواقف العالية.

وهكذا رأينا هؤلاء العظماء الأبطال قد اضطروا إلى الاستخفاء بأبرز شعائر دينهم وهي الصلاة، فأصبحوا يقيمونها في الشعاب والأودية؛ خوفًا من سخرية المشركين وبطشهم، ومع ذلك لم يتركوا الصلاة، فكيف بالمسلمين الذي أقيمت لهم المساجد العامرة بالمصلِّين، المزودة بكل وسائل الراحة والنشاط، ومع ذلك يهجرها طائفة من المسلمين زهدًا فيها، وإيثارًا لمتاع الدنيا ولهوها؟!

إنه أمر منكر عجيب يدل على البون الشاسع بين مستوى إيمان الصحابة رضى الله عنهم وإيمان من جاء بعدهم، والتفوق الواضح للصحابة في مجال الفهم والتطبيق.

كما أن هذا النص يدلنا على مستوى العزة التي ارتفع إليها المسلمون آنذاك على الرغم من ضعفهم وقلتهم، حيث قام أولئك النفر بمدافعة من داهمهم من المشركين ولم يستخذوا لهم، وفي ذلك إعزاز ظاهر للإسلام، وتثبيت لوجوده في الأرض.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٦١، وتاريخ الإسلام للذهبي ١/ ١٤٧.

مثل من تواضع النبي ﷺ
(إســلام عبد الله بن مسعود)

لم يقتصر منهج رسول الله ﷺ الحكيم المشتمل على اللطف والتودد على الأكابر وزعماء القبائل، بل نجده يعامل بهذا المنهج الغلمان الضعفاء.

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام أحمد بإسناده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «كنت أرعى غنمًا لعقبة بن أبي معيط، فمرَّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر، فقال: «يا غلام، هل من لبن؟» قلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال: «فهل من شاة لم ينزُ عليها الفحل؟»، فأتيته بشاة، فمسح ضرعها، فنزل لبن! فحلبه في إناء، فشرب، وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: «اقلصْ»، فقلص، قال: ثم أتيته بعد هذا، فقلت: يا رسول الله، علِّمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي وقال: «يرحمك الله، فإنك غَلِيِّم معلَّم»[1].

فالرسول ﷺ لم يحتقر هذا الغلام الذي لم يكن ينتمي لقبيلة قريش، وليس له عشيرة بمكة، بل اهتم به وقدَّر ما يتمتع به من خلق الأمانة الذي يدل على أنه عنصر زكي، فأثنى عليه بالعلم والفهم، وأقرأه القرآن حتى أصبح بعد ذلك من قراء الصحابة وفقهائهم.

*****

(١) وقد ذكر الحافظ الهيثمي هذا الخبر من رواية الإمام أحمد وأبي يعلي، وقال: ورجالهما رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ١٧.
وهكذا رواه أبو داود الطيالسي رحمه الله تعالى بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه، وذكر مثله. وذكره الحافظ ابن كثير والحافظ الذهبي، وصحح الذهبي إسناده - البداية والنهاية ٣/ ٣٢، سير أعلام النبلاء ١/ ٤٦٥.

مثل من الثبات على الشدائد
(إسلام خالد بن سعيد بن العاص)

أخرج الإمام البيهقي بإسناده عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، قال: كان إسلام خالد - يعني ابن سعيد بن العاص- قديمًا، وكان أول أخوته أسلم، وكان بدء إسلامه أنه رأى في النوم أنه وُقف به على شفير النار، فذكر من سعتها ما الله أعلم به، ويرى في النوم كأن أباه يدفعه فيها، ويرى رسول الله ﷺ أخذ بحقويه لا يقع، ففزع من نومه، فقال: أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق.

فلقي أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فذكر ذلك له، فقال أبو بكر: أريدَ بك خيرٌ، هذا رسول الله ﷺ فاتَّبعْه، فإنك ستتبعه وتدخل معه في الإسلام، والإسلام يحجزك أن تدخل فيها، وأبوك واقع فيها.

فلقي رسول الله ﷺ وهو بأجياد، فقال: يا محمد، إلام تدعو؟ فقال: «**أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصرُ ولا ينفعُ ولا يدري من عبده ممن لم يعْبده**»! فقال خالد: فإني أشهدُ أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فسُرَّ رسول الله ﷺ بإسلامه، وتغيب خالد، وعلم أبوه بإسلامه، فأرسل في طلبه، فأتي به، فأنَّبه وضربه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه، وقال: والله لأمنعنك من القوت، فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ، فكان يلزمه ويكون معه[1].

وهكذا هدى الله تعالى خالد بن سعيد بن العاص بتلك الرؤيا المباركة، فأخرجه بها من ظلمات الشرك إلى أنوار التوحيد، وكان يقينه بالإسلام قويًا؛ حيث لم يتزعزع إيمانُه لما وبخه أبوه وضربه وهدَّده بقطع رزقه، مع أن أباه كان من سادة أهل مكة الكبار، بل أعلن خالد استغناءه عن أبيه، واعتماده الكامل على الله تعالى وحده، وثبت رضى الله عنه على حياة الفقر؛ لأنه أحس بأن الإسلام هو سعادة الروح، وأيقن بأن الحياة الدنيا لا تساوي شيئًا أمام الآخرة، فلتكن الدنيا كما يريد الكفار المتسلطون حياة بؤس وفاقة على المسلمين، فإن الموازين ستتبدل في الآخرة فيصبح المسلمون هم أصحاب الحياة السعيدة الخالدة، وقد تتبدل في الدنيا حينما ينتصر المسلمون وتكون لهم الدولة والهيمنة في الأرض.

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٧٢، وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من هذا الطريق وذكر مثله - المستدرك ٣/ ٢٤٨. وذكره الحافظ ابن كثير من رواية البيهقي بإسناده - البداية والنهاية ٣/ ٢٤٨.

الدعوة بالتبشير والإنذار
(الجهر بالدعوة ومخاطبة عموم قريش)

كان رسول الله ﷺ يتوجه في دعوته إلى أهم الدوافع التي تدفع أصحاب العقول السليمة إلى الاستجابة لدعوة التوحيد، وذلك بإثارة الاهتمام نحو مستقبل الناس بعد الموت، حيث الحياة الخالدة في الآخرة، وذلك في النعيم المقيم لمن أجاب واهتدى، والعذاب المقيم لمن عصى وغوى.

ومع تصديق الكفار له في كل أخباره الدنيوية لما تواتر عنه من الأمانة والصدق، فإن أغلبهم ردَّ دعوته، وكاده بعض عشيرته الأقربين.

ومن الأمثلة التي تبين موقفه هذا وموقف قومه منه ما أخرجه الإمام البخاري من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد إلى الجبل فنادي: «**يا صباحاه!**»، فاجتمعت إليه قريش، فقال: «**أرأيتم إن حدثتُكم أن العدوَّ مصبحكم أو ممسِّيكم؛ أكنتم تصدقوني؟**»، قالوا: نعم، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟! تبًّا لك! فأنزل الله عز وجل: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)** ﴾ [سورة المسد][1].

وكذلك ما أخرجه الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ دعا رسول الله ﷺ قريشًا، فاجتمعوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «**يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النَّار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار.. فإنِّي لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبُلُّها ببَلالها**»[2].

فهاتان الروايتان مع روايات أخرى تبين لنا الموقف الصعب الذي كان يواجهه رسول الله ﷺ من قومه، وقد أمره الله تعالى بدعوة عشيرته الأقربين، وإن في الأمر بالبدء

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير رقم ٤٩٧١، (الفتح ٨/ ٧٣٧).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان رقم ٢٠٤ ص ١٩٢. وقوله «رحمًا سأبلها ببلالها» يعنى قرابة سأصلها بما يشفيها من الصلة.

بدعوة الأقربين حكَمًا عظيمة، منها أن بقاء الظلام المحيط بالنور من قرب يحول دون رؤية ذلك النور بوضوحٍ للآخرين فكان تبديده عاملاً مهمًّا في انتشار ذلك النور، فالبدء بدعوة الأقربين؛ لأنهم محل حكم الناس على الداعية، فإذا لم ينجح مع أقاربه كان لذلك أثرٌ في الصدِّ عن دعوته، هذا إضافة إلى أن الدعوة برٌّ وإحسان، وأحق الناس ببر الإنسان أقاربه.

ولقد استهل النبي ﷺ كلامه بمقدمة تُلزمهم بالإذعان لو كانوا متجردين من الهوى والتقليد، وذلك أنه صور نفسه نذيراً لقومه ينذرهم من جيش قد اقترب منهم: «**أرأيتم لو حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم؛ أكنتم مصدقي؟**»، قالوا: نعم، فهذا يعني أنهم على استعداد لقبول إنذاره فيما يتعلق بدنياهم، فلما اطمأن إلى ذلك ذكر لهم ما جمعهم من أجله، وهو إنذارهم مما هو أجل خطرًا، وأعظم عاقبة، فقال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»؛ يعني: فكما صدقتموني في وقايتكم من مكروه الدنيا؛ فصدقوني في وقايتكم من مكروه الآخرة الذي هو أشد وأبقى.

وفي هذا دلالة على أن من أساليب الدعوة التي سلكها رسول الله ﷺ: الاستشهاد بالأمر المعلوم الذي تمت القناعة به على الأمر الجديد الذي يريد الداعية أن يدعو الناس إليه.

فأهل مكة المكرمة آنذاك كانوا يصدقون رسول الله ﷺ في كل ما يقوله من أخبار الدنيا؛ ولذلك لقبوه بالأمين، فاعتمد هذه القناعة الثابتة عندهم لدعوتهم إلى الإيمان بالآخرة.

كما أن في هذا دلالة على أنه مما يجب أن يتزود به الداعية: الرصيد الأخلاقي الكبير الذي يجبر خصومه على الاعتراف بفضله في هذا المجال؛ ليتوصل بذلك إلى نشر دعوته السامية.

ولكنَّ أفراد عشيرته ﷺ هؤلاء صمتوا فلم يجيبوا ولم يستجيبوا لدعوته، بل إن عمه أبا لهب لم يكتف بذلك، وإنما ردَّ عليه بهذا الرد القاسي السيئ!

ومع هذه المعاملة القاسية فإن النبي ﷺ ظلَّ صامدًا في دعوته، غير عابئ بتحدِّي قومه ولا بصدودهم.

وإذا تأملنا دعوة النبي ﷺ نجد أنه قد بدأ دعوته هذه بتذكير قومه بالنار، وحثهم على استنقاذ أنفسهم منها، وهذا دليل على أهمية هذا الجانب في الدعوة.

وقد جاءت آيات الدعوة متضمنة التحذير من النار، وأحيانًا تأتي بالجمع بين الإنذار من النار والتبشير بالجنة.

هذا وإن قيام الدعاة إلى الله تعالى بالتركيز على شرح محاسن الإسلام أمر حسن، ولكن يجب أن يكون المقام الأول في الدعوة: الاهتمام بإيقاظ الناس واجتذابهم عن طريق التبشير والإنذار.

وقد بين الله سبحانه أن هذه مهمة الرسل عليهم السلام؛ ﴿ **رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء: ١٦٥]، فمن اهتم بهذا الجانب من الدعوة كان من سالكي منهج الرسل عليهم السلام، وحريٌّ به أن يستجاب له إذا خلصت نيته.

إنه لا شك أن الإسلام يصل بالفرد وبالمجتمع الإنساني إلى أعلى المستويات في جميع المجالات؛ الأخلاقية، والتربوية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، وغيرها مما تقوم عليه الحياة الكاملة؛ لأن الإسلام دين الله تعالى، وهو سبحانه أعلم بما يُصلح عباده في كل أمور حياتهم، بخلاف المناهج البشرية؛ التي مهما علت لا يمكن أن توضع في مجال موازنة مع تشريع الله سبحانه خالق البشر.

وإنه من المفيد جدًا في مجال الدعوة أن يقوم الدعاة ببيان عظمة الإسلام في كل هذه المجالات، من ناحية أثرها في إصلاح الفرد والمجتمع في هذه الحياة الدنيا، ولكن يجب أن لا يكون هذا هو الأساس الذي تقوم عليه الدعوة، بحيث يُغفل الدعاة مجال الدعوة بالتبشير بالجنة والتحذير من النار، أو يقصرون في ذلك، وذلك لأنه بإمكان الكفار أن يدَّعوا بأن لديهم مناهج تقوم بإصلاح الفرد والمجتمع في المجالات المذكورة، وأن يضربوا على ذلك أمثلة واقعية من مجتمعهم المتقدم نسبيًا في هذه المجالات أو بعضها، وهم لا يدركون عظمة الإسلام في هذه المجالات أو بعضها وإن كانت هذه المناهج البشرية لا ترقى إلى مستوى مناهج الإسلام فى العظمة لثبات مناهج الإسلام وتعرُّض المناهج البشرية للتبديل والتغيير بين حين وآخر وهم لا يدركون إلا بعد التعمُّق في دراسته، وقليلاً ما يتم ذلك، ولكن لا يستطيعون أن يدَّعوا بأن مناهجهم تلك تُوصل مطبقيها إلى دخول الجنة والنجاة من النار، فتبقى مناهجهم بذلك مناهج دنيوية، ويبقى في شعور كل مفكر عاقل فراغ في التفكير فيما سيؤول إليه بعد الموت، ولن يجد في كل الحضارات المادية والأفكار البشرية إجابة على سؤاله هذا، وإنما يجده في الدين الإسلامي وحده.

إن في اهتمام النبي ﷺ المتكرر طوال حياته الدعوية بالتبشير بالجنة والتحذير من النار دلالة على أهمية غرس الوازع الديني في النفوس؛ حتى يصل المسلم إلى درجة عالية

من التضحية بالدنيا من أجل الآخرة، فأما حينما يكون الإعجاب بالإسلام والانجذاب إليه لكونه يحقق لمعتنقيه مناهج عالية في مجالات الحياة الدنيا فقط، فإنه لا ينتظر من هؤلاء أن يُضحوا بحياتهم الدنيوية من أجل الإسلام.

وفي قوله ﷺ: «**فإني لا أملك لكم من الله شيئًا**» دلالة واضحة على أنه لا ينجي الإنسان يوم القيامة إلا إيمانه وعمله الصالح، وإذا كان النبي ﷺ لا ينقذ من النار حتى أقرب أقاربه، فإن ذلك لا يكون لغيره من البشر مهما بلغوا من الولاية والصلاح.

وقوله ﷺ: «**غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها**» يعني: إذا كنت لا أستطيع إنقاذكم من النار إلا بدخولكم في الإسلام، فإن ذلك لا يمنعني من أن أصلكم في الدنيا؛ لقرابتكم مني.

وهذا الاستثناء له أثره الكبير في إبقاء حبل الوصل مع عشيرته؛ لأنهم وهم كفار لا يهتمون بالآخرة، حيث لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، وإنما يهتمون بالحياة الدنيا، وقد أعلن لهم رسول الله ﷺ أنه لن يتغير شيء من حياته عما كان عليه من صلة رحمه، فلعل بقاء هذا الخيط الذي يعرفونه ويقدرونه يكون سببًا في إيمانهم بما أنكروه من دعوته ولم يقدروه حق قدره.

وإذا كان النبي ﷺ قد أبقى على صلته مع أقاربه وهم كفار، فمن باب أولى لعموم المسلمين وخاصة للدعاة أن يُبقوا على صلتهم بأقاربهم المسلمين وإن أنكروا منهم بعض السلوك، أو جابهوهم بشيء من النفور والتحدي، من أجل أن تكون هذه الصلة سببًا بعد ذلك في عودتهم إلى الالتزام بالدين واحترام دعاته المخلصين.

وهذا لا يتعارض مع المنهج التربوي الذي سنَّه رسول الله ﷺ في معاملة بعض المذنبين، كما حدث مع الثلاثة المتخلفين يوم تبوك؛ حيث كان الهجر شاملاً حتى مع أقاربهم.. لا يتعارض مع ذلك؛ لأن المقصود من الأمرين واحد وهو الدعوة.

فالإبقاء على صلة الرحم مع من وقعت منهم المخالفات الشرعية يقصد به دعوتهم إلى الهداية والاستقامة، وكذلك الهجر التربوي حينما يكون هو العلاج الناجح في تزكية النفوس وعلاجها من أدوائها، فإن المقصود به دعوة أولئك المقصرين إلى الاستقامة على الصراط المستقيم، وكلا المنهجين الدعويين داخلان في الدعوة إلى سبيل الله تعالى بالحكمة.

مثل من الدعوة الناجحة والتضحية الخالدة
(إسلام عمرو بن عبسة السُّلمي)

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن أبي أمامة قال: قال عمرو بن عبسة السلمي: «كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا، جرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «**أنا نبي**»، فقلت: وما نبي؟ قال: «**أرسلني الله**»، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «**أرسلني بصلة الأرحام، وكسْر الأوثان، وأن يُوحد الله لا يُشرك به شيء**»، قلت له: فمن معك على هذا؟ قال «**حرٌّ وعبد**»، قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك، قال: «**إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟! ولكن ارجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني**»، قال فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول ﷺ المدينة، وكنت في أهلي، فجعلت أتخبر الأخبار، وأسال الناس حين قدم المدينة، حتى قدم عليَّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سِرَاعٌ، وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك.

فقدمت المدينة فدخلت عليه، فقلت: يا رسول الله، أتعرفني؟ قال: «**نعم، أنت الذي لقيتني بمكة**»... وذكر بقية الحديث، وفيه أنه سأله عن الصلاة والوضوء[1].

ففي هذا الخبر موقف يُذكر لعمرو بن عبسة؛ حيث آمن بالنبي ﷺ في أوائل دعوة الإسلام وفي حال قلة المسلمين وكثرة أعدائهم، ولم يقتصر على ذلك، بل أبدى رغبته في مصاحبة النبي ﷺ والبقاء معه في ذلك الظرف العصيب، ولكن النبي ﷺ قبل منه إسلامه، وأبان له بأنه لا يستطيع أن يتحمَّل مشقة الصحبة والاتباع في ذلك الوقت؛ لما سيتعرض له من الأذى الشديد على يد الكفار، ولكون النبي ﷺ لا يستطيع حمايته.

وقد جاء في هذا الخبر أن عمرو بن عبسة سأل النبي ﷺ عن الإسلام بعد أن علم بأنه رسول الله ﷺ، فقال: وبأي شيء أرسلك؟ فقال النبي ﷺ: «**أرسلني بصلة الأرحام،**

(١) صحيح مسلم ٥٦٩ رقم ٨٣٢، كتاب صلاة المسافرين.

وكسْرِ الأوثان، وأن يُوحد الله لا يشرك به»، وفي هذا دليل على أهمية صلة الأرحام، حيث كان هذا الخلق العظيم من أوليات دعوة الإسلام، مع اقترانه بالدعوة إلى التوحيد.

وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوة مع أنها كانت أقدس شيء عند العرب، وفي هذا دلالة على أهمية إزالة معالم الجاهلية، وأن دعوة التوحيد لا تستقر ولا تنتشر إلا بزوال هذه المعالم.

وفي اهتمام النبي ﷺ المبكِّر بإزالة الأوثان، مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت، دلالة على أن أمور الدين لا يجوز تأخير بيانها للناس بحجة عدم القدرة على تطبيقها، فالذين يبينون للناس من أمور الدين ما يستطيعون تطبيقه بسهولة وأمن، ويحجمون عن بيان أمور الدين التي يحتاج تطبيقها إلى شيء من المواجهة والجهاد، هؤلاء دعوتهم ناقصة، ولم يقتدوا برسول الله ﷺ الذي واجه الجاهلية وطغاتها وهو في قلة من أنصاره، والسيادة في بلده لأعدائه.

وجاء في هذا الخبر أن عمرو بن عبسة سأل رسول الله ﷺ عن أتباعه، فقال: «**حرٌّ وعبْد**»، وقد فسر ذلك عمرو بأن المراد: أبو بكر وبلال، وهذا يحتمل أمرين:

الأول: أن الكلام على ظاهره، وأنه لم يسلم في ذلك الوقت خارج بيت النبي ﷺ إلا أبو بكر وبلال، وبناء على ما سبق من أن أبا بكر هو أول من أسلم، يكون بلال ثاني رجل أسلم خارج البيت النبوي.

الثاني: أن هناك مسلمين آخرين، ولكن النبي ﷺ أخفى ذكرهم؛ لكونهم يخفون إسلامهم عن قومهم، بينما كان أبو بكر ظاهر الإسلام، وبلال قد ظهر إسلامه، فذكرهما لكونهما لا يتضرران بهذا الذكر، وهذا هو الظاهر؛ لأن عمرو بن عبسة علم عن الإسلام وهو في بلاده، وظهور الإسلام خارج مكة، وعلم القبائل به كان بعد الجهر بالدعوة، بينما كان المسلمون الأوائل قد دخلوا في الإسلام قبل الجهر بالدعوة كما سبق في إسلام الخمسة على يد أبي بكر.

ومما يدل على تأخر وفادة عمرو بن عبسة قوله في وصف النبي ﷺ: «**جُرِءاء عليه قومُه**»، وقول النبي ﷺ: «**ألا تَرى حالي وحالَ الناس؟!**»، فهذا يدل على أن وفادته كانت بعد حدوث الخلاف والعداء من المشركين لرسول الله ﷺ، وذلك بعد أن جهر بنقد الجاهلية التي كان عليها قومه، وهذا النقد كان بعد الجهر بالدعوة، بل إنه قد جاء في هذا الخبر التصريح بكسر الأوثان وهذا كان بعد الجهر بالدعوة.

مواقف في الدعوة وإيثار الإسلام

قدوم أسرة زيد بن حارثة لطلبه

أخرج الحاكم -رحمه الله- بإسناده عن أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله عنه قال: كان حارثة ابن شراحيل تزوج امرأة في طيئ من نبهان، فأولدها جبلة، وأسماء، وزيداً، فتوفيت وأخلفت أولادها في حجر جدهم لأبيهم، وأراد حارثة حملهم، فأتى جدهم، فقال: ما عندنا فهو خير لهم، فتراضوا إلى أن حمل جبلة وأسماء وخلَّف زيداً.

وجاءت خيل من تهامة من بني فزارة، فأغارت على طيئ، فسبَت زيداً فصيَّروه إلى سوق عكاظ، فرآه النبي ﷺ من قبل أن يُبعث، فقال لخديجة - رضي الله عنها-: «**يا خديجة، رأيت في السوق غلامًا من صفته كيت وكيت - يصف عقلاً وأدبًا وجمالاً- لو أن لي مالاً لاشتريته**»، فأمرت ورقة بن نوفل، فاشتراه من مالها، قال: «**يا خديجة، هبي لي هذا الغلام بطيب من نفسك**» فقالت: يا محمد، أرى غلامًا وضيئًا، وأخاف أن تبيعه أو تهبه، قال النبي ﷺ: «**يا موفَّقةُ، ما أردت إلا لأتبناه**»، فقالت: نعم يا محمد، فربَّاه وتبنَّاه، فكان يقال له: زيد بن محمد».

فجاء رجل من الحي، فنظر إلى زيد، فعرفه، فقال: أنت زيد بن حارثة، قال: لا، أنا زيد بن محمد، قال: لا، بل أنت زيد بن حارثة من صفة أبيك وعمومتك وأخوالك كيت وكيت، قد أتعبوا الأبدان وأنفقوا الأموال في سبيلك، فقال زيد:

أحنُّ إلى قومي وإنْ كنت نائيًا ... فإني قطين البيت عند المشاعر

وكفُّوا من الوجه الذي قد شجاكم ... ولا تُعملوا في الأرض فعل الأباعر

فإني بحمد الله في خير أسرة ... خيار مَعَدٍّ كابرًا بعد كابر

فقال حارثة لما وصل إليه:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحيٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدري وإنِّي لسائل ... أغالك سهل الأرض أم غالك الجبل

فياليت شعري هل لك الدهر رجعة فحسبي من الدنيا رجوعك لي بَجَل[1]
تُذكِّرنيه الشمس عند طلوعها ويعرض لي ذكراه إذا عسعس الطَّفَل[2]
وإذا هبت الأرواح هيجن ذكره فيا طول أحزاني عليه ويا وجل
سأعمل نص العيس[3] في الأرض جاهداً ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
فيأتي أو تأتي عليَّ منيتي وكل امرئ فَانٍ وإن غَره الأمل

فقدم حارثة بن شراحيل إلى مكة في إخوته وأهل بيته، فأتى النبي ﷺ في فناء الكعبة في نفر من أصحابه فيهم زيد بن حارثة لما نظروا إلى زيد عرفوه وعرفهم، ولم يقم إليهم إجلالاً لرسول الله ﷺ.

فقالوا له: يا زيد، فلم يجبهم، فقال له النبي ﷺ: «**منْ هؤلاءِ يا زيدُ؟**».

قال: يا رسول الله، هذا أبي، وهذا عمِّي، وهذا أخي وهؤلاء عشيرتي.

فقال له النبي ﷺ: «**قم فسلِّم عليهم يا زيد**»، فقام فسلم عليهم وسلَّموا عليه، ثم قالوا له: امض معنا يا زيد.

فقال: ما أريد برسول الله ﷺ بدلاً ولا غيره أحدًا.

فقالوا: يا محمد، إنَّا معطوك بهذا الغلام ديات فسمِّ ما شئت، فإنَّا حاملوه إليك.

فقال: «**أسألكم أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنِّي خاتم أنبيائه ورسله وأرسله معكم**»، فتأبَّوا وتلكؤوا وتلجلجوا، فقالوا: تقبل منا ما عرضنا عليك من الدنانير؟ فقال لهم: «**هاهنا خصلة غير هذه؛ قد جعلت الأمر إليه، فإن شاء فليقم، وإن شاء فليرحل**».

قالوا: ما بقي شيء، قالوا: يا زيد، قد أذن لك الآن محمد، فانطلق معنا، قال: هيهات هيهات، ما أريد برسول الله ﷺ بدلاً، ولا أوثر عليه والدًا ولا ولدًا، فأداروه وألاصُوه واستعطفوه، وأخبروه عمَّن وراءه من وَجْدهم، فأبى وحلف ألا يلحقهم.

قال حارثة: أما أنا فأواسيك بنفسي، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأبى الباقون.

(١) بجل أي حسبي. (٢) أي أقبل الغروب.
(٣) العيس هي الإبل، يعني أنه سيجتهد في البحث عن زيد.

وأخرج الحاكم أيضًا من طريق أبي عمرو الشيباني: حدثني جبلة بن حارثة - أخو زيد بن حارثة- قال: أتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، ابعث معي أخي زيدًا، فقال: «**هو ذا هو، إن أراد لم أمنعه**»، فقال زيد: لا والله لا أختار عليك أحدًا، قال جبلة: إن رأي أخي أفضل من رأيي.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهو شاهد للحديث الماضي، وأقره الذهبي[1].

في هذا الخبر مواقف:

الأول: في اهتمام النبي ﷺ بالدعوة إلى الإسلام؛ حيث اغتنم فرصة قدوم عشيرة زيد بن حارثة رضى الله عنه ليدعوهم إلى الإسلام، خاصة وأنهم في فرحة غامرة بلقاء ابنهم، وفي شوق بالغ لرجوعه معهم، فلم يطلب من أسرة زيد مالاً، وإنما جعل مقابل سماحه بالعودة معهم أن يدخلوا في الإسلام.

والموقف الثاني: في تعفُّفه ﷺ وترفُّعه عن الأموال التي حكَّموه في عددها في مقابل تخليه عن زيد، فلما فات ما قصده من إسلامهم جعل الخيار إلى زيد نفسه، ففرحوا بذلك واعتبروه غاية التكرم والتفضل.

والموقف الثالث: في تعلق زيد بن حارثة برسول الله ﷺ وحبه الشديد له الذي فاق حب والده وعشيرته، حيث رفض الذهاب معهم رغم إلحاحهم الشديد، ويترتب على ذلك إيثار الحب في الله تعالى على جميع العلاقات الدنيوية التي أبرزها حب القرابة.

لقد كان شعور زيد -كأي إنسان- ميل فطري إلى الأهل والعشيرة والوطن الذي درج فيه وهو في صباه، ولقد كان في إمكانه أن يذهب مع أسرته ويبقى على إسلامه، ولكن حبه للنبي ﷺ قد ملأ قلبه، حتى أصبح حبه لأبيه وأسرته لا يساوي شيئًا عند المقارنة بحبه لسيده ورسوله ﷺ؛ لذلك قال: هيهات هيهات، ما أريدُ برسول الله ﷺ بدلاً، ولا أؤثر عليه والدًا ولا ولدًا، فكان مصممًا في قراره على البقاء في مكة من اللحظة الأولى التي عرض عليه فيها أبوه العودة إلى بلده، ولم يصدر منه أي تردد في هذا الأمر.

---

(١) المستدرك ٣/ ٢١٤.

نماذج من قوة تأثير النبي ﷺ بالقرآن
(تأثُّر بعض زعماء قريش/ تأثر وفد النصارى)

لقد كان كثير من المشركين مقتنعين بأن ما جاء به رسول الله ﷺ حق، وأنه من عند الله تعالى، ولقد كانوا على يقين بأن القرآن كلام الله تعالى، وأنه ليس من كلام البشر، ولكن كان يمنع من أصرَّ منهم على الكفر من الدخول في الإسلام هواهم المنحرف، ولقد اعترف بعضهم بنداء عقولهم نحو الاعتراف بصدق النبي ﷺ، كما اعترفوا بأن هوى أنفسهم قد غلبهم، فأصروا على ما هم فيه من الباطل.

ومما جاء في هذا المعنى ما أخرجه محمد بن إسحاق - رحمه الله تعالى - من حديث الإمام الزهري أنه حدَّث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي؛ حليف بني زهرة.. خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسًا ليستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرَّقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياءً أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياءً ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها، فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك.

قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

فقال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشَّرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركَب، وكنا كفَرسَي رهان، قالوا: منَّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟! والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه! فقام عنه الأخنس وتركه[1].

في هذا الخبر مثلٌ من قوة تأثير رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم على السامعين، فهؤلاء فطاحل الكفر يتسللون سرًّا؛ ليستمع كل واحد منهم قراءته ليلاً، مدفوعين إلى هذه المغامرة بما أُخذُوا به من جاذبية بيانه وهيئته الأخاذة وهو يتلو كتاب الله تعالى، وبما يحتوي عليه هذا الكتاب العظيم من إعجاز في بيانه ومحتواه.

وبعد أن استمع هؤلاء النفر لقراءة النبي ﷺ وقعوا في صراع نفسي بين تغليب منطق العقل وتغليب منطق الهوى والعاطفة، ثم قرَّروا تغليب جانب الهوى والعاطفة في النهاية[2]!

وهذا نوع من الضعف في التفكير والانحطاط في درجات الإنسانية، حيث ينحدر الإنسان إلى خلائق البهائم العجماوات، ويعطل الاستفادة من عقله الذي وهبه الله إياه في أقدس وأعظم أمر يجب أن يفكِّر فيه؛ وهو مستقبله بعد الموت.

وفي هذا الخبر مثل من الاعتراف بالحق، ثم الإصرار على الباطل، وهذه نهاية الصراع بين منطق الهوى ومنطق العقل، وإذا انحطَّ الإنسان إلى هذا الدرك أصبح مختومًا على قلبه، فلا يدرك غالبًا إلا ما يتلاءم مع هواه؛ ولهذا يصدر من مثل هذا كثير من السلوك الذي يزدريه أهل العقل السليم.

وفي هذا الخبر بيان سبب من أهم أسباب الضلال؛ وهو الاعتصام بالمجد الدنيوي، واعتبار الجاه والمنزلة في الدنيا هدفًا يسعى إليه، فإذا استقر ذلك في القلب أصبح عقيدة يسعى صاحبها إلى تنميتها والدفاع عنها، وأصبح تفكيره محصوراً فيها، مصروفًا عن سماع الحق والتفكير فيه، وبهذا يكون الجاه والمجد الدنيوي من أشد الأوثان التي تصرف عن عبادة الله تعالى.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢١، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٠٦، البداية والنهاية ٣/ ٦٢، وذكره الصالحي من رواية الحافظ محمد بن يحيي الذهلي في الزهريات عن الزهري عن سعيد بن المسيب وصحح إسناده، سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٥٢.

(٢) يعني في نهاية هذه القصة، وينبغي أن يعلم أن أبا سفيان قد أسلم يوم فتح مكة.

ومن أمثلة قوة تأثير النبي ﷺ بالقرآن ما أخرجه الإمام البيهقي من حديث عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ، فقرأ عليه القرآن فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبلَه، قال: قد علمتْ قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، قال: وماذا أقول فيه؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئًا من هذا، والله إن لقَوْله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعْلَى، وإنه ليحطم ما تحته!

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني أفكِّرْ فيه، فلما فكَّر، قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً** ﴾ [المدثر: ١١]، ثم ذكر طرقًا أخرى مرسلة، وقال: وكل ذلك يؤكد بعضه بعضًا[1].

وقد جاء في رواية مقاربة أخرجها ابن إسحاق - رحمه الله - أن الوليد بن المغيرة، اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر الموسم، فقال: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحداً ولا تختلفوا، فيكذِّب بعضكم بعضًا، ويرد قولكم بعضه بعضًا.

فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا فيه رأيًا نقول به، فقال: بل أنتم، فقولوا أسمع.

فقالوا: نقول: كاهن، فقال: ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

فقالوا: فنقول: مجنون، فقال: ما هو بمجنون، ولقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٩٨، وذكره الحافظ ابن كثير من رواية البيهقي - البداية والنهاية ٣/ ٥٩.
وأخرجه الحاكم من حديث ابن عباس وقال: هذا الحديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه، وأقره الحافظ الذهبي - المستدرك ٢/ ٥٠٦.

قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول ساحر، قال: فما هو بساحر، لقد رأينا السحَّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عُقدهم.

قالو: ما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله طلاوة، وإن أصله لَعَذْق[1] وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحر جاء بقول هو سحر، يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسُبُل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إيَّاه، وذكروا لهم أمره، فأنزل الله عز وجل في الوليد بن المغيرة في ذلك من قوله: ﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾ [المدثر: ١١- ٣٠][2].

قال ابن إسحاق: وأنزل الله عز وجل في النفر الذين كانوا معه يصنِّفون له القول في رسول الله ﷺ، وفيما جاء به من عند الله تعالى: ﴿**كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الحجر: ٩٠ - ٩٣].

---

(١) قال ابن هشام: ويقال: لغَدَق.

(٢) وقوله تعالى: (وحيدًا) يعني أن الله تعالى خلق الوليد بن المغيرة وحيدًا لا مال له ولا ولد فرزقه المال والولد وفي هذا تبكيت له على كفران النعمة. وقوله (صعودًا) يعني عذابًا شاقًا.

وقوله (فقتل كيف قدَّر) يعني قاتله الله ما أسوأ تفكيره فهو تعجب إنكاري من تقديره الفاسد.

وقوله (ثم عبس) يعني قطب وجهه (وبسر) زاد وجهه تقطيبًا وهو يستلهم فكره المعوج ليسعفه بما يفتري به على رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: فجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها[1].

وقوله: «وإن أصله لعذق» قال السهيلي: وقول الوليد: «إن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة»، استعارة من النخلة التي ثبت أصلها وقوي، وطاب فرعها إذا جني، والنخلة هي العذق بفتح العين، ورواية ابن إسحاق أفصح من رواية ابن هشام؛ لأنها استعارة تامة، يشبه آخر الكلام أوله، ورواية ابن هشام: إن أصله لغَدَق، وهو الماء الكثير[2].

وما جاء في رواية البيهقي من قوله: «لمُغدق»، لعلها لغَدق، كما جاء في الرواية التي حكاها ابن هشام.

وهكذا تبيَّن لنا من هذا الخبر عظمة النبي ﷺ وقوته في التأثير بالقرآن على سامعيه، فالوليد بن المغيرة كبير قريش، ومن أكبر سادتهم، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبر والتعاظم فإنه قد تأثر بالقرآن ورق له، واعترف بعظمته، ووصفه بذلك الوصف البليغ المؤثر.

وفي هذا الخبر بيان لصورة من صور المكر الذي كان يقوم به فرعون هذه الأمة أبو جهل، من التنفير عن الإسلام، فكان كلما رأى رجلاً من أشراف قريش قد مال إلى الإسلام، ابتكر من أنواع المكر ما يستطيع به التأثير عليه؛ لإدراكه بأن موازين القوى تتغير بانضمام عدد من الأشراف إلى الإسلام، وقد كان الوليد بن المغيرة من أكابر قريش سنًّا ومنزلة، وقد أظهر إعجابه بما سمع من القرآن، ووصفه بذلك الوصف البليغ الذي صدر منه وهو في حال استجابة لنداء العقل وتحرُّر من نداء العاطفة، فلما دخل في تفكيره كلام أبي جهل غلب عليه نداء العاطفة؛ ففضل البقاء على ميراث الآباء والأجداد وإن كان ضلالاً، وحجب نداء العقل السليم والتفكير المتزن.

وفي هذا الخبر بيان أثر دعوة رسول الله ﷺ البالغ على الكفار، حيث حملهم ذلك على الخروج عن مألوف العقلاء، ولا شك أن سلوك رسول الله ﷺ الحكيم، وطهارة

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٦٨، وأخرجه البيهقي من طريق ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس . . وذكر مثله - دلائل النبوة ٢/ ٩٩ - ٢٠٠.

(٢) الروض الأنف ٣/ ٧٩.

سمعته من أي شائبة من الرذائل، بعد توجيه الله سبحانه إياه.. حمل الكفار على اختلاق تُهَم لا أصل لها، فعقدوا لذلك مجلسًا أعلى لتزوير الحقائق، ثم صاروا يفندونها لوضوح بطلانها ورثاثة نسيجها.

وقد استقر رأيهم على اتهام رسول الله ﷺ بالسحر، مع اعترافهم ببُعْد ما بين فحوى كلامه والسحر، إلا أنهم بعد إعمال الفكر وجدوا نوع تشابه بين أثر دعوة رسول الله ﷺ وما يحدثه السحر؛ من التفريق بين الرجل وابنه وزوجه وعشيرته، فتنفسوا الصعداء مما كانوا يعانون منه من الضيق وانغلاق الفكر، فاجتمعوا على اتهامه بالسحر، وهم يعلمون أن هناك فرقًا بين أثر دعوة الحق وأثر السحر الباطل، إلا أنهم لفرط عداوتهم وإفلاس حجتهم تعلقوا من ذلك بأوهى من خيوط العنكبوت.

وهكذا أهل الباطل في كل زمان؛ ماهرون في إلصاق التُّهم المزيفة بالدعاة إلى الله تعالى، ولكن سرعان ما ينكشف باطلهم، ويبطل كيدهم؛ لأنهم مهما عملوا لا يملكون الهيمنة على عقول الناس، فإذا قارن العقلاء بين نصاعة دعوة الحق، وطهارة دعاته من الرذائل، وسمو مقاصدهم، وطموحهم دائمًا نحو المعالي من صالح الأعمال.. تبين لهم الصفو من الكدر، والحق من الباطل، وزاد تعلقهم بدعاة الحق، والتزامهم بتوجيهاتهم الحكيمة.

وفي هذا الخبر مثل من نشاط دعاة الباطل في نشر باطلهم وحمايته، مع أنهم لا يرجون من ورائه إلا متاع الدنيا ومجدها الزائل، وهذا دافع لأهل الحق إلى أن يضاعفوا من جهدهم في نشر الحق والدفاع عنه؛ لأنهم يرجون من الله ما لا يرجو أولئك الكفار.

ولئن كانت العاقبة التي يرجوها الكافر من هذه التضحية هي التمكين في الأرض، فإن ذلك يحصل للمؤمنين إذا أخلصوا في دعوتهم كما وعدهم الله تعالى، مع ما أعده الله لهم في الآخرة من النعيم المقيم، والنجاة من العذاب الأليم.

ومن أمثلة قوة تأثير النبي ﷺ بالقرآن ما كان من وفد النصارى الذين أسلموا لما سمعوا القرآن.

قال ابن إسحاق - رحمه الله تعالى-: ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً - أو قريب من ذلك- من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة،

فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلَّموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له، وآمنوا به، وصدَّقوا وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره.

فلما قاموا عنه، اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيَّبكم الله من ركْب! بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم؛ لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم؛ وصدقتموه بما قال! ما نعلم ركبًا أحمق منكم! أو كما قالوا، فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً[1].

وهكذا لما كان هؤلاء النصارى قد تجردوا من الهوى المنحرف، وأقبلوا وهم يريدون معرفة الحق الذي تحدثت عنه كتب أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام، ورأوا هذا الحق متمثلاً ببعثة رسول الله ﷺ.. فإنهم قد تأثروا بسماع القرآن، وبكوا خشوعًا لله تعالى، وآمنوا برسوله ﷺ، وعرفوا يقينًا أنه النبي الذي بشر به أنبياؤهم عليهم الصلاة والسلام.

ولكن طغاة المشركين لم يعجبهم هذا الموقف، ولما كانوا مفلسين في الحجة فإنهم لم يحاولوا إقناع أولئك النصارى بالعدول عن الإسلام؛ ليقينهم بالفشل في ذلك، ولكنهم حاولوا إفراغ ما في نفوسهم من الحقد على رسول الله ﷺ وعلى دعوته، فسخروا من ذلك الوفد وانتقصوهم، ولما كان أولئك النصارى قد جمعوا بين تهذيب دينهم السابق وما وقر في نفوسهم من اليقين بدين الإسلام، فإنهم لم ينزلوا إلى مستوى أولئك المتجبرين المستكبرين، بل خاطبوهم بهدوء وسكينة، وأشعروهم بأنهم على قناعة تامة بما آمنوا به.

*****

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤١٢ - ٤١٣.

مثل من دعوة رسول الله ﷺ المؤثرة
(إسلام ضماد الأزدي ورجل من بني عامر)

لقد كان رسول الله ﷺ عظيم النجاح في دعوته، بليغًا في التأثير على من خاطبه، حيث يؤثر على من جالسه بهيئته وسمته ووقاره قبل أن يتكلم، ثم إذا تحدث أسر سامعيه بمنطقه البليغ المتمثل من العقل السليم، والعاطفة الجياشة بالحب والصفاء، والنية الخالصة في هداية الأمة بوحي الله تعالى.

وإن من أبرز الأمثلة على قوته في التأثير بالكلمة المعبِّرة والأخلاق الكريمة، ما كان من موقفه مع ضماد الأزدي الذي وفد إلى مكة، وتأثر بدعاوى المشركين عن رسول الله ﷺ، حتى وقر في نفسه أنه مصاب بالجنون كما يتهمه بذلك قومه.

وقد أخرج الإمام مسلم - رحمه الله- من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما- أن ضمادًا الأزدي قدم مكة، وكان من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الريح (يعني يعالج من الجنون)، فسمع سفهاء مكة يقولون: إن محمدًا مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعلَّ الله يشفيه على يدي.

قال: فلقيه، فقال: يا محمد إنِّي أرقي من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد**».

قال: فقال: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرَّات، قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس[1] البحر.

---

(١) ذكر الإمام النووي أنه ضبط هذه الكلمة من وجهين: أولهما ناعوس والثاني قاموس، وذكر أن هذا هو الأشهر عند غير مسلم، وعليه سار أبو مسعود الدمشقي في أطراف الصحيحين والحميدي في الجمع بين الصحيحين، وذكر أن هذا هو الموافق لكلام أهل اللغة وأن معناه وسط البحر وقعره ولجته - شرح النووي على صحيح مسلم ٦/ ١٥٧-.

قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام، قال: فبايعه، قال رسول الله ﷺ: **وعلى قومك**، قال: وعلى قومي.

قال: فبعث رسول الله ﷺ سرية[1]، فمروا بقومه، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئًا؟ قال رجل من القوم أصبت منهم مطهرة، قال: ردوها؛ فإن هؤلاء قوم ضماد[2].

في هذا الخبر بيان أن المشركين كانوا يتهمون رسول الله ﷺ بالجنون، فهل كان وصفه بذلك مجرد تهمة ألصقها به أعداؤه من غير أن يسوِّغوها بأسباب يتوقعون أنها مقنعة؟

قد تكون هذه التهمة غير مسوغة بذلك، وإنما هي مجرد رأي خطر لبعض زعمائهم؛ لينفروا الناس من سماع دعوة رسول الله ﷺ، فتبعهم على ذلك عامتهم.

وقد تكون مسوغة بمخالفة ما عليه جمهور الناس، والقيام بتحدي من يملكون القوة والهيمنة والتضحية من أجل المبدأ بالمال والنفس، فيرى بعض الناس أن العقل يقتضي مسايرة الناس وطلب السلامة في النفس والمال، وأنَّ إهدار ذلك، وتعريض النفس للهلاك والمال للضياع، من أجل المحافظة على مبدأ يخالف ما عليه الناس.. نوع من الجنون.

ومن هذا الباب اتهام المشركين أبا بكر بالجنون حينما عرَّض نفسه للأذى وهو يدافع عن رسول الله ﷺ، كما سيأتي.

ولذلك ترتفع نغمات المنافقين في كل زمن، فيتهمون دعاة الإسلام الذين يقاومون الباطل، ويتعرضون من أجل رفع دعوة الحق لضياع الأموال والتشرد والسجون والقتل أحيانًا.. يتهمونهم بالجنون، لا على أنهم قد فقدوا عقولهم بالكلية، ولكن على أنهم فقدوا نوعًا من العقول يراها هؤلاء المنافقون وأشباههم من ضعفاء الإيمان هي العقول السليمة الجديرة بحمل هذا الاسم؛ هذه العقول هي التي ترعى مصالحها الدنيوية، وتساير جميع الأوضاع التي تعيش فيها، سواء كانت الهيمنة لأهل الحق أو كانت لأهل الباطل.

---

(١) يعني بعد الهجرة.

(٢) صحيح مسلم ص ٥٩٣، رقم ٨٦٨.

فالتخلي عن المال من أجل الحفاظ على المبدأ السامي يُعدُّ عند هؤلاء ضربًا من الجنون.

والنظر إلى الدنيا والتفكير الدائم في تدبير الأموال وسياسة تشغيلها وصرفها هو عين العقل عند هؤلاء، ويستوي عندهم من يُبعثر أمواله في الطيش والتهور، ومن ينفق أمواله في سبيل الله تعالى، فكلاهما عند هؤلاء سفيه قاصر العقل، بينما يكون الحكم في الإسلام على الأول بأنه قاصر العقل سفيه، يجب الحجر عليه، أما الثاني فإنه كامل العقل، حيث قدم ماله ليكسب في الآخرة أضعافًا مضاعفة من الأجر، ويستحق الثناء والشكر بما قدَّم من ماله لخدمة دينه وإخوانه المسلمين.

هذا وقد وجدت من كلام علماء التفسير ما يؤيد هذا التوجيه، وذلك فيما رُوي عن الحسن البصري - رحمه الله- أنه فسَّر اتهام المشركين ذلك لرسول الله ﷺ بالضلال، قال: وذلك أنهم لم يريدوا بالمجنون الذي يخرق ثيابه ويهذي، بل لأن النبي ﷺ خالف أهل العقل في نظرهم، كما يقال: ما لفلان عقْل[1].

وقال الحسن أيضًا في هذا المعنى: لقد رأيت رجالاً لو رأيتموهم لقلتم مجانين[2]. يخاطب بذلك أهل الدنيا في عصره من المسلمين، ويريد بالرجال من رآهم من الصحابة رضي الله عنهم، ويقصد بهذا الكلام أن أهل الدنيا في عصره لو رأوا الصحابة في زهدهم في الدنيا، وإقبالهم على الآخرة، وتنافسهم في الجهاد وطلب الشهادة، والإنفاق في سبيل الله تعالى.. لاتهموهم بالجنون.

وفي هذا الخبر بيان اتصاف رسول الله ﷺ بصفتي الصبر والحلم؛ وهما من أهم الصفات اللازمة للنجاح في الدعوة، فهذا الرجل وهو ضماد الأزدي قد قدم مكة وهو يعتقد أن رسول الله ﷺ مجنون؛ وذلك لكثرة ما يبث قومه عنه من دعاوى كاذبة في القبائل، وحيث إنَّ ضمادًا يعالج من ابتلي بالجنون فإنه قد عرض على النبي ﷺ أن يعالجه من ذلك.

وهذا موقف يثير غضب من اتهم بذلك عادة، ويتبع ذلك توبيخ المتكلم به، إن لم يحصل ما هو أشد من ذلك، ولكن رسول الله ﷺ الذي جبله الله تعالى على مكارم الأخلاق قد استقبل الأمر بحلم وهدوء مما أثار إعجاب ذلك الرجل، وجعله مهيئًا

(١)، (٢) فتاوى ابن تيمية ١٦/ ٧٢.

لقبول ما سيدعوه إليه؛ ولذلك ما إن بدأ النبي ﷺ كلامه بالمقدمة التي يستفتح بها بعض خطبه حتى أعلن ذلك الرجل أن الكلام الذي سمعه لا يشبهه ولا يدانيه كلام الشعراء، ولا كلام الكهان والسحرة؛ فأسلم في تلك الساعة.

وهذا شاهد على فصاحة النبي ﷺ وقوة بيانه، وانبعاث كلامه من قلب مُلئ إيمانًا ويقينًا وحكمة؛ حيث فاض ذلك على غُرر بيانه، فأصبح آسرًا لسامعيه، وجاذبًا لأصحاب القلوب المتجردة إلى اتباعه.

ولئن كان كثير من الناس اليوم لا يتأثر بهذا الكلام وأمثاله، فهذا ليس لعيب في الكلام، وإنما هو لتدني مستوى المتلقي في الذوق والوجدان وفهم اللغة العربية، أو لعدم صدور ذلك الكلام من قلب متأثر به، أو لهما جميعًا.

وفي سرعة إسلام ذلك الرجل دلالة على أن الإسلام هو دين الفطرة، وأن النفوس إذا تجردت من الضغوط الداخلية التي حمل عليها اتباع الهوى، والضغوط الخارجية؛ التي من أبرزها هيمنة الطغاة من الأكابر الذين يرسخون في النفوس رهبتهم، وتقديس مبادئهم الضالة في قلوب الناس، من غير أن يكون لهم اختيار وتفكير.. إذا خلت النفوس من ذلك فإنها غالبًا تتأثر وتستجيب؛ إما بسماع قول مؤثر، أو الإعجاب بسلوك قويم.

وفي طلب النبي ﷺ البيعة من ضماد لقومه دلالة على مبلغ اهتمامه ﷺ بدعوته، وذلك باغتنام كل فرصة ينتج عنها تقدم في هذه الدعوة، فقد لاحظ سرعة إقبال ذلك الرجل على الإسلام وقوة قناعته به، فدفعه ذلك إلى أخذ البيعة منه لقومه، وذلك وعد مؤكد منه بحمل قومه على الإسلام، ولا شك أن من بايع النبي ﷺ نيابة عن قومه سيبذل كل ما يملك من طاقة في جذب قومه إلى هذا الدين.

وفي هذا بيان واضح لأهمية الدعوة إلى الله تعالى؛ حيث جعلها النبي ﷺ قرينة الالتزام الشخصي، فقد بايع ضماد رسول الله ﷺ على الالتزام بالدين، فلم يكتف رسول الله ﷺ بذلك، بل أخذ منه البيعة على دعوة قومه إلى الإسلام؛ لأن دعوتهم متعينة عليه.

فالدعوة فرض كفاية، إذا قام بها من يكفي سقط الوجوب عن بقية الأمة، وإذا لم يتم ذلك أثم كل من كان أهلاً لهذا الأمر، وإذا تعينت على واحد بعينه كانت فرض عين، كما هو الحال في هذا الخبر.

ومن المعلوم أن من دخل في الإسلام يكون في جوٍّ رَوْحاني قوي، ويدفعه الندم على ما فات من أيامه وهو في ضلال على مضاعفة الجهد في خدمة هذا الدين الذي هداه الله إليه، فيكون لديه استعداد قوي لبذل الجهد في هذا المجال.

ويشبه هؤلاء المسلمين الجدد في هذه الحيوية والاندفاع نحو العمل المنحرفون من المسلمين الذين منَّ الله عليهم بالتوبة والهداية، فإنهم لا يشعرون بانتمائهم الحقيقي للإسلام إلا بعد استنارة قلوبهم بالهدى؛ ولذلك فإنهم يندفعون بقوة نحو العمل الصالح والدعوة إلى الإسلام.

وإن مما يُوصَى به مجالسة التائبين؛ لاكتساب قوة الإيمان والحيوية الدافعة إلى العمل الصالح؛ وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: جالسوا التوابين فإنهم أرقُّ شيء أفئدة[1].

وهنا تأتي براعة الموجهين في الدعوة، حيث يحاولون جهدهم الإفادة من هذه الطاقات المتدفقة، وتوجيهها نحو الالتزام الصحيح بالإسلام، وبذل الجهد في دعوة الناس إليه، وخاصة في مجتمع الأقران الذين كانوا قبل ذلك تجمعهم الزمالة والصداقة.

وهم في كل ذلك إنما يتأسون برسول الله ﷺ الذي كان يوجه الطاقات، ويغتنم كل الفرص المتاحة للدعوة.

فهل يفهم المسلمون هذا المعنى الجليل، فيسارعوا إلى بذل جهدهم في الدعوة إلى هذا الدين والدفاع عنه؟

ويشبه خبر ضماد الأزدي من بعض الجوانب ما أخرجه ابن حبان - رحمه الله- من طريق سالم بن أبي الجعد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «جاء رجل من بني عامر إلى النبي ﷺ كأنه يداوي ويعالج، فقال: يا محمد، إنك تقول أشياء؛ هل لك أن

(١) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ١٢٠.

أداويك؟ قال: فدعاه رسول الله ﷺ إلى الله، ثم قال له: «**هل لك أن أريك آية؟**»، وعنده نخل وشجر، فدعا رسول الله ﷺ عذقًا منها، فأقبل إليه وهو يسجد ويرفع رأسه، ويسجد ويرفع رأسه، حتى انتهى إليه ﷺ فقام بين يديه، ثم قال له رسول الله ﷺ: «**ارجع إلى مكانك**»، فرجع إلى مكانه، فقال العامري: والله لا أكذبك بشيء تقوله أبدًا، ثم قال: يا آل عامر بن صعصعة، والله لا أكذبه بشيء يقوله»، قال: والعذق: النخلة[1].

فهذا الرجل العامري يتطبب ويعالج المرضى، ولما سمع أهل مكة يتهمون رسول الله ﷺ بالجنون تقدم إليه وعرض عليه أن يداويه من ذلك.

ولكن جواب رسول الله ﷺ للعامري اختلف عن جوابه لضماد الأزدي، فقد كان جوابه لضماد يقوم على الفصاحة والبيان وجزالة المعاني، وهذا يعني أن النبي ﷺ قرأ من حال ضماد أنه ممن يؤثر فيهم الأدب الرفيع والمعاني السامية، فبادره بذلك الجواب الذي هزَّ كيانه، وأخضع جنانه، وأمثال ضماد هم الأكثرون في حياة العرب آنذاك، ولذلك كان جُلُّ دعوة النبي ﷺ قائمًا على الإبداع في هذا المجال.

أما ذلك العامري، فقد قرأ النبي ﷺ من حاله أنه من أهل العاطفة القوية، والخضوع للأمور الحسية، فعرض عليه آية مشاهدة تُخضع من رآها، ممن تجرد من الهوى إلى الإذعان لها والتسليم لصاحبها بأنه ليس من البشر العاديين.

وهكذا تتنوع أساليب النبي ﷺ في الدعوة حسب فهمه لمداخل النفوس وطرق التأثير عليها، فهو القدوة العليا في ذلك، ومنه يجب أن تؤخذ مناهج الدعوة وأساليبها.

*****

(١) موارد الظمآن ٥٢٠، وذكره الحافظ الهيثمي وقال: رواه أبو يعلي، ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن الحجاج الشامي وهو ثقة - مجمع الزوائد ٩/ ١٠.

مثل من قدرة النبي ﷺ على اختراق حصار الأعداء
(إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي)

لقد كان حصار الأعداء لدعوة الإسلام شديداً محكمًا، حيث لم يكتفوا بتنفير ساكني مكة من رسول الله ﷺ وتشويه سمعته عندهم، بل صاروا يتلقَّون الوافدين إليهم ليسمِّموا أفكارهم، وليحولوا بينهم وبين سماع كلامه والتأثر بدعوته.

وإن من أبرز الأمثلة على ذلك ما جرى منهم مع الطفيل بن عمرو الدوسي، وقد أخرج خبره محمد بن إسحاق - رحمه الله- حيث قال: وكان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه[1]؛ يبذل لهم النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه، وجعلت قريش حين منعه الله منهم يحذِّرونه الناس ومن قدم عليهم من العرب.

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدِّث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلاً شريفًا شاعراً لبيبًا، فقالوا له: يا طفيل، إنك قَدمْت[2] بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرَّق جماعتنا، وشتَّت أمرنا، وإنما أمره كالسحر يفرِّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنَّه ولا تسمعنَّ منه شيئًا.

قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئًا ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كُرْسفًا؛ فرقًا[3] من أن يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه! قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، قال: فقمت منه قريبًا، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، قال: فسمعت كلامًا حسنًا، قال: فقلت في نفسي: واثُكل أمي! والله إنِّي لرجل لبيب شاعر، وما يخفى عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟! فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته.

---

(١) يعني من العداوة والإيذاء.

(٢) وفي رواية أنهم قالوا: «إنك امرؤ شاعر سيد» - سير أعلام النبلاء ١/ ٣٤٥.

(٣) كرسفًا: يعني قطنًا، وفرقًا: بفتح الراء يعني خوفًا.

قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته فاتَّبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف؛ لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعته قولاً حسنًا، فاعرض عليَّ أمرك.

قال: فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليَّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمرًا أعدل منه، قال: فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله، إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عونًا عليهم فيما أدعوهم إليه، فقال: «**اللهم اجعل له آية**».

قال: فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بثَنية[1] تُطْلعُني على الحاضر[2] وقع نور بين عيني مثل المصباح، فقلت: اللهم في غير وجهي، إني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم، قال: فتحول، فوقع في رأس سوطي، قال: فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كالقِنديل المعلَّق، وأنا أهبط إليهم من الثنية، قال: حتى جئتهم فأصبحت فيهم.

قال: فلما نزلتُ أتاني أبي، وكان شيخًا كبيرًا، قال: فقلت: إليك عني يا أبت، فلست منك ولست مني، قال: ولِم يا بني؟ قال: قلت: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ، قال: أي بني، فديني دينك، قال: فقلت: فاذهب فاغتسل وطهِّر ثيابك، ثم تَعَالَ حتى أعَلِّمك ما عُلِّمت، قال: فذهب فاغتسل، وطهر ثيابه، قال: ثم جاء فعرضت عليه الإسلام؛ فأسلم.

قال: ثم أتتني صاحبتي[3]، فقلت: إليك عني، فلستُ منك ولست مني، قالت: لِم؟! بأبي أنت وأمي، قال: قلت قد فَرَّق بيني وبينك الإسلام، وتابعتَ دين محمد، قالت: فديني دينك، قال: قلت: فاذهبي إلى حنا ذي الشَّرى فتطهري منه[4].

---

(١) الثنية: المكان المرتفع. (٢) يعني أهل بلده.

(٣) يعني زوجته.

(٤) قال ابن هشام: ويقال حمى ذي الشرى، وقال السهيلي: وهو موضع حموه لصنمهم ذي الشرى، فإن صحت رواية ابن إسحاق فالنون تبدل من الميم كما قالوا: حُلان وحلام للجدي، ويجوز أن يكون من حنوت العود، ومن مَحْنِيَّة الوادي وهو ما انحنى منه - الروض الأنف ٣/ ٣٧٦-.

قال: وكان ذو الشَّرى صنمًا لدوس، وكان الحمى حمىً حموه له، وبه وشل من ماء يهبط من جبل.

قال: فقالت: بأبي أنت وأمي، أتخشى على الصِّبْية من ذي الشرى شيئًا؟ قال: قلت: لا، أنا ضامنٌ لذلك، فذهبتْ فاغتسلت، ثم جاءت فعرضتُ عليها الإسلام؛ فأسلمت.

ثم دعوت دوسًا إلى الإسلام فأبطؤوا عليَّ، ثم جئتُ رسول الله ﷺ بمكة، فقلت له: يا نبي الله، إنه قد غلبني على دوس الزنى[1]، فادع الله عليهم، فقال: «**اللهم اهْد دُوسًا، ارجع إلى قومك فادعهم، وارفق بهم**».

قال: فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي، ورسول الله ﷺ بخيبر، حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتًا من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين.

ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ، حتى إذا فتح الله عليه مكة قال: قلت: يا رسول الله، ابعثني إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حُمَمَة حتى أحرِقَه.

قال ابن إسحاق: فخرج إليه، فجعل طُفيل يوقد عليه النار ويقول:

يا ذا الكَفَيْن لَستُ من عُبَّادكا ... ميلادُنا أقدمُ من ميلادكا

إني حشوتُ النار في فُؤَادكَا

قال: ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله ﷺ، فلما ارتدت العربُ خرج مع المسلمين، فسار معهم حتى فرغوا من طليحة، ومن أرض نجد كلِّها.

ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة، ومعه ابنُهُ عَمْرو بن الطُّفيل، فرأى رؤيا وهو متوجِّه إلى اليمامة، فقال لأصحابه: إنِّي قد رأيت رؤيا فاعبُرُوها لي، رأيت أن رأسي حُلق، وأنه خرج من فمي طائرٌ، وأنه لقيتنْي امرأة فأدخلتني في فَرْجها، وأرى ابني يطلَبني طلبًا حثيثًا، ثم رأيته حُبس عنِّي، قالوا: خيرًا.

(١) وفي رواية أخرى «الزنى والربا» - سير أعلام النبلاء ١/ ٣٤٦.

قال: أمَّا أنا والله فقد أوَّلتها، قالوا: ماذا؟ قال: أمَّا حَلْق رأسي فَوضْعه، وأما الطائر الذي خرج من فمي فَرُوحي، وأما المرأة التي أدخلتني في فرجها فالأرض؛ تُحْفَرُ لي، فَأغيبُ فيها، وأما طلبُ ابني إياي، ثم حبسه عنِّي، فإني أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابني.

فقتل - رحمه الله - شهيدًا باليمامة، وجُرح ابنه جراحة شديدة، ثم استبلَّ منها، ثم قُتل عام اليرموك في زمن عمر رضي الله عنه شهيدًا[1].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير هذه الرواية، وقال: ولخبره شاهد في الحديث الصحيح، ثم ذكر حديث أبي هريرة الذي أخرجه الإمامان أحمد والبخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم اهْد دوسًا وائْتِ بهم**»[2].

يعني بذلك حديث أبي هريرة رضى الله عنه الذي قال فيه: «قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن دوسًا عصت وأبت فادع عليها، فقيل: هلكت دوس، فقال: «**اللهم اهد دوسًا وائت بهم**»[3].

وهكذا رأينا مثالاً واضحًا للحجْر الفكري الذي كان الكفار يمارسونه مع الدعوة الإسلامية في بداية عهدها، وقد استخدموا للتأثير على الناس ليصدوهم عنها مختلف الوسائل، فنجدهم كما في هذا المثال يتلقون الوافدين إلى مكة المكرمة، ويقومون بمحاولة تسميم أفكارهم وملئها بالباطل؛ ليحول ذلك دون وصولها إلى الحق.

ونجدهم يخاطبون الناس بالأساليب المؤثِّرة عليهم كما في قولهم في إحدى روايات هذا الخبر للطفيل بن عمرو: إنك امرؤ شاعر سيِّد، فقد وصفوه بصفتين يعتز بهما العرب كثيرًا، وكأن لسان حالهم يقول: لقد تبوأت في عقولنا مكانة كبيرة لهذه المؤهلات، فلا تُنزل نفسَك من هذه المكانة الرفيعة بسماع ما يقوله مَن ليس في مستوى عقلك وتفكيرك.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤٠١.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ٩٨.

(٣) صحيح البخارى رقم ٢٩٣٧ (٦/ ١٠٧) كتاب الجهاد، صحيح مسلم، فضائل الصحابة، رقم ٢٥٢٤ ص١٩٥٧، مسند أحمد ٢/ ٢٤٣.

وحيث إن الطفيل عالم بالشعر والكهانة فقد اختاروا وصفًا آخر ينطلي عليه وعلى أمثاله وهو السحر، سوغوا ذلك بكون رسول الله ﷺ يُفرق بين الأحبة، على حد زعمهم.

وهكذا نجد دعاة الباطل في كل زمان يُصورون دعاة الحق على أنهم إرهابيون، وعواصف مدمرة؛ ليكسبوا الناس إلى صفهم، فما يزال البسطاء والإمَّعات الذين ألفوا التبعية والتقليد، وعطَّلوا جانبًا كبيراً من عقولهم.. ما يزالون يُرددون كلامهم، وينفِّرون الناس من دعاة الحق.

ولقد تأثر الطفيل بن عمرو بكلام زعماء الكفار في مكة لِمَا سبق أن استقر لهم من مكانة وسمعة عالية بين العرب؛ باعتبار أنهم جيران الحرم، وحراس المشاعر المقدسة، حتى بلغ به الخوف من النبي ﷺ إلى حد أنه سد أذُنيه بالقطن؛ حتى لا يسمع نداء الحق!

وإذا كان الطفيل قد سدَّ أذنيه حقيقة، فما أكثر منْ فتحوا آذانهم، ولكنهم سدوا منافذ فكرهم، وعطَّلوا عقولهم، فأصبحوا يسمعون صوت الحق ليل نهار، فما يوقظ فيهم ضمائر ولا يُحْيي فيهم مواتًا!

ولكن هل استطاع الكفار أن يحولوا بين الناس وسماع دعوة الحق؟

إنهم لم يستطيعوا ذلك؛ لأن صوت رسول الله ﷺ كان أقوى من أصواتهم، ووسائله في التبليغ كانت أبلغ من وسائلهم، وثباته على مبدئه السامي كان أعلى بكثير مما كان يتوقعه أعداؤه.

فالشيء الذي يجب أن يفكِّر به الدُّعاة وأن يجابهوا به الأعداء هو تطوير وسائلهم في التبليغ إلى الحد الذي يفوق وسائل الأعداء في صد هذا التبليغ؛ لأن الحيلولة بين الأعداء والوصول إلى الناس بالتضليل أمر غير ممكن غالبًا، وهكذا فعل رسول الله ﷺ حتى تمكن من رفع صوت الإسلام على الرغم من قوة أعدائه وكثرتهم.

فالرسول ﷺ لم يقبع في بيته، ولم ينْزَوِ في زاوية من زوايا المسجد الحرام؛ ليستخفي بدعوته، وليقي نفسه من سهام أعدائه المسمومة، بل إنه غامر بنفسه، فكان يخرج إلى مضارب العرب قبل أن يفدوا إلى مكة، وكان يجهر بتلاوة القرآن في المسجد الحرام؛ ليسمع من كان في قلبه بقية من حياة، وأثارةٍ من حرِّية وإباء، فيتسرب الهدى إلى مجامع لبِّه، وسُويداء قلبه.

وكان من هؤلاء صاحبُ هذه القصة: الطفيل بن عمرو الدوسي، الذي أدرك حال سماعه أن ما تلاه النبي ﷺ هو الحقُّ، فأعلن إسلامه، وقد هيَّأ له ذلك كونُه متجرِّدًا من اتِّباع الهوى، ومتحرِّرًا من ضغط السادة والزعماء.

فكم من إنسان في مكة آنذاك يدرك أن ما يدعو إليه رسول الله ﷺ هو الحقُّ الذي لا مرية فيه، ولكن يمنعه من اتباعه وقوعه تحت ضغط الطغاة الذين يهددونه في حياته، أو في مصالحه الدنيوية.

وكان إيمان الطفيل قويًا إلى الحد الذي تخطَّى به مجرد الالتزام الشخصي بتطبيق الإسلام، إلى الانطلاق به ودعوة قومه إليه، فاستأذن النبي ﷺ في الرجوع إلى قومه؛ ليدعوهم إلى الإسلام.

وكم من مسلم يظل عمره كله في مرحلة الالتزام الخاص ولا يتحول إلى الدعوة، وهذا مظهر من مظاهر ضعف الإيمان إذا كان ممن تعينت عليهم الدعوة، ويكون الوضع منكرًا ومزريًا حينما يتخلَّى عن الدعوة من ينتسبون إلى العلم الديني مع احتياج الساحة الإسلامية إليهم، بل إن تخصصهم في هذا المجال وبُعدهم عن الدعوة فيه شيء من التناقض، وقد يُعدُّون بواقعهم هذا فتنة للناس ومدعاة للصُّدود عن الدعوة.

أما حينما تكون الدعوة فرض كفاية على المسلم، فإنه حينما يتخلى عنها يكون قد حرم نفسه من باب كبير من أبواب الخير.

وإن ما أجرى الله تعالى على يدي الطفيل من هذه الكرامة حيث أضاء له طرفُ سوطه، واستجاب الله دعاءه، يُعدُّ كرامة لهذا الولي رضي الله عنه، ومعجزة للنبي ﷺ الذي دعا له بذلك، وقد قدَّر الله تعالى وقوع ذلك لدعم الدعوة الإسلامية وتثبيت الدعاة.

وحين مارس الطفيل دعوته فلم يستجب له غالبيةُ قومه أصابه شيء من اليأس منهم، فجاء إلى النبي ﷺ يشكوهم ويطلب منه أن يدعو عليهم، ولما كان ذلك من التعجل في الحكم على المدعوين، واستظهار نتائج الدعوة، المنافي لما تتطلبه الدعوة من الصبر والأناة؛ فإن النبي ﷺ قد أجابه بضد ما طلب، حيث دعا لهم بالهداية، وهذا يعدُّ من أمثلة اتصاف النبي ﷺ بالتأني والصبر إلى جانب اتصافه بالشفقة والرحمة والرغبة العظيمة في هداية الناس.

وإن ما ذكره الطفيل من توغُّل قومه في الزنى والربا وأن ذلك منعهم من الدخول في الإسلام يعدُّ واقعًا ملموسًا في حياة الناس؛ حيث إن الوقوع في الشهوات المحرمة يترتب عليه قسوة القلوب، وانغلاق منافذ الفكر أحيانًا، بحيث لا يحب المصاب بذلك سماع دعوة الحق، التي ستحولُ بينه وبين الاستمرار فيما هو متوغل فيه من المعاصي.

ولذا، فإن ما يختصر الطريق على الدعاة ويعينهم كثيرًا على الوصول إلى قلوب الناس أن تُبذل جهودٌ مكثفة للحيلولة بين الشباب والوصول إلى مواقع الفتنة، وذلك بإزالة معالم الجاهلية المتمثلة بدُور البغاء، والملاهي المحرمة، وحانات الخمور، ومعاقل الربا.. ونحو ذلك من مظاهر الجاهلية.

هذا وإنَّ امتناع قوم الطفيل عن الإسلام؛ لأنه يمنعهم من الربا والزنى دليل على أنه كان في حسِّ أهل الجاهلية وشعورهم أن دخول الإنسان في الإسلام يعني التزامه حالاً بأحكامه، وامتناعه من المنكرات المحرَّمة، ولم يكن في مفهومهم أن يدخل الإنسان في الإسلام، ثم يستمر في ممارسة ما كان يمارسه من الشهوات المحرَّمة، وإنهم بذلك أعظم فهمًا للإسلام من عصاة المسلمين الذين يجمعون بين إعلان الإسلام والإصرار على المنكرات التي نهى الله تعالى عنها.

وحينما كثر المؤمنون من قوم الطفيل، ورأى أنه قادر على إزالة الرمز الأكبر للجاهلية في بلاده، وهو صنم «ذي الكفَّين»، استأذن النبي ﷺ في أن يزيله، فأجابه النبي ﷺ بما يُبين أهمية ذلك وضرورته.

وسيأتي مزيد بيان في شرح هذا الموضوع - بإذن الله تعالى - في أحداث فتح مكة، حيث أزال رسول الله ﷺ جميع الأصنام.

*****

لون آخر من الصد عن سبيل الله
(خبر أعشى بني قيس)(*)

قال ابن هشام - رحمه الله - حدَّثني خلاد بن قرة بن خالد السدوسي وغيره من مشايخ بكر بن وائل من أهل العلم: أن أعشى بني قيس بن ثعلبة بن عكاية بن مصعب بن علي بن بكر بن وائل خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام، فقال يمدح رسول الله ﷺ.

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبتَّ كما بات السليم مسهدا(١)

إلى أن قال:

وآليت لا آوي لها من كلالة ... ولا من حَفًى حتى تلاقي محمدَا(٢)

نبيًّا يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمري في البلاد وأنجدَا(٣)

له صدقات ما تَغبُّ ونائل ... وليس عطاء اليوم مانعه غدا

أجدَّك لم تسمع وُصَاة محمد ... نبي الإله حين أوصى وأشهدا

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله ... فتُرصد للأمر الذي كان أرصدا

فإيَّاك والميتات لا تقربنَّها ... ولا تأخُذَن سهمًا حديدًا لتفصدَا(٤)

وذا النُّصُب المنصوب لا تَنسُكنَّه ... ولا تعبد الأوثان والله فاعبدَا(٥)

ولا تقربنَّ حرة كان سرُّها ... عليك حرامًا فانكحن أو تأبدَا(٦)

وذا الرحم القربى فلا تقطعنَّه ... لعاقبة ولا الأسير المقيدا

(*) هذا الخبر محله بعد الهجرة ولكنه قُدم لتناسب موضوعه مع الموضوعين السابقين.

(١) السليم يعني اللديغ سمي بذلك تفاؤلاً، والسهاد الأرق.

(٢) يعني حلف أن لا يعبأ بتعب ناقته ولا بتأثر أخفافها حتى يصل إلى رسول الله ﷺ.

(٣) أغار يعني بلغ البلاد المنخفضة كتهامة، وأنجد يعني بلغ البلاد المرتفعة كنجد.

(٤) يعني لا تفصد العرق وتشرب الدم كما كان يفعل بعض أهل الجاهلية.

(٥) يعني لا تذبح على الحجارة للأصنام ولا تعبدها من دون الله تعالى.

(٦) سرها يعني نكاحها والتأبد التعزب واعتزال النساء.

وسبح على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدَا

ولا تسخرنْ من بائس ذي ضراوة ولا تحسبنَّ المال للمرء مُخلدا

قال: فلما كان بمكة أو قريبًا منها اعترضه بعض المشركين من قريش، فسأله عن أمره، فأخبره بأنه جاء يريد رسول الله ﷺ، فقال له: يا أبا بصير، إنه يُحرِّم الزنى، فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمر ما لي فيه من أرَب! فقال له: يا أبا بصير، فإنه يحرم الخمر، فقال الأعشى: أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات! ولكنِّي أنصرف فأتروَّى منها عامي هذا، ثم آتيه فأُسلم، فانصرف، فمات في عامه ذلك، ولم يعد إلى رسول الله ﷺ[1]!

وهكذا رأينا مثالاً من صدِّ المشركين عن الإسلام، وهو مثال مغاير للأمثلة السابقة؛ حيث كانت تلك الأمثلة تقوم على تشويه سمعة النبي ﷺ باتهامه بالجنون والسحر والكهانة، وقد كانت هذه الاتهامات تقوم بدور في السنوات الأولى من ظهور الدعوة الإسلامية، أما بعد أن انتشرت وعرف القاصي والداني أن رسول الله ﷺ يدعو إلى دين جديد، وأنه أكمل الناس عقلاً، وأعظمهم أخلاقًا، فإن تلك الاتهامات لم تعد صالحة لصد دعوة الإسلام، خصوصًا إذا كان الوافدون قد دخل الإعجاب بالإسلام قلوبهم، وأشادوا بذكره، كهذا الشاعر المشهور.

لذلك لجأ الكفار إلى محاولة غزو الإسلام من داخله، وذلك بعرض بعض أحكامه التي تُقاوم شهوات النفوس التي تريد الانطلاق بغير حدود؛ فلذلك ذكروا للأعشى أن الإسلام يُحرِّم الزنى، وهم يعلمون صعوبة الإقلاع عن هذه الفاحشة لمن توغَّل فيها، ولمَّا أجابهم بخواء نفسه من الرغبة في ذلك لكبر سنِّه، ذكروا له فاحشة أخرى لا يُقلِّص من الرغبة فيها تقادم السن، حيث يظل مدمنو الخمر متعلقِّين بها حتى يوافيهم الأجل، فكان ذلك كافيًا لصدِّ الأعشى عن الدخول في الإسلام.

لقد حاول الكفار بهذا أن يُثيروا غرائز بعض المتوغِّلين في الشهوات؛ ليصدوهم بذلك عن الإسلام، ولكن أنَّى لهم ذلك، والحق نور أبلج، وأنوار الإسلام قد اكتسحت ظلمات الجاهلية.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤٠٦.

فلئن استطاعوا أن يردُّوا بذلك أفراداً عن الإسلام من ذوي الاتجاه المنحرف والأنانية المُفرطة، فلقد استطاع النبي ﷺ بتوفيق الله تعالى له، ثم بحكمته العالية، ومنطقه الرصين، ومحتوى دعوته المتين، أن يؤثر على جماعات من الناس من ذوي العقول الراجحة والأفكار النيِّرة.

وما هذه الشهوات التي يثيرها الأعداء إلا مظاهر للأنانية البغيضة، والغرائز الجامحة، التي تتحكَّم فيها العواطف المنحرفة، ولا تحكمها العقول السليمة.

وفي مقابل ما يقوم به الأعداء من وصم الإسلام بالمنع من هذه الشهوات المحرَّمة، واستخدام ذلك في التنفير منه؛ نجد رسول الله ﷺ مثلاً يُبين عظمة الإسلام في تحريم الزنى، كما روى أبو أمامة رضى الله عنه قال: «إنَّ فتى شابًا أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنى، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا له: مه مه، فقال رسول الله ﷺ: «**ادنه**»، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: «**أتحبه لأمك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**»، قال: «**أتحبه لابنتك؟**»، قال: لا والله، يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**»، قال: «**أتحبه لأختك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**»، قال: «**أفتحبه لعمتك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**»، قال: «**أفتحبه لخالتك؟**»، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**»، قال: فوضع يده عليه وقال: «**اللهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحصِّن فرجه**»، **فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء**»[1].

فقد بين النبي ﷺ لذلك الفتى أن جريمة الزنى أنانية حاقدة، واعتداء مهين على أعراض الآمنين الذين لا يرضونه لقريباتهم؛ من أمهات، أو بنات، أو أخوات، أو عمات، أو خالات، فإذا ارتكب المجرم هذه الجريمة فإنه لم يعتد على المرأة وحدها، وإنما اعتدى على جميع أقاربها، وإذا كان الإنسان يَغار على قريباته، فإن الناس أيضًا يغارون على قريباتهم.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٥٦ - ٢٥٧.

وهكذا تنوعت النظرة إلى الزنى حسب صحة القلوب ومرضها، فمرضى القلوب يرونه مفخَرة يعتزُّون بها، كما يرونه عيبًا في الإسلام الذي منعه، بينما يراه أصحَّاء القلوب جريمة تروع الآمنين من أصحاب العفة والصيانة، وتفسد المجتمع الصالح.

ولقد استطاع النبي ﷺ بهذه الموعظة الحكيمة أن يزيل الغشاوة عن عقل ذلك الفتى، فأصبح يفكِّر بعقله السليم، فأخمد غريزته الجامحة التي استسلمت لنداء العواطف المنحرفة، وأصبح يشعر باشمئزاز من الزنى بعدما كان أحبَّ شيء إليه.

إن أعداء الإسلام يعْرضون أحكام هذا الدين التي نزلت لحماية الإنسان من تجاوزات نفسه الأمَّارة بالسوء، مجردة عن فهم حكَمها العالية، ومقاصدها في تهذيب النفوس وتقويمها، وتخليصها من سلوكها المنحرفَ، وتطهير المجتمع بأكمله من مصادر الضرر الواقع على العقول والأجسام والأموال.

وحينما تلامس هذه الدعاوى المغرضة نفوسًا مشبعة باقتراف هذه المنكرات، خالية الذهن من تصور أخطارها المدمِّرة على مستوى الفرد والمجتمع، فإن هذه الدعاوى يكون لها أثر بالغ في الصد عن الإسلام.

وهكذا نجد أعداء الإسلام في كل زمن يحاولون تنفير المجتمع من التأثر بدعوة المصلحين بهذه السهام المسمومة وأمثالها؛ حيث يحاول المصلحون رفع المجتمع الإسلامي من استعباد الشهوات؛ لتنطلق عقول المسلمين في التفكير السليم نحو تكوين المجتمع الإسلامى السعيد في الدنيا، والمؤهل لنيل السعادة في الآخرة، ولكنهم يجدون من دعاة الإفساد الذين يحاولون الهبوط بالمجتمع نحو تلبية نداء الغرائز الحيوانية، وتكبيل العقول الحرة بالقيود التي تجعلها تسلم قيادها للعواطف المنحرفة.. يجدون من هؤلاء عنتًا وتعويقًا دائمًا لكل مشاريع الخير والإصلاح.

*****

مثل من مساومة أهل الباطل وإصرار أهل الحق

لقد حرص زعماء الكفار على التأثير على النبي ﷺ ليترك دعوته، أو ليتنازل عن بعضها مما يريدون منه، فمارسوا معه من أجل ذلك أنواعًا من الأذى، وجربوا معه ومع أتباعه فتنًا شتى فجربوا فتنة التخويف، فلما لم ينجحوا في التأثير عليه تحولوا إلى فتنة التأليف؛ فحاولوا مساومته بأنواع من المغريات الدنيوية في مقابل التنازل منه عما يغيظهم من دعوته.

وقد اجتمعوا يومًا فتشاوروا في أمره، واستقر رأيهم على إرسال واحد منهم لمحاورة رسول الله ﷺ وإغرائه بالمغريات المادية التي يتنافس الناس عليها عادة؛ من أجل أن يتنازل عن تصلبه في دعوته، وأن يترك التعرض لأصنامهم وما استقر عليه أمرهم مما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم.

وقد انتدب لهذا الأمر عتبة بن ربيعة، وهو معروف عندهم بالحلم والتعقل.

أخرج الإمام البيهقي من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال:

قال أبو جهل والملأ من قريش: لقد انتشر علينا أمر محمد، فلو التمستم رجلاً عالمًا بالسحر والكهانة والشعر فكلمه، ثم أتانا ببيان من أمره.

فقال عتبة: لقد سمعت بقول السحرة والكهانة والشعر وعلمت من ذلك علمًا، وما يخفى عليَّ إن كان كذلك، فأتاه، فلما أتاه قال له عتبة: يا محمد، أنت خير أم هاشم؟! أنت خير أم عبد المطلب؟! أنت خير أم عبد الله؟! فلم يجبه.

قال: فبم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا؟ فإن كنت إنما بك الرئاسة؛ عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسنا ما بقيت، وإن كانت بك الباءة؛ زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت، وإن كان بك المال؛ جمعنا لك من أموالنا ما تستغني بها أنت وعقبك من بعدك. ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم.

فلما فرغ، قال رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ **حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ**

حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١- ١٣].

فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم!

فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه، وما ذلك إلا من حاجة أصابته، انطلقوا بنا إليه، فأتوه فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما حسبنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب وأقسم بالله لا يكلم محمداً أبداً!

قال: ولقد علمتم أني من أكثر قريش مالاً، ولكني أتيته.. فقصَّ عليهم القصة، فأجابني بشيء، والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة، قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.. حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل بكم العذاب[1].

وأخرجه ابن إسحاق في السيرة من خبر محمد بن كعب القرظي.. وذكر نحوه، وجاء في آخره: فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٠٣، ورواه الحاكم بنحوه وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٢٥٣ - ٢٥٤، وذكره الهيثمي من حديث جابر رضي الله عنه بنحوه وقال: رواه أبو يعلى وفيه الأجلح الكندي وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره وبقية رجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ١٩ - وحسن الشيخ الألباني إسناده - هامش فقه السيرة للغزالي ١١٣.

فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[1].

وهكذا قام عتبة بمحاورة رسول الله ﷺ ليؤثر عليه في التخلي عن دعوته، أو ليخفف منها، فأتاه وناقشه وأراد أن يحرجه بالمفاضلة بينه وبين آبائه، فلم يجبه النبي ﷺ؛ لأنه يريد هدايته، كما أن عتبة يريد إضلاله، فلو أجابه بالحكم على آبائه بالضلال لنفر منه، فكانت الحكمة تقتضي عدم الإجابة على سؤاله.

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يقول لعتبة بل أنا أفضل من أبي وسائر أجدادي، ولو قال ذلك لم يَعْدُ الحقيقة؛ لأنه سيد الخلق أجمعين، ولكنه بانشغاله بهذا الحوار الجانبي يتيح لعتبة فرصة الهجوم المضاد الذي يدفع إليه ما توارثه المشركون من تقديس الآباء والأجداد، وبذلك تضيع الفرصة الذهبية التي قصد إليها رسول الله ﷺ من محاولة هداية عتبة، خصوصًا وأنه قد جاء وحده وكلُّه رغبة في الوصول إلى تغيير الوضع القائم آنذاك.

ولو أنه ﷺ أثنى على آبائه بما فيهم من صفات الخير من غير أن يفضلهم على نفسه لم يكن قد جاوز الحقيقة، ولكنه في ذلك يتيح الفرصة لعتبة لإلزامه بما يترتب على ذلك من اتباع دينهم، وهذا هو الأمر الذي استبعده النبي ﷺ، فكان يريد إغلاق هذا الباب لينتقل إلى ما أراده من دعوته إلى الهداية.

وقد يقال: إن عدم الإجابة تعدُّ اعترافًا بالعجز، ولكنها في الحقيقة غير ذلك؛ لأن عدم الإجابة في مثل هذا الحوار تعني أن السؤال لا يستحق الإجابة؛ لأنه ليس في صميم الموضوع، وهكذا فهم عتبة لمَّا أعرض عن متابعة لوازم ذلك السؤال وانتقل إلى سؤال آخر.

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٣٩.

وفي هذا توجيه حكيم للداعية الذي يُبتلى بالحوار مع الكفار وأشباههم ممن ينتسبون إلى الإسلام وهم يحاربون دعوته ودعاته، وذلك بأنه يشرع له ألا يكون صريحًا معهم في إجاباته كلها، وأن لا يلتزم بيان الحقيقة في الأمور الجانبية التي لا تشتمل على كتمان الحق، وهي في الوقت نفسه تؤثر على حواره معهم ومستقبل دعوته، بل يُطلب منه أن يتجاوز هذه الأمور بما تقتضيه الحكمة وتقديرُ الموقف؛ ليخلص إلى صلب الموضوع الذي انبثق عنه الخلاف، وعقد من أجله الحوار.

بل إن في هذا توجيهًا للدعاة في الحوار الذي يجري بينهم؛ حيث يتجه بعض قصار النظر إلى إشغال ساحة الدعوة بالمفاضلة بين قادة الدعوة، فينتج عن ذلك تتبع لأخطائهم وتشويه لسمعتهم؛ مما يزيد من شقة الخلاف الدائر بين أتباع أولئك القادة، ويُشغِل عن بحث أمور المسلمين المهمة التي يجب أن يجتمع عليها الدعاة.

وبغض النظر عن الفارق الجوهري بين المشبه والمشبه به؛ من حيث كون طرفي المفاضلة في المشبه من المسلمين، وكون أحد الطرفين في المشبه به من الكفار، فإن النتائج المترتبة على انتقاص بعض قادة الدعوة تؤدي إلى ما يشبه النتائج التي أرادها عتبة ابن ربيعة في حواره المذكور.

ولما أمسك رسول الله ﷺ عن إجابة عتبة على الأسئلة المذكورة أدرك عتبة أنه قد أساء الأدب بإحراج النبي ﷺ في ذلك، وعتبة إنما جاء سفيراً عن قريش ليصل إلى أي حل يخفف من شدة الخلاف الدائر بينهم وبين المسلمين، وكونه يواجَهُ بالصمت من رسول الله ﷺ يعدُّ هزيمة له أمام الملأ من قريش، فلهذا ضرب صفحًا عن ذلك الحوار، ولم يحاول إلزام النبي ﷺ بنتيجته، مع ما لاح في الأفق من مظاهر نجاحه المتخيلة.

وانتقل عتبة حالاً إلى عرض ما في جعبته من تلك العروض المغرية؛ من المال، والرئاسة، وما شاء من الشهوات، في مقابل أن يتخلى النبي ﷺ عن دعوته، أو أن يفاوض المشركين في البقاء على دعوة لا تؤثر على دينهم الذي يقدسونه.

وهكذا عرض عتبة بن ربيعة على رسول الله ﷺ تلك العروض المغرية، فماذا كان جوابه عليه؟

لقد كان جوابه بتلاوة آيات من كتاب الله تعالى كان لها الأثر الحاسم في إنهاء الحوار لصالح الإسلام.

وقد كان عتبة موصوفًا بالحلم والحكمة؛ فكان رسول الله ﷺ يؤمل في إسلامه بعد سماع الآيات القرآنية.

ولقد تأثر عتبة من سماع كلام الله تعالى، حيث وصف القرآن الذي سمعه بقوله: «قد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة»، فأثبت أن القرآن لا مثيل له، وهذا اعتراف منه بأنه ليس من كلام البشر، ثم نفى التهم الثلاث التي ألصقها قومه برسول الله ﷺ ووصفوا القرآن بها.

وكان في كمال عقله وإدراكه حينما أشار على قومه بترك رسول الله ﷺ وشأنه في الدعوة، وإثبات أن عزه يعدُّ عزًا لقريش فيما إذا نجح في دعوته وساد العرب.

وهكذا حينما كان عقلاء قريش يرجعون إلى عقولهم يدركون عظمة هذا الدين وصدق رسول الله ﷺ وتميز ما جاء به من الوحي على كلام البشر، ولكنهم سرعان ما تغلبهم عواطفهم وأهواؤهم المنحرفة، فينطقون بكلام لا يعتقدون بقلوبهم محتواه، وإنما يدفعهم إليه الحسد والهوى المنحرف.

وفي هذا الخبر مثل من نجاح النبي ﷺ في اختيار الآيات المناسبة للمقام، كما أنه مثال لقدرته الفائقة في التأثير على السامعين بتلاوته كتاب الله تعالى، حيث يتلوه بكل مشاعره وأحاسيسه وهو يستحضر عظمة الله تعالى الذي خاطبه وأمته بهذا القرآن العظيم.

وهكذا ينبغي للدعاة أن يهتموا باختيار النصوص المناسبة، وأن يعرضوها بقلوبهم مع ألسنتهم، مستحضرين عظمة الله تعالى وجلاله؛ حتى يكون أبلغ في التأثير على المخاطبين.

لقد تأثر عتبة بسماع القرآن ومال إلى الإسلام، ولكن أبا جهل عرف كيف يؤثر عليه بلمزه من الجانب الذي ينفره من الإسلام، فهو ممن يعتز بسمعته وجاهه، فاتهمه أبو جهل بأنه مال إلى رسول الله ﷺ من أجل أن يصيب من طعامه، وكان ذلك كافيًا لإحداث أثر مضاد للأثر الأول، فأخذته الحَميَّة، وأقسم ألا يكلم رسول الله ﷺ!

وهكذا رأينا في تصرف أبي جهل مثلاً من أمثلة الكيد والمكر التي يتقنها أعداء الإسلام ويخططون لها؛ حيث إنهم يقومون بدراسات دقيقة لمعرفة مداخل النفوس وإدراك مواطن الضعف فيها؛ لينفذوا إلى الإنسان من هذه المواطن.

ولما لم تُجد محاولة عتبة بن ربيعة ولم تصنع شيئًا مما أراده زعماء مكة من صرف النبي ﷺ عن دعوته بتلك المغريات اتفق رأيهم على عقد اجتماع لمجموعة منهم؛ ليقوموا جميعًا بحوار النبي ﷺ في هذا الموضوع، وقد أخرج خبر ذلك الإمام ابن إسحاق من حديث سعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: اجتمع عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث بن كَلَدة؛ أخو بني عبد الدار، وأبو البَختري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبِّه ابنا الحجَّاج السَّهْميَّان، وأمية بن خلف، أو من اجتمع منهم.

قال: اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تُعْذروا فيه[1]، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم.

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا، وهو يظن أن قد بَدَا لهم فيما كلَّمهم فيه بَدَاءٌ[2]، وكان عليهم حريصًا يحب رشدَهم ويعزُّ عليه عَنَتُهم[3].. حتى جلس إليهم؛ فقالوا له: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنكلِّمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك؛ لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفَّهت الأحلام، وفرَّقت الجماعة، فما بقي أمرٌ قبيحَ إلا قد جئته فيما بيننا وبينك.. أو كما قالوا له، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوِّدك علينا[4]، وإن كنت تريد به مُلكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئيًّا تراه قد غلب عليك (وكانوا يسمون التابع من الجن رَئيًّا) فربما كان ذلك؛ بذلنا لك مَن أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نُعذِر فيكَ.

(١) أي تبلغوا منه العذر.
(٢) أي ظهر لهم في شأنه أمر.
(٣) يعني مشقتهم.
(٤) نجعلك سيدًا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلبُ أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا المُلك عليكم، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلَّغْتُكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا منِّي ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**»، أو كما قال رسول الله ﷺ.

قالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منَّا شيئًا مما عَرضْناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحدٌ أضيق بلدًا، ولا أقلّ ماء، ولا أشدّ عيشًا منَّا، فَسلْ لنا ربَّك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنَّا هذه الجبالَ التي ضيَّقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجِّر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحقٌّ هو أم باطل، فإن صدَّقوك وصنعت ما سألناك صدَّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: «**ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بَلَّغْتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم**».

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا فخُذه لنفسك، سل ربك أن يبعث معك مَلَكًا يصدِّقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسلْه فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يُغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمس؛ حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا، وما بُعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا**»، أو كما قال، «**فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم**».

قالوا: فأسقط السماء علينا كسَفًا[1] كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنَّا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعل**».

(١) جمع كسفه بكسر فسكون بمعنى القطعة من الشيء.

قالوا: يا محمد، أفعلم ربُّك أنَّا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدَّم إليك فيُعلمك ما تُراجعنا به، ويخبرك ما هو صانعٌ في ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟! إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعْذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منَّا حتى نُهْلكك أو تُهْلكنا، وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة، وهي بنات الله، وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً[1].

لما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته، فهو لعاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، أو كما قال له، فوالله لا أومن بك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سُلَّما، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك بصَكٍّ معه أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وايْم الله، لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك!

ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا آسفًا؛ لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دَعَوه، ولِمَا رأى من مباعدتهم إياه.

فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل: يا معشر قريش، إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون؛ من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسنَّ له غدًا بحجر ما أطيق حمله، أو كما قال، فإذا سجد في صلاته فَضَخْتُ به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا: والله لانسلمك لشيء أبدًا، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرًا كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، وكان رسول الله ﷺ بمكة وقبلتُه إلى الشام، فكان إذا صلَّى صلى بين الركن اليماني والحجر الأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فقام رسول الله ﷺ يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل

(١) مقابلة ومواجهة بحيث نراهم عيانًا.

فاعل، فلما سَجَد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا منتقعًا[1] لونه، مرعوبًا، قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده!

وقامت إليه رجال قريش، فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصَرته[2] ولا أنيابه لفحْل قط، فهم بي أن يأكلني!

قال ابن إسحاق: فذُكر لي أن رسول الله ﷺ قال: «**ذلك جبريل عليه السلام، لو دنا لأخذه**».

فلما قال لهم ذلك أبو جهل قام النضر بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار ابن قصي[3]، فقال: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها؛ هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون؛ فما هو بخنقه، ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم[4].

هذا وإنا لنجد في هذا النص مثلاً من حرص النبي ﷺ على إسلام قومه؛ حيث علم باجتماع أشرافهم فسارع إليهم ليجدد دعوتهم إلى الدين الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، على الرغم مما نالوا منه من الأذى، وفي هذا دلالة على لزوم استصحاب الرغبة في هداية الناس وإن سبقت منهم مواقف مؤذية لصاحب الدعوة أو لأتباعه؛ لأن

---

(١) يعني مصفرًا متغيرًا وهو على زنة اسم المفعول من انتقع المبني للمجهول ويقال بالميم أيضًا.

(٢) القصرة بفتحات أصل العنق.

(٣) قال ابن هشام: ويقال النضر بن الحارث بن علقمة بن كَلَدَة بن عبد مناف.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٥ - ٣٠٠، وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق وذكر مثله - تفسير الطبري ١٥/ ١٦٦ - وذكره الحافظ ابن كثير وسكت عنه - البداية والنهاية ٣/ ٤٨ -.

دعوة الإسلام لا تقوم على الرغبة في الانتقام من الأعداء، وإنما تقوم على الرحمة الشاملة بجميع الناس، والرغبة الملحة في هداية الضالين، وانتشالهم من الدرك السحيق الذي أوقعوا أنفسهم فيه.

فالداعية الحق ينظر إلى من يقومون بأذيته وتعذيبه نظرة إشفاق ورحمة، ويتمنى من قرارة قلبه أن ينقذهم من الهلاك الذي تردوا فيه، وأن يحميهم من السلوك الذميم الذي ساروا فيه.

إن الداعية وهو يتلقى الأذى من المدعوين يشعر بأنه يكتسب عملاً صالحًا بالصبر على أذاهم، ولكن عليه أيضًا أن يشعر بأن الذين يقومون بإيذائه وصدِّ دعوته يكتسبون عملاً سيِّئًا وسيحاسبون عليه يوم القيامة، وأن يعلم أن محاولة هدايتهم عمل صالح يضاف إلى العمل السابق، فإذا صبر على أذاهم، ثم قام بمحاولة هدايتهم؛ يكون قد جمع بين عملين صالحين.

ونجد في هذا النص أن المشركين بدؤوا حوارهم مع النبي ﷺ بالهجوم عليه في دعوته؛ حيث اتهموه بشتم آبائهم، وعيب دينهم، وتسفيه أحلامهم، وشتم آلهتهم، وتفريق جماعتهم، وأنه اقترف معهم كل قبيح.

وهذا الهجوم يقصدون من ورائه إضعاف موقفه وإرباكه حتى يقبل منهم واحدًا من عروضهم التي سيعرضونها عليه.

وقد عرضوا عليه أمورًا ثلاثة: أحدها يتعلق بحب المال، والآخريْن يتعلقان بحب الجاه، فعرضوا عليه أولاً أن يجمعوا له من أموالهم حتى يكون أكثرهم مالاً، إن كان من الذين يستهويهم جمع المال واقتناؤه، أو أن يسوِّدوه عليهم، فيكون سيد قبيلتهم، أو أن ينصبوه ملكًا عليهم إن كان ممن يستهويهم الشرف والجاه.

وبهذا يكونون قد حققوا أعلى درجات الشرف والجاه له إن كان ممن يحبون السلطة، أو الغنى الكبير بدون نصب وعناء بجمع المال إن كان ممن يحبون الثراء.

وهذه عروض مغرية حقًّا لأصحاب الدنيا؛ لأن الهدف الأعلى الذي يسعى له طلاب الدنيا يتلخص في طلب المال، أو الجاه، أو طلبهما معًا.

وفي هذا العرض الثاني والثالث يُبدي زعماء قريش استعدادهم للتنازل عن منهجهم في الحكم والسيادة من أجل رسول الله ﷺ إن وافق على طلبهم، وذلك أن قبائل العرب عامة لا تعرف الحكم الذي يقوم على الملك كما هو الحال في دولة الفرس والروم، وإنما كانوا يُسوِّدون رجلاً منهم تجتمع له خصال الشرف التي اتفقوا عليها، وقد يسوِّدون أكثر من واحد كما هو الحال في مجتمع مكة آنذاك.

وقد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يجمعوا له السيادة، فيكون سيِّدًا على جميع فروع القبيلة، بدلاً من أن يكون لكل فرع منها سيد، وإذا كان هذا لا يُقنعه ولا يرضي طموحه فلا مانع لديهم من تمليكه عليهم، بحيث يحكمهم كما يحكم ملوك الفرس والروم، وذلك أقوى في التمكين وأبلغ في الزعامة من مجرد السيادة.

هذا وإن استعداد زعماء قريش على تحمل هذا الأمر الذي يخالف ما تعارف عليه العرب آنذاك، يدلنا على بعد الشقة بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأن انقيادهم إليه بشكل جماعي على أنه رسول الله من عند الله تعالى، وتغيير دينهم أمر شديد عليهم وبعيد الاحتمال.

وقد سبق عرض تلك العروض على رسول الله ﷺ من عتبة بن ربيعة، وإن كان عتبة قد أضاف عرضًا جديدًا على رسول الله ﷺ؛ وهو أن يزوجوه عشر نسوة يختارهن من قريش، وهذا العرض في الحقيقة داخل في عرض تمليك المال حتى يكون أغنى رجل في قومه؛ لأن صاحب الغنى يستطيع أن يحصل على ما يريد من الشهوات.

هذا وإن في إعادة عرض هذه المغريات من زعماء قريش دليلاً على أنهم لم يفهموا بعدُ حقيقة دعوة رسول الله ﷺ، التي تقوم أساسًا على الزهد في الدنيا والعمل للآخرة، فإذا كان باستطاعة أولئك القوم أن يَعدوا المسلمين بالحياة السعيدة في الآخرة القائمة على الظفر بالجنة والنجاة من النار، فإنهم يستطيعون التأثير عليهم.

ولكن أنَّى ذلك للمسلمين أنفسهم، بل أنَّى ذلك للأنبياء عليهم السلام؛ لأن الذي يملك ذلك الفضل الكبير هو الله تعالى وحده، وإنما مهمة الأنبياء عليهم السلام ومن اقتدى بهم من الدعاة هي أن يهدوا الناس إلى الطريق الموصل إلى هذه السعادة.

وهكذا يحاول عبثًا دعاة الباطل على مر الزمان؛ حيث يكررون عروضهم المغرية على الدعاة الصادقين في دعوتهم، فيخسروا بذلك وقتهم وجهدهم.

وقد يطمعهم في الاستمرار على هذا المنهج ما يرونه من سقوط بعض الدعاة في أثناء المعركة الدائرة بينهم وبين أعداء الإسلام، حيث ينجح الأعداء في تحجيم هؤلاء الدعاة وتجميد نشاطهم، أو تحويل هذا النشاط إلى عمل مضاد لاتجاه الدعوة الإسلامية.

ومما يُلاحظ هنا أن رسول الله ﷺ رفض أن يكون ملكًا على أهل مكة، وقد يتعلق بذلك من يرى عدم ضرورة قيام الدولة الإسلامية، خصوصًا مع ملاحظة أن النبي ﷺ لو تولى زعامة قريش وحلفائها لكان أعظم قدرة على بث دعوته؛ لأنه والحال هذه يستطيع أن يفرضها من خلال سلطته وهيمنته على البلاد.

والجواب على ذلك أن زعماء قريش لم يتنازلوا لرسول الله ﷺ عن زعامتهم حقًّا، وإنما أرادوا منه أن يتنازل عن دعوته إلى التوحيد في مقابل زعامة وهمية يخضعونه بها لمبادئهم الجاهلية، بينما لا يخضعون هم لدعوته، والحقيقة أن الذي يحكم هي المبادئ، والرجال من وراء تلك المبادئ منفِّذون، فإذا بقيت مبادئهم الجاهلية - وهو المطلب الذي أصروا عليه - فهي التي تحكم، وأي زعيم ينصب في ظل تلك المبادئ فإنه ملزم بأن يكون خاضعًا لها، وهذا يعني أن يتنازل رسول الله ﷺ عن دعوة التوحيد في مقابل قبوله هذا العرض السخي في نظر أهل الدنيا؛ ولذلك كانت استجابة النبي ﷺ لهم أمرًا مستحيلاً.

لقد كانت تصريحات زعماء المشركين تبين استحالة أن يسندوا زعامتهم لرسول الله ﷺ مع بقائه على كامل دعوته، ومن ذلك ما سبق في خبر أبي جهل من قوله: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكُنا كـفَرسَي رهان، قالوا: منَّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟!».

فهذا دليل على أن المطلب الكبير الذي يتنافسون عليه هو السيادة على مكة، ولكنهم مع هذا أبدوا استعدادهم للتنازل عنها لرسول الله ﷺ لو تخلى عن دعوته أو بعض ما يدعو إليه، أما في حال إصراره على دعوته إلى التوحيد فإن تنازلهم له عن ذلك يكون أمرًا مستحيلاً.

أما قيام الدولة الإسلامية فإنه أمر ضروري لقيام الدين عند القدرة على ذلك، ولهذا أقام النبي ﷺ دولة الإسلام في المدينة يوم أن هاجر إليها، وأصبح قادرًا على ذلك، وكونه رفض السلطة الوهمية التي عرضها عليه زعماء مكة لا يعني عدم اهتمامه بإقامة دولة الإسلام، وإنما كان هذا السلوك منه تسديدًا من الله تعالى له، وفهمًا ثاقبًا منه لمقاصد الكفار الماكرة التي أرادوا بها أن يقضوا على دعوته.

ثم إنهم بعد هذه العروض الثلاثة عرضوا عليه أن يبذلوا المال في طلب الطب له، إن كان الذي حمله على مخالفة قومه والإصرار على ذلك تأثر ضاغط بسبب هيمنة الجن عليه.

وكأنهم يقولون له: إن لم تكن أهدافك من هذه المخالفة أن تصبح أغنى رجل في قومك، أو أن تكون لك السيادة المنفردة عليهم جميعًا، فإنه لا يتصور أن يدفعك إلى دعوتك تلك إلا الانقياد القسري لأصحاب الهيمنة من الجن، ومن هذا المنطلق اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون كما سبق.

هذا وعلى الرغم من كون تلك العروض الثلاثة مغرية جدًا؛ خاصة العرض الثالث الذي سيجعل رسول الله ﷺ الملك الوحيد في بلاد العرب.

وعلى الرغم من كون المقابل لذلك فيما إذا رفض تلك العروض أن يكون متهمًا بين قومه بالجنون.. فإن النبي ﷺ قد رفض بكل إباء وعزة جميع تلك العروض المغرية، وأصر على لزوم دعوته التي اجتمع أولئك الزعماء من أجل القضاء عليها.

لقد كان جواب رسول الله ﷺ جواب المستسلم لأمر الله تعالى، الثابت على مبدئه السامي؛ حيث قال لهم: «**ما بي ما تقولون، وما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلَّغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**».

وهذا الكلام يعدُّ نهاية الاستسلام لله عز وجل، وغاية التوحيد؛ حيث أشعرهم بأنهم إن أظهروا شيئًا من التحدِّي والتعجيز فإنما يواجهون الله تعالى بذلك، فالحرب حقيقةً قائمة بينهم وبين الله تعالى، ولن يفلح من جعل نفسه في مواجهةٍ مع الله جل

وعلا، فالأمر لله تعالى وحده من قبل ومن بعد، وإنما الرسول ﷺ مبلِّغ عن الله تعالى ومنفذ لشريعته على الوجه الأكمل، فليس طالب دنيا، ولا طالب جاه، ولا يملك أن يتنازل عن دعوته ولا بمعشار ما طلبوا منه، ولا بما هو أقلُّ من ذلك؛ لأنه ليس مستقلاً بهذا الأمر حتى يفاوض عليه حسب ما يمليه عليه اجتهاده المصلحي، وإنما هو رسول مبلغ عن الله تعالى منفذ لشريعته.

وفي هذا درس بليغ لأهل العلم الديني الذين يواجَهون بشيء من التحدي والعداء من الكفار والمنافقين، والذين يضع المسلمون ثقتهم بهم في فهم هذا الدين وتبليغه؛ ليكون شعورهم وتفكيرهم حاضراً مع الله تعالى حينما يسألون ويجادلون، وليكون فهمهم مقصوراً على كونهم مبلغين عن رسول الله ﷺ، ومشرفين على تنفيذ شريعة الله تعالى كما شرع، وألا يداخلهم شيء من حب الظهور والتفوق الفكري غير المنضبط بشريعة الله جل وعلا.

فإذا كانوا مع الله تعالى وتصوروا أن الله معهم في معركتهم مع الأعداء، وأنه مطلع على مكنونات ضمائرهم، فإن ذلك يعصمهم بإذن الله تعالى من الزلل، ويمنحهم دفعات من القوة والصمود في وجه الأعداء.

لقد كان رسول الله ﷺ وهو يحاور الأعداء موصولاً حبله بالله عز وجل، ولم يكن في قلبه شعور بأي قوة في الأرض، وكان يستلهم من الله تعالى الثبات والقوة بقدر ما كان يتلقى الوحي الإلهي الذي يحاور المخالفين على قبسات أنواره.

وإذا كان النبي ﷺ قد اختُصَّ بالوحي كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن ممثلي العلم الديني لم يَعْدموا هذا النور الذي سار على ضوئه الساطع ورثة النبي ﷺ على مر العصور، بل هو بين أيديهم قد اكتمل قبل لحَاق الرسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، كما في قوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣].

فما عليهم إلا أن يلتزموا بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، بعد أن يوثقوا صلتهم بالله عز وجل، وأن يشعروا بحضوره معهم بعلمه في كل ندواتهم وجلساتهم، بل في كل همساتهم وخطرات قلوبهم.

هذا وإن في رفض النبي ﷺ من الكفار عروضهم المغرية من الملك والمال ردًّا بليغًا على أعداء الإسلام الذين فسروا الدعوة الإسلامية بأنها ثورة من الفقراء على الأغنياء الكبراء، فلو كانت كما زعموا لكان في تحقق هذه العروض المغرية الوصولُ الكامل للمقاصد والأهداف التي دفعت إلى تلك الثورة.

ولو كانت كما زعموا لما رأينا في تلك الفئة المسلمة أغنياء في غاية الغني والترف؛ كعثمان بن عفان، ومصعب بن عمير، ومن هم دونهم في الغنى ولكنهم يفوقونهم في الشهرة والمكانة؛ كأبي بكر، وعمر؛ إذ إن المنطق الصحيح - لو كان الأمر كما زعموا - أن يكون هؤلاء في صف أهل الغنى والزعامة القبلية.

ولقد بيَّنتْ أحداث الهجرة بعد ذلك الهدف السامي الذي ضحى من أجله المسلمون؛ حيث تركوا أموالهم بمكة وهاجروا إلى المدينة ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة رضي الله عنهم أجمعين.

هذا ولقد بدأ الكفار مع رسول الله ﷺ بفتنة الأذى والتخويف كما سبق، فلم يثنه ذلك عن عزيمته، وظل صامدًا في دعوته، فلما لم يُجْد معه هذا النوع من الفتنة تحولوا إلى فتنة التأليف، فعرضوا عليه هذه العروض الكبيرة.

وهكذا الكفار في كل زمن يحاولون فتنة دعاة الإسلام بهذين النوعين؛ ليتحولوا عن دعوتهم، أو ليقبلوا المداهنة، وذلك بالتنازل عن بعض ما يدعون إليه حسب ما يريده الأعداء.

وإن للدعاة إلى الله تعالى لأُسوة حسنة برسول الله ﷺ؛ حيث لم يخضع لفتنة الكفار، سواء في مجال التأليف، أو في مجال التخويف.

وهل عُرض على داعية أن يكون ملكًا على قومه كما عرض على رسول الله ﷺ؟!

لقد عُرض على بعض الدعاة لعاعةٌ من الدنيا فسارعوا إليها وتخلوا عن دعوتهم، أما رسول الله ﷺ فقد ظل ثابتًا على طريقه المستقيم، ولم تخطر له الدنيا ببال.

ونجد في نهاية هذا الخبر أن المشركين لما يئسوا من استمالة رسول الله ﷺ إلى صفهم والتأثير عليه ليترك دعوته أو ليخفف منها، لجؤوا إلى أسلوب التعجيز في المطالب؛ ليحاولوا إفحامه وإظهاره بمظهر العاجز عن تحقيق مطالبهم، وهذا في نظرهم يتعارض

مع كونه رسولاً من عند الله جل وعلا، فطلبوا منه أن يسأل ربه أن يزيح عنهم جبال مكة التي ضيقت بلادهم، وأن يفجر لهم أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وأن يبعث لهم آباءهم ليسألوهم عن دعوة الإسلام؛ هل هي حق أم باطل؟ وأن يبعث مع الرسول ﷺ ملكًا يصدقه فيما يقول، وأن يسأل ربه أن يجعل له جنانًا وكنوزًا وقصوراً من ذهب وفضة حتى يكون من أغنى الأغنياء.

وقد أجابهم النبي ﷺ في كل ما سألوا ببيان مهمته الكبرى؛ وهي تبليغ رسالة الله تعالى، وبيان ما ينتظرهم من سعادة في الدنيا والآخرة إن آمنوا، وإن ردوا دعوته فما عليه إلا الصبر، والأمر بيد الله تعالى يحكم بينه وبينهم.

كما بين أن تحقيق المطالب المذكورة ليس مما بُعث به، وإنما بعث لإخراجهم من الظلمات إلى النور لو كانوا يعقلون.

ونجد في هذا الخبر مثلاً من لجوء الكفار إلى التعنت في المطالب التي لا يقصدونها لذاتها، وإنما هي لتعجيز النبي ﷺ، ومحاولة صرف الناس عنه فيما إذا لم يحقق لهم هذه المطالب.

وهذه المطالب التي تشبه الخيال تحكي واقعًا فكريًا مضطربًا يعيش فيه أولئك الكفار، حيث قد أفلس رصيدهم الفكري من الحجة والبرهان، ورأوا إقبال قومهم على اعتناق الإسلام على مختلف طبقاتهم، فصاروا يتخبطون في متاهات من الفكر لا يقبلها العقل السليم.

وقد نزل في الجواب على مطالب هؤلاء وأمثالها الآيات التالية من سورة الإسراء، قال تعالى: ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا** ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً** ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

وهكذا كان توجيه الله تعالى نبيه ﷺ إلى الجواب بهذه الجملة الموجزة البليغة: ﴿ **سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً** ﴾، وقد تضمنت التعجب الإنكاري من مطالبهم المتعنتة القائمة على حب المغالبة، وكسب القضية لصالحهم، ولو خرجوا من منطق العقل السليم.

كما تضمنت بيان طبيعة النبي ﷺ التكوينية فهو بشر وليس من طبيعة البشر أن يتمكنوا ذاتيًا من تحقيق هذه المطالب.

كما تضمنت بيان مهمة النبى ﷺ في هذه الحياة؛ وهي أنه رسول من عند الله تعالى، يُبلغ رسالته، ويقيم الحجة على الناس بذلك، وينفذ شريعة الله جل وعلا، فإذا فعل ذلك فقد أدى مهمته بنجاح، وليس للمخالف أن يطالبه بما هو فوق مقدرته كبشر، ولا بأن يتجاوز ما حدد الله تعالى له كرسول.

ولقد تبين كذبهم في ادعاء قبول الإسلام لو تحققت لهم هذه المطالب في ذلك المجلس نفسه الذي طلبوها فيه؛ حيث قال أحدهم وهو عبد الله بن أمية لرسول الله ﷺ على الرغم من كونه ابن عمته: وايْم الله لو فعلت ذلك لظننت ألا أصدقك!

وهذه المقالة تُعدُّ مثلاً من واقع المشركين الذي بينه الله تعالى بقوله: ﴿ **وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ** ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

*****

مثل من ثبات النبي ﷺ
(شكوى قريش لأبي طالب)

لقد كان رسول الله ﷺ يدعو إلى الله سرًا في بداية بعثته إلى أن اجتمع حوله عدد من أصحابه، فأمره الله تعالى بأن يجهر بالدعوة: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [الحجر: ٩٤]، وأمره بأن يبدأ بإنذار أقاربه: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فأنذر وبشر وجمع بين الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر، الدعوة إلى عبادة الله وحده والتخلق بمكارم الأخلاق، والدعوة إلى نبذ عبادة الأصنام التي هي أعظم المنكر، وكذلك التخلي عن مساوئ الأخلاق.

فلما عاب أصنام المشركين وسفَّه أحلامهم بعبادتها عرفوا أنه لن يبقَى على ما هو عليه من دينه ويتركهم على ما هم عليه من المنكر، فناصبوه العداء، وحاولوا تفريق المؤمنين بدعوته بكل ما أوتوا من قوة وحيلة.

ولما رأوا صلابة إيمان أتباعه، وأن أمره صار ينتشر بين جميع طبقات المجتمع بسرعة وقوة، حاولوا التأثير عليه ليترك دعوته أو يغير من أسلوبها في النكير عليهم وتسفيه أحلامهم، حاولوا ذلك بالترغيب أحيانًا وبالترهيب أحيانًا أخرى، ولكن حال دون وصولهم إلى أغراضهم صلابته في إيمانه، وعطف عمه أبي طالب عليه، ودفاعه عنه، وتهديده لقريش إن وصلوا إليه بالأذى.

فلما رأى كفار قريش أن محمدًا ﷺ لن يهون أمام تهديداتهم، ولن يلين أمام إغراءاتهم، وأن عمه أبا طالب قد قام دونه وحماه، وأن أتباعه يتمسكون بدعوته بقوة، ويزيد عددهم بسرعة، ذهب بعض أشرافهم إلى عمه أبي طالب لبيان أمره والشكوى منه.

قال محمد بن إسحاق - رحمه الله -: فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام، وصدع به كما أمره الله، لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه[1]، وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون.

(١) أي شق ذلك عليهم.

وحَدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب، ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ علىَ أمر الله مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يُعتبهم[1] من شيء أنكروه؛ من فراقهم، وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب - وذكر أسماءهم- فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقًا وردهم ردًا جميلاً، فانصرفوا عنه.

قال: ومضى رسول ﷺ على ما هو عليه؛ يظهر دين الله ويدعو إليه، ثم شرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها، فتذامروا فيه، وحضَّ بعضهم بعضًا عليه.

ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا؛ من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو نُنازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا، ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفسًا بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه.

قال ابن إسحاق: وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أنه حُدِّث أن قريشًا حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله ﷺ، فقال له: يا بن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا (للذي كانوا قالوا له)، فأبق عليَّ وعلى نفسك ولا تُحمِّلني من الأمر ما لا أطيق.

قال: فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بَدَاء[2]، وأنه خَاذلُه ومُسْلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال له رسول الله ﷺ: «**يا عَم، واللهَ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته**»!

---

(١) أي لا يزيل عتبهم بالرجوع عما أنكروه.

(٢) أي ظهر له فيه رأي جديد.

قال: ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى، ثم قام، فلما ولَّى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدًا[1]!

وأخرجه الأئمة؛ البخاري في التاريخ الكبير، والحاكم، والبيهقي، وذكره الهيثمي من رواية الطبراني وأبي يعلى بنحوه، كلهم من حديث عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، وفيه أن النبي ﷺ حلَّق ببصره إلى السماء، فقال: «فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة»، فقال أبو طالب: والله ما كذَّبتُ ابن أخي قط، فارجعوا.

وقال الحافظ الهيثمي: ورجال أبي يعلى رجال الصحيح[2]، وذكره الحافظ ابن حجر، وقال: هذا إسناد صحيح[3].

في هذا الخبر بيان لشدة المواجهة وعنف المقاومة التي كان رسول الله ﷺ يلقاها من قومه؛ حيث استخدم أشراف قومه مختلف الوسائل للتأثير على عمه أبي طالب ليرفع عنه حمايته، فذكَّروه بشرف الآباء والأجداد وهو من المقتنعين بالتمسك بما عليه الأسلاف، وذكروه بقدسية الآلهة، وهو ممن يعظمونها، ثم هددوه بالحرب بينهم وبينه، وهو ممن يكره ذلك، كما حاولوا التلطف معه بالثناء عليه، فذكروا شرفه ومنزلته فيهم؛ ليؤثروا عليه، فيستجيب لشكايتهم.

ولقد كان موقفًا صعبًا ومحرجًا لرسول الله ﷺ أن يوقع عمه الذي ربَّاه ثم ناصره وحماه في هذا المأزق المحرج؛ حيث بقي أبو طالب في حيرة من أمره، فهو لا يريد أن يباديَ قومه بالعداء، ولكنه أيضًا لا يريد أن يُسْلم رسول الله ﷺ لهم ولا أن يخذله، ولكن إخراج عمه من هذا المأزق يقتضي أن يتنازل عن دعوته، وأن يوافق الكفار على تعظيم الأصنام، وتفخيم ميراث الآباء، وهذا أمر مستحيل؛ لذلك كان موقف النبي ﷺ حازمًا وحاسمًا حينما استدعاه عمه وفاوضه في التنازل عن دعوته الكاملة؛ إبقاء

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢٦١ - ٢٦٤.

(٢) التاريخ الكبير ٧/ ٥١ رقم ٢٣، المستدرك ٣/ ٥٥٧، دلائل النبوة للبيهقي، ٢/ ١٨٦ - ١٨٧، مجمع الزوائد ٦/ ١٤.

(٣) المطالب العالية ٤/ ١٩٢، رقم ٤٢٧٨.

عليه وعلى نفسه، حيث بين لعمه أن هذا مستحيل كاستحالة إنزال الشمس والقمر ووضعهما في يديه ﷺ!

وإن هذا لموقف عظيم من رسول الله ﷺ؛ حيث وقف وهو في قلة من أنصاره يتحدى زعماء قريش وهم في عزهم وغناهم ومكانتهم العالية في العرب، وقد بين صلابته في التمسك بهذا الدين ودعوة الناس إليه مهما تكن الظروف، ومهما وضع في طريقه من عقبات، وأنه على استعداد كامل لأن يقدِّم نفسه رخيصة في سبيل هذا الدين، فضرب بذلك المثل العالي لأمته، والقدوة الكاملة للدعاة إلى الله تعالى في تسخير نفسه بكل طاقاتها لخدمة دعوته، ولو أدى ذلك إلى هلاكها.

فليسرْ على دربه المؤمنون المتقون في بذل الجهد في الدعوة، وتحمل كل ما يواجههم من صعوبات ونكبات، فإن لهم فيه ﷺ أسوة حسنة.

هذا وإن تلك الدموع الغالية التي تحدرت من عيني رسول الله ﷺ تبين لنا خطورة الموقف وصعوبة الأمر عليه، حيث كان بين أمرين كل واحد منهما شاقٌّ على نفسه، لكن إيقاع عمه في الحرج أهون عليه كثيراً من التنازل عن دعوته، بل لا مقارنة بين الأمرين؛ لأن أحدهما صعب والآخر مستحيل.

وإنه من أجل الخروج من هذا المأزق، وإصدار القرار السامي الذي لا خيار له فيه، فإنه لا بد لصاحب النفس الكريمة التي بلغت نهاية الكمال البشري في السمو الأخلاقي أن يعبر عن أساه وأسفه لصاحب المعروف الكبير عليه أن أوقعه في حرج كبير، وأدخله في معركة حامية مع قومه، في الوقت الذي كان يتوسل إليه ألا يُوقعه في ذلك، كانت الدموع الزكية أبلغ تعبير عن ذلك الأسى والأسف.

إن دموع عظماء الرجال الأشداء غالية، وتكون أشد غلاء حينما تنحدر من عيني من بلغ الكمال في كل معاني الرجولة، وإن غلاء تلك الدموع ليُصور لنا جسامة المسؤولية التي تحمَّلها رسول الله ﷺ، واستهان من أجلها بكل ما تعارف عليه البشر من الأخلاق والتقاليد والعادات.

مثل من تضحية الصحابة بأنفسهم في سبيل الله
(استعداد الزبير للدفاع عن رسول الله ﷺ)

أخرج الإمام أحمد بإسناده عن عروة بن الزبير أنه قال: إن أول رجل سلَّ سيفه في الله الزبير بن العوام، نفخة نفخها الشيطان: أُخذ رسول الله ﷺ[1]، فخرج الزبير يشق الناس بسيفه والنبي ﷺ بأعلى مكة، قال: ما لك يا زبير؟! قال: أُخبرت أنك أخذت، قال: فصلى عليه ودعا له ولسيفه[2].

فهذا مثال للشجاعة والتضحية بالنفس، فحينما سمع الزبير صوتًا يفيد بأن النبي ﷺ قد أُخذ، حمل سيفه، وخرج يبحث عنه لينقذه ويحميه، وقد جاء في هذه الرواية أن ذلك الصوت نفخة من الشيطان؛ وذلك ليرعب المسلمين ويوقعهم في الاضطراب والحيرة.

وقد دعا له النبي ﷺ ولسيفه على هذه التضحية النبيلة، وما أبلغه من جزاء! وما أنفسه من مكافأة!

ولقد ظل الزبير بن العوام رضي الله عنه حياته كلها مثالاً عاليًا للشجاعة والمغامرات الجريئة في سبيل خدمة هذا الدين.

*****

(١) يعني: أنهم سمعوا صوتًا يقول ذلك، وكان من الشيطان.

(٢) فضائل الصحابة: ٢، رقم: ١٢٦٦، وقد صحح المحقق الدكتور وصي الله إسناده إلى عروة بن الزبير، وأخرجه الحاكم بإسناده، عن عروة، وذكر مثله، وسكت عنه هو والذهبي، المستدرك: ٣/ ٣٦٠، ٣٦١.

نموذج من الجرأة في قول الحق والثبات على الشدائد
(ابن مسعود يتحدى الكفار)

حينما يكون الإيمان بالله تعالى قويًا، يُقدم صاحبه على تجشُّم الصعاب، واقتحام المخاطر من أجل نصرة هذا الدين الذي آمن به وخالطت محبته شغاف قلبه، فتبرز قوة الإيمان، وتتفوق رغم قلة العدد وضعف الإمكانات المادية على كثرة العدد ووفرة القوة المادية.

فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أحد علماء الصحابة الذين انتشر الإسلام على أيديهم، وخرَّجوا أجيالاً من العلماء بالدين، نجده يتحدى زعماء قريش وهم في عزهم ودولتهم، وهو الضعيف من ناحية العشيرة، فيجهر بالقرآن أمامهم في المسجد الحرام، ولم يكن يستطيع الجهر به آنذاك إلا رسول الله ﷺ؛ لقلة عدد المسلمين، وشدة الضغط عليهم من الكفار.

قال محمد بن إسحاق - رحمه الله - في بيان ذلك: وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: كان أول من جهر بالقرآن - بعد رسول الله ﷺ - بمكة عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

قال: اجتمع يومًا أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: والله ما سمعتْ قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن الله سيمنعني!

قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم رافعًا بها صوته: ﴿**الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾، قال: ثم استقبلها يقرؤها.

قال: فتأملوا، فجعلوا يقولون ماذا قال ابن أم عبد؟ وكانت هذه كنيته، قال: ثم قالوا: إنه يتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ!

ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثَّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا! قالوا: لا، حسبك أن قد أسمعتهم ما يكرهون[1].

وهكذا نجد أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في أول الإسلام هو أول من جهر بالقرآن الكريم بمكة المكرمة بعد رسول الله ﷺ، على الرغم من كونه لا عشيرة له تحميه من أذى المشركين، ونجد في هذه القصة أن إخوانه المؤمنين يُذكِّرونه بذلك، ويبينون له خطورة الأمر بالنسبة له، ولكنه يصر على أن يجهر بالقرآن أمام زعماء قريش، ويقول لإخوانه: دعوني، فإن الله سيمنعني، ونجد عبد الله بن مسعود بهذا الموقف يضرب مثلاً عاليًا في التوكل على الله تعالى.

وإذا عظم ذكر الله - سبحانه وتعالى - في قلب المؤمن هان عنده كل شيء، فقد هان هؤلاء الكفار على ابن مسعود على الرغم من شراستهم وتحزبهم ضد دعوة الحق، فتحداهم بما يكرهون، وذلك لأن وجود الإيمان بالله عز وجل في قلبه كانت نسبته عالية جدًا، بينما كان وجود هيبة الكفار في قلبه ضئيلاً جدًا، فأقدم على مواجهتهم بذلك.

وبهذا نعلم أن الرهبة من أعداء الإسلام تضخم في قلب المسلم بقدر تضاؤل وجود الإيمان بالله تعالى في قلبه، بينما تتضاءل رهبته منهم بقدر قوة إيمانه بالله تعالى وهيمنة هذا الإيمان على مشاعره وسلوكه.

وحيث إن ثقة ابن مسعود رضى الله عنه بالله كانت عالية، وتوكله عليه كان عظيمًا؛ فإن الله تعالى منعه من الكفار، فلم يقتلوه على الرغم من أنه لا عشيرة له تحميه، وإنما اكتفوا بتفريغ غضبهم منه بضربه على وجهه، ورجع منهم مظفرًا منصورًا، قد نال بغيته بالجهر بينهم بتلاوة كتاب الله تعالى.

وقد تكَوَّن لديه رضى الله عنه من هذا الموقف الشجاع قدر عال من الإيمان بالله تعالى، إلى جانب ما تضاءل في نفسه من هيبتهم، فأصبح مستعدًا لتحديهم مرة أخرى، حيث قال لأصحابه: ما كان أعداء الله أهون عليَّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٠. وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن حميد عن سلمة بن الأفضل الأبرش عن ابن اسحاق به وذكر مثله - تاريخ الطبري ٢/ ٣٣٤.

وهكذا نجد أن الشجاعة في قول الحق تقوي الإيمان بالله تعالى، وتضعف من هيبة الأعداء ومكانتهم.

وبتأمل هذه القصة نجد مثلاً واضحًا للحجْر الفكري الذي فرضه زعماء الكفار على المسلمين بمكة؛ حيث لم يكن أحد منهم يجرؤ على الجهر بالقرآن غير رسول الله ﷺ، وهذا دليل على إفلاس حجتهم، وضعف معنويتهم؛ حيث لا يستطيعون مقاومة الحجة بمثلها، فيلجؤون إلى محاولة الحجر على الحق بالقوة، باعتبار أنهم كانت لهم الهيمنة آنذاك على مكة.

وهذه طريقة فاشلة، فإن الحق لا بد أن يظهر مهما حاولوا تطويقه بما لديهم من قوة وجبروت، وقد ظهر الحق شيئًا فشيئًا، إلى أن قضى على آخر معقل من معاقل الباطل، وصارت الدولة للإسلام والمسلمين: ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء: ٨١].

*****

إسلام أبي ذر وتحدي الكفار

من هذه النماذج الحية في القوة والثبات على الدين ما كان من أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، لما أعلن إسلامه بمكة، وذلك في أول الإسلام.

وقد أخرج خبره الإمام البخاري ومسلم من عدة طرق، ومنها ما أخرجاه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: لَمَّا بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ بمكة، قال لأخيه[1]: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قوله، ثم ائتني.

فانطلق الآخر حتى قدم، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا[2] ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني فيما أردت.

فتزود وحمل شنة له[3] فيها ماء، حتى قدم مكة، فأتى المسجد، فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل، فاضطجع، فرآه علي رضي الله عنه، فعلم أنه غريب، فلما رآه تبعه، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى أصبح، ثم احتمل قُرَيْبَتَه وزاده إلى المسجد فظل ذلك اليوم، ولا يرى النبي ﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمر به عليٌّ، فقال: ما آن للرجل أن يعلم منزله؟ فأقامه، فذهب به معه ولا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك، فأقامه عليٌّ معه، ثم قال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك هذا البلد؟

قال: إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدَنِّي، فعلت، ففعل، فأخبره، فقال: فإنه حق، وهو رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئًا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل فانطلق يقفوه، حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ:

(١) اسمه أنيس كما في الروايات الأخرى.

(٢) معطوف على الهاء في رأيته وهو مضمن معنى السماع يعني وسمعته يقول كلامًا، من باب قولهم علفتها تبنًا وماء باردًا يعني وسقيتها ماء باردًا (الفتح ٧/ ١٧٤).

(٣) يعني قربة قديمة.

«**ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري**»، فقال: والذي نفسي بيده، لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم.

فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وثار القوم، فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس فأكبَّ عليه، فقال: ويلكم! ألستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم؟ فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها، وثاروا إليه فضربوه، فأكب عليه العباس فأنقذه[1].

في هذا الخبر بيان للرعب الشديد الذي أثاره زعماء الكفار في مكة، حتى أصبح القادم لا يستطيع أن يسأل عن رسول الله ﷺ إلا بحذر شديد، كما فعل أبو ذر الغفاري رضى الله عنه، وأصبح المسلمون لا يستطيعون أن يصحبوا القادمين ظاهرًا، بل لا بد من الاحتيال لإخفاء هذا الاصطحاب، كما فعل عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكان أبو ذر مضطرًا إلى الاستخفاء حتى يحصل على بغيته من الوصول إلى رسول الله ﷺ خشية أن يمنع من ذلك، فلما وصل إليه وآمن به كان قويًا في إعلان إسلامه، لأنه لا يخشى على نفسه، وإنما كان يخشى أن يمنع من سماع دعوة الحق.

كما أن في هذا الخبر بيان اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بتلقي الغرباء لدعوتهم إلى الإسلام سرًا، وذلك ظاهر في متابعة علي بن أبي طالب لأبي ذر رضي الله عنهما خلال ثلاثة أيام، فقد جعل أمر هذا الوافد الغريب من اهتمامه حتى أوصله في اليوم الثالث إلى رسول الله ﷺ.

وهذا يعني أن هذا السلوك جزء من المنهج الدعوي الذي تلقوه من رسول الله ﷺ، وطبقوه تطبيقًا دقيقًا كما جاء في هذا الخبر.

وهكذا رأينا أبا ذر رضى الله عنه يجهر بإيمانه بهذا الدين أمام أعدى أعدائه آنذاك، بعدما اقتنع أنه دين الحق.

وهذه نفحة من نفحات قوة الإيمان أبتْ إلا أن تبدو في صورة ظاهرة من الاعتزاز بالإسلام، والتحدي القوي لأعدائه.

(١) صحيح مسلم رقم ٢٤٧٣، كتاب فضائل الصحابة، رقم ١٣٣/ ٢٤٧٤، وصحيح البخارى، كتاب مناقب الأنصار، رقم: ٣٨٩١.

إن إعلان الإسلام بهذه الصورة من رجل ليس له عشيرة ولا حلفاء في مكة، أمام أعداء يهيمنون على الوضع القائم آنذاك، ويعذبون المسلمين. . إن هذا الإعلان سلوك جرىء يشفُّ عن محرك قوي من الإيمان.

وإن إعادة التحدي في اليوم الثاني لأكثر إعجابًا وإثارة؛ لأن ترتب الأذى على التحدي الأول أمر محتمل؛ وإن كان هو المرجح، أما ترتبه على التحدي الثاني فإنه مؤكد، ويترجح تضاعفه، وهذا أمر يدل على أن أبا ذر قد قصد إذلال الكفار الذين يعتزون بقوتهم وجمعهم ويستأسدون على الضعفاء.

وإنه إذا كان المسلمون في فترات ضعفهم وقلتهم بحاجة إلى المداراة والاستخفاء، فإن بروز أفراد منهم يعلنون دعوة الحق له أثره البالغ في توهين قوى الأعداء، وتقوية إيمان المسلمين وربط قلوبهم، وكون النبي ﷺ لم ينكر على أبي ذر وأمثاله ممن جهروا بإسلامهم أو بالدعوة إلى الإسلام، دليل على شرعية ذلك ما لم يؤثر على مصلحة الدعوة.

وقول رسول الله ﷺ لأبي ذر: «**ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري**» مثل لما تقدم ذكره في خبر إسلام ضماد الأزدي من اهتمام النبي ﷺ العظيم بنشر دعوته، وإشعار المسلمين بواجبهم نحو ذلك.

وقد جاء في رواية أخرى أخرجها الإمام مسلم ما هو أبلغ في الدلالة على ذلك، وذلك في قوله ﷺ لأبي ذر: «**إنه قد وُجِّهتْ لي أرض ذات نخل، لا أراها إلا يثرب، فهل أنت مبلغ عني قومك عسى الله أن ينفعهم بك، ويأجرك فيهم!**».

قال أبو ذر: فأتيت أُنيْسا، فقال: ما صنعت؟ قلت: صنعت أني أسلمت وصدقت، فاحتملنا حتى أتينا قومنا غفارًا، فأسلم نصفهم، وكان يؤمهم: أيْماءُ بن رَحَضةَ الغفاري، وكان سيدهم، وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله ﷺ المدينة أسلمنا، فقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأسلم نصفهم الباقي[1].

وهكذا أسلمت هذه القبيلة بدعوة أبي ذر رضي الله عنه، حيث توجه بدعوة النبي ﷺ، ووضع نصب عينيه توجيهه السامي بتبليغ قومه، وكان له ولقومه مواقف مشرفة في الدعوة والجهاد.

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم: ٢٤٧٣.

هذا وقد جاء في هذا الخبر أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أكبَّ على أبي ذر رضى الله عنه لإنقاذه، وذكَّر المشركين بما يخشاه من انتقام قبيلة غفار منهم بقطع طريق تجارتهم إلى الشام.

وهذا مسلك موفق مع هؤلاء الكفار، وفق الله تعالى إليه العباس؛ ليتم إنقاذ أبي ذر، حيث خاطب قومه بالوازع الذي يفهمونه ويُقدرونه، وهو وازع المصالح التجارية التي تقوم عليها حياتهم.

وهذا درس بليغ ينبغي للمسلمين وعيه والاستفادة منه.

*****

مواقف عالية من صبر النبي ﷺ على الأذى

لقد تعرض رسول الله ﷺ وهو يدعو إلى الله في مكة إلى أذى شديد من زعماء الكفار.

ولقد كان قوي الشخصية، شجاعًا في مواجهة هؤلاء الزعماء على الرغم مما كانوا عليه من قوة معنوية، ومكانة عالية بين العرب، فقد كانوا يقتلون بنظراتهم الحادة وألسنتهم السليطة كل ضعيف خوار، وكان العرب جميعًا يحترمونهم ويقدرون رأيهم؛ لمكانتهم من خدمة بيت الله الحرام وجواره.

ولكن رسول الله ﷺ واجههم بما يكرهون حينما أصروا على باطلهم، وتحداهم بما عجزوا عن مقاومته حتى أسقط سمعتهم الوهمية القائمة على الدجل واستغلال غفلة العقول.

فلم يكن منهم إلا أن ضاعفوا من كيدهم وأذاهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين به.

وقد جاءت روايات في بيان ما تعرض له رسول الله ﷺ من الأذى؛ فمن ذلك:

١- ما أخرجه ابن إسحاق - رحمه الله - قال: حدثني يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابوا من رسول الله ﷺ فيما كانوا يظهرون من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحجْر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر ذلك الرجل قط؛ قد سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسبَّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا.

فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول، قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ.

قال: ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فوقف، ثم قال: «**أتسمعون يا معشر قريش؟**

أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح!»، قال: فأخذ القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولاً!!

قال: فانصرف رسول الله ﷺ.

حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجْر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ: «**نعم أنا الذي أقول ذلك**»!

قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه، قال: فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟! ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا نالوا منه قط[1].

وأخرجه أبو يعلى والطبراني بنحوه، وفيه: أن أبا جهل قال: يا محمد، ما كنت جهولاً، فقال رسول الله ﷺ: «**أنت منهم**»!

ذكره الهيثمي وقال: وفيه محمد بن عمرو بن علقمة، وحديثه حسن، وبقية رجال الطبراني رجال الصحيح[2].

٢- أخرج الحافظ أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي بإسناده عن أسماء بنت أبي بكر أنهم قالوا لها: ما أشدُّ ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ، فقالت: كان المشركون قعدوا في المسجد يتذاكرون رسول الله ﷺ وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ، فقاموا إليه، وكانوا إذا سألوا عن شيء صدَقَهم، فقالوا: ألست تقول كذا وكذا؟ فقال: «**بلى**»، فتشبثوا به بأجمعهم.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٨٩، السير والمغازي/ ٢٩٩. وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق وذكره مثله - مسند أحمد ٢/ ٢١٨-. وذكره الهيثمي وقال: وقد صرح ابن إسحاق بالسماع وبقية رجاله رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٦/ ١٦-. وأخرج الإمام البخاري نحوه مختصرًا - صحيح البخاري رقم ٣٦٧٨.
(٢) مجمع الزوائد ٦/ ١٦.

فأتى الصريخ إلى أبي بكر، فقيل له: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا وإن له غدائر[1]، فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟! قال: فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر، فجعل لا يمس شيئًا من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام[2]!

وقد أشار الحافظ ابن حجر إلى هذه الرواية وقال: ولقصة أبي بكر هذه شاهد من حديث علي، أخرجه البزار من رواية محمد بن علي عن أبيه أنه خطب، فقال: من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت.

قال: أمَا إني ما بارزني أحد إلا أنصفت منه، ولكنه أبو بكر، لقد رأيت رسول الله ﷺ أخذته قريش، فهذا يجره وهذا يتلقاه، ويقولون له: أنت تجعل الآلهة إلها واحدًا؟! فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا ويدفع هذا، ويقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟!

ثم بكى عليٌّ، ثم قال: أُنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون أفضل أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال علي: والله لساعةَ من أبي بكر خير منه؛ ذلك رجل يكتم إيمانه وهذا يعلن إيمانه[3].

وأخرج الإمام أحمد وأبو يعلى من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم! أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟! فقالوا: من هذا؟ فقالوا: أبو بكر المجنون!

ذكره الهيثمي وقال: ورجالهما رجال الصحيح[4].

---

(١) أي إن شعر رأسه مفرق إلى غدائر.

(٢) مسند الحميدي ١/ ١٥٥ رقم ٣٢٤، وعزاه الحافظ ابن حجر إلى أبي يعلي والحميدي - المطالب العالية ٤/ ١٩٢، رقم ٤٢٧٩ - وحسن إسناده - فتح الباري ٧/ ١٦٩ - ووثق البوصيري رجاله - هامش المطالب العالية ٤/ ١٩٣-.

(٣) فتح الباري ٧/ ١٦٩.

(٤) مجمع الزوائد ٦/ ١٧. وأخرجه الحاكم من حديث أنس رضي الله عنه وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٦٧-.

٣- وأخرج الحافظ ابن سيد الناس من حديث عروة بن الزبير قال: حدثني عمرو بن عثمان بن عفان، عن أبيه عثمان بن عفان قال: أكثر ما نالت قريش من رسول الله ﷺ أني رأيت يومًا.. قال عمرو: فرأيت عيني عثمان بن عفان ذرفتَا من تذكر ذلك، قال عثمان بن عفان: كان رسول الله ﷺ يطوف بالبيت، ويده في يد أبي بكر، وفي الحجْر ثلاثة نفر جلوس؛ عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، فمر رسول الله ﷺ، فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره، فعُرف ذلك في وجه النبي ﷺ، فدنوت منه حتى وسطَته، فكان بيني وبين أبي بكر، وأدخلَ أصابعه في أصابعي حتى طفنا جميعًا، فلما حاذاهم قال أبو جهل: والله لا نصالحك ما بلَّ بحرٌ صوفةَ وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا، فقال رسول الله ﷺ: «**أنـَّى ذلك!**».

ثم مضى عنهم، فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك، حتى إذا كان في الشوط الرابع ناهضوه، ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه، فدفعته في صدره فوقع على استه، ودفع أبو بكر أمية بن خلف، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط، ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ وهو واقف، ثم قال: «**أما والله لا تنتهون حتى يحل بكم عقابه عاجلاً**».

قال عثمان: فوالله ما منهم رجل إلا أخذه أفْكل[1]، وهو يرتعد، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**بئس القوم أنتم لنبيكم!**»، ثم انصرف إلى بيته، وتبعناه خلفه حتى انتهى إلى باب بيته، ووقف على السُّدة، ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: «**أبشروا، فإن الله عز وجل مظهرٌ دينه، ومتمٌّ كلمته، وناصر نبيه، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله بأيديكم عاجلاً**»!

قال: ثم انصرفنا إلى بيوتنا، فوالله لقد رأيتهم قد ذبحهم الله بأيدينا[2]!

وذكر الحافظ ابن حجر في شرح حديث عبد الله بن عمرو السابق من رواية الزبير بن بكار، والدارقطني في «الأفراد» من طريق عبد الله بن عروة، قال: حدثني عمرو بن عثمان، عن أبيه عثمان.. وذكر أوله، ثم قال: «فذكر قصة يخالف سياقها حديث عبد الله بن عمرو هذا، فهذا الاختلاف ثابت على عروة في السند، ولكن سنده

(١) الأفكل بفتح الهمزة وسكون الفاء الرعدة - القاموس المحيط-.
(٢) عيون الأثر ١/ ١٠٣.

ضعيف، فإن كان محفوظًا حمل على التعدد، وليس ببعيد؛ لما سأبينه»، ثم قارن بين الروايتين، وقال: وهذا يقوي التعدد[1].

وهذا يعني أنه إن كان خبرًا واحدًا فالمعتبر هو حديث عبد الله بن عمرو؛ لأنه أقوى إسنادًا، وإن حمل على تعدد القصة، وهو الذي رجحه الحافظ ابن حجر؛ فإن ضعفه محتمل للتقوية، وهكذا أورده الحافظ ابن سيد الناس على أنه خبر مستقل.

٤- وأخرج الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ذات يوم وهو جالس حزينًا، قد خُضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، قال: فقال له: مالك؟ قال: فقال له: «**فعل بي هؤلاء وفعلوا**»، قال: فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: «**نعم**»، قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادْع تلك الشجرة، فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع، فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: «**حسبي**»[2].

من هذه النصوص نعرف مدى ما كان المشركون يضمرون لرسول الله ﷺ من عداوة؛ حيث كانوا يجتمعون على محاربته، ويوصي بعضهم بعضًا بالوقوف في وجهه، ويلوم بعضهم بعضًا على التقصير في مبادأته بالعداء.

وحينما يكون العدو متفرقًا أمره، ويقاوم أفرادُه الدعوة الوافدة وهم فرادى فإن أمره يكون ميسورًا؛ إذ بإمكان صاحب الدعوة أن يصل إلى إقناع بعضهم بدعوته، وأن يتفادى عداوة الآخرين بكلمة مودة أو برد حازم يُسكت عدوه، فأما حين يجتمع أفراد العدو على صاحب الدعوة فإن موقفه يكون حرجًا أمامهم؛ إذ إن السيادة في مثل هذه الاجتماعات تكون للدهماء الذين تحركهم عادة العصبية القبلية والتمسك بالموروثات وإن كانت تتنافى مع العقل السليم، ولا يتمكن صاحب الدعوة - والحالة هذه - من مخاطبة أصحاب العقول المفكرة.

وقد كان زعماء قريش الذين تغلب هذه الصفات على أصحاب الرأي منهم هم الذين يحتلون ساحات المسجد الحرام، ولا يتركون الفرصة لأصحاب العقول

---

(١) فتح الباري ٧/ ١٦٨.

(٢) مسند أحمد ٢/ ١١٣. وذكره الحافظ ابن كثير وقال: هذا إسناد على شرط مسلم - البداية والنهاية ٦/ ١٢٨ - ١٢٩ - وصححه الحافظ الذهبي - تاريخ الإسلام / السيرة ١٣٠-.

السليمة . . لا يتركون لهم الفرصة ليلتقي بهم رسول الله ﷺ أو يسمعوا كلامه، فقد قاموا بالحجْر الفكري على مجتمعهم، وطبقوا ذلك بصرامة فائقة، حتى كان من يريد السماع من النبي ﷺ يضطر إلى التسلل في الخفاء.

ومن هنا كان موقف النبي ﷺ صعبًا للغاية في معاملتهم، وكان لا بد له أحيانًا أن يخرج عن حلْمه المعهود ليسلك معهم طريق الحزم والمجابهة كما هو الحال في الخبر الأول؛ لأن الذين يواجهونه يخاطبونه بعواطفهم الثائرة الحاقدة، ولا يخاطبونه بعقول متزنة تدرك ما يُلقَى عليها من قول وتفكر فيه.

فلما قال لهم: «**أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح**» استكانوا وخضعوا له.

لقد كان زعماء الكفار أولئك يحاولون أن يبنوا لأنفسهم مجدًا من خلال جرأتهم على الرسول ﷺ وإقدامهم على سبه وإيذائه أمام الجمهور؛ حيث يظهرون بمظهر الأبطال الذين لا يبالون بسخط النبي ﷺ والمسلمين، ولا بسخط حماتهم من بنى هاشم، فكان من المناسب أن يجيبهم النبي ﷺ بكلام شديد يهزُّ فيه من شخصياتهم، ويسقط فيه من معنوياتهم، حتى لا يمتدحوا أمام أتباعهم بتلك المواقف الوهمية، ولقد حصل للنبي ﷺ ما أراد، حيث وجموا لسماع ذلك الكلام، وتكلموا بكلام يحمل معنى الاعتذار عن موقفهم السيئ ذلك.

إن اجتماعهم على الباطل يلغي تفكيرهم السليم، ويجعلهم ينطلقون من الحماس المتأجج من العواطف الثائرة، وغالبًا ما يكون التفكير والتوجيه من فرد أو أفراد يتزعمون أفراد المجتمع، فيبقى أغلب الأفراد تابعين لهؤلاء الزعماء من غير تفكير في صواب ما دعوهم إليه من خطئه؛ ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعوهم إلى التفكير المتأمل المتجرد عن فكر الجماعة الذي يهيمن عادة على الأفراد، حيث يقول تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾ [سبأ: ٤٦].

فإذا خلا الإنسان بنفسه، ثم تفكر في أمر النبي ﷺ، فإنه سيلغي من حسابه اتهامه بالجنون وغيره مما ألصقه به الأعداء، وكذلك إذا خلا بصاحبه وقارنَا بين النبي ﷺ ومن عُرف عنهم الإصابة بهذه التهم؛ لأن الفكر - والحال هذه - ينطلق من العقل المتجرد

من العاطفة والتبعية للقوى المهيمنة على العقول، فلا بد أن يصل إلى النتيجة الصحيحة الموافقة للعقل السليم.

وحينما يخلو الإنسان إلى فكره يخبو نداء العاطفة تدريجيًا، ويرتفع نداء العقل، فيصلُ الإنسان إلى الحكم الصحيح العادل.

وفي هذه الأخبار مواقف رائعة لأبي بكر رضي الله عنه؛ حيث وقف دون النبي ﷺ، ودفع الناسَ عنه، وحماه بنفسه حتى انصرف عنه أعداؤه، وفيها بيان لشدة الأذى الذي تحمله في سبيل ذلك، وهذا دليل على قوة إيمانه وشجاعته النادرة واستهانته بنفسه في سبيل الدفاع عن رسول الله ﷺ.

وفي أحد هذه الأخبار شهادة على شجاعة أبي بكر البالغة، يقدمها بطل كبير من أبطال الإسلام هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ الذي لم تنتكس له راية، ولم يقف أمامه أحد في موقف.

وإنما يدرك فضل أهل الفضل من شاركهم في هذا الفضل؛ حيث شهد له بالإقدام على مدافعة المشركين وإنقاذ النبي ﷺ من بين أيديهم، بينما لم يجرؤ غيره على ذلك، وإن هذا الموقف بقدر ما يصور شجاعة أبي بكر وتضحيته فإنه يُصور فظاعة المشركين وعنفهم في الانتقام وقوة شخصياتهم التي أوقفت المؤمنين حتى عن الدفاع عن رسول الله ﷺ.

وإن من مزايا هذه الشهادة الكريمة أنها تم إعلانها على ملأ من الناس، وفي وقت بدأ فيه بعض الموتورين والجهال بالغضِّ من شأن بعض كبار الصحابة، فأراد عليٌّ رضى الله عنه أن يعدِّل الموازين، وأن ينبئ الناس بأن محبتهم له يجب ألا تطغى بحيث يترتب عليها التهوين من شأن كبار الصحابة كأبي بكر وعمر رضى الله عنهم أجمعين.

وإننا حين نبرز حق أبي بكر وفضله كما أعلنه علي رضي الله عنه، فإننا نقدر لعليٍّ هذا الموقف الكريم المشتمل على التواضع الجمِّ والوفاء الكبير لإخوة له مضوا على درب الجهاد والدعوة.

وفي الخبر الأخير بيان لموقف عثمان رضى الله عنه؛ حيث دفع أبا جهل عن رسول الله ﷺ حتى أوقعه على الأرض، مع ما كان يتمتع به أبو جهل من مكانة عالية بين

قومه، فرضي الله عن هؤلاء الصحابة الذين صمدوا - مع قلتهم - لأهل الباطل وهم في أوج عزهم وكثرتهم.

٥- أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: إن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاقدوا باللات والعُزى ومناة الثالثة الأخرى وإساف ونائلة: لوْ قد رأينا محمداً لقد قمنا إليه قيام رجل واحد، فلم نفارقه حتى نقتله!

فأقبلت ابنته فاطمة - رضي الله عنها - فقالت: هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك!

فقال: «**يا بنية، أريني وضوءًا**»، فتوضأ، ثم دخل عليهم المسجد، فلما رأوه قالوا: ها هو ذا، وخفضوا أبصارهم، وسقطت أذقانهم في صدورهم، وعُقِروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه بصراً، ولم يقم إليه رجل!

فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من التراب، فقال: «**شاهت الوجوه**»، ثم حصبهم، فما أصاب رجلاً منهم من ذلك الحصى حصاة إلا قتل يوم بدر كافراً[1].

في هذا الخبر بلغ الملأ من قريش القمة في التحجر الفكري؛ حيث ضاعفوا من تهديدهم ومحاولتهم القضاء على دعوة الإسلام بالقوة، وذلك بالقضاء على داعيها الأول ﷺ.

ولكننا نجد من رسول الله ﷺ في مقابل ذلك إصراراً أكيداً على تبليغ دعوته مهما تكن الحواجز والعوائق.

وتجد من هذا الخبر مثلاً على شجاعة رسول الله ﷺ العظيمة؛ حيث علم من ابنته فاطمة - رضي الله عنها - عن قعود المشركين له، وتهديدهم إياه، ومع ذلك خرج من بيته منفرداً ودخل عليهم وهم مجتمعون، وإن هذا الإقدام العظيم مع احتمال الضرر البالغ يعتبر قمة في التضحية والبذل من أجل دعوة الإسلام.

---

(١) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٢٣. وذكره الهيثمي وقال: رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح - مجمع الزوائد ٨/ ٢٢٨. وأخرجه أبو نعيم من طريق ابن عباس رضي الله عنهما دلائل النبوة لأبي نعيم ٦٠. وأخرجه الحاكم بنحوه وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه - المستدرك ٣/ ١٥٧.

لقد كان الشيء الذي يهيمن على مشاعر النبي ﷺ هو التفكير في دعوته، وبذل كل الطاقة في محاولة الوصول إلى قلوب الناس، ولقد كان أمر حماية النفس وسلامتها من التعرض للضرر شيئًا ثانويًا، لا يأخذ له الرسول ﷺ أي اعتبار إذا تعارض مع الإقدام على تبليغ الدعوة.

٦- وأخرج الإمام مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوسٌ وقد نحرت جزورٌ بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه، فيضعه في كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط، كما جاء مصرحًا به في رواية مسلم الثانية) فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه.

قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر، لو كان لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت - وهي جويرية - فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم.

فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعَا دعَا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا، ثم قال: «**اللَّهم عليك بقُريش**» ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته، ثم قال: «**اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبةَ بن ربيعة، وشيبةَ بن ربيعةَ، والوليدَ بن عتبة، وأميةَ بن خلف، وعقبةَ بن أبي مُعيْط**».

قال: وذكر السابع ولم أحفظه، فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق، لقد رأيت الذين سمَّى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر[1]!

في هذه الرواية وما في معناها أمثلة للأذى الذي لقيه رسول الله ﷺ على يد الكفار في مكة مما يُقصد به الإهانة المادية بإلحاق الأذى الجسماني، والمعنوية بتحطيم المشاعر وإغاظة النفوس، وهي أبلغ من الحسية.

هذا وإن ما جرى من عقبة بن أبي معيط يعتبر اعتداء مهينًا على أعظم رجل عرفه التاريخ، وهو يؤدي شعائر دينه، مما يدل على تدني مستوى أهل الباطل في معاملة أهل الحق، وهذا علامة على توغل عداوتهم وإفلاسهم في مجال الفكر والحجة البيانية، حيث استخدموا أيديهم وقوتهم المادية.

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد رقم ١٧٩٤، صحيح البخاري كتاب الجهاد رقم ٢٩٣٤.

وإن حقْد الكفار الدفين يجعلهم يتصرفون بمقتضى عواطفهم لا بمقتضى عقولهم؛ حيث إنهم لو راجعوا أنفسهم بعد ذلك لأنكروا عملهم، بينما أهل الحق لا ينزلون أبدًا إلى هذا المستوى الهابط.

أما موقف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فإنه مثال لشدة الإرهاب الذي كان يواجهه المستضعفون في مكة، الذين لم تكن لهم عشائر تحميهم.

فالصحابة رضي الله عنهم يحبون رسول الله ﷺ أعظم ما يحبون أنفسهم، ولكن ابن مسعود كان على يقين من أنه لن يصل إلى رسول الله ﷺ إلا وهو جثة هامدة أو ما يشبه ذلك، فلن يتمكن من تخليصه من الأذى.

ومن هذا الخبر نفهم أن للنساء دورًا يقمن به، لا يستطيع الرجال أحيانًا أن يقوموا به، فقد استطاعت فاطمة - رضي الله عنها - أن تزيل الأذى عن أبيها ﷺ، وأن تسب الملأ من قريش دون أن تتعرض للأذى؛ لأن تقاليد العرب تمنعهم من الاعتداء على النساء.

وهكذا في كل زمن ينبغي للدعاة أن يستفيدوا من دور المرأة في الأمور التي تحسنها وقد لا يدركها الرجال، مستفيدين من الأعراف الاجتماعية التي تخدمهم.

وحينما دعا رسول الله ﷺ على الأعداء خافوا من دعوته، وهكذا الكفار يخافون من عاقبة الدعاء في الدنيا فقط؛ حيث إنهم لا يؤمنون بالآخرة، فهل يتنبه بعض المسلمين الذين لا يرتدعون عن ظلم الناس إلا خوفًا من استجابة دعائهم وحلول العقوبة الدنيوية غافلين عن مواقف الحساب يوم القيامة؟!

ومما يدل على أن النبي ﷺ قد تأثر تأثرًا كبيرًا مما حصل له ما جاء في رواية أخرى لهذا الخبر، وفيها: «ثم خرج - يعني رسول الله ﷺ - من المسجد، فلقيه أبو البختري بسوط يتخصر به، فلما رأى النبي ﷺ أنكر وجهه، فقال: مالك؟ فقال النبي ﷺ: «**خلِّ عني**»، فقال: علم الله لا أخلي عنك أو تخبرني ما شأنك، فلقد أصابك شيء، فلما علم النبي ﷺ أنه غير مُخَلٍّ عنه أخبره، فقال: إن أبا جهل أمر فطُرح عليَّ فرث، فقال أبو البختري: هلمَّ إلى المسجد.

فأتى النبي ﷺ وأبو البختري، فدخلا المسجد، ثم أقبل أبو البختري إلى أبي جهل، فقال: يا أبا الحكم، أنت الذي أمرت بمحمد فطُرح عليه الفرث؟ قال: نعم، قال:

فرفع السوط فضرب به رأسه! قال: فثار الرجال بعضها إلى بعض، قال: وصاح أبو جهل: ويْحكم! هي له، إنما أراد محمد أن يلقي بيننا العداوة وينجو هو وأصحابه.

ذكره الهيثمي وقال: رواه البزار والطبراني في الأوسط، وفيه الأجلح بن عبد الله الكندي وهو ثقة عند ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره[1].

وأبو البَخْتَري هو ابن هشام بن الحارث بن أسد، وأمه من بني هاشم، وكان من فريق المعتدلين من الكفار الذي تميزوا بوضوح بعد نقض صحيفة المقاطعة، وكان من الذين نادوا بنقضها.

٧- وأخرج أبو نعيم من طريق محمد بن إسحاق، عن عثمان بن عروة بن الزبير، عن أبيه، عن هبار بن الأسود، قال: كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام وتجهزتُ معهما، فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إليه[2] فلأوذينه في ربه، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، هو يكفر بالذي دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم ابعث عليه كلبًا من كلابك**».

ثم انصرف عنه، فرجع إليه[3]، فقال: أي بني، ما قلت له؟ قال: كفرت بإلهه الذي يعبد، قال: فماذا قال لك؟ قال: قال: «**اللهم ابعث عليه كلبًا من كلابك**»، فقال: أي بني، والله ما آمن عليك دعوة محمد.

قال: فسرنا حتى نزلنا الشراة وهي مأسدة، فنزلنا إلى صومعة راهب، فقال: يا معشر العرب، ما أنزلكم هذه البلاد وإنها مسرح الضيغم؟ فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم حقي، قلنا: أجل يا أبا لهب، فقال: إن محمدًا قد دعا على ابني دعوة، والله ما آمنها عليه، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، ثم افرشوا حوله، فبينما نحن حوله وأبو لهب معنا أسفل، وبات هو فوق المتاع، فجاء الأسد فشم وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد تقبض ثم وثب، فإذا هو فوق المتاع، فجاء الأسد فشم وجهه، ثم هزمه هزمة ففضخ رأسه، فقال: سيفي يا كلب، لم يقدر على غير ذلك، ووثبنا، فانطلق الأسد وقد فضخ رأسه، فقال له أبو لهب: قد عرفت والله ما كان لينفلت من دعوة محمد[4].

---

(١) مجمع الزوائد ٦/ ١٨.

(٢) يعني رسول الله ﷺ.

(٣) يعني إلى أبيه.

(٤) دلائل النبوة لأبي نعيم ١٦٢. وأخرجه أيضًا الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٥٣٩ - وحسن إسناد الحاكم الحافظ ابن حجر - فتح الباري ٤/ ٣٩-.

وهكذا استجاب الله دعوة رسوله ﷺ، فبعث على عتبة بن أبي لهب الأسد الذي أصبح جنديًا من جنود الدفاع عن الحق فأهلكه، ولم تُجْد كل الاحتياطات الأمنية التي أحاط بها أبو لهب ابنه.

ومن الغريب في الأمر أن أولئك الكفار يوقنون بأن النبي ﷺ مستجاب الدعوة، ومع ذلك يستمرون في مقاومته وإيذائه، ولا يحملهم ذلك على الإيمان به والاستجابة لدعوته، وهذه صورة من صور اتباع الهوى المنحرف؛ حيث يكون الحق واضحًا مثل الشمس، فيحيد أصحاب الهوى المنحرف عن اتباعه.

ولقد حمى الله تعالى نبيه ﷺ في مواطن أخرى من أذى الكفار كما أخرج الإمام مسلم بإسناده، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم[1]؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، (أو لأعفِّرن وجهه في التراب)، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهولاً وأجنحة!

فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**».

قال: فأنزل الله عز وجل - لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه-: ﴿**كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ**[2] **(١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾[3].

---

(١) يعني هل يلصق وجهه بالعفر وهو التراب ويعني بذلك السجود.

(٢) يعني أبا جهل.

(٣) صحيح مسلم، كتاب المنافقين رقم ٢٧٩٧ ص ٢١٥٤.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أبو بكر الحميدي بإسناده عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها - قالت: لما نزلت: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ [المسد: ١]، أقبلت العوراء أم جميل[١] ولها ولولة[٢]، وفي يدها فهر[٣]، وهي تقول:

مُذمَّمًا أبيْنا[٤] ودينه قليْنا[٥]

وأمرَه عصيْنا

ورسول الله ﷺ جالس في المسجد، ثم قرأ قرآنًا اعتصم به - كما قال - وقرأ: ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا** ﴾ [الإسراء: ٤٥].

فأقبلتْ حتى وقفت على أبي بكر، ولم تر رسول الله ﷺ! فقالت:

يا أبا بكر، إني أخبرتُ أن صاحبك هجاني، فقال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، قال: فولَّت وهي تقول: قد علمَتْ قريش أني بنت سيدها[٦].

ومن أمثلة ذلك ما سبق من خبر أبي جهل حينما هدد بفضخ رأس النبي ﷺ بالحجر فمنعه الله تعالى منه.

ولكن الله - تعالى - يمكِّن الكفار أحيانًا كما في الخبر السابق، من إيصال الأذى لرسول الله ﷺ، وذلك لرفع ذكره في العالمين، وليكون قدوة لأتباعه المؤمنين في الرضا بقضاء الله تعالى، والصبر الجميل على الأذى.

وقد يمكِّن الله - تعالى - أهل الباطل من أهل الحق بُرهة من الزمن، فيقومون بالتنكيل بأهل الحق، ومحاولة إسكات أصواتهم، ولكن سرعان ما ينهار بناؤهم أمام تماسك أهل الحق وصدق تمثيلهم لدينهم، كما قال الله: ﴿ **لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ** ﴾ [آل عمران: ١١١].

---

(١) هي امرأة أبي لهب المذكورة في السورة.

(٢) أي عويل.

(٣) أي حجر.

(٤) تريد محمدًا، وهكذا كان الكفار يسمونه على سبيل السخرية.

(٥) أي أبغضنا.

(٦) مسند الحميدي ١/ ١٥٣/ ١٥٤، رقم ٣٢٣. وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من طريق الحميدي، وذكر مثله، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٣٦١.

مواقف من صبر الصحابة على الأذى

لقد كانت مواجهة زعماء قريش لدعوة الإسلام عنيفة متواصلة، ولقد ساءهم كثيراً أن دخل في الإسلام عدد من أشرافهم وأبنائهم، فحاولوا فتنتهم بالتأليف أولاً، حيث أغروهم بالأموال والجاه إذا هم تركوا دينهم، فلم ينجحوا معهم في ذلك، فلجؤوا إلى محاولة حرمانهم من الأموال والمتاع، فلم يثنهم ذلك عن عزمهم على التمسك بدينهم الحنيف.

عند ذلك تحول الكفار إلى فتنة التخويف؛ حيث قاموا بإيذاء المسلمين وتعذيبهم، وقد يبدؤون بفتنة الترهيب قبل المرور بفتنة الترغيب؛ لإدراكهم بأن المسلمين ليسوا طلاب دنيا، وأن أي محاولة في ترغيبهم ستبوء بالفشل، أو انطلاقًا من شدة حنقهم على الإسلام ودعاته.

وقد مر بهذه الفتنة أكثر المسلمين؛ سواء في ذلك الأغنياء والفقراء، والأحرار والعبيد.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن سعد من رواية محمد بن عمر الواقدي بإسناده إلى إبراهيم بن محمد بن أبي طلحة، قال: قال طلحة بن عبيد الله: حضرت سوق بُصرى، فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل الموسم؛ أفيهم رجل من أهل الحرم؟ قال طلحة: قلت: نعم، أنا، فقال: هل ظهر أحمد بعد؟ قلت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء ومخرجه من الحرم، ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ، فإياك أن تسبق إليه.

قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال، فخرجت سريعًا حتى قدمت مكة، فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم؛ محمد بن عبد الله الأمين قد تنبأ، وقد اتبعه ابن أبي قحافة، قال: فخرجت حتى دخلت على أبي بكر فقلت: أتَبعت هذا الرجل؟ قال: نعم، فانطلق إليه فاتبعه، فإنه يدعو إلى الحق، فأخبره طلحة بما قال الراهب، فخرج أبو بكر بطلحة، فدخل به على رسول الله ﷺ، فأسلم طلحة، وأخبر رسول الله ﷺ بما قال الراهب، فسُرَّ رسول الله ﷺ بذلك، فلما أسلم أبو بكر وطلحة أخذهما نوفل

بن خويلد بن العدوية فشدهما في حبل واحد، ولم يمنعهما بنو تيم، وكان نوفل بن خويلد يدعى أسد قريش؛ فلذلك سُمِّي أبو بكر وطلحة القرينيْن.

ورواه الحاكم والبيهقي من طريق الواقدي بهذا الإسناد.

وذكره ابن كثير والذهبي من هذا الطريق، وسكت هؤلاء الأئمة عنه[1].

وهذه الرواية من طريق الواقدي، وقد حكم علماء الحديث عليه بالترك، ولكن العلماء اعتمدوا رواياته في السيرة والمغازي، ويكفي إقرار هؤلاء الأئمة: ابن سعد، والحاكم، والبيهقي، وابن كثير، والذهبي لهذه الرواية.

ومن ذلك ما جرى للزبير بن العوام رضي الله عنه من تعذيب عمه له، كما أخرج الحاكم عن أبي الأسود، عن عروة، قال: أسلم الزبير بن العوام وهو ابن ثمان سنين، وهاجر وهو ابن ثمان عشرة سنة، وكان عَمُّ الزبير يعلق الزبير في حصير ويدخن عليه بالنار، ويقول: ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبدًا.

وسكت عنه الحاكم والذهبي[2].

وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله ثقات، إلا أنه مرسل[3].

وكذلك ما جرى لعثمان بن عفان من تعذيب عمه له، كما أخرج ابن سعد بإسناده عن محمد بن إبراهيم بن حارث التيمي، عن أبيه، قال: لما أسلم عثمان بن عفان أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطًا، وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟! والله لا أحلك أبدًا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين، فقال عثمان: والله لا أدعه أبدًا ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه[4].

وهكذا جرى التعذيب والإذلال لهؤلاء الكبراء المعروفين في قبيلة قريش من أصحاب النسب الرفيع، ولم يردوا على قومهم الذين آذوهم؛ لأنهم كانوا في المرحلة الأولى التي أمرهم فيها رسول الله ﷺ بالصبر على الأذى وعدم رد الاعتداء بمثله.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٢١٤، المستدرك ٣/ ٣٦٩، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٦٦، البداية والنهاية ٣/ ٢٨، تاريخ الإسلام / السيرة / ١٣٩.

(٢) المستدرك ٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠.

(٣) مجمع الزوائد ٩/ ١٥١.

(٤) طبقات ابن سعد ٣/ ٥٥.

ومن أمثلة الثبات على الدين رغم التعرض للمحن ما جرى لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مع أمه، وذلك فيما أخرجه أبو يعلى، والطبراني، وابن مردويه، وابن عساكر، عن أبي عثمان النهدي قال: إن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت فيَّ هذه الآية: ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [لقمان: ١٥]، كنت رجلاً برًّا بأمي، فلما أسلمت، قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟! لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيَّر بي، فيقال: يا قاتل أمه، قلت: يا أُمَّه، لا تفعلي، فإني لا أدع ديني هذا لشيء، فمكثت يومًا وليلة لا تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يومًا آخر وليلة قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك، قلت: يا أُمَّه، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسًا ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي! فلما رأت ذلك أكلت، فنزلت هذه الآية[1].

وأخرجه الإمام مسلم بنحوه ضمن حديث طويل[2].

وقد ظهر بهذا إيمان سعد القوي؛ حيث ثبت على دينه ولم يخضع لهذا الابتلاء الذي جعله في خيار بين طاعة الله وطاعة أمه، ففضل طاعة الله جل وعلا.

أما المستضعفون منهم كالموالي، فإنهم تعرضوا لأذى شديد متواصل، واتفق زعماء المشركين على الاستمرار في إيذائهم حتى يظفروا بمن يرجع منهم عن دينه، فيكون ذلك نصرًا لهم على رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: ثم إنهم عَدَوْا على مَنْ أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، مَنْ استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يُفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يَصلُبُ لهم، ويعصمه الله منهم.

وكان بلال مولى أبي بكر رضي الله عنه لبعض بني جمح مُولَّدًا من مولديهم، وهو بلال بن رباح، وكان اسم أمه: حمامة، وكان صادق الإسلام، طاهر القلب، وكان

(١) الدر المنثور ٥/ ١٦٥.

(٢) صحيح مسلم، فضائل الصحابة ١٨٧٧ رقم ١٧٤٨.

أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أحَد أحَد[1].

وأخرج الإمام أحمد والحاكم خبر تعذيب بلال وغيره من المستضعفين، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وكذلك صححه الذهبي في تاريخ الإسلام[2].

وقد ذكر ابن إسحاق - رحمه الله - أن أبا بكر مرَّ به وهو يُعذب، فاشتراه من أمية بن خلف الجمحي، ثم أعتقه لوجه الله تعالى، وذكر أنه أعتق ستة آخرين من المعذبين؛ وهم: عامر بن فهيرة، وأم عبيس، وزنِّيرة، والنهدية، وابنتها، وجارية بني مؤمل[3].

وأخرج الإمام البيهقي بإسناده عن يونس بن بكير، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن أبا بكر أعتق ممن كان يعذب في الله سبعة، فذكر منهم «الزِّنِّيرة»، قال: فذهب بصرها، وكانت ممن يعذب في الله على الإسلام فتأبى إلا الإسلام، فقال المشركون: ما أصاب بصرها إلا اللات والعزى! فقالت: كلا والله، ما هو كذلك، فردَّ الله عليها بصرها[4].

وفي هذا الخبر دلالة على قوة إيمان الصحابة ووضوح عقيدة التوحيد عندهم، وأن ذلك كان حتى على مستوى العامة منهم.

وإن ما أكرم الله تعالى به المرأة المؤمنة من ردِّ بصرها إليها يعتبر إرغامًا للكافرين؛ حيث كانوا يعتقدون أن أصنامهم تضر وتنفع من دون الله تعالى.

وهكذا كان أبو بكر ينفق ماله لإنقاذ المسلمين المستضعفين من أيدي الكافرين الطغاة؛ ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة.

وقد أثنى الله تعالى على هذا العمل الصالح بآيات من سورة الليل، وذلك كما أخرج الحاكم من طريق ابن إسحاق، قال: حدثني محمد بن عبد الله بن أبي عتيق، عن عامر

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٤ - ٣٢٥.
(٢) مسند أحمد ١/ ٤٠٤، المستدرك ٣/ ٢٨٤، تاريخ الإسلام/ السيرة/ ٢١٧.
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٩ - ٣٢٦.
(٤) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢٨٢.

ابن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال: قال أبو قحافة لأبي بكر: أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلْدًا يمنعونك ويقومون دونك، فقال أبو بكر: يا أبت، إني إنما أريد ما أريد.. لما نزلت هذه الآيات فيه: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ**﴾ إلى قوله عز وجل ﴿**وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ**﴾ [الليل: ٥ - ٢١].

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه[١].

وذكره السيوطي، ونسبه إلى ابن جرير وابن عساكر، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، وذكر نحوه، وقال فيه: فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه؛ ﴿**فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ..**﴾ الآيات[٢].

وفي هذه المحاورة بين أبي بكر وأبيه ندرك لونًا من ألوان الفرق بين نظرة أهل الجاهلية ونظرة المسلمين بالنسبة لوجوه إنفاق المال وبذل المعروف، فوالد أبي بكر ينظر إلى مستقبل الحياة الدنيا، فيشير على ولده بأن يضع المعروف فيمن يستطيعون نفعه في مستقبل حياته، وهذا مبلغ علمه، فهو لا يؤمن بالآخرة، وبالتالي فإنه لا يتصور معروفًا يبذل في الدنيا ليجني باذله نفعه في الآخرة، ولهذا فإن بذل المعروف في ضعاف الناس الذين لا يرجو نفعهم في الدنيا يعدُّ في نظره ونظر أهل الجاهلية من ضعف الرأي وضآلة التفكير، بينما يجيبه أبو بكر بقوله: «يا أبت، إنما أريد ما أريد»، فإذا كان أهل الجاهلية يريدون قبض ثمن معروفهم في الدنيا فإنه لا يريد ذلك، وإنما يريده في الحياة الآخرة؛ طلبًا لرضوان الله تعالى والدرجات العُلى في الجنة.

وحينما يحشر الخلائق يوم القيامة، وتوزن الأعمال، ويكون الحساب.. يذكر العاملون للدنيا فقط أنهم قد خسروا كل شيء، ويوقنون بأن الذين عملوا للآخرة كانوا أكمل عقلاً وأسد رأيًا منهم.

وإنه ليشبه عمل هؤلاء الذين يعملون لدنياهم ما يقوم به بعض المسؤولين من المسلمين الذين يقدمون المعروف لكبار الناس ممن يرجون نفعهم في الحياة الدنيا، ولا

(١) المستدرك ٢/ ٥٢٥.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٥٨.

يريدون ببذل المعروف وجه الله تعالى والدار الآخرة، بينما يقبضون معروفهم عن ضعفاء الناس الذين لا يرجون منهم نفعًا دنيويًا، وإن كان هؤلاء يختلفون عن أهل الجاهلية بكونهم مسلمين ولهم أعمال صالحة أخرى.

إن الذي ينظر في بذل المعروف إلى الكسب الأخروي لا يفرق في ذلك بين كبراء الناس وضعفائهم، ولا بين أصحاب المسؤولية ومن هم خلو منها؛ لأنه لا ينتظر منهم وهو يبذل لهم المعروف أن يبادلوه بمثله، وإنما ينتظر الأجر والرفعة في الآخرة، وذلك هو الفلاح الأكبر.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن والد أبي بكر قد أسلم يوم فتح مكة - رضي الله عنهما.

وممن تعرض للأذى عمار بن ياسر وأبوه وأمه رضي الله عنهم.

قال ابن إسحاق - رحمه الله -: وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت إسلام - إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ فيقول - فيما بلغني -: «**صبرًا آل ياسر، موعدكم الجنة**»، فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام[1].

وأخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي[2].

وذكره الهيثمي، وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات[3].

وقد بقيت آثار التعذيب على ظهر عمار بعد ذلك كما روى ابن سعد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: أخبرني من رأى عمار بن ياسر متجرِّدًا في سراويل، قال: ونظرت إلى ظهره فإذا فيه حَبَط، فقلت: ما هذا؟ قال: هذا ما كانت قريش تعذبني في رمضاء مكة[4].

وممن تعرضوا للأذى خبابَ بن الأرت رضي الله عنه، ومن ألوان هذا العذاب ما أخرجه أبو نعيم عن الشعبي قال: سأل عمرُ خبابًا عما لقي من المشركين، فقال خباب: يا أمير المؤمنين، انظر إلى ظهري، فقال عمر: ما رأيت كاليوم، قال: أوقدوا لي نارًا فما أطفأها إلا ودك ظهري[5]!

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٧.
(٢) المستدرك ٣/ ٣٨٨.
(٣) مجمع الزوائد ٩/ ٢٩٣.
(٤) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٣٦٠.
(٥) الحلية ١/ ١٤٣ - ١٤٤.

وأخرجه ابن ماجه من حديث أبي ليلى الكندي قال: جاء خباب إلى عمر، فقال: ادْنُ، فما أحد أحق بهذا المجلس منك إلا عمار، فجعل خباب يريه آثاراً بظهره مما عذبه المشركون.

قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح[1].

وإنما ذكر عمر عماراً لاشتراكه مع خباب في التعذيب، والرواية الأولى تبين أن خباباً أظهر آثار التعذيب بعدما سأله أمير المؤمنين عمر عن ذلك، رضي الله عنهم أجمعين.

وأخرج الإمام البخاري بسنده عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد ببردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين! ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه! فما يصده ذلك عن دينه، والله لَيتمَّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[2].

ومن هذه النماذج العالية نعرف كيف كان الصحابة - رضى الله عنهم - يضحون بأنفسهم في سبيل هذا الدين، ويتحملون أنواع الأذى في سبيل إظهار دعوتهم، حتى ضربوا بذلك أروع الأمثلة لمن جاء بعدهم في الصبر والتضحية، وتقديم مصلحة الدعوة الإسلامية على المصالح الذاتية.

وفي قوله ﷺ: «**صبراً آل ياسر، موعدُكم الجنَّة**»، تحديد للهدف العالي الذي يجب أن يسعى له كل مسلم، فإن النبي ﷺ لم يعدهم بقصور الدنيا وبساتينها ونعيمها مع ما كان يعلمه بوحي من الله تعالى من غلبة هذا الدين وانتصار المسلمين على أمم الأرض في المستقبل؛ لأن هذا ليس هو الهدف السامي الذي شرع الله الإسلام من أجله، إنما الهدف السامي هو الذي أثنى الله به جل وعلا على صحابة رسول الله ﷺ بقوله: ﴿**يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا**﴾ [الفتح: ٢٩]، وهو ما وُعد به آل ياسر في هذا الحديث؛ لأن المراد بالفضل في الآية: الجنة.

(١) سنن ابن ماجه / المقدمة رقم ١٥٣.
(٢) صحيح البخاري رقم ٦٩٤٣ (الفتح ١٢/ ٣١٥).

إنه لو كان الوعد بمتاع الحياة الدنيا الزائل لما هانت على هؤلاء أنفسهم؛ لأن هذا الهدف يستدعي استبقاءهم لأنفسهم حتى يظفروا به، ولما وُجد الشهداء في سبيل الله تعالى إلا قليلاً، ولما حصل النصر والتمكين في الأرض للمسلمين.

إن الإسلام يشد المسلمين إلى الآخرة؛ لتهون عليهم الحياة الدنيا، فإذا عرفوا هذا الهدف وطبقوه انتصروا على أعدائهم؛ لأن وصولهم إلى هذا الهدف يستدعي تسابقهم إلى الموت في سبيل الله تعالى، أما أعداؤهم فإن أهدافهم دنيوية قريبة، وإن الوصول إليها يستدعي تنافسهم على البقاء، والمنطق الطبيعي في ذلك أن يحاول كل واحد منهم أن يدرأ الخطر عن نفسه، ويتقي بغيره، بينما المنطق الطبيعي بالنسبة للمسلمين الذين يعون الهدف السامي أن يفدي كل واحد منهم إخوانه بنفسه؛ ليسبقهم على الوصول إلى الهدف.

ومن هنا كان المسلمون الحقيقيون، المدركون لأهداف دينهم، المطبقون لمناهجه.. لا يمكن أن يغلبوا بشكل نهائي، وإنما يصابون بانتكاسات مؤقتة بسبب أخطاء يرتكبونها، ثم يعودون لمحاولة بلوغ الأهداف السامية، كما هو الحال في صحابة رسول الله ﷺ.

هذا وقد تنوعت وسائل الأذى من الكفار للمسلمين، وكانوا يعاملون كل مسلم حسب مكانته الاجتماعية وعمله، وفي ذلك يقول ابن إسحاق - رحمه الله -: وكان أبو جهل الفاسق يغري بهم - يعني بالمسلمين - في رجال من قريش، إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنَّبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لَنُسفِّهن حلمك، ولنُفيِّلنَّ رأيك[1]، ولنضَعن شرفك، وإن كان تاجرًا قال: والله لنُكَسِّدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به[2].

وهكذا يقف الكفار في مواجهة المسلمين، فيقومون بتشويه سمعتهم، وإسقاط مكانتهم في المجتمع بكل الطرق التي يرونها مؤثرة، وهم لعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر لا يتورعون عن مأثم، ولا يخشون عقوبة على أعمالهم السيئة، فلذلك يبيحون لأنفسهم الكذب والتزوير، ويضللون الرأي العام بأقوال وأخبار مختلقة، يقصدون منها إضعاف معنوية المسلمين.

(١) يعني لنخطئن رأيك.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٢٨.

ومن كان ما له من المسلمين يقوم على التجارة ونحوها مما يقوم على التعامل مع الآخرين فإنهم يحاصرونه ويشوهون سمعته التجارية ويضعون العراقيل في وجهه حتى يفلس في تجارته.

هكذا شأن الكفار والمنافقين في حربهم مع المؤمنين في كل زمن، وقد لا يملك المسلمون من وسائل المقاومة إلا الصبر والزهد في الدنيا وانتظار الفرج، فإذا تحققت فيهم هذه الصفات كما توافرت لدى الصحابة - رضى الله عنهم - فإنهم جديرون بنصر الله تعالى والتمكين في الأرض.

هذا ومما استعمله الكفار ضد المسلمين من الأذى جحود حقوقهم المالية حتى يكفروا بالإسلام، ومن ذلك ما جاء في رواية أخرجها الإمام البخاري - رحمه الله - من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: جئت العاص بن وائل السهمي أتقاضاه حقًّا لي عنده، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا، حتى تموت، ثم تبعث، قال: وإني لميت ثم مبعوث؟! قلت: نعم، قال: إن لي هناك مالاً وولدًا فأقضيك، فنزلت هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧][1].

وقول خباب: «لا، حتى تموت، ثم تبعث» ليس على ظاهره، بل المراد منه تبكيت ذلك الكافر، يقول الحافظ ابن حجر في ذلك: مفهومه أنه يكفر حينئذ - يعني بعد البعث - لكنه لم يُرد ذلك؛ لأن الكفر حينئذ لا يتصور، فكأنه قال: لا أكفر أبدًا، والنكتة في تعبيره بالبعث تعيير العاص بأنه لا يؤمن به[2]، ويحتمل أنه أراد تهديده بذلك.

هذا ومما يلاحظ من الأخبار السابقة أن رسول الله ﷺ كان يمنع المسلمين آنذاك من الرد على عدوان الأعداء، ويأمرهم بالصبر على الأذى؛ لأن وضعهم لم يكن يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم بالقوة، ولا شك أن وراء أمرهم بالصبر حكمًا عظيمة.

ولقد حاولت أن ألتمس شيئًا من هذه الحكم، ولكني وجدت أن ما سطره الأستاذ سيد قطب - رحمه الله تعالى - أبلغ وأشمل مما كتبته بكثير، فرأيت اقتباس ما كتبه في هذا الموضوع؛ لأهميته، يقول - رحمه الله تعالى -:

---

(١) صحيح البخاري التفسير، سورة مريم/ ٣ رقم ٤٧٣٢ وتكملة الآيات: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ - ٨٠].

(٢) فتح الباري ٨/ ٤٣٠.

أما حكمة هذا فلسنا في حلٍّ من الجزم بها؛ لأننا حينئذ نتألَّى على الله ما لم يبين لنا من حكمة، ونفرض على أوامره أسبابًا وعللاً قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية، أو قد تكون، ولكن يكون وراءها أسباب وعلل أخرى لم يكشف لنا عنها، ويعلم - سبحانه - أن فيها الخير والمصلحة، وهذا هو شأن المؤمن أمام أي تكليف، أو أي حكم في شريعة الله لم يبين الله سببه محددًا جازمًا حاسمًا، فمهما خطر له من الأسباب والعلل لهذا الحكم أو لذلك التكليف، أو لكيفية تنفيذ هذا الحكم أو طريقة أداء ذلك التكليف، مما يدركه عقله ويحسن فيه.. فينبغي أن يعتبر هذا كله مجرد احتمال، ولا يجزم - مهما بلغت ثقته بعلمه وعقله وتدبره لأحكام الله - بأن ما رآه هُوَ حكمةً، هو الحكمةُ التي أرادها الله.. نصًا.. وليس وراءها شيء، وليس من دونها شيء! فذلك التحرج هو مقتضى الأدب الواجب مع الله، ومقتضى ما بين علم الله ومعرفة الإنسان من اختلاف في الطبيعة والحقيقة.

وبهذا الأدب الواجب نتناول حكمة عدم فرض الجهاد في مكة وفرضيته في المدينة، نذكر ما يتراءى لنا من حكمة وسبب.. على أنه مجرد احتمال.. وندع ما وراءه لله، لا نفرض على أمره أسبابًا وعللا، لا يعلمها إلا هو.. ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح!

إنها أسباب.. اجتهادية.. تخطئ وتصيب.. وتنقص وتزيد.

ولا نبغي بها إلا مجرد تدبر أحكام الله، وفق ما تظهره لنا الأحداث في مجرى الزمان.

أ- ربما كان ذلك؛ لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، في بيئة معينة، لقوم معينين، وسط ظروف معينة، ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات، تربية نفس الفرد العربي على الصبر على مالا يصبر عليه عادة، من الضيم يقع على شخصه أو على من يلوذون به؛ ليخلص من شخصه، ويتجرد من ذاته، ولا تعود ذاته، ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره ودافع الحركة في حياته.. وتربيته كذلك على ضبط أعصابه، فلا يندفع لأول مؤثر - كما هي طبيعته - ولا يهتاج لأول مهيج؛ ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته، وتربيته على أن يتبع مجتمعًا منظمًا، له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته، ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره - مهما يكن مخالفًا لمألوفه وعادته - وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي، لإنشاء «المجتمع المسلم» الخاضع لقيادة موجهة، المترقي، المتحضر، غير الهمجي أو القبلي.

ب- وربما كان ذلك أيضًا؛ لأن الدعوة السلمية أشد أثرًا وأنفذ في مثل بيئة قريش، ذات العنجهية والشرف، والتي قد يدفعها القتال معها في مثل هذه الفترة إلى زيادة العناد وإلى نشأة ثارات دموية جديدة، كثارات العرب المعروفة، التي أثارت حرب داحس والغبراء، وحرب البسوس - أعوامًا طويلة، تفانت فيها قبائل برمتها - وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام، فلا تهدأ بعد ذلك أبدًا، ويتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات وذحول، تنسى معها فكرته الأساسية، وهو في مبدئه، فلا تذكر أبدًا.

ج- وربما كان ذلك أيضًا، اجتنابًا لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة، هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم، إنما كان ذلك موكولا إلى أولياء كل فرد، يعذبونه هم ويفتنونه، ويؤدبونه! ومعنى الإذن بالقتال - في مثل هذه البيئة - أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت.. ثم يقال: هذا هو الإسلام! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في الموسم، في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة: إن محمدًا يفرق بين الوالد وولده، فوق تفريقه لقومه وعشيرته! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد، والمولى بقتل الولي.. في كل بيت وكل محلة؟.

د- وربما كان ذلك أيضًا، لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم، ويعذبونهم ويؤذونهم، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص، بل من قادته.. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء؟!

هـ- وربما كان ذلك، أيضًا؛ لأن النخوة العربية، في بيئة قبلية، من عادتها أن تثور للمظلوم، الذي يحتمل الأذى، ولا يتراجع! وبخاصة إذا كان الأذى واقعًا على كرام الناس فيهم.. وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة - في البيئة - فابن الدَّغنَّة لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة، ورأى في ذلك عارًا على العرب! وعرض عليه جواره وحمايته.. وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب بعد ما طال عليهم الجوع، واشتدت المحنة.. بينما في بيئة أخرى من البيئات ذات الحضارة القديمة التي مردت على الذل، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للهزء والسخرية والاحتقار من البيئة، وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي!.

و- وربما كان ذلك أيضًا؛ لقلة عدد المسلمين حينذاك، وانحصارهم في مكة، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة، أو بلغت أخبارها متناثرة، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف.. ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة، إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة، حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم، ويبقى الشرك، وتنمحي الجماعة المسلمة، ولم يقم في الأرض للإسلام نظام، ولا وجد له كيان واقعي.. وهو دين جاء؛ ليكون منهج حياة، وليكون نظامًا واقعيًا عمليًا للحياة.

ز- في الوقت ذاته لم يكن هناك ضرورة قاهرة ملحة لتجاوز هذه الاعتبارات كلها، والأمر بالقتال ودفع الأذى؛ لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائمًا وقتها ومحققا.. هذا الأمر الأساسي هو وجود الدعوة.. وجودها في شخص الداعية ﷺ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع! والنظام القبلي السائد يجعل كل قبيلة تخشى أن تقع في حرب مع بني هاشم، إذا هي امتدت يدها إلى محمد ﷺ، فكان شخص الداعية من ثم محميًا حماية كافية.. وكان الداعية يبلغ دعوته - إذن - في حماية سيوف بني هاشم، ومقتضيات النظام القبلي، ولا يكتمها، ولا يخفيها، ولا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغها، وإعلانها، في ندوات قريش في الكعبة، ومن فوق جبل الصفا، وفي اجتماعات عامة، ولا يجرؤ أحد على سد فمه، ولا يجرؤ أحد على خطفه وسجنه، أو قتله، ولا يجرؤ أحد على أن يفرض عليه كلاما بعينه يقوله، يعلن فيه بعض حقيقة دينه، ويسكت عن بعضها، وحين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبها لم يكف، وحين طلبوا إليه أن يسكت عن عيب دين آبائهم وأجدادهم وكونهم في جهنم لم يسكت، وحين طلبوا إليه أن يُدْهن فيدهنوا، أي أن يجاملهم فيجاملوه، بأن يتبع بعض تقاليدهم؛ ليتبعوا هم بعض عبادته، لم يدهن.. وعلى الجملة كان للدعوة وجودها الكامل في شخص رسول الله ﷺ محروسًا بسيوف بني هاشم، وفي إبلاغه لدعوة ربه كاملة في كل مكان وفي كل صورة.. من ثم لم تكن هناك الضرورة القاهرة لاستعجال المعركة، والتغاضي عن كل هذه الاعتبارات البيئية التي هي في مجموعها مساندة للدعوة ومساعدة في مثل هذه البيئة[1].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٤٥٢، سورة النساء/ ٧٧.

وربما كان من الحكَم في ذلك أن يظهر للأعداء عظمة هذا الدين، وأنه هو الدين الحق لما يتمثل به أتباعه مَن الصبر الطويل على الأذى، والمقدرة الفائقة على ضبط النفس، حيث يتساءل الأعداء عن السر الكامن وراء الصبر والثبات، فلا يجدون إجابة على تساؤلاتهم إلا بالتفكير في هذا الدين العظيم الذي كان وراء هذا الصمود العجيب والصبر الجميل.

هذا وقد اضطر بعض المعذَّبين من الصحابة للاستجابة لفتنة الكفار ظاهراً، وموافقتهم على قول ما يطلبونه منهم؛ للتخلص من تعذيبهم، كما قال ابن إسحاق - رحمه الله -: وحدثني حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لعبد الله بن عباس رضي الله عنه: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم حتى ما يقدر على أن يستوي جالساً من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة[1].

وهكذا كان بعض الصحابة - رضى الله عنهم - يتعرضون في ذلك العهد لأنواع من التعذيب هي فوق احتمال البشر، مما حمل بعضهم مع قوة إيمانهم على موافقة المشركين ظاهراً فيما ألزموهم بقوله مما يتنافى مع الإسلام.

وقد أقر النبي ﷺ أولئك المعذبين على اتقاء عذاب المشركين بإظهار ما يريدون منهم، ومن أدلة ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من حديث أبي عبيدة بن محمد بن عمار ابن ياسر، قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر، فعذبوه، حتى قاربهم[2]، في بعض ما أرادوا، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**كيف تجد قلبك؟**» قال: مطمئنا بالإيمان، قال النبي ﷺ: «**فإن عادوا فعد**».

ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [النحل: ١٠٦][3].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢٨.

(٢) في تفسير الطبري «باراهم» وأثبت ما في تفسير ابن كثير المنقول من الطبري لأنه هو الموافق لسياق الخبر - تفسير ابن كثير ٢/ ٦٣٧.

(٣) تفسير الطبري ١٤/ ١٨٢.

وهذا يعدُّ رخصة للمسلمين الذين يتعرضون للبلاء الشديد على يد الكفار، فمن ثبت وراغم الكفار كما فعل بلال فهو أفضل، ومن أخذ بالرخصة كما فعل عمار، فإنه لا إثم عليه ما دام قلبه مطمئنًا بالإيمان، ولله الحمد والفضل.

وفي قوله ﷺ: «**كيف تجد قلبك؟**» دلالة على أهمية صيانة الفكر من أن يتطرق إليه شيء من الشبهات التي يثيرها الكفار.

إن هؤلاء المعذبين قد استطاع الكفار أن يثخنوا في أجسادهم، وأن يُلجئوا بعضهم إلى قول مالا يعتقدون، ولكنهم لم يستطيعوا أبدًا أن يهيمنوا على عقولهم وأفكارهم.

إن الفكر حصن حصين، وهبة الله تعالى للإنسان، فلا يستطيع البشر مهما أوتوا من قوة أن يطلعوا على أسراره وخفاياه، ولا أن يهيمنوا عليه، فيغيروا من معتقده.

إن الطغاة الجبابرة يستطيعون أن يفعلوا في أجساد المؤمنين المعذبين ما شاؤوا، وأن ينتزعوا من بعضهم ما يريدون من اعترافات، ولكنهم لا يستطيعون أن يتحكموا في أفكارهم، وهذا من أبرز علامات الفشل والعجز؛ لأن تغيير الأفكار هو المقصود الأول من وراء ذلك التعذيب.

*****

الطغيان في اللغة: التعدي وتجاوز الحد[1].

والمقصود به هنا: سلب شيء من خصائص الألوهية من الخالق جل وعلا ومنحه للمخلوق، فهذا من التعدي على الله سبحانه، ومن التجاوز بالمخلوق فوق حده.

وقد ظهر الطغيان في عهد الجاهلية على ضربين:

الأول: منح الأصنام حق العبادة من دون الله - تعالى.

الثاني: منح زعماء المشركين حق التشريع من دون الله - تعالى.

فأما الأول، فإنه قد انتشر في جزيرة العرب انتشاراً واسعًا، وكان العرب في ماضي حياتهم على دين إسماعيل - عليه السلام -، وهو التوحيد، إلى أن دخلت عبادة الأصنام حياتهم.

وكان أول من أدخل عبادة الأصنام على العرب عمرو بن لُحَيٍّ الخزاعي، كما جاء في حديث أخرجه الحاكم، وفيه قال رسول الله ﷺ بعد أن ذكر النار: «**ورأيت فيها عمرو بن لحي يجر قصبه في النار، وأشبه من رأيت به معبد بن أكثم الخزاعي**»، فقال معبد: يا رسول الله، أتخشى عليَّ من شبهه فإنه والدي؟ قال: «**لا، أنت مؤمن وهو كافر**»، وهو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي[2].

وانتشرت عبادة الأصنام في بلاد العرب حتى دخلت إلى بيوتهم، وفي بيان ذلك، يقول ابن إسحاق: واتخذ أهل كل دار في دارهم صنما يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفرًا، تمسَّح به حين يركب، فكان ذلك آخر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره، وإذا قدم من سفره تمسح به، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله[3].

وقد أخذت عبادة الأصنام أشكالاً متعددة، منها السجود لها، والطواف حولها، والنحر عندها، والتمسح بها.

(١) مفردات الراغب/ ٣٠٤.
(٢) المستدرك ٤/ ٦٠٥.
(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٩١.

ومن مظاهر إشراكهم الأصنام مع الله تعالى، قول بعضهم في تلبية الحج: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك»[1].

هذا وقد انتشرت عبادة الأصنام في أكثر الأمم الجاهلية كما سيتبين لنا في عرض مواقف الفتوحات الإسلامية.

أما الضرب الثاني من الطغيان، فهو: منح زعماء المشركين حق التشريع من دون الله تعالى، فهذا واضح في جميع الأمم ومنها قبائل العرب، حيث كان الزعماء هم الذين يشرعون للناس ما ينظمون به حياتهم من غير رجوع إلى وحي سماوي، وكان بروز دور الزعماء في حياة الأمم ذات الحكومات أكبر مما هو عليه عند العرب الذين كانت تغلب عليهم الحياة القبلية.

وحينما تكون القلوب ممتلئة بتعظيم الأصنام والخوف منها وبتعظيم البشر والرهبة منهم، فإن تصورات الإنسان تكون منحرفة عن الخط المستقيم؛ لأن فكره سيكون مشغولاً بهذا الإطار، من تقديم مظاهر التعظيم والولاء والخوف والرجاء رغبة فيما عندهم من الخير واتقاء لما عندهم من الشر الذي يكون هو من نسج الخيال وهيمنة الأوهام بالنسبة للأصنام، ومن المغالاة في تقدير الأسباب التي يمكِّن الله تعالى منها طغاة البشر، واعتبارهم مستقلين بها عن إرادة الله تعالى وقدرته.

وبالتالي يكون السلوك منحرفًا نحو عبادتهم من دون الله تعالى، وذلك ظاهر في الأصنام، وخفي بالنسبة للطغاة؛ لعدم تقديم مظاهر العبادة الظاهرة لهم، ولكن بتقديم رضاهم على رضا الله تعالى، وما يحبونه على ما يحبه، واجتناب سخطهم وغضبهم وإن غضب الله جل وعلا عليهم.

وإن مهمة الداعية الحقيقية هي الجد في محاولة تفريغ قلوب هؤلاء المستعبدين، وتطهيرها من رجس عبادة الأوثان؛ من الأصنام، ومن طغاة البشر، وذلك ببيان حقارة الأصنام، وعدم تمتعها بخصائص الإنسان العاقل، فضلاً عن خصائص الألوهية، وبيان جرائم الطغاة ومظاهر الضعف والتناقض في أحكامهم وقراراتهم؛ لتحطيم كبريائهم، وتطهير العقول من اعتقاد عظمتهم وقداستهم.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٨٦.

ولقد قام رسول الله ﷺ في دعوته بهذه المهمة خير قيام، حيث حطم الطغيان البشري القائم في عهده، وأحل محله العبودية الكاملة لله عز وجل.

وقد أخذ جهاده لتحطيم الطغيان مسلكين:

المسلك الأول: ما قام به من تحقير الأصنام، وتسفيه عبادتها، وإظهارها بمظهر العاجز الذي لا يبصر ولا يسمع، ولا يضر ولا ينفع، وقد نزلت في هذا المعنى آيات كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٩١ - ١٩٨].

وقوله تعالى: ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا** ﴾ [الفرقان: ٣].

وقوله تعالى: ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [يونس: ١٨].

وقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ** ﴾ [الحج: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

ففي هذه الآيات بيان عجز الأصنام وعدم أهليتها لأن تكون آلهة تُعبد من دون الله تعالى، حيث فقدت الحواس والأعضاء اللازمة لكل حي؛ كي يتحرك ويعمل، فضلاً عمَّا هو فوق ذلك مما هو من خصائص الإله القادر، كالإيجاد من العدم، والملك المطلق لكل ما في السموات والأرض.

وليس المقصود بنقد عبادة الأصنام وتحطيم طغيان الكفار بها أن يقوم المسلمون بسبِّ تلك الأصنام، فإن السب لا يُنتج تحطيمًا وقَر في النفوس من تعظيمها، وإنما يدفع عابديها إلى شيء من رد الفعل، فيسبوا الله - جلا وعلا عن ذلك -؛ ولذلك نهى الله سبحانه المسلمين عن هذا السلوك بقوله: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

فالسب والشتم نُزُولٌ في مجال الجدل، ولا يقوم به إلا من فقد الحجة والبيان في الدفاع عن قضيته، وكان رسول الله ﷺ قد أعطاه الله - تعالى - البيان البشري، وأبلغ الحجة، مع ما هو مؤيد به من الوحي الإلهي العظيم.

أما الآيات السابقة التي اشتملت على نقد عبادة الأصنام فليست من باب السب والشتم، وإنما هي من النقد المشتمل على بيان الحقائق، ومن هذه الحقائق أن الأصنام عاجزة عن خلق الأشياء من العدم، وأنها لا تستطيع نصر عبادها ولا نصر أنفسها، وأنها لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعًا، فضلاً عن أن تمنح ذلك عابديها، وأنها لا تستطيع إماتة الناس ولا إحياءهم، وأنها لا تملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

فهذه الحقائق الناصعة لا يستطيع الكفار أن يجيبوا عنها إلا بالإقرار والاعتراف بصدق ما جاء في القرآن من وصف أصنامهم، بينما لا يستطيعون أن يصفوا الله - جلا وعلا - بتلك النقائص؛ لأنهم يقرُّون بتوحيد الربوبية، وإنما جحدوا توحيد الألوهية.

والمسلك الثاني: القيام بتحطيم طغاة الكفار الذين كانوا يتزعمون قومهم، ويشرعون لهم القوانين التي يسيرون عليها في هذه الحياة، حيث إن الطغيان في ذلك الزمن يتمثل في شرك العبادة، وذلك بعبادة الأصنام من دون الله تعالى، وفي شرك الطاعة، وذلك بطاعة السادة والزعماء الذين يشرعون للناس من دون الله تعالى.

ولقد نزل في توجيه النبي ﷺ إلى تحطيم الطغيان البشري آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١) أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢١، ١٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ** ﴾ [يونس: ٤٢، ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** ﴾ [الزمر: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [الجاثية: ٧ - ١٠].

ولقد كان النبي ﷺ يجهر بتلاوة هذه الآيات وأمثالها، ولا يداري المشركين بالإسرار بها، وكان من الأهداف الكبيرة والحكم البالغة من نزول هذه الآيات الشديدة على المشركين أن يتحطم الطغيان الذي عشش في أفكار زعماء الكفار وسادتهم، وأن يتلاشى شيئًا فشيئًا ما وقر في نفوس الأتباع من تعظيمهم والرهبة منهم.

ولقد سبقت أخبار تبين جرأة النبي ﷺ على زعماء الكفار، وستأتي أخبار أخرى في هذا المجال.

ولقد اجتمع على سيادة مكة آنذاك عدد من أشراف قريش، منهم أبو جهل عمرو بن هشام، وأمية وأُبيّ ابنا خلف، والوليد بن المغيرة، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل، وكانوا جميعًا يعادون الإسلام، ويحكمون أهل مكة بالقوانين التي تعارفوا عليها، وكان من الصعب على عامة الناس أن يخالفوهم في شيء من ذلك، بل إنَّ قوانينهم تلك اكتسبت القداسة الدينية؛ لكونها مما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، فلما قام النبي ﷺ بمخالفتهم في ذلك والإنكار عليهم وتسفيه آرائهم وعيب ما ورثوه عن أسلافهم أنكروا ذلك منه وناصبوه العداء، وساءهم أن بعض أشرافهم قاموا بحمايته وأبرزهم عمه أبو طالب.

وكان لزعماء مكة المذكورين شأن كبير في نفوس أكثر أهل مكة، بل في نفوس قبائل العرب، وقد بلغ تعظيم أتباعهم لهم في مكة حد العبادة، حيث خضعوا لهم في القوانين التي كانوا يؤمنون بها، ويحمونها، وينفذونها، فكان من أعظم مهام النبي ﷺ في دعوته أن يزيل من النفوس ما وقر فيها من تعظيم هؤلاء الطغاة، وأن يمحو من القلوب أي حب أو تقدير لهم؛ لأن تمكن محبتهم وتعظيمهم في القلوب يزاحم وجود الإيمان بالله تعالى وتعظيمه، وبالتالي يتشكل سلوك الناس في الحياة وتصوراتهم على ما يرسخ في القلب من المعتقدات.

لقد كان من أول ما يتخلى عنه المؤمنون بالإسلام آنذاك أن ينفضوا من قلوبهم أي غبار علق بها من الولاء للأصنام أو للطغاة الذين يحاولون أن يتحكموا في مصائر الناس، وأن يحددوا لهم المعتقدات التي يؤمنون بها، والسلوك الذي يسيرون عليه في الحياة.

ولقد كان الرجل يمسي كافرًا وقلبه عامر بحب أولئك الأوثان من الحجارة وطغاة البشر، ثم يصبح مؤمنًا وقد محا من قلبه أي وجود لتلك الأوثان.

ولقد كان من مظاهر ولاء الكفار لطغاتهم أنهم كانوا يُكثرون من الثناء عليهم، وذكر محاسنهم، ويغضون الطرف على مساوئهم، بل كانوا يُسوِّغون مساوئهم ويحوِّلونها إلى محاسن ومحامد.

لقد كان أولئك الطغاة يقودون قومهم إلى الضلال في الدنيا والنار في الآخرة، رغم وضوح الحق لهم، واعتراف بعضهم بذلك، ومع ذلك يتبعهم عامة الناس إلى هذه الحياة المظلمة والمصير المهلك، وقد ألغوا عقولهم، وحصروا تفكيرهم في محاولة كسب رضا أولئك الطغاة، والحصول على شيء مما يجري على أيديهم من متاع الدنيا الزائل، أو كسب الجاه الوهمي الذي يحاول الطغاة رفعهم إليه.

ولقد كان يحصل من الطغاة غالبًا تمجيد لأولئك الأتباع الذين يسيرون في ركابهم، وثناء عليهم بذكر فضائلهم، وما ذاك إلا لأن الطغاة لا يقوم وجودهم إلا على أتباعهم من عموم الناس، فإذا فقدوا هذه القاعدة سقطوا، فوجود كل من الطائفتين مرتبط بوجود الطائفة الأخرى.

وكما أن العامة محتاجون إلى الطغاة في بعض أمور معاشهم وتَبوُّء المكانة الاجتماعية التي يطمحون إليها، فإن الطغاة محتاجون إليهم؛ لأنهم الركيزة التي يقوم عليها مجدهم، بل إن حاجة هؤلاء إلى العامة أعظم وأهم؛ لأن وجود مجدهم يقوم على أولئك العامة، بينما يستطيع العامة لو عقلوا وتفكروا أن يتخلوا عنهم وأن يبحثوا عن ما يحقق مصالحهم في الدنيا والآخرة.

وهكذا فعل المؤمنون في مكة، حيث حرروا أنفسهم من أوهام الجاهلية ومن ربقة تبعية أولئك الطغاة، فأصبحوا ينظرون إليهم بازدراء واحتقار، ويعدُّونهم من معالم الوثنية التي جاء الإسلام للقضاء عليها، وتحرير عقول الناس منها.

إن ما قام به رسول الله ﷺ من تحرير عقول الناس من تبعية طغاة البشر قد أتاح لهم فرصة عظيمة من التفكير والإبداع في هذه الحياة، فليس أمام المؤمنين من يطلبون رضاه ويجتنبون سخطه إلا الله تعالى، ثم هم بعد ذلك يتحركون غير مقيدين بالخضوع لبشر مثلهم، وإن كان الإسلام قد أوجب عليهم طاعة ولاتهم فإن ذلك من طاعة الله - جل وعلا - ما دام الجميع خاضعين لذلك المبدأ العظيم وهو طلب رضوان الله تعالى واجتناب سخطه.

مواقف في هجرتي الحبشة الأولى والثانية

لقد اشتد أذى المشركين على المسلمين في مكة المكرمة كما تقدم ذكر أمثلة من ذلك، ولقد واجه المسلمون ذلك الأذى بالصبر الجميل، ولكن المشركين أصبحوا يضاعفون من ذلك الأذى كلما تقدم بهم الزمن ورأوا أن كفة المسلمين تعلو شيئًا فشيئًا، بدخول بعض أشراف أهل مكة في الإسلام.

فلما رأى النبي ﷺ ذلك وجَّه أصحابه إلى الهجرة؛ ليسلموا من الأذى، وليعبدوا الله - تعالى - في حرية، وليقوموا بنشر الإسلام في بلاد أخرى، وقد اختار لهم الحبشة؛ لما اشتهر عن حاكمها من العدل والرحمة.

وقد أخرج أهل السير خبر الهجرتين، ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من رواية يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، قال: حدثني الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام، عن أم سلمة - رضي الله عنها -أنها قالت: لما ضاقت مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وهو لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره ومما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه**»[1].

وذكر ابن هشام عن ابن إسحاق هذا الخبر ولم يذكر إسناده، وذكر فيه أسماء العشرة الذين خرجوا في الهجرة الأولى، وقد اصطحب بعضهم نساءهم[2].

وأخرج ابن سعد من طريق شيخه محمد بن عمرو الواقدي بإسناده، عن الحارث بن الفضيل ورجل من بني ظفر، قالا: فخرجوا متسللين سرًا، وكانوا أحد عشر رجلاً، وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعيبة منهم الراكب والماشي، ووفق الله تعالى للمسلمين ساعة جاؤوا سفينتين للتجار، حملوهم فيها إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/ ٦٧.
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٣٠.

مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حيث نُبِّئَ رسول الله ﷺ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر، حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحداً[1].

وفي هذا الخبر زيادة على ما ذكره ابن إسحاق بيان تاريخ هذه الهجرة، ومطاردة قريش لهم وعدم ظفرهم بهم.

وذكر الحافظ ابن حجر أن مخرجهم كان في شهر رجب من السنة الخامسة، ونسبه إلى أهل السير[2].

ثم ذكر ابن إسحاق - رحمه الله - خبر الهجرة الثانية مُطولاً من حديث أم سلمة - رضي الله عنها.

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ، قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار النجاشيَّ، أمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله -تعالى - لا نُؤْذَى ولا نسمع شيئًا نكرهه.

فلما بلغ ذلك قريشًا ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جَلْدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم[3]، فجعلوا له أدمًا كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقًا إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

قالت: فخرجا حتى قدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار، فلم يبق من بطارقته بطريقٌ إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل منهم: إنه ضَوَى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعَثَنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم؛

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٢٠٤.
(٢) فتح الباري ٧/ ١٨٨.
(٣) يعني الجلود.

ليردوهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم.

ثم إنهما قدَّما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه، فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوَى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي.

قالت: فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسْلِمْهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لاها الله، إذًا لا أسلمهم إليهما، ولا يُكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم، فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني».

هذا خبر مهم فيه كشف مخططات الأعداء التي يدبرونها للقضاء على المسلمين، ومواقف عالية في عدالة الحكام، ومواقف إسلامية عالية من الصحابة رضي الله عنهم في التمثيل الصادق للإسلام، ثم نتائج باهرة في صمود أهل الحق، واعتزازهم بدينهم، ونتائج فاضحة لأهل الباطل في كيدهم لأهل الحق.

ونبدأ بالإشارة إلى المخطط الأثيم الذي رسمه زعماء الكفر في مكة آنذاك؛ لإرغام المسلمين على العودة والبقاء تحت سياط الذل والتبعية الممقوتة.

وإنه لعجيب أن يلاحق الكفار المسلمين خارج بلادهم، وكأنهم رأوا أن حرية العبادة التي سعدوا بها في أرض الحبشة لا يجوز أن يهنؤوا بها وهم قد خرجوا عن الإطار العام الذي رسمه الطغاة في مكة لأبناء قبائلهم ومن حالفهم، أو صار مملوكًا لهم، وهذا مثال لنوع من التفكير المحدود، وضيق الأفق الذي يعيش فيه الطغاة في كل زمن، حيث يقفز

إلى أذهانهم تصورات طائشة مبنية على الشعور بأن خروج طائفة من متبوعيهم عن الإطار المرسوم يعدُّ إهانة لهم، وعدم اعتراف بسلطتهم، وبالتالي يتطور هذا الشعور إلى التفكير بإمكان قيام هؤلاء بعمل مضاد، وإن كانوا لا دولة لهم ولا سلطان فيحملهم ذلك على المزيد من الملاحقة والمتابعة.

ولذلك رأينا زعماء الفكر حاولوا إعادة المهاجرين إلى مكة المكرمة؛ ليعيشوا تحت سلطانهم، فقام الطغاة بتشكيل الوفد المذكور الذي يضم عمرو بن العاص رضي الله عنه، الذي يعتبر أعظم دهاة العرب كما شهد له عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حينما وجهه لحرب داهية الروم «أرطبون»، فقال: رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عمَّ تنفرج.

وأعدوا مجموعة من الهدايا لملك الحبشة ووزرائه، واختاروا الجلود المدبوغة؛ لأنها أنفس شيء يأتي إلى الحبشة من بلاد العرب، ولقد أحسنوا إعداد الخطة، حيث أجادوا اختيار الوفد، ووجهوا عضوي الوفد إلى الاتصال أولاً بالوزراء، وتقديم الهدايا لهم، وشرح القضية أمامهم؛ ليكسبوهم إلى صفهم فيما إذا بحث الوفد القضية مع النجاشي.

كما أن من بنود الخطة أن يحاول الوفد التأثير على النجاشي؛ ليُصدر حكمه دون أن يسمع كلام المسلمين، وذلك لعلمهم بأن المسلمين يملكون من الحجة والقوة المعنوية ما لا يملكه غيرهم وإن كان خصمهم آنذاك عمرو بن العاص، لكنه بعد أن أسلم زاده الإسلام عظمة وتفوقًا، وأصبح رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده يُعدونه لعظائم الأمور.

لقد اتفق وفد قريش ووزراء النجاشي على الخطة الأثيمة التي تقضي بتسليم المسلمين بدون استجواب، وبدون أن ينالوا حريتهم في التعبير عن أنفسهم وما يريدون، وهي خطة جاهلية درج عليها الطغاة من قديم الزمن، ولم ينكرها وزراء النجاشي؛ لأن ملوكهم السابقين كانوا على درجة من الطغيان، فقد كان مألوفًا عندهم أن يؤخذ فرد أو أفراد، فيحكم عليها غيابيًا، وينفذ الحكم من غير حضورهم، ولا تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم.

وهكذا حينما يتمكن الطغيان من النفوس يرى أصحاب السلطة أن الأمر بيدهم، فإن شاؤوا أعطوا الحريات، وإن شاؤوا منعوها، وحينما يخشون من الاعتراض عليهم فإنهم قد يعرضون قضايا المتهمين في المحاكم، ويقومون بأدوار تمثيلية متقنة، توهم العالم أنهم يعطون حرية الكلمة والدفاع عن النفس، ثم هم ينفذون ما يمليه عليهم طغيانهم، إذ أن الطغاة من البعيد جداً أن يتنازلوا عن مظاهر الطغيان إلا بقوة قاهرة تنقلهم من الجو المتعفن الذي يعيشون فيه إلى جوٍّ آخر يضطرون فيه إلى التنازل عن بعض ما في نفوسهم من الجبروت والترفع، أو يزولون ويزول معهم طغيانهم.

وهكذا كان وقوف النجاشي وحده، وإصراره على منح المسلمين حرية الكلمة هو الذي أنقذ الله تعالى به أولئك الصحابة رضي الله عنهم، ولقد زال الطغاة أو زال طغيانهم بدخولهم في الإسلام، وبقيت مظاهر العدالة التي سطرها التاريخ للنجاشي شاهدة على ما للعدالة من بقاء وخلود.

وأخيراً خضع وزراء النجاشي لرأيه الذي يمثل العدالة والوفاء.

«قالت أم سلمة - رضي الله عنها-: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله، اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما علَّمنا وما أمرنا به نبينَا ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن».

وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم، وكل أمر يتم عن طريق الشورى فهو أدعى إلى نجاحه؛ لأنه يضم خلاصة عقول كثيرة.

وإن من مظاهر السمو التربوي في هؤلاء الصحابة أنهم لم يختلفوا، بل أجمعوا على رأي واحد، هو أن يعرضوا الإسلام كما جاء به رسول الله ﷺ كائنًا في ذلك ما هو كائن، وإن هذا الاجتماع يعدُّ ثاني خطوة من خطوات النجاح بعد الشورى، وكان عددهم بعد الهجرة الثانية ثلاثة وثمانين رجلاً.

هذا وإن الذي أجمعوا عليه يعدُّ دليلاً على قوة توحيدهم، واستسلامهم لله تعالى، حيث عزموا على عرض الإسلام بعزة وإن كان في ذلك هلاكهم، ولم يجعلوا لآرائهم واجتهاداتهم مدخلاً في ذلك الأمر؛ لوضوحه، حيث كان الأمر: إمَّا أن يعرضوا الإسلام كاملاً كما جاء من عند الله تعالى، أو أن يسلكوا سبيل المداهنة فيعرضوا منه

ما يوافق هوى ملك الحبشة ووزرائه، وفي هذا سلامتهم في ظاهر الأمر، لكنهم لقوة توحيدهم لم ينظروا إلى موضوع سلامتهم في الدنيا، وإنما نظروا إلى سلامتهم في الآخرة، فعزموا على عرض الإسلام كاملاً وعدم المداهنة.

وجاء في رواية أخرجها الحاكم والطبراني من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن عمرو بن العاص وصاحبه قالا للنجاشي: إنهم - يعني المسلمين - لا يسجدون لك، قال: فلما انتهينا إليه زَبَرنَاَ مَنْ عنده: اسجدوا للملك، فقال جعفر: لا نسجد إلا لله، فقال النجاشي: وماذاك؟ قال: إن الله بعث فينا رسوله، وهو الرسول الذي بشر به عيسى عليه السلام برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، فأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا.. الحديث[1].

وهذا موقف عظيم من مواقف الاعتزاز بالإسلام والمحافظة على سلامة التوحيد، مع رهبة الموقف الذي كانوا فيه، حيث إن الأمر يتطلب في حياة الناس المعتادة أن يسلك جعفر وأصحابه طريق المداراة، ولو أدى ذلك إلى المداهنة، ولكن المؤمنين حقًا لا يفعلون ذلك، بل يمثلون الحق الذي أمرهم به دينهم مهما حصل عليهم من أذى، وكذلك فعل المؤمنون في الحبشة رضي الله عنهم، وقد سخر الله تعالى قلب النجاشي، فكان نعم النصير والحامي لهم، وكان لهذا الموقف الشجاع وأمثاله من جعفر رضي الله عنه الأثر الكبير في قناعة النجاشي بالإسلام.

إنه لا بد من الدعوة إلى الإسلام بكل ما فيه من قوة وتميز، وإن أنكره الناس في أول الأمر فإن قوة إصرار دعاته على تطبيقه والاستعلان به مع مخالفة التيار العام لهم يدفع المخالفين والحيارى ومن خلت أذهانهم من أي دين إلى التفكير الجاد في دوافع هذا الإصرار القوي، وفي النهاية يهديهم التأمل الدقيق والتفكير السليم إلى عظمة هذا الدين الذي يدفع معتنقيه إلى المجابهة والمغامرة بالأنفس والأموال.

قالت أم سلمة - رضي الله عنها - في سياق روايتها: «فلما جاؤوا، وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم، فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم؛ ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟

(١) المستدرك ٢/ ٣٠٩، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي مجمع الزوائد، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح - ٦/ ٣٠ - ٣١-.

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب -رضوان الله عليه- فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف؛ فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله؛ لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدَّد عليه أمور الإسلام، فصدَّقناه وآمنَّا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئًا، وحرَّمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وافتتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا، وحالوا بينا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك».

وهكذا سألهم النجاشي عن دينهم الجديد الذي خالفوا فيه دين قومهم وجميع الأديان، فكان جواب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مشتملاً على أمرين مهمَّين: أولهما: نقد الدين الذي تحولوا عنه وهو الوثنية، والثاني: الإشادة بالدين الذي هداهم الله تعالى إليه، وهو الإسلام، وهكذا يكون الحوار الناجح.. البدء بالتخلية قبل التحلية.

فقد بدأ بتفريغ الأذهان من تصور أي صلاح وخير في دين الوثنية، وركز في ذلك على عبادة الأصنام، وهي انحدار فكرى سحيق.

وذكر أكل الميتة، وهو أمر تتقزز منه النفوس الطيبة.

وذكر إتيان الفواحش، وهو أمر تنفر منه الطباع السليمة.

وذكر قطع الرحم وإساءة الجوار، وهي أخلاق تتنافي مع خلق الوفاء الذي تنشده الأمم في شعوبها.

وذكر عدوان القوي على الضعيف، وهذا هبوط عن مرتبة الإنسانية إلى الحيوانية، حيث إن من سمة الحيوانات المفترسة العدوان على الحيوانات الضعيفة وافتراسها.

ثم أشاد بدين الإسلام الذي هداهم الله إليه، فأثنى أولاً على رسول الله ﷺ الذي عن طريقه كانت هذه الهداية، حيث ذكر أنه منهم، يعرفون نسبه، ونشأته، فليس غريبًا عنهم، ووصفه بالصدق والأمانة والعفاف، وهذه من أصول مكارم الأخلاق التي تقاد بها الأمم والشعوب إلى الخير والرشاد.

ثم ذكر موجزًا لدعوته، استفتحه بالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك.

وإنه لفرق هائل بين من يدعوك لعبادة مدبر الكون وخالق الأرض والسماوات الذي يملك إماتة الناس وإحياءهم ورزقهم.. ومن يدعوك إلى من هو دونه ولا يمكن أن يوضع معه في مفاضلة، حيث يدعوك إلى عبادة أصنام من الشجر والحجر لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع.

ثم ذكر ما دعا إليه من مكارم الأخلاق التي تقوم عليها الحياة الكريمة، وتنتظم بها أمور الأمة من صدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار.

ثم أشار إلى ما دعا إليه من الكف عن مساوئ الأخلاق التي تعوق قيام المجتمع الصالح وتفرق بين أفراد الأمة، وتغذي حياة الفوضى والاضطراب، فذكر الكف عن المحارم والدماء، واجتناب الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات البريئات بالفاحشة.

ثم ذكر إيمانهم بهذا الدين الحنيف، وتطبيقهم ما جاء فيه من تكاليف، وما قام به قومهم من العدوان عليهم؛ ليعيدوهم إلى الوثنية، وأن هذا هو الذي دفعهم إلى الهجرة، وأشاد بجوار النجاشي، وبيَّن أن الذي حملهم على اختيار بلاده رجاؤهم التمتع بعدله المشهور.

وهكذا جاء بيان جعفر الذي قوض به أركان الجاهلية، وكشف زيفها، ثم شرح مقاصد الإسلام العالية التي يؤمن بسموها كل ذي عقل سليم مجرد من اتباع الهوى المنحرف.

وكان هذا البيان الرائع مقدمة لتلاوة آيات من كتاب الله كان لها الأثر النهائي في حسم الموقف لصالح دعاة الحق، وهذا ما بينته أم سلمة في روايتها، حيث قالت: «فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأ عليَّ، قالت: فقرأ عليه صدراً من (كهيعص)».

ولم يرد في الخبر تحديد نهاية الآيات التي قرأها، ولكن يظهر من سياق القصة أنه قد أكمل آيات قصة مريم في خبر ولادتها بعيسى - عليهما السلام - وما جرى منه من خطاب قومه آنذاك، حيث كان إيراد القصة هو سبب بكاء النجاشي وأساقفته.

ولقد كان جعفر رضي الله عنه حكيمًا حينما أعرض عن قراءة الآيات التي تلي هذه الآيات، حيث إنها تشتمل على الرد على النصارى في ادِّعائهم أن عيسى ابن الله -جلا وعلا عن ذلك- ؛ لأنه كان في مقام الدعوة ولم يكن في مقام الجدل وبيان الحق في هذه القضية، هذا على فرض أن السورة قد نزلت كلها في ذلك الوقت.

ولكن ما تحاشاه جعفر قد كادهم به عمرو كما سيأتي.

«قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليَخرج من مشكاة واحدة[1]، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون».

وهكذا كان اختيار جعفر بن أبي طالب موفقًا حيث اختار الآيات التي تتحدث عن مريم وابنها عيسى - عليهما السلام - أمام قوم يعظمونهما كثيراً، وكان من آثار حُسن الاختيار، إلى جانب حسن العرض وصدق النية أن تأثر ذلك الملك ووزراؤه فبكوا جميعًا.

وهذا الموقف من النجاشي يدلنا على مدى وضوح دعوة النبي ﷺ أمام أهل الكتاب، فلقد عرف أنه النبي الذي ذُكر في كتبهم المقدسة، وأنه ينزل عليه جبريل عليه السلام الذي كان ينزل على موسى عليه السلام، مع أنه لم ير النبي ﷺ ولم يعش معه، فكيف بأهل الكتاب الذين عاشوا معه في المدينة، واطلعوا على معجزاته، وصاحبوا التنزيل؟!

(١) أي من مصدر واحد، والمشكاة المكان الذي توضع فيه المصابيح.

وإنه لموقف رائع أن يبلغ التأثير على تلك الطبقة الراقية إلى حد البكاء، مما يدل على تفوق ظاهر عند المسلمين آنذاك في مجال الدعوة.

وهكذا يجب على الدعاة أن يغتنموا الفرص المناسبة، وأن يختاروا الموضوعات الملائمة، مع ملاحظة صدق النية، وحسن العرض.

«قالت أم سلمة: فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم».

«قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة - وكان أتقى الرجلين فينا -: لا تفعل فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى عبد».

«قالت: ثم غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم، فسلهم عما يقولون فيه».

وهكذا تفتقت عبقرية عمرو بن العاص عن مكيدة قاتلة للمسلمين، لولا أن هيأ الله لهم وجود ذلك الملك العادل، إذ إن اعتقاد المسلمين في عيسى عليه السلام مناقض تمامًا لما عليه النصارى في دينهم المحرف، حيث يعتقد المسلمون أنه عبد الله ورسوله، ويعتقد النصارى أنه ابن الله تعالى.

وحينما علم المسلمون بذلك اشتد عليهم الأمر وعظم كربهم حينما أرسل إليهم الملك؛ ليسألهم عن اعتقادهم في عيسى عليه السلام.

«قالت أم سلمة: فأرسل إليهم؛ ليسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله تعالى، وما جاءنا به نبينا كائنًا في ذلك ما هو كائن».

وهكذا اجتمع الصحابة وتشاوروا في الأمر، وتساءلوا عما يقولونه للنجاشي إذا سألهم عن ذلك، وقد أجمعوا على أن يقولون له ما قال الله تعالى وما جاءهم به رسول الله ﷺ كائنًا في ذلك ما يكون.

وهذه هي المرة الثانية التي يجتمعون فيه ويتشاورون، ثم يجمعون على رأي واحد.. فلله درهم ما أعلى تربيتهم، وما أقوى إيمانهم، وما أعز نفوسهم!

لقد صبروا قبل ذلك في مكة على قهر الطغاة وإذلالهم وتعذيبهم، فهل هاجروا منها إلى الحبشة؛ ليغيروا شريعة الله لمجرد مساءلة ستكون بينهم وبين النجاشي؟!

وليُفتَرض أنه سيقتلهم، أو في أحسن الأحوال سيسلمهم إلى أعدائهم، فإنهم قد استعدوا لتحمل كل ما ينتج عن قول كلمة الحق كائنًا في ذلك ما يكون.

وهكذا يكون الإيمان القوي.. وهكذا تكون الاستقامة.

(قالت أم سلمة: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه[1]، وكلمته[2] ألقاها إلى مريم العذراء البتول[3]».

«قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود».

«قالت: فتناخرت[4] بطارقته حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي- والشيوم: الآمنون - من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ثم قال: من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبْرًا[5]، من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم.

ثم قال: ردوا عليهما هداياهما - يعني مندوبي قريش - فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه.

«قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار».

وهكذا نطق هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم بالحق ولم يخافوا في الله لومة لائم، ولم يساوموا في أمور دينهم، ولم يداهنوا مع أنهم في موقف الضعف، وقد نزل بهم هذا الأمر العظيم الذي أهمهم وأقلقهم.

---

(١) يعني جعله روحًا لمن أرسل إليهم.

(٢) يعني أنه خلق بقول الله تعالى «كن».

(٣) العذراء التي لم تتزوج، والبتول المنقطعة لعبادة الله تعالى.

(٤) يعني أخرجوا أصواتًا من مناخرهم استنكارًا لما سمعوا.

(٥) قال ابن هشام: «ويقال: دِبْرًا من ذهب، ويقال: فأنتم سيوم، والدبر بلسان الحبشة: الجبل».

وبهذا تبين لنا من هذا الخبر كيف كان المسلمون الأوائل يتعرضون للأذى والكيد من أعدائهم، وكيف كان سلوكهم في مواجهة الكيد، إنهم لم يكونوا يستسلمون لأعدائهم ويداهنونهم، وفي الوقت نفسه لم يكونوا يقاومون بالقوة والعنف وحالهم لا تسمح لهم بذلك، بل كانوا يقاومون بالصبر على الأذى مع عرض ما يدعون إليه بالبيان الرائع الذي يمتلك القلوب، ويجبر كل متجرد من الهوى الجامح على أن يميل إليهم ويعطف عليهم.

ولقد كانوا في كل محاوراتهم مستسلمين لله تعالى، مفوضين إليه أمرهم فيما يكون من نتائج، حيث لم تكن هذه النتائج تشغل بالهم، وإنما الذي كان يشغل بالهم هو أن يوفقوا في عرض الإسلام كاملاً نزيهًا كما جاء من عند الله تعالى، وهم يؤمنون أنهم ومن يحاورونهم في قبضة الله تعالى، وأنه قادر على أن يسخر لهم خَلْقَه؛ ليتم بهم نصر الحق وتأييد دعاته.

وهكذا سخر الله تعالى لهذه الفئة المؤمنة قلب النجاشي، فنطق بالاعتراف بموافقة ما جاء في القرآن في شأن عيسى عليه السلام كما جاء في الإنجيل الصحيح، وهذا أمر يصعب الاعتراف به؛ لأن من لهم الهيمنة من النصارى لا يعتقدون بذلك، وقد جر عليه هذا الاعتراف متاعب من قومه، وهو يعلم قبل النطق بذلك صعوبة هذا الأمر، ولكن الله تعالى أنطقه بذلك نصراً لهذه الفئة المؤمنة، وإعزازًا للإسلام، وخذلانا للشرك وأهله؛ فقد عاد وفد قريش بأسوأ حال وهما يجران أذيال الخيبة، ويحملان معهما الهدايا التي رفض النجاشي قبولها، وعاد المؤمنون المهاجرون بالعز والمنعة والأمن والطمأنينة.

وجدير بالذكر أن ننبه إلى أن عمرو بن العاص قد أسلم بعد ذلك، وأصبح من زعماء المسلمين الذين فتح الله بهم البلاد وهدى بهم العباد رضي الله عنه وأرضاه.

هذا وإن هذا الموقف يعتبر مثالاً تطبيقيًا لقول رسول الله ﷺ: «**من التمس رضي الناس بسخط الناس كفاه الله مُؤْنة الناس، ومن التمس رضي الله بسخط الله وكله الله إلى الناس**» أخرجه الإمام الترمذي وسكت عنه، وحسنه السيوطي، وصححه الألباني[1].

(١) سنن الترمذي، آخر كتاب الزهد «تحفة الأحوذي ٧/ ٩٧». الجامع الصغير ٦/ ٥١ رقم ٨٣٩٤. صحيح الجامع الصغير رقم ٥٩٧٣ «٥/ ٢٥٨».

فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم قد التمسوا رضى الله عز وجل، مع أن الظاهر في الأمر أنه يترتب عليه في هذه القضية سخط أولئك النصارى، وهم الذين لهم الهيمنة عليهم، فكانت النتيجة أن الله عز وجل سخر لهم قلب ملك الحبشة حتى نطق بالحق الموافق لدعوة النبي ﷺ مع مخالفته الصريحة لمعتقدهم المنحرف الذي قام عليه مُلكهُم، وما يغلب على الظن من ثورة النصارى المتعصبين عليه.

فأي قوة هذه التي حملت ملك الحبشة على مخالفة المذهب السائد في بلده والذي يترتب على التمسك به بقاؤه في الملك، مع إظهار موافقة قوم لا شأن لهم في بلده ولا قوة.. أي قوة هذه إن لم تكن تسخير الله تعالى إياه لنصرة قضية هؤلاء المسلمين؟.

وهذا دليل على أنه كان عند بعض النصارى إيمان صحيح بدينهم، ولكنهم يكتمون ذلك؛ لكون الغلبة والسيادة في الأرض لأصحاب الدين المحرف، ومن الذي كانوا على الاعتقاد الصحيح ملك الحبشة، وكان يُخفى إيمانه هذا مداراة لقومه إبقاء على نفسه وملكه، فلما وقع في هذا الابتلاء أظهر إيمانه، حيث أصبح بين أمرين:

الأمر الأول: أن يداري قومه وينكر على هؤلاء الصحابة اعتقادهم في عيسى ابن مريم عليه السلام، وهذا يلزم عليه جحد الحق، وكيف يجحد الحق وهو أعلى رجل في الدولة؟ كما يلزم عليه أن يبعد المسلمين من بلاده؛ لكونهم طعنوا في معتقد النصارى السائد، ولو لم يفعل ذلك فإن رجال دولته لن يقروا بقاء المسلمين وقد قالوا ما قالوا.

والأمر الثاني: أن يظهر اعتقاده الصحيح الموافق لاعتقاد المسلمين إرضاء لربه وإراحة لضميره وانتصاراً لحزب الله المؤمنين مهما ترتب على ذلك من نتائج.

وهذا الأمر هو الذي سلكه من غير تردد، وتحدى به علماء دينه، ورجال دولته، فكان بهذا الموقف الكبير من عظماء التاريخ.

ولقد حدث ما كان متوقعًا من قيام الثورة ضد ذلك الملك الصالح عقب تلك المفاوضات المذكورة.

«قالت -أم سلمة-: فوالله إنا لعلى ذلك إذ نزل به - يعني النجاشي - رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، قالت: فوالله ما علمتنا حَزَنًا حزنا قط كان أشد علينا من حزن

حزنَّاه عند ذلك، تخوفًا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه.

قالت: وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل.

قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَنْ رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم يأتينا بالخبر؟

فقال الزبير بن العوام: أنا، قالوا: فأنت، وكان من أحدث القوم سنًّا.

قالت: فنفخوا له قربة فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقي القوم، ثم انطلق حتى حضرهم.

قالت: فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه، والتمكين له في بلاده.

قالت: فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن، إذ طلع علينا الزبير وهو يسعى، فلمع بثوبه وهو يقول: ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه، ومكن له في بلاده، قالت: فوالله ما علمتُنا فرحْنا فرحة قط بمثلها.

قالت: ورجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوه، ومكن له في بلاده، واستوسق عليه أمر الحبشة[1]، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة[2].

وقول أم سلمة - رضي الله عنها-: «حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة» تريد من قدم منهم إلى مكة وكانت معهم، أما بقيتهم فقد قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة عام خيبر وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أجمعين.

---

(١) أي اجتمعوا عليه واستقر له الملك.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٤٦، السير والمغازي لابن إسحاق / ٢١٣.

وأخرجه الإمام أحمد - مسند أحمد ٥/ ٢٩٠، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٣٠٩ - وقال الحافظ ابن كثير: هذا إسناد جيد قوي - السيرة النبوية لابن كثير - ٢/ ١١ -.

وحسن الحافظ ابن حجر إسناد الإمام أحمد - فتح الباري ٧/ ١٨٩ -.

وذكره الحافظ الهيثمي وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع - مجمع الزوائد ٦/ ٢٧ -.

ويبين ذلك ما جاء في رواية البيهقي لهذا الخبر حيث جاء في آخره: «ثم أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا راجعًا إلى مكة وأقام من أقام»[1].

وهكذا قام الزبير بن العوام رضي الله عنه برحلة الاستطلاع النهرية، وهذا مثل من أمثلة شجاعته المبكرة، وقد أثبت التاريخ بعد ذلك أنه رجل المغامرات والأهوال.

ولقد كان هناك احتمال كبير لأن يصاب في أثناء المعركة أو بعدها؛ خصوصًا لكونه من العرب وللاحتمال الظاهر من أن المعركة قامت بين النجاشي والمتمردين من قومه بسبب مخالفته معتقداتهم في عيسى عليه السلام وتصريحه بأن ما قاله جعفر في ذلك هو الدين الحق، ولكن الزبير كان يملك نفسًا وثابة نحو المخاطر قد بُنيتْ على إيمان قوي بقضاء الله تعالى وقدره، فأقدم على تلك الرحلة وطمأن المسلمينَ على مصير تلك المعركة.

أما أولئك المسلمون الصالحون فإنهم قد قاموا بما يستطيعون من نصرة النجاشي، حيث استعملوا السلاح الذي كان بإمكانهم أن يستعملوه، وهو الدعاء، وأكرمْ به من سلاح يمضي في سدُول الليل فيعطي مفعوله في تخذيل الأعداء وهزيمتهم؛ لأن جميع المخلوقين في قبضة الله جل وعلا وتحت مشيئته، فإن شاء نصر المسلمين ومن يناصرهم وإن كانوا قلة، وإن من أسباب تنزل نصره تعالى ارتفاع دعاء المؤمنين الصادقين.

وهل يشك متأمل في بلوغ أولئك الصحابة أعلى درجات الصدق واليقين؟

ولذلك فإن مما يوافق سنن الله تعالى أن ينزل نصره على النجاشي استجابة لدعاء هؤلاء المؤمنين الصادقين.

هذا وقد روي أبو نعيم الأصبهاني هذه الأخبار وغيرها، وقال بعدها: وكل هذه الروايات عمَّن لا يدفع عن صدق وفهم.

ومن الإضافات التي اشتملت عليها هذه الروايات ما جاء في رواية عروة بن الزبير أن عمرو بن العاص وصاحبه قالا عن رسول الله ﷺ: إن هذا الرجل الذي بين أظهرنا

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣٠٤.

وأفسد فينا تناولك ليفسد عليك دينك وملكك وأهل سلطانك، ونحن لك ناصحون، وأنت لنا عيبة صدق، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف وتأمن تجارنا عندك، فبعثنا قومنا إليك لننذرك فساد ملكك[1].

وفي هذه الإضافة دليل على أن وفد قريش لم يقتصر على مجرد المطالبة بإعادة المسلمين المهاجرين لمصلحة تخص بلادهم وقومهم، وإنما اتهموهم بإفساد بلادهم، وحذروا ملك الحبشة منهم حتى لا ينتقل إفسادهم إلى ملكه وبلاده.

وهكذا نجد دعاة الباطل وحماته في كل زمن يصورون دعاة الحق المصلحين على أنهم من المفسدين في الأرض، وذلك لفساد تصور أهل الباطل، وانقلاب مفاهيمهم حول مقومات الإفساد والإصلاح وصفاتهما المحددة لهما.

فالإصلاح في نظر هؤلاء يقوم على اعتبار تحقيق أهواء الزعماء المهيمنين على البلاد، سواء كانوا مستقلين في نظراتهم للأمور وحكمهم أو كانوا خاضعين لمن هو أقوى منهم، فما وافق رأي هؤلاء الزعماء الأحياء منهم والأموات فإنه هو الإصلاح في الأرض، وما خالفه فهو الإفساد في نظرهم، ولذلك كان كلام وفد قريش مركزًا على بيان مخالفة المسلمين لما عليه الملأ من قومهم وما ورثوه من أسلافهم بغضِّ النظر عن كونه حقًّا في ذاته أو باطلاً.

وهذا يعدُّ نوعًا من الانغلاق الفكري وتحجيم الطاقات البشرية عن الانطلاق والبحث عن المستويات العليا من المبادئ والمثل.

ولقد كان ملك الحبشة على المستوى العالي من النظر والتأمل حيث قارن بين دعوة المسلمين ودعوة المشركين فرأى بونًا شاسعًا بين الدعوتين، يتمثل في ارتفاع إلى أعلى درجات السمو في دعوة الإسلام، وهبوط إلى أسفل دركات الانحطاط في دعوة الشرك، فكان بكل قوته وطاقاته في صف الإسلام والمسلمين.

وإن النجاشي يعدُّ مثالاً عاليًا في التحري والتدقيق والبحث عن حقائق الأمور حيث لم يستفزه وفد الكفار ولم تستخفه دعواهم على المسلمين بأنهم سيفسدون عليه ملكه.

---

(١) دلائل النبوة لأبي نعيم ١/ ٨٠ - ٨٤.

ولقد كان أقل تصرف سيفعله الذين لا يتصفون بالعدالة أن يأخذوا الاحتياط لملكهم ودولتهم بإبعاد أولئك المتهمين، خاصة وأن دولة الحبشة لا تستفيد أي شيء من إقامتهم فيها، ولكن لفرط إحساس ذلك الملك بفظاعة الظلم ودقة تحريه للعدالة لم يقدم على هذا التصرف القاصر الظالم، بل أرعى سمعه للطرفين حتى استوعب القضية وبان له وجه الحق، فصرح بنصر الحق وأهله على الرغم من إدراكه نتائج ذلك المحرجة له أمام زعماء دولته.

فلله دره! وما أعظمه من عالم دقيق العلم بخفايا الأمور ونتائجها، وحاكم عادل لا تستهويه قوى البشر المبنية على الجبروت والطغيان!

ولا تنسى في ختام هذا المقال أن نثبت شرفه الكبير باعتناق الإسلام، كما سيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى، فرحمه الله رحمه واسعة.

أما قوله: «فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي»، فيبينه ما أخرجه ابن إسحاق عن الزهري رحمهما الله قال: فحدثت عروة بن الزبير حديث أبي بكر بن عبد الرحمن، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ فقال: هل تدري ما قوله: «ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيع الناس فيه؟» قال قلت: لا، قال: فإن عائشة أم المؤمنين حدثتني أن أباه كان ملك قومه ولم يكن له ولد إلا النجاشي، وكان للنجاشي عم له من صلبه اثنا عشر رجلاً، وكانوا أهل بيت مملكة الحبشة، فقالت الحبشة بينها: لو أنا قتلنا أبا النجاشي وملَّكنا أخاه فإنه لا ولد له غير هذا الغلام، وإن لأخيه من صلبه اثني عشر رجلاً فتوارثوا ملكه من بعده بقيت الحبشة بعده دهرًا، فغدوا على أبي النجاشي فقتلوه، وملَّكوا أخاه فمكثوا على ذلك حينا.

ونشأ النجاشي مع عمه وكان لبيبا حازمًا من الرجال، فغلب على أمر عمه ونزل منه بكل منزلة، فلما رأت الحبشة مكانه منه قالت بينها: والله لقد غلب هذا الفتى على أمر عمه وإنا لنتخوف أن يملِّكه علينا، وإن ملَّكه علينا لَيَقْتُلَنَّا أجمعين، لقد عرف أنا نحن قتلنا أباه، فمشوا إلى عمه فقالوا: إما أن نقتل هذا الفتى وإما أن تخرجه من بين أظهرنا، فإنا قد خفنا على أنفسنا، قال: ويلكم قتلتم أباه بالأمس وأقتله اليوم! بل أخرجه من بلادكم.

قالت: فخرجوا به إلى السوق فباعوه من رجل من التجار بستمائة درهم، فقذفه في سفينة، فانطلق به، حتى إذا كان العشي من ذلك اليوم هاجت سحابة من سحائب الخريف فخرج عمه يستمطر تحتها فأصابته صاعقة فقتلته.

قالت: ففزعت الحبشة إلى ولده فإذا هو مُحْمق[1]، ليس في ولده خير، فمرج على الحبشة أمرهم، فلما ضاق عليهم ما هم فيه، قال بعضهم لبعض: تعلَّموا، والله إن مَلككم الذي لا يقيم أمركم غيره للَّذي بعتم غَدْرة، فإن كان لكم بأمر الحبشة حاجة فأدركوه الآن.

قالت: فخرجوا في طلبه وطلب الرجل الذي باعوه منه، حتى أدركوه فأخذوه منه، ثم جاؤوا به، فعقدوا عليه التاج وأقعدوه على سرير الملك، فملَّكوه.

فجاءهم التاجر الذي كان باعوه منه فقال: إما أن تعطوني مالي، وإما أن أكلمه في ذلك؟ قالوا: لا نعطيك شيئًا قال: إذًا والله أكلمه، قالوا: فدونك إياه.

قالت: فجاءه، فجلس بين يديه، فقال: أيها الملك ابتعت غلامًا من قوم بالسوق بستمائة درهم فأسلموا إليَّ غلامي وأخذوا دراهمي، حتى إذا سرت بغلامي أدركوني فأخذوا غلامي ومنعوني دراهمي.

قالت: فقال لهم النجاشي: لتعطنَّه دراهمه أو ليضعنَّ غلامه يده في يده فليذهبنَّ به حيث شاء، قالوا بل نعطيه دراهمه.

قالت: فلذلك يقول: ما أخذ الله مني رشوة حين رد عليَّ ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيع الناس فيه.

قالت: وكان ذلك أول ما خُبر من صلابته في دينه وعدله في حكمه[2].

هذا وقد جاء في خبر آخر ما يدل على أن رجال دولة الحبشة ظلوا غاضبين على النجاشي لقوله عن عيسى عليه السلام بأنه عبد الله، وفي ذلك يقول ابن إسحاق:

---

(١) الضمير يعود على النجاشي، والمحمق بكسر الميم هو الذي يلد الحمقى.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥١ - ٣٥٤. وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد وذكر نحوه - مسند أحمد ١/ ٢٠١ - ٢٠٣، ٥/ ٢٩٠ - ٢٩٢-.

وحدثني جعفر بن محمد عن أبيه قال: اجتمعت الحبشة، فقالوا للنجاشي: إنك قد فارقت ديننا، وخرجوا عليه، فأرسل إلى جعفر وأصحابه، فهيأ لهم سفنًا، وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هُزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا.

ثم عمَد إلى كتاب فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى ابن مريم عبده ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قبائه، عند المنكب الأيمن.

وخرج إلى الحبشة، وصفُّوا له، فقال: يا معشر الحبشة، ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما بالكم؟ قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبدٌ، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول: هو ابنُ الله، فقال النجاشي، ووضع يده على صدره على قبائه، هو يشهد أن عيسى ابن مريم [كذلك]، لم يزد على هذا شيئًا، وإنما يعني ما كتب، فرضوا وانصرفوا عنه.

فبلغ ذلك النبي ﷺ، فلما مات النجاشي صَلَّى عليه، واستغفر له[1].

وقد أثبت هذا الخبر اهتمامًا كبيرًا من النجاشي بالمسلمين، وأنه وضع خطة لنجاتهم ورحيلهم فيما إذا كانت الدولة لقومه وزال عنه الملك؛ لعلمه بأن قومه لن يُبقوا على المسلمين وقد قالوا ما قالوا عن عيسى عليه السلام، وهذا شاهد على رسوخ إيمانه وقوة يقينه برسالة محمد ﷺ.

ولا شك أن إسلام النجاشي من النتائج الكبيرة المترتبة على هجرة الحبشة، إذ إن هذه الدولة من كبريات الدول آنذاك بعد فارس والروم، وكون ملك الحبشة يدخل في الإسلام يعطي المسلمين قوة معنوية وهم في مكة المكرمة، بينما يعطي الكفار شيئًا من اليأس والتردد في محاولة القضاء على المسلمين؛ لاحتمال أن يغضب لهم ملك الحبشة فيرسل قوة للانتقام منهم.

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٤.

أما مدة إقامة المهاجرين في أرض الحبشة فقد جاء في إحدى روايات الحديث السابق قول أم سلمة - رضي الله عنها - «ثم أقمنا عنده - يعني النجاشي - حتى خرج من خرج منا راجعًا إلى مكة وأقام من أقام»[1].

والذين أقاموا قد رجعوا بعد صلح الحديبية إلى المدينة، وقد وصلوا إليها والرسول ﷺ والمسلمون في خيبر كما ذكر المؤرخ محمد بن إسحاق قال: وكان من أقام بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ حتى بعث فيهم رسول الله ﷺ إلى النجاشي عمرو ابن أمية الضمري، فحملهم في سفينتين، فقدم بهم عليه وهو بخيبر بعد الحديبية، ثم ذكر أسماءهم»[2].

وقد يقال: لماذا لم يرجع هؤلاء إلى المدينة لما هاجر رسول الله ﷺ والمسلمون وقامت للإسلام دولة، فإن المسلمين بحاجة إليهم؛ للمشاركة في الجهاد وليعيشوا مع المسلمين، ويستفيدوا من تربية رسول الله ﷺ وتوجيهاته؟!

فيقال: لعل سبب تأخر عودتهم إلى بداية العام السابع أنهم لم يكونوا يأمنون على أنفسهم ولم يكن رسول الله ﷺ يأمن عليهم حال عودتهم من قريش، حيث إن ميناء الشعيبة الذي ترسو فيه السفن يقع بقرب مكة، فلما تم صلح الحديبية في آخر العام السادس حصل لهم الأمان في طريقهم إلى المدينة، ويشير إلى ذلك أن رسول الله ﷺ أرسل إلى النجاشي يطلب عودتهم بعد صلح الحديبية.

*****

(١) دلائل النبوة، للبيهقي: ٢/ ٣٠٤.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٨٢.

مثل من تأثر الصحابة بالقرآن وقوة تأثيرهم به

لقد سبق لنا بيان عظمة تأثر رسول الله ﷺ بالقرآن، وقوة تأثيره به على سامعيه، ولقد كان لصحابته رضي الله عنهم نصيب كبير من هذا المعنى، حيث تأثروا برسول الله ﷺ، فكانوا يخشعون لسماع كتاب الله تعالى، وإذا تلوه كانوا حاضري القلوب، متأثرين بما فيه من بديع الأسلوب وجلال المعاني.

وإن من أبرز الأمثلة على اتصاف الصحابة رضي الله عنهم بذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها عن خبر إجارة ابن الدَّغنَّة[1] لأبي بكر رضي الله عنه وقد جاء فيه: فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة وآمنوا أبا بكر، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، وليصلِّ وليقرأ ما شاء ولا يؤذنا بذلك، ولايستعلن به، فإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا.

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فطفق أبو بكر يعبد ربه في داره ولايستعلن بالصلاة ولا القراءة في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره وبرز، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقَصَّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا له: إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره وإنه جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره وأعلن الصلاة والقراءة وقد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فائْته، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين الاستعلان.

قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: قد علمت الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إليَّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخفرت في رجل عقدت له، قال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى[1].

---

(١) ابن الدغنة بفتح الدال وتشديدها وكسر الغين هو سيد القارة وهي قبيلة مشهورة من بني الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكانوا حلفاء بني زهرة من قريش - فتح الباري ٧/ ٢٣٣.

(٢) صحيح البخاري رقم ٢٢٩٧ - ٣٩٠٥. ورواه ابن إسحاق قال: حدثني الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٠.

وهكذا رأينا مظهراً من مظاهر رسوخ الإيمان وقوة حضور القلب مع الله تعالى تمثل في البكاء من خشيته عند تلاوة كتابه، والبكاء مبعثه قوة التأثر، إما بحزن شديد أو فرح غامر، والمؤمن الحق يظل بين الفرح بهداية الله تعالى إلى الصراط المستقيم، والإشفاق من الانحراف قليلاً عن هذا الصراط.

وإذا كان ذا قلب كبير كأبي بكر فإنه يشفق على من حوله من البشر التائهين، ويتألم إذا لم يتمكن من هدايتهم، ويتركز شعوره القوي كلما تلا كتاب الله تعالى فأصبح خياله تارة يحلق بين جنبات الأفق الأعلى، حيث الملائكة المقربون والحياة الآخرة بما فيها من نعيم وعذاب، وفوق ذلك كله هيمنة الملك الجبار جل شأنه، وتارة يتأمل في مسيرة معركة الحق مع الباطل على أيدي من اصطفاهم الله تعالى لرسالته، وما يعقب ذلك من مصارع الأمم البالغة، ثم يلقي نظرة على الحائرين التائهين من حوله وهم يكررون ملحمة الطغاة السابقين وينتظرون مصيرهم ومصير تابعيهم المحزن إن لم يتجردوا من الهوى الجامح ويثوبوا إلى رشدهم. . كل ذلك وغيره من المعاني السامية الفياضة يعبر عنه بكاء أبي بكر وهو يتلو كتاب الله تعالى.

وتجد في رد أبي بكر جوار ابن الدغنة مثل المؤمن الحق الذي لا يقبل المساومة في التنازل عن دعوته، فليس واجب المسلم لا ينتهي عند قيامه بعبادة ربه الخاصة، بل لا بد من دعوة الناس إلى اعتناق هذا الدين والالتزام به، فأبو بكر كان بإمكانه أن يصلي وأن يتلو القرآن داخل بيته، ولكن كيف يصل إليه من تشتاق قلوبهم لرؤيته وسماع تلاوته إن فعل ذلك؟

وها هو يرى أن من تجردت قلوبهم من الهوى المنحرف يستمعون لقراءته، فيظلون خاشعين لمنظره الأخّاذ ومظهره الآسر وهو يخلط تلاوته بالبكاء من خشية الله تعالى، وهم يعلمون أن وراء هذا البكاء تأثراً ضاغطًا بمعان سامية لا تتوفر لدى أكابرهم الذين يهيمنون عليهم ويصورون لهم رسول الله ﷺ والمؤمنين به بصورة الخطر الداهم والبلاء الهابط، فيقارنون سريعًا بين قوم تشفُّ قلوبهم وجوارحهم بمبادئهم التي يؤمنون بها، فتتجسَّم بصورة دموع فياضة وأخلاق سامية يعلوها التواضع والإيثار ويكسوها الحلم والسماحة. . . وبين سادتهم الذين يتعاملون معهم بالكبرياء والأثرة ويُلبِّسون الحقائق التي أضحت كالشمس بلباس التزييف والتمويه الذي لا يخفى على كل ذي عقل مدرك

وفكر نيِّر، فلا يزال كل يوم ينحاز من معسكر الكفر رجال ممن نور الله بصائرهم، وطهر قلوبهم، سواء ممن لهم وزنهم الكبير بين قومهم أوممن كانوا مستضعفين فيهم، فتعلو بذلك كفة أهل الإيمان وتنخفض كفة أهل الباطل.

إنه لا يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، فلا بد لكل مسلم أن يشعر وهو يقرأ القرآن الكريم أنه يتلو كلام الله تعالى وأن يستحضر عظمته في قلبه، وأن يتدبر معانيه، مع الشعور بأنه الكتاب الوحيد الذي بقي يمثل الوحي الإلهي، واستصحاب الرغبة الأكيدة في طلب الاستهداء به وهداية الناس بنوره إلى الصراط المستقيم.

ولا شك أن كل ما ذُكر في شأن أبي بكر رضي الله عنه فإن رسول الله ﷺ أعظم من ذلك بكثير، والصحابة رضي الله عنهم بكل ما لهم من فضائل إنما هم في ذلك تلاميذ صاحب الرسالة العظمى ﷺ، وقد مر علينا أمثلة من تأثر الكفار بسماع تلاوته وكلامه.

*****

أبو بكر أول خطباء الدعوة من الصحابة

لقد خرج المسلمون من المرحلة السرية التي دامت ثلاث سنوات، وذلك بالجهر بالدعوة كما تقدم، حيث جمع رسول الله ﷺ عشيرته والأقربين فدعاهم إلى الله تعالى، ثم جمع قريشًا فدعاهم وحذرهم من عذاب الله تعالى.

ثم استمر رسول الله ﷺ في إعلان دعوته، وكان كل فرد من المسلمين يبذل جهده في ذلك بشكل فردي.

وكانت أول محاولة للدعوة الجماعية بعد رسول الله ﷺ قام بها أبو بكر رضي الله عنهم.

وقد جاء خبر ذلك فيما ذكره الحافظ ابن كثير من رواية عبد الله بن محمد بن عمران الطلحي، عن أبيه، عن القاسم بن محمد، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: «**يا أبا بكر، إنا قليل**»، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته.

وقام أبو بكر في الناس خطيبًا ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين فضُربوا في نواحي المسجد ضربًا شديدًا، ووُطئ أبو بكر وضرب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه ونزا[1] على بطن أبي بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه.

وجاء بنو تيم يتعادون فأَجْلَت المشركين عن أبي بكر، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة.

فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ فمسُّوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا

(١) نزا: وثب.

لأمه - أم الخير - : انظري أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه فلما خلت به ألحَّت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك، فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه.

فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟ فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالت: نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دنفًا[1]، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: والله إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: أين هو؟ قالت في دار ابن الأرقم، قال: فإن لله عليَّ ألا أذوق طعامًا ولا شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ.

قال فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ فقبَّله وأكب عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله ﷺ رقَّة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي بَرَّة بولدها، وأنت مبارك، فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار، قال فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت[2].

لقد كان لأبي بكر رضي الله عنه شرف التقدم في دعوة الكفار الجماعية إلى الإسلام بعد رسول الله ﷺ، حيث قام فيهم خطيبًا يدعوهم إلى الله تعالى.

ولقد كان أشجع الصحابة حقًا كما شهد له على بن أبي طالب رضي الله عنه في خبر سابق، ولا أدل على شجاعته من بروزه في هذا الموقف العظيم الذي يحدث لأول مرة من غير رسول الله ﷺ في تاريخ دعوة الإسلام.

لقد ضاق أبو بكر بموقف قومه من الإسلام، وساءه أن يودِّعوا كل يوم عددًا منهم إلى النار، كما ساءه وضع المسلمين الخانق، حيث لا يستطيعون أن يعبدوا الله تعالى

(١) دنفا: ثقيل المرض. قريبًا من الموت.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ٢٩، وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة في ترجمة أم الخير رقم ١٢٥٤ (٤/ ٤٢٩) مختصرًا من رواية الإمام الطبراني، ولم يضعفه، فإقرار هؤلاء الأئمة له دليل على قبوله.

ولا أن ينشروا دعوتهم بحرِّية تامة، فألحَّ على رسول الله ﷺ بالظهور الجماعي وإعلان الدعوة العامة وسط جموع الكفار.

ولكن ما أن قام يدعوهم إلى خيرهم وسعادتهم حتى قامت قيامتهم، فانهالوا ضربًا على المسلمين بشكل جماعي، وكان لأبي بكر من ذلك الضرب النصيب الأكبر، حيث أغمي عليه وأصيب في جسده إصابات بالغة.

وهكذا برز حقد الكفار على المسلمين بشكل عدواني، حيث تضخم هذا الحقد في تلك الساعة فحجب نداء العقل السليم، وأصبحت العواطف الثائرة هي ملكة الأجسام فوجهتها نحو البطش والانتقام.

وهبطت الإنسانية في أولئك القوم دركات نحو البهيمية وتحولت وسائل التخاطب والتفاهم والتعبير عن الرأي إلى الأيدي والأرجل والنعال بدلاً من الألسنة، تمامًا كما تصنع البهائم بقرونها ومخالبها وقواطع أسنانها.

ذلك لأن الحكم في مثل تلك المواطن يكون للغوغائية، حيث يضيع صوت العقل في خضم الهرج والمرج؛ لأنه يكون مهددًا من قبل أصحاب القرار الذين يستجيشون عواطف الناس ولا يخاطبون عقولهم.

لقد كان في موقف المشركين هذا كبْت واضح لحرية الكلام والتعبير عن الرأي، وكان منطق العقل السليم يقتضي أن يردوا على الكلام بكلام مثله، وإذا أبرز المسلمون خطيبهم أن يبرز الكفار خطباءهم، وما أكثرهم! ولكنهم قد انخدعوا بما لديهم من وفرة في العدد والقوة، إلى جانب ضعف المسلمين في الجانبين، فحملهم كبرهم، وقادهم صلفهم وغرورهم إلى الرد بمنطق الحماقة المبني علي استخدام القوة ما دامت متوافرة، وما دامت هي الأسرع في كبت الحرية وإسكات صوت الحق.

إن الطغيان يحمل أصحابه عادة على احتقار رأي الآخرين وإن كانوا من كبار العقلاء.

ويتوهمون لنظرتهم القاصرة أن بإمكانهم إسكات دعاة الحق باستخدام أنواع القوة ضدهم، ويغترون بالنتائج القريبة التي يشاهدونها من أثر بسط نفوذهم وفرض هيمنتهم على من يعارضون أفكارهم ومخططاتهم، ويغفلون عن تذكر سنن الله تعالى الماضية

التي من أبرزها أن دعوة الحق إنما تترسخ في النفوس ويتسع انتشارها من أثر صمود أهل الحق وثباتهم في وجه الطغيان.

ولا أدل على ذلك من أن المسلمين كسبوا بعد هذه الحادثة عملاقَي الإسلام العظيمين: حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، حيث أصبح المسلمون بعد إسلامهما في وضع لا يسمح للكفار بتكرار ذلك المشهد المثير المؤلم.

لقد كان صمود المسلمين في ذلك اليوم عظيمًا، وثباتهم على الحق رغم ذلك المشهد الفظيع مذهلاً ومؤثرًا على كل ذي عقل سليم وتفكير قويم، حيث لم يظفر المشركون بعد تلك المعركة ولا بواحد من تلك الفئة المؤمنة، لا على مستوى التخلي عن الدين والانحياز إلى معسكر الكفار، فذلك شيء قد يئس منه المشركون، ولكن على الأقل في فتور الحماس، والانزواء بالدعوة في نطاق لا يشكل خطرًا على ديانة المشركين وتقاليدهم الموروثة.

بل الذي حدث كان بضد ذلك، حيث تضاعف عدد المسلمين وكسبوا أتباعًا أقوياء، وحازوا على إعجاب عقلاء الكفار بصمودهم وثباتهم وتضحيتهم بأنفسهم وأموالهم في سبيل نصرة دينهم، فكان هؤلاء العقلاء مناصرين لهم مدافعين عنهم بعد ذلك.

لقد حُمل أبو بكر إلى بيته مُشَوَّه الوجه، فاقد الوعي من أثر ذلك الضرب المبرح، حتى كان قومه يتوقعون هلاكه، ومع ما أصابه من تلك الآلام الشديدة فإنه لما أفاق كان أول كلام نطق به أن سأل عن رسول الله ﷺ.

لقد كان موقفًا ساميًا بلغ فيه أبو بكر أعظم ما يمكن أن يصل إليه المسلم من الحب في الله تعالى.

لقد كان يشعر بأن حياته وكل ما يملك لا تساوي شيئًا أمام سلامة رسول الله ﷺ.

ولقد وقف قومه مدهوشين ذهلين من هذا الموقف المحير.. رجل بين الحياة والموت ينسى نفسه، ويذهل عن كل ألم يمضُّ جسده ليتذكر شيئًا واحدًا هو السؤال عن حال رسول الله ﷺ، ثم يرفض تناول الطعام والشراب مع إلحاح أمه عليه حتى يروي غليله ويطفئ لهيب شغاف قلبه بالاطمئنان على سلامة رسول الله ﷺ واكتحال عينيه برؤيته.

إن الآلام الجسدية وإن كانت مبرحة مضنية فإنها لا تساوي شيئًا أمام الآلام النفسية بفقد أعز شيء يملك حبه ويهيمن على مشاعره.

ولئن عجزت الأقلام وكلَّت القرائح عن تصوير الدرجات العلى من الحب، فإن موقف أبي بكر هذا يجسم القمة في هذه الدرجات.

وإنني لأجدني في هذا الموقف عاجزًا عن تصوير كل ما يجول في خاطري ومشاعري من جلال هذا المشهد المثير.

ولما لم يجد أبو بكر الجواب الشافي لدى أمه، وجهها إلى امرأة مؤمنة كانت تكتم إسلامها، وهي أم جميل فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وزوجة سعيد بن زيد رضي الله عنهم أجمعين، وهي صاحبة الموقف المثير والدور الكبير في إسلام أخيها عمر كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ولما سألتها أم أبي بكر عن رسول الله ﷺ، أنكرت معرفتها به وبابنها أبي بكر؛ لأنها لا تزال في مرحلة السرية التي يعيشها بعض المسلمين بتوجيه من رسول الله ﷺ، ولكنها مع ذلك تقدِّر خطورة سؤال أبي بكر، وهي التي تعرف المكانة العظمى لرسول الله ﷺ في قلب أبي بكر خاصة، وفي قلوب المؤمنين عامة، ولهذا عرضت على أمه مرافقتها إلى ابنها؛ لتطمئنه على سلامة رسول الله ﷺ بالأسلوب الذي لا يتنافى مع الدور السري الذي تعيشه هي وأمثالها آنذاك.

ولم تتمالك نفسها وهي تشاهد منظر أبي بكر الفاجع، حيث رفعت صوتها بالبكاء عليه، ودعت على الكفار الذين نالوا منه وآذوه.

وحينما أعطاها أبو بكر الإشارة برفع الحرج عنها في إفشاء السر وهو الرجل الثاني في الإسلام، أخبرته عن حال رسول الله ﷺ وعن مكان إقامته، فآلى على نفسه ألا يذوق طعامًا ولا شرابًا حتى يصل إلى رسول الله ﷺ ويطمئن عليه بنفسه، فلم يكن إخبار فاطمة بنت الخطاب عن حاله بالذي يكفي لإطفاء لهيب الشوق وسكون الفؤاد، حتى تكتحل العينان برؤية من ملأ جوانح القلب وأضفى عليه السعادة والفلاح.

وكان استقبال أبي بكر حافلاً بمظاهر الحب والتقدير، حيث أكبَّ عليه رسول الله ﷺ وقبله، وأكب عليه المسلمون.

ولقد كان الموقف شديدًا على المسلمين، حيث لم يكن عند أبي بكر رغم سوء حالته الصحية إلا أفراد قبيلته من غير المسلمين فاضطر إلى الاستعانة بأمه وأخته في الإسلام؛ لإيصاله إلى دار الأرقم.

لقد كان عدد المسلمين لا يتجاوز ثمانية أو تسعة وثلاثين بعد أن هاجر إلى الحبشة من هاجر، ولقد كانوا مجتمعين في دار الأرقم بن أبي الأرقم بعد تلك الحادثة المروعة، ولعل من أهداف اجتماعهم أن يحصل ضعفاؤهم على نوع من الحماية حتى لايُستأصلوا من قبائلهم.

ولكن ذلك الوضع الخانق لم يطل حيث هيأ الله تعالى لنصر الدعوة بطليْن من عمالقة الإسلام هما حمزة وعمر رضي الله عنهما كما تقدم.

ولم ينس أبو بكر وهو في تلك الحال أن يطلب من رسول الله ﷺ الدعاء لأمه بالهداية، وقد كانت فرصة مواتية، حيث واجهت الرسول ﷺ بنفسها، وقد لا تستجيب لمثل ذلك الموقف في غير ذلك الظرف، إضافة إلى ما اعتراها من رحمة شديدة بولدها، فالوضع مناسب لدعوتها؛ لرغبتها الأكيدة في إسعاد ولدها المنكوب، وهو يدرك أنها تقدر فرحه الغامر بإسلامها لو أسلمت، فكان من الحكمة البالغة أن يغتنم هذا الظرف الملائم لجذبها للإسلام، وكان لسان حاله يقول إن كنت يا أماه تتشوقين إلى إبلالي من المرض وتمتعي بالصحة والسعادة فإن ذلك إنما يكون بدخولك في الإسلام.

لقد كان رضي الله عنه بارعًا حقًا في معرفة مداخل النفوس وطرق التأثير عليها، واغتنام الفرص المناسبة للدعوة، فكان بذلك وغيره أبرع الدعاة في الإسلام بعد رسول الله ﷺ.

ولقد نال حظًا كبيرًا من السعادة حينما أنقذ الله تعالى أمه من النار بدعاء رسول الله ﷺ لها حيث أسلمت من ساعتها، فرضي الله عنه وعن أمه «أم الخير».

****

مثل من التنافس في العمل الصالح
(عثمان بن مظعون يرد جوار المشركين)

لقد كان المسلمون في مبدأ الإسلام وهم في مكة يتعرضون لأذى شديد من صناديد الكفر وزعماء الضلال، وكان ضعفاء المسلمين والذين ليس لهم عشائر قوية تحميهم يتحملون النصيب الأكبر من هذا الأذى، أما المسلمون من أشراف قريش وأصحاب الوجاهة فيهم فإنهم يجدون من أفراد عشيرتهم من الكفار من يجيرهم ويحميهم من الأذى.

وكان من هؤلاء عثمان بن مظعون رضي الله عنه، حيث دخل في جوار الوليد بن المغيرة أحد زعماء قريش، وذلك بعد عودتهم من الحبشة حينما سمعوا أن قومهم قد أسلموا ولم يكن ذلك الخبر صحيحًا، فلما وصلوا إلى مكة وجدوا الكفار أشد ما كانوا عداء للمسلمين، فدخل بعضهم مكة بجوار من أكابر المشركين، وقد دخل عثمان بن مظعون الجمحي في جوار الوليد بن المغيرة كما ذكر ابن إسحاق[1].

ولكنه فكر فيما يصيب إخوانه من ضعفاء المسلمين على يد الكفار من الأذى، وما يترتب على صبرهم العظيم من الأجر الجزيل والإيمان القوي، فرأى أن بقاءه في جوار الوليد بن المغيرة نقص كبير، ويُفوت عليه منافع دينية جمة، فذهب إلى الوليد بن المغيرة، ورد عليه جواره، وفضل أن يبقى في جوار الله تعالى وحده كإخوانه من المستضعفين.

وفي سياق هذه القصة يقول محمد بن إسحاق - رحمه الله - فيما يرويه عن شيوخه: لما رأى عثمان بن مظعون ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ من البلاء وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة قال: والله إن غدوي ورواحي آمنًا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي.

فمشى إلى الوليد بن المغيرة، فقال له: يا أبا عبد شمس وفَتْ ذمتك، قد رددت إليك جوارك، فقال له: لم يا بن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي، قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٥.

قال: فانطلقْ إلى المسجد فاردد عليَّ جواري علانية كما أجرتك علانية، قال: فانطلقا، فخرجا حتى أتيا المسجد فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يرد عليَّ جواري، قال: صدق، قد وجدته وفيا كريم الجوار، ولكني قد أحببت ألا أستجير إلا بالله، فقد رددت عليه جواره.

ثم انصرف عثمان، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش ينشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

قال عثمان: صدقت، قال لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل.

قال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول، قام لبيد بن ربيعة: يا معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟

فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه في سفهاء معه قد فارقوا ديننا، فلا تجد في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان حتى شرى أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فخضَّرها.

والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان، فقال: أما والله يا بن أخي إن كانت عينك عما أصابها لغنيَّة، لقد كنت في ذمة منيعة.

قال: يقول عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس.

فقال له الوليد: هلمَّ يا بن أخي، إن شئت فَعُد إلى جوارك، فقال: لا[1].

وفي هذه القصة يتبين لنا باب من أبواب الجهاد في سبيل الله تعالى تمثَّل بمحاولة إظهار عزة الإسلام، وذلك بالاعتزاز بالله تعالى وحده وإن تمكَّن المسلم من الاحتماء بأقاربه وعشيرته، وذلك فيما إذا لم تتطلب مصلحة الدعوة غير ذلك، فإذا اقتضت

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٦، وأخرجه الإمام البيهقي بإسناده عن موسى بن عقبة وذكر نحوه - دلائل النبوة ٢/ ٢٩١ - ٢٩٣ -.

مصلحة الدعوة قبول حماية المشركين فإن هذا هو الأفضل كما كان النبي ﷺ في حماية عمه أبي طالب.

وفيها إشارة إلى ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من التنافس في سبيل الخير والعمل الصالح، وهذا يدل على الإيمان القوي بالله تعالى والرغبة الصادقة فيما عنده من الثواب.

كما أن في هذه القصة فضيلة إنكار المنكر وإن كان المسلم في حال ضعف وقلة ناصر؛ لأن في ذلك إظهاراً للحق الذي قد ينطمس في غمرة الباطل، فقد أنكر عثمان ابن مظعون رضي الله عنه قول لبيد: وكل نعيم لا محالة زائل، حيث كذبه في ذلك، وبين أن نعيم الجنة لا يزول، وتحمل في سبيل ذلك الأذى من المشركين، حيث أصيبت عينه في سبيل الله تعالى، وإن كان الأولى أن يخفف من أسلوب الإنكار، لكنه كان مدفوعاً بالرغبة في تثبيت مفاهيم الإسلام وطمس معالم الجاهلية.

ويبلغ عثمان رضي الله عنه قمة الإيمان حينما لم يندم على ترك جوار الوليد بن المغيرة الذي حصل له هذا الأذى بسبب تخليه عنه، حيث يبين للوليد بن المغيرة حينما لامه على تخليه عن جواره بأنه يتمنى أن تصاب عينه الأخرى في سبيل الله تعالى.

وهذا هو الفرق بين من يقدم على التضحية عن قناعة ويقين راسخ وبين من يتحمس للإقدام على أمر من أمور الجهاد ثم يتراجع حينما يتعرض للأذى في سبيل الله تعالى فإن هذا يعرض إيمانه للضعف ويضر بالدعوة الإسلامية.

كما أن عثمان رضي الله عنه لم يفته أن يقرر عظمة الله تعالى في نفوس المسلمين، حيث قال: وإني لفي جوار من هو أعز منك يا أبا عبد شمس.

لقد كان رضي الله عنه في حمى ذلك الرجل الكبير من قريش والرسول ﷺ قد أذن للصحابة بالاحتماء بالمشركين؛ لضعفهم وقلتهم، ولكنه أبى أن يرى إخوانه يعذبون في الله وهو يتمتع بذلك الحمى، إنه كمن لبس الدرع في القتال، فلما رأى الشهداء من حوله تاقت نفسه للشهادة فرمى الدرع وواجه الأعداء حاسراً طلباً لمواطن الشهادة.

*****

مثل من العزة والشهامة
(إسلام حمزة بن عبد المطلب)

لقد كان الله تعالى يهيئ لرسوله ﷺ من يدافع عنه، إما من عشريته الأدنين الذين يقومون بحمايته والذب عنه، أو من غيرهم من الكفار الذين لديهم مسكة من عقل وبقية من ضمير، فيواجهون سفاهة السفهاء بما يخفف من حدة الموقف، أو من المؤمنين به الذين يرون الدفاع عنه واجبًا دينيًا.

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه ابن إسحاق - رحمه الله - قال: حدثني رجل من أسلم كان واعية أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره فلم يكلمه رسول الله ﷺ، وكانت تسمعه مولاة لعبد الله بن جدعان.

ثم انصرف أبو جهل عنه، فعمد إلى نادي قريش عند الكعبة فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحًا قوسه راجعًا من قَنَص له، وكان صاحب قنص يرميه يخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى في قريش وأشد شكيمة.

فلما مر بالمولاة، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، قالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفًا من أبي الحكم بن هشام: وجده هاهنا جالسًا، فآذاه، وسبَّه، وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ﷺ.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد مُعدًا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا في القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول كما يقول؟ فرد ذلك عليَّ إن استطعتَ.

فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا، وتم حمزة رضي الله عنه على

إسلامه، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع، وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[1].

وهكذا كانت هذه الواقعة سببًا في إسلام حمزة رضي الله عنه حيث ثار أوَّلاً حمية لابن أخيه ﷺ، ثم أعلن إسلامه لما أرد الله له من الخير ولما يريد أن يجري على يديه من الانتصار لرسول الله ﷺ والمؤمنين ورفع راية الإسلام.

ومن هذه القصة تتبين لنا شجاعة حمزة رضي الله عنه التي أصبحت مضرب المثل، فلقد واجه زعيمًا كبيراً من زعماء مكة له مكانته العالية بين قومه، وهو من الذين يُرهبون الضعفاء بألسنتهم السليطة ونظراتهم الحادة، حيث قصد إليه وهو في مجمع من قومه فشجه شجَّة منكرة وأهانه أمام الملأ من قومه، وتحداه أن يرد عليه إن استطاع، ولم يحسب حسابًا لقومه أن يجتمعوا عليه ويوقعوا به الضرر.

وهكذا تبدو شجاعة الشجعان حيث يندفعون في نصر قضاياهم من غير نظر إلى عواقب ذلك، فيلغون من حسابهم كل الاحتمالات الواردة ويهيمن على مشاعرهم الانتصار للقضية التي يدافعون عنها، فيقومون بالأعمال المدهشة، التي تذهل الحاضرين وتشغلهم بتحليل دوافعها عن مواجهتها والتصدي لها.

وعاد أبو جهل يعتذر لأبي عمارة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ويهدئ من ثورة بني مخزوم الذين ثاروا له، وأرادوا أن ينالوا من حمزة، انبهاراً منه بهذه الشجاعة النادرة التي ألجمت أبا جهل وقومه، فجعلتهم يكفون عن حمزة حتى وهو يعلن إسلامه على غير عادتهم في معاملة المسلمين إذا جاهروهم بالإسلام.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٢. وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق وذكر مثله - تاريخ الطبري ٢/ ٣٣٣-.

وأخرجه الإمام الطبراني من طريق ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق وذكره نحوه كما أخرجه من حديث محمد بن كعب القرظي وذكر نحوه - المعجم الكبير ٣/ ١٥٢ - ١٥٣ رقم ٢٩٢٥، ٢٩٢٦ -.

وذكر الطريقين الحافظ الهيثمي وقال عن الأول: رواه الطبراني مرسلا ورجاله ثقات، وقال عن الثاني: رواه الطبراني مرسلا ورجاله الصحيح - مجمع الزوائد ٩/ ٢٦٧ -.

وأخرجه الحاكم من طريق ابن إسحاق وذكر نحوه وسكت عنه هو والذهبي - المستدرك ٣/ ١٩٢ -.

وهكذا فتح الله قلب حمزة رضي الله عنه للهداية، وكان مفتاح هدايته الانتصار للنبي ﷺ، فاعتز المسلمون بإسلامه، وتراجع زعماء قريش عن بعض ما كانوا ينالون من رسول الله ﷺ؛ لعلمهم بأن عمه سيحميه.

إن حمزة لم يكن أسلم يومذاك، ولكن دفع به تحدي أبي جهل الذي أهان ابن أخيه إلى أن يعلن تبعيته له على دينه، حيث إن هذا الأمر هو أعظم شيء يغيظ به أبا جهل؛ ليشفي غليل صدره منه، فكأنما قال لأبي جهل: إذا كان دين ابن أخي هو الذي حملك على إهانته فإني أتحداك باتباعه على دينه، فإعلان إسلامه كان تعصبًا لابن أخيه ولم يكن عن اعتقاد قلبي، ثم هداه الله تعالى إلى الإسلام فذهب إلى النبي ﷺ وأسلم.

*****

إسلام طليب بن عمير وجهوده في الدعوة

أخرج أبو عبد الله الحاكم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: أسلم طليب بن عمير في دار الأرقم، ثم خرج فدخل[1] على أمه وهي أروى بنت عبد المطلب فقال: تبعت محمداً وأسلمت لله رب العالمين جل ذكره، فقالت أمه: إن أحق من وازرت ومن عاضدت ابن خالك والله لو كنا نقدر على ما يقدر عليه الرجال لتبعناه ولذببنا عنه، قال: فقلت: يا أماه، وما يمنعك أن تسلمي وتتبعيه فقد أسلم أخوك حمزة، فقالت: أنظر ما يصنع أخواتي ثم أكون إحداهن، قال: قلت أسالك بالله إلا أتيته فسلمت عليه وصدقته وشهدت أن لا إله إلا الله، قالت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وكانت بعدُ تعضد النبي ﷺ بلسانها وتحضّ ابنها على نصرته والقيام بأمره.

قال الحاكم: صحيح غريب على شرط البخاري ولم يخرجاه[2].

وأخرجه ابن سعد من طريق شيخه الواقدي عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، وذكر مثله[3].

ثم ذكر عن طريق الواقدى بإسناده عن برة بنت أبي تجراة قالت:

عرض أبو جهل وعدَّة من كفار قريش للنبي ﷺ فآذوه، فعمد طليب بن عمير إلى أبي جهل فضربه ضربة شجه، فأخذوه وأوثقوه، فقام دونه أبو لهب حتى خلاه، فقيل لأروى: ألا ترين ابنك طليبًا قد صير نفسه غرضًا دون محمد؟ فقالت: خير أيامه يوم يذب عن ابن خاله وقد جاء بالحق من عند الله، فقالوا: ولقد تبعتِ محمداً؟ قالت: نعم.

فخرج بعضهم إلى أبي لهب فأخبره، فأقبل حتى دخل عليها فقال: عجبًا لك ولاتباعك محمداً وترك دين عبد المطلب، فقالت: قد كان ذلك فقم دون ابن أخيك

---

(١) جاء في المستدرك: «ثم دخل فخرج» وهو خطأ من النساخ والتصويب من طبقات ابن سعد.

(٢) المستدرك ٣/ ٢٣٩.

(٣) طبقات ابن سعد ٨/ ٤٢.

واعضده وامنعه، فإن يظهر أمره فأنت بالخيار أن تدخل معه أو تكون على دينك، فإن يُصَب كنت قد أعذرت في ابن أخيك، فقال أبو لهب: ولنا طاقة بالعرب قاطبة؟ جاء بدين مجدد، قال: ثم انصرف أبو لهب.

قال محمد بن سعد: وسمعت غير محمد بن عمر يذكر أن أروى قالت يؤمئذ:

إن طليبًا نصـــر ابن خـالـه آساه في ذي ذمَّة ومـالـه[1]

وهكذا أسلم طليب بن عـمـيـر رضي الله عنه والنبي ﷺ مـا زال في دار الأرقم في ظرف كان شديد الصعوبة، ولم يكتف بالدخول في الإسلام بنفسه، بل دعا أمه أروى بنت عبد المطلب إلى الإسلام وألح عليها في ذلك لما تمنعت قليلاً حتى أسلمت وكانت تدافع عن رسول الله ﷺ وتحض على نصرته.

وهكذا كسب الإسلام هذا الجندي الباسل الذي كانت نهايته الشهادة في معركة أجنادين، وكسب أمه التي كانت من جنود الإسلام في مجالها النسائي رضي الله عنهما.

وفي الخبر الثاني بيان موقف من مواقف طليب وأمه رضي الله عنهما في الدفاع عن رسول الله ﷺ، حيث أقدم طليب على الهجوم على أبي جهل لما آذى رسول الله ﷺ، والهجوم على هذا الرجل يعتبر مغامرة جريئة حيث كان منيعًا في قومه، شديد العداوة للإسلام وأهله، فالذي يقدم على الهجوم عليه سيتوقع أذى بالغًا من قومه، وقد فعلوا ذلك لولا أن خاله أبا لهب خلصه من أيديهم.

وموقف أمه أروى كان جليلاً، حيث أيدت ابنها على ما قام به من نصرة رسول الله ﷺ ولم تعبأ بعذل قومها لها ولابنها، بل أظهرت إسلامها ونصرتها لرسول الله ﷺ.

*****

(١) طبقات ابن سعد ٨/ ٤٢ - ٤٣، وذكر الحافظ ابن حجر الخبرين نقلاً عن ابن سعد الإصابة ٤/ ٢٢٢ رقم٣٣.

مثل أعلى للتحول بعد الهداية
(إسلام عمر بن الخطاب)

حينما تتجمع خصال أمة من الناس في رجل واحد يصنع العجائب بقدرة الله تعالى، إذا آمن واستقام؛ لأنه بإيمانه بالله تعالى يسمو فكره إلى الأعلى؛ إلى صانع الكون ومدبره، فتسمو مداركه، وتصفو تصوراته، وباستقامته تزكو نفسه، وينمو إيمانه، ويتطهر قلبه وجوارحه من الزلل والانحراف.

ولكنه حينما يظل على الكفر فإنه يبقى تائهًا مقصورًا فكره على محقرات الأمور التي لا تعدوها تصورات الناس المجردة من الإيمان، وتظل مواهبة حبيسة مكبوتة؛ لأن حجاب الكفر يعرقلها بالأغلال، ويحيطها بالظلمات الحالكة، فلا تنطلق إلا في حدود ضيقة تحكمها عادةً الأعراف القومية بما فيها من كبت وانحراف.

وحينما يؤمن ولا يطبق حدود الاستقامة تعود على الفكر حجب الجاهلية بشكل آخر يتسم بالشعور الدائم بالذنب الذي يعطل الفكر ويقيده، فلا يدعه ينطلق إلى الجو الأعلى الرحيب.

فكما أن الكفر بمختلف مذاهبه أغلال مقيدة للعقل السليم والفكر النافذ فإن المعاصي كذلك وإن اختلفت مناحي الغَل والتقييد.

وهكذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في جاهليته حينما لم يكن شيئًا مذكورًا إلا في حدود أعراف قبيلته الجاهلية.. ثم كان ما كان بعد إسلامه من عظمته الخارقة، التي أصبحت مضرب الأمثال عبر الأجيال.

ولقد عبر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عما أحدثه إسلام عمر في الأمة بقوله: إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنَّا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة والطبراني «فتح الباري ٧/ ٤٨».

وقال أيضًا «مازلنا أعزة منذ أسلم عمر»[1].

لقد كان عمر رضي الله عنه شديد القسوة على المسلمين قبل أن يسلم، فلما هداه الله للإسلام حوَّل قوته العظيمة للدفاع عن الإسلام والمسلمين، فكان عظيم التحدي للكفار حتى اعتز به المسلمون، وفرق الله به بين الحق والباطل، ولذلك لقبه رسول الله ﷺ بالفاروق.

وكان من قصة إسلامه فيما رواه ابن إسحاق رحمه الله:

«أن أخته فاطمة بنت الخطاب - رضي الله عنها - كانت عند سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل رضي الله عنه، وكانت قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام - رجل من قومه من بني عدي بن كعب - قد أسلم، وكان أيضًا يستخفي بإسلامه فرقًا[2] من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن»[3].

وإخفاء الإسلام في حال الفتنة وضعف المسلمين له مزاياه المتعددة، من السلامة من الأذى الذي قد يجر إلى الافتتان، والقيام بخدمة الدعوة في أمور لا يستطيع القيام بها من استعلن بإسلامه، ولكن الاستخفاء بالإسلام ليس هو الأصل وإنما هو مشروع عند الضرورة وعند احتياج الدعوة، فالأصل هو إعلان الإسلام والقيام بالدعوة إليه؛ لتعلو كلمة الحق وتقوم الحجة على الغافلين.

قال: «فخرج - يعني عمر - متوشحًا سيفه، يريد رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه قد ذكروا له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضي الله عنه ممن أقام ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة».

وهل كان خروج عمر لقتل النبي ﷺ بدافع شخصي بحكم ما كان يهيمن على نفسه من عوامل قوية مؤثرة، حيث كان شديد التمسك بتراث الآباء والأجداد، عظيم الغيرة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة باب ٦ «الفتح ٧/ ٤١».

(٢) فرقا بفتح الراء يعنى خوفا.

(٣) يعني هي وزوجها سعيد بن زيد كما سيأتي.

على مجد قريش المكتسب آنذاك من التقاليد والعادات الجاهلية مع ما جبل عليه من قوة الشكيمة والإصرار العنيف على إنكار ما لا يقتنع به، أم كان ذلك بتحريض من زعماء الكفار؟

الظاهر أنه كان بتحريض من زعماء الكفار مع ملاحظة الدوافع المذكورة، ومما يدل على ذلك ما جاء في رواية أخرى من أن أبا جهل جعل لمن يقتل محمداً مائة ناقة، قال عمر: فقلت له: يا أبا الحكم آلضَّمان صحيح؟ قال: نعم، قال: فتقلدت سيفي أريده.. ثم ذكر خبر تعريجه على بيت أخته وإسلامه بعد ذلك.

ذكره الحافظ ابن حجر في رواية الحافظ أبي نعيم[1].

وكون أبي جهل يجعل لمن يقتل رسول الله ﷺ مائة من الإبل دليل على تأصل عداوة الكفار للإسلام ودعاته، فهذا العوض كبير آنذاك، وخصوصًا إذا كان قد بذل من فرد واحد.

قال ابن إسحاق في سياق روايته: «فلقيه نُعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر: فقال: أريد هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها فأقتله».

وهنا يكشف عمر عن قصده بجلاء مع بيان المسوغات التي دفعته إلى محاولة ارتكاب هذه الجريمة الشنيعة.

فاجتماع قريش في نظره هدف رفيع في حد ذاته، بغَضِّ النظر عما اجتمعوا عليه هل هو حق أم باطل؟ ومن فرق جماعتهم فهو ملوم وإن كان يدعو إلى الحق ويحارب الباطل.

وانتقاد ما أجمع عليه كبراء قريش يعدُّ تسفيها لعقولهم؛ لأن ما أجمعوا عليه غير قابل للنقد ولا لمجرد التفكير في وزنه بميزان العقل السليم.

وعيب دينهم وسب آلهتهم يعدُّ جريمة في حق فاعله يستحق عليها القتل؛ لأن في ذلك خروجًا عن المألوف من تقديس وتعظيم ما عليه الآباء والأجداد وإن كان هذا التراث لا يثبت أمام العقل السليم والتفكير المتأمل.

(١) فتح الباري ٧/ ١٨١.

وهذا يعدُّ نموذجًا من الاعتقاد السائد في عقول الكفار آنذاك، حيث أصبح يغطي على مشاعرهم ولا يتيح لهم مجالاً للتفكير والتأمل.

«فقال له نعيم: والله لقد غرَّتك نفسك من نفسك يا عمر، أتُرى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً».

وهنا يأتي دور الاستخفاء بالدين لدى بعض المسلمين في الظروف الصعبة التي يمر بها المجتمع المسلم، فكانت مهمة نعيم رضي الله عنه - والحالة هذه - أن يحاول بكل إمكانه ثَنْيَ عمر رضي الله عنه عن عزمه الذي صمم عليه، ونجح في مهمته أيما نجاح، حيث بدأ أولاً بتذكيره بمغبة إقدامه على قتل رسول الله ﷺ، والذي يعيش في الجاهلية أيًّا كانت هذه الجاهلية وأيًّا كان سموه العقلي لا يرضى بأن يفقد حياته مهما كان الهدف الذي ينطلق لخدمته، وإنما ينطلق من يقدم على المهلكة من هؤلاء لا المثُل الخيالية تغطي على فكره، وضغط الماضي والحاضر يغشى على عقله فيحجب عنه العواقب الوخيمة التي تترتب على إقدامه على الأمر الذي يريده.

وقد استطاع نعيم بهذا أن يمتص قدراً من الغضب الذي كان يساور عمر ولكن بقي أن يشغله بمهمة يفرغ فيها كل ما تبقى من غضبه حيث قال له: «أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال ختنك[1]، وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما».

وهنا قد يتساءل المتأمل: كيف ساغ لنعيم أن يبوح بسر بيت مسلم كان يخفي إسلامه، وقد يعرضهم بذلك للهلاك؟!

ويمكن أن يكون الجواب بأن المهمة الكبرى آنذاك كانت هي حماية النبي ﷺ، فتعرُّض فرد أو بيت مسلم للأذى فداء للنبي ﷺ ليس كثيراً، إضافة إلى أنه لم يكن من المعهود في ذلك المجتمع الإقدام على قتل المسلمين، لا لأن عداوة الكفار لهم لم تصل إلى هذا الحد ولاسيما إذا كانوا ذويهم وأقاربهم وإنما لأن قتل فرد أو أفراد من المسلمين لن يعوق سير الدعوة الإسلامية، بل كان اهتمامهم منُصَبًّا على تعذيب المسلمين؛

(١) أي زوج أخته.

ليرتدوا عن إسلامهم، فيكسب الكفار نجاحًا في الصد عن الإسلام، وقد يموت بعضهم تحت وطأة التعذيب كما فعلوا مع سمية رضي الله عنها.

أما التوجه بالقتل عمدًا، فقد كان منصرفًا إلى النبي ﷺ، حيث عزموا على ذلك عدة مرات؛ لأن قتله يعني إندثار الإسلام.

«قال: فرجع عمر عامدًا إلى أخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها «طه» يقرئهما إياها».

وهكذا تكون التربية الإسلامية بكتاب الله تعالى فهو زاد الصحابة رضي الله عنهم يتلونه ويتدارسونه ويحفظونه ويعملون بأحكامه ويتأثرون بمواعظه، يتعلم اللاحق من السابق، وهكذا كانوا في عزلة فكرية عما يدور في المجتمع الجاهلي فلا يتأثرون إلا بما وقر في قلوبهم من كتاب الله تعالى.

وهذا مثل من المنهج التعليمي الذي كان رسول الله ﷺ يربي عليه المسلمين آنذاك، حيث كان يوجه المسلمين القدامى الذين يحفظون ما نزل من القرآن أو بعضه إلى المسلمين الجدد؛ ليعلموهم القرآن.

«فلما سمعوا حس عمر تغيَّب خباب في مخدع لهم، أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذا الهيْمنة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئًا، قال: بلى والله، لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب؛ لتكفه عن زوجها فضربها فشجَّها فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك».

وهكذا يفرِّغ عمر غضبه كله في البطش بابن عمه وأخته، ويتمُّ لنُعيم ما أراد من صرف عمر وهو في حال الغضب الشديد عن رسول الله ﷺ، وذلك ليتمَّ ما أراده الله تعالى من هداية عمر وإعزازه لدين الله تعالى.

وهكذا رأينا ابن عمه وأخته يعلنان إسلامهما أمامه بعزة وقوة ويُظهران التحدي له، بعد أن بطل مفعول السرِّية التي كانا يحيطان إسلامهما بها، فإن مصلحة الدعوة

الإسلامية تقتضي ألا يُظهر المسلم إسلامه بضعف، وإنما يظهر الاعتزاز به واحتقار ما حوله من الجاهلية، حتى لا يختلط ببعض تعاليم الجاهلية.

«فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى، وقال لأخته: أعطيني الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفًا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتبًا».

لقد كان لموقف زوج أخته وابن عمه سعيد بن زيد الذي كان فيما بعد أحد العشرة المبشرين بالجنة، وموقف أخته فاطمة أثر ظاهر في تغيُّر نظرته إلى الإسلام، ولعله لم يعهد منهما من قبل تصلبًا وإصرارًا على الرأي وقوة في المجابهة كما شاهدها ذلك اليوم، بل لعله لم يواجَهْ بالتحدي قبل ذلك من قرابته وهو الرجل القوي المهيب.

لا بد أنه قد انقدح في نفسه أمام هذا المشهد أن سرًّا عظيمًا يكمن وراء هذا الدين الجديد وكتابه الذي سمعهما يتلونه، فطلب من أخته أن تطلعه على الصحيفة، وخشيت أخته على كتاب الله تعالى أن يهينه أو ينتزع الصحيفة منها فيفقدا أقدس شيء يعتزان به، فقالت: «إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها».

وإن هذا التنازل الذي أظهر عمرَ متواضعًا وهو الرجل المتجبر قبل ذلك لأول علامات انجذابه للإسلام وإعجابه به.

«فلما قال ذلك طمعتْ في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس على شركك وإنه لا يمسها إلا الطاهر».

وهنا تظهر بوضوح آثار التربية الإسلامية العالية التي تمت على يد رسول الله ﷺ لتلامذته من الصحابة رضى الله عنهم، حيث خاطبت فاطمة أخاها بهذه الكلمات القوية، فحكمت عليه بأنه نجس وعللت هذا الحكم بأنه لا يزال على دين قومه الذي هو الشرك، فلم تجامله في دينها ولم تفرط في قدسية كتاب الله تعالى من أجل أن تقي نفسها وزوجها.

ومع أنها قامت بتمثيل ما يجب عليها تجاه تعظيم كلام الله تعالى، فإنها قامت أيضًا بواجبها نحو الدعوة وهي التي طمعت في إسلام أخيها فخاطبته بنداء الأخوة؛ أخوة النسب لعل ذلك يجذبه إلى الإسلام ويخفف من وقع الحكم الذي أصدرته عليه.

«قال: فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها -طه- فقرأها فلما قرأ منها صدرًا - يعني أولها-[1]، قال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!».

لقد تحمل عمر وقع ذلك الحكم الذي سمعه من أخته مع شدته لما أراد الله تعالى له من الهداية، فقام فاغتسل.

ولقد أخذته روعة كلام الله تعالى وسرى الإيمان في كيانه حتى تبدل إنسانًا آخر، بعدما تهيأ نفسيًا قبل ذلك، وأقبل على تلقي كلام الله تعالى وقد تحرر من أوهام الجاهلية التي طالما غشت على قلبه وحجبته عن التفكير في مجرد سماع الوحي الإلهي، فأثنى على كلام الله تعالى بهذا الثناء البالغ الذي يدل على تأثره به وهيمنته على مشاعره.

وهنا يأتي دور مُعلم الأسرة خباب بن الأرت رضي الله عنه الذي حجبه عن المجابهة كونه من المستضعفين في مكة: «قال: فلما سمع ذلك خباب، خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب، فاللهَ اللهَ يا عمر»[2].

---

(١) جاء في رواية أنس بن مالك رضي الله عنه عند أبي يعلي رحمه الله: إلى قوله ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ الآية - المطالب العالية ٤/ ١٩٣ - ١٩٤ رقم ٤٢٨١.

وهذه هى الآيات التى قرأها: ﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١ - ١٦].

(٢) وقد أخرج هذا الإمام الترمذي في سننه، كتاب المناقب باب مناقب عمر، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر، قال الحافظ ابن حجر: وصححه ابن حبان أيضًا وفي إسناده خارجة ابن عبد الله صدوق فيه مقال لكن له شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الترمذي أيضًا ومن حديث أنس (تحفة الأحوذي ١٠/ ١٦٨). وأخرجه الطبراني عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام» فجعل الله دعوة رسوله ﷺ لعمر بن الخطاب فبنى به الإسلام وهدم به الأوثان - ذكره الهيثمي وقال: رجاله رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق - مجمع الزوائد - ٩/ ٦١ -. =

وكانت هذه دفعة أخرى لعمر رضي الله عنه؛ ليُقدم إلى الإسلام، فما أكرم وما أعظم أن يكون إسلامه استجابة لدعوة رسول الله ﷺ، لا لنفعه الخاص فقط وإنما ليكون إسلامه نصراً للإسلام وتأييداً لدعوته.

ولذلك لم يتردد عمر لحظة واحدة، بل قال: «فدلَّني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحًا بالسيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب، فَأْذَنْ له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه».

ومن هذا المشهد تظهر شجاعة حمزة رضي الله عنه ورباطة جأشه وكان قد أسلم قبل ذلك بثلاثة أيام فقط.

فقال له رسول الله ﷺ: ائذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بحُجْزته[1]، أو بمجمع ردائه ثم جبذه به جبذة، وقال: «**ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينُزل الله بك قارعة**».

وهنا تبدو شجاعة رسول الله ﷺ التي لا نظير لها، فهو لم يتَّق الخطر بأصحابه، بل قام وسبقهم؛ ليقيهم بنفسه.

وهكذا تظهر عظمة الرجال وسُمُوُّهم، فرسول الله ﷺ لم يقابل رجلاً عاديًا، وإنما قابل رجلاً ملأ الرعبُ منه قلوب الناس في مكة، واشتهر في أوساطها بمعداوته المتناهية

= هذا وقد أخرج الحاكم من ثلاث طرق عن عبد الله بن عمر وعن عبد الله بن عباس وعن عائشة رضي الله عنهم أن الدعوة كانت لعمر خاصة، وحكم على هذه الطرق بالصحة ووافقه الذهبي - المستدرك ٣/ ٨٣-.
ولعل الدعوة كانت لأحد الرجلين ثم خص النبي ﷺ عمر لكونه يرجو إسلامه، ولا شك أن الفرق بين الرجلين واضح، وذلك لظهور العداوة الشديدة من أبي جهل المبنية على الحسد والحقد مع اعترافه بأن ما دعا إليه رسول الله ﷺ هو الحق، بينما كان عمر ملتزمًا بجاهليته لكونه يرى الحق مع ما ورثه من الآباء والأجداد، وفرق كبير بين من يلتزم بالباطل وهو يرى أنه على الحق وبين من يجحد الحق ويلتزم بالباطل وهو يعرف أنه باطل. وإن كانت الهداية ممكنة في كلا الصنفين.

(١) يعني معقد الإزار.

للإسلام وأهله، وقد أقبل متوشحًا سيفه، نحو دار يجتمع فيها المسلمون سرًا، فكل الدلائل تدل على أنه قد أقبل يريد شرًا برسول الله ﷺ ومن معه، ومع ذلك ينهض له رسول الله ﷺ مفتديًا أصحابه بنفسه.

وتتم المفاجأة الكبرى حينما يقول عمر رضي الله عنه: «يا رسول الله، جئتك لأومن بالله ورسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم».

وتغمر الفرحة قلوب المؤمنين، ويظهر أثر إسلام عمر على سلوكهم، حيث قويت شخصيتهم وأظهروا شعائر دينهم، وكمل اعتزازهم الظاهر بدينهم بعدما قطعوا شوطًا في ذلك بإسلام حمزة رضي الله عنه، ويبين ذلك ما جاء في ختام هذه الرواية: «فتفرق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ، وينتصفون بهما من عدوهم»[1].

وكان إسلام عمر فتحًا كما قال عبد الله بن مسعود، حيث خرج الصحابة من ذلك البيت الذي اجتمعوا به؛ ليأمنوا على أنفسهم بعد ما كان من حادثة اعتداء المشركين

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٦ - ٣٦٠.

وأخرجه ابن سعد من حديث إسحاق الأزرق قال: أخبرنا القاسم بن عثمان البصري عن أنس بن مالك رضي الله عنه وذكر نحوه - طبقات ابن سعد ٣/ ٢٦٧ -.

وكذلك أخرجه الحاكم والبيهقي بهذا الإسناد وذكرا نحوه، وسكت عنه الحاكم والذهبي - المستدرك ٤/ ٥٩، دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٢١٩ -.

وأخرجه أيضًا أبو يعلي من حديث أنس بن مالك - المطالب العالية ٤/ ١٩٣ رقم ٤٢٨١ - وأخرجه عبد الله بن الإمام أحمد من طريق أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده - فضائل الصحابة تحقيق الدكتور وصي الله ١/ ٢٨٥ - ٢٨٦ -.

وأخرجه البيهقي من هذا الطريق - دلائل النبوة ٢/ ٢١٦ - وذكر الذهبي هذه الرواية وسكت عنها، ثم ذكر رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما وحكم على إسنادها بالضعف - تاريخ الإسلام / السيرة/ ١٧٧ - ١٨٠ -.

وقال الحافظ ابن حجر: وقد ورد سبب إسلامه - يعني عمر - مطولاً فيما أخرجه الدارقطني من طريق القاسم بن عثمان عن أنس - وذكر ملخصًا للرواية السابقة - ثم قال: وروى أبو جعفر بن أبي شيبة نحوه في تاريخه من حديث ابن عباس - فتح الباري ٧/ ٤٨ -.

فهذه الروايات الثلاث المروية عن أسلم وأنس وابن عباس رضي الله عنهم تقوي رواية ابن إسحاق المذكورة.

الجماعي على المسلمين، على إثر خطبة أبي بكر الدعوية كما سبق، فلم يُخرج الصحابة من ذلك البيت ويجعلهم يأمنون بعض الأمْن إلا إسلام عمر.

وفي تكبير رسول الله ﷺ حينما أعلن عمر رضي الله عنه إسلامه دليل على استحباب التكبير عند الفرح، فالله أكبر من كل شيء، فلا يعظَّم غيره، ولا يقدس سواه، تباركت أسماؤه وجلت صفاته.

هذا وقد أخرج أبو نعيم - رحمه الله - خبر إسلام عمر رضي الله عنه من طريق آخر عن ابن عباس رضي الله عنه وذكر نحو خبر ابن إسحاق، وفيه أنه لما قرأ الآيات الأولى من سورة طه قال: فتعظَّمت في صدري وقلت: منْ هذا فرت قريش؟! ثم شرح الله صدري للإسلام، فقلت: لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، قال: فما في الأرض نسمة أحب إليَّ من رسول الله ﷺ، قلت: أين رسول الله ﷺ؟ قالت - يعني أخته فاطمة-: عليك عهد الله وميثاقه ألا تجبهه بشيء يكرهه، قلت: نعم، قالت: فإنه في دار الأرقم ابن أبي الأرقم[1].

وإن في تحول عمر السريع وإستجابته للإسلام حين سمع القرآن لدليلاً على الضغط الرهيب الذي كان زعماء مكة آنذاك يمارسونه على الناس حتى طوقوهم بذلك الحجْر الفكري الذي حَرَمَ هذا العبقري الألمعي من سماع القرآن طيلة تلك السنوات، فما أن لامست روعة القرآن الكريم حسه المرهف حتى اهتز كيانه، وانتعش وجدانه، فأعلن كلمة الحق مدوِّية في الفضاء بكل عزة وإباء، وهاجم الباطل بكل شجاعة وإقدام استفز رؤوس الطغيان واستهان بهم؛ لأنه يعلم يقينا أنهم كانوا وراء بقائه سابقًا على الضلال، وبقاء كل من تجرد من الهوى المنحرف على ضلاله بما يقومون به من الإعلام المضلل والإرهاب الفكري المنظم.

كما نلحظ في هذا الخبر دقة التربية التي تلقَّاها الصحابة رجالاً ونساءً، فحينما سأل عمر رضي الله عنه أخته عن مكان النبي ﷺ كانت مخيلتها تدور بين أمرين: الأول: وجوب حماية النبي ﷺ وعدم جواز إفشاء أسرار المؤمنين، والأمر الآخر: رغبتها الملحة في هداية أخيها إلى الإسلام بعدما قرأت في وجهه وفي سلوكه علامات الهداية

(١) دلائل النبوة لأبى نعيم / ٧٩.

والإقبال، فكان أن جمعت بين الأمرين بإخباره عن مقر النبي ﷺ بعد أخذ العهد عليه بألا يجبهه بشيء يكرهه.

كما نلحظ مثالاً لما كان يتصف به العرب آنذاك من التحلي ببعض مكارم الأخلاق؛ كالصدق والوفاء والأمانة، مما جعلهم أهلاً لحمل هذه الرسالة العظيمة، وقد استقر في ذهن فاطمة بنت الخطاب - رضي الله عنها - اتصاف أخيها بهذه المعاني، فإنها قد وثقت في أنه لن ينقض عهده ذلك، فأقدمت على ما أقدمت عليه من إفشاء السر لتلك المصلحة العظيمة.

هذا ولما أسلم عمر سعى في إعلان إسلامه؛ ليغيظ الكفار، ولينال من الأذى على أيديهم مثل ما ناله إخوانه المسلمين من قبل، ويصور ذلك ما أخرجه ابن إسحاق قال: حدثني عبد الرحمن بن الحارث، عن بعض آل عمر أو بعض أهله قال: قال عمر: لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أيَّ أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمت، قال قلت: أبو جهل، وكان عمر لحنتمة بنت هشام بن المغيرة[1]، قال: فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه، قال: فخرج إليَّ أبو جهل، فقال: مرحبًا وأهلاً يا بن أختي، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله ورسوله محمد، وصدقت بما جاء به، قال: فضرب الباب في وجهي وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به[2].

وهكذا بلغ من قوة إيمان عمر أن تحدى بإسلامه أقوى رجل في قريش وأشدهم عداوة للإسلام، وكان بإمكانه لو أراد السلامة لنفسه أن يستخفي بإسلامه، أو على الأقل أن يترك الأمر حتى يعلم الكفار عن ذلك بالتدريج.

وحينما لم يصنع أبو جهل معه شيئًا ولم يعلن هذا الخبر، بحث عن رجل آخر؛ ليقوم بإعلان هذا الخبر.

قال ابن إسحاق: وحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن ابن عمر قال: لما أسلم أبي - عمر - قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، قال: فغدا عليه، قال عبد الله بن عمر: فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟ فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه، واتبعه عمر واتبعت أبي، حتى إذا قام على باب

(١) يعني أن حنتمة أمه وهي أخت أبي جهل.
(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٤.

المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة -: ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ.

قال: ويقول عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه، حتى قامت الشمس على رؤوسهم، قال وطَلَح[1] فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حَبرة وقميص موشَّي، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، قال: فمه؟ رجل اختار لنفسه أمر، فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلوا عن الرجل، قال: فوالله لكأنما كانوا ثوبًا كشط عنه.

قال: قلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذلك أي بني العاص بن وائل السهمي[2].

وهكذا نجده رضي الله عنه يعلن إسلامه أمام الملأ من قريش وهو يعلم أنهم سيجتمعون على ضربه وربما قتلوه لكثرتهم، ولم يكن في توقعه أن يأتي خاله العاص ابن وائل السهمي؛ لينقذه، وذلك لأن إيمانه كان قويًا، فهانت عليه نفسه من أجل إظهار عزة الإسلام وإرهاب الكافرين.

هذا وقد جاء في بعض الروايات أن عمر رضي الله عنه طلب من رسول الله ﷺ الظهور الجماعي بدعوة الإسلام إعزازًا لهذا الدين وتحديًا للمشركين.

ومما جاء في ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الحافظ أبي الحسن خيثمة بن سليمان الأطرابلسي من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت بعد أن ذكرت حادثة

---

(١) يعني تعب.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٢.

وقد أخرج الإمام البخاري هذا الخبر مختصراً - صحيح البخاري رقم ٣٨٦٥، كتاب مناقب الأنصار (الفتح ٧/ ١٧٧) -.

وذكره الهيثمي من رواية الطبراني في الأوسط وقال: ورجاله ثقات - مجمع الزوائد ٩/ ٦٥ -.

وكذلك أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي - المستدرك ٣/ ٨٥ -.

وذكره الحافظ ابن كثير وقال: وهذا إسناد جيد قوي - السيرة لابن كثير ٢/ ٣٩ -.

هجوم الكفار على المسلمين وعلى أبيها خاصة، التي سبق ذكرها: وأقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهراً وهم تسعة وثلاثون رجلاً، وقد كان حمزة أسلم يوم ضُرب أبو بكر، ودعا رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب أو لأبي جهل بن هشام، فأصبح عمر وكانت الدعوة يوم الأربعاء، فأسلم عمر الخميس، فكبر رسول الله ﷺ وأهل البيت تكبيرة سمُعت بأعلى مكة، وخرج أبو الأرقم، وهو أعمى كافر - وهو يقول: اللهم اغفر لبنيَّ غير الأرقم، فإنه كفر.

فقام عمر، فقال: يا رسول الله، علام نخفي ديننا ونحن على الحق ويظهر دينهم وهم على الباطل؟ قال: «**يا عمر، إنا قليل، وقد رأيت ما لقينا**»، فقال عمر: فوالذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان.

ثم خرج فطاف بالبيت، ثم مر بقريش وهي تنتظره، فقال أبو جهل بن هشام: يزعم فلان أنك صبوت؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، فوثب المشركون إليه، ووثب على عتبة فبرك عليه، وجعل يضربه وأدخل إصبعه في عينيه، فجعل عتبة يصيح فتنحى الناس، فقام عمر فجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ بشريف ممن دنا منه حتى أعجز الناس، واتبع المجالس التي كان يجلس فيها فيظهر الإيمان.

ثم انصرف إلى النبي ﷺ وهو ظاهر عليهم، قال: ما عليك بأبي وأمي والله ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خائف.

فخرج رسول الله ﷺ وخرج عمر أمامه وحمزة بن عبد المطلب حتى طاف بالبيت وصلى الظهر مؤمَّنا، ثم انصرف إلى دار الأرقم ومعه عمر، ثم انصرف عمر وحده، ثم انصرف النبي ﷺ[1].

هذا وما جرى من عمر من تخصيص مزيد من الهجوم على عتبة بن ربيعة يعدُّ انتقاماً منه لما صنعه عتبة قبل ذلك بأبي بكر كما تقدم.

وبهذه المعركة التي صارع بها عمر وحده مجموعة من المشركين أثبت أن شأن الكفار ضعيف وأنه بإمكان المسلمين أن يُظهروا دينهم في وسط مجامع الكفار.

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٣٠.

وقد جاء في آخر رواية أبي نعيم السابقة زيادة تفصيل لما جرى من عرض عمر على رسول الله ﷺ الخروج وقيامهم بذلك، حيث جاء فيها «قلت: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: «**بلى والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحق إن متم وإن حييتم**»، قال: قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجناه في صفين: حمزة في أحدهما وأنا في الآخر، له كديد ككديد الطحين[1] حتى دخلنا المسجد، فنظرت إليَّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسماني رسول الله ﷺ الفاروق، وفرق الله بين الحق والباطل[2].

وهكذا تقوى الصحابة بإسلام عمر بعد إسلام حمزة رضي الله عنه، فخرجوا جماعة إلى الحرم، وما كانوا قبل ذلك يخرجون إلا فرادى، بل كان الكثير منهم لا يتمكنون من الصلاة في الحرم كما جاء في قول ابن مسعود رضي الله عنه السابق: «ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر».

هذا وإن موافقة النبي ﷺ على ذلك الخروج الجماعي من أجل إظهار شعائر الإسلام دليل على أنه ينتظر ذلك اليوم الذي يتمكن فيه من إظهار عزة الإسلام وقوة المسلمين من غير أن يتعرضوا للأذى، فلما عرض عليه عمر هذا الأمر وافق على ذلك، حيث انضم إلى صف المسلمين بَطلان لكل واحد منهما مكانة كبيرة في مجتمع مكة المكرمة، وهذا دليل على أن الأصل هو إظهار شعائر الإسلام والاجتماع على ذلك؛ ليكون أبلغ في الدعوة، وأكثر إرهابًا للأعداء، وذلك لأن كثيرين في ذلك المجتمع مقتنعون بالإسلام، ولكنهم ينتظرون بإسلامهم ظهور قوة المسلمين وانخفاض قوة الكافرين، حيث إنهم لم يصلوا من القناعة إلى حد التضحية والبذل في سبيل الله تعالى.

ولهذا فإن رسول الله ﷺ لم يعد عرض عمر هذا تعجلا في الظهور الجماعي؛ لأن أمة المسلمين قد بلغت بانضمام هذين العملاقين إلى صفها حدًا يمكِّنها من مقاومة زعماء الباطل لو فكروا في صد ذلك الجمع بالقوة.

وهكذا رأينا تأثر المشركين واغتمامهم حينما رأوا المسلمين يخرجون لإظهار دينهم مجتمعين، وقد كان النبي ﷺ يخرج كل يوم إلى الحرم، فيعلن صلاته ويجهر بقراءته،

(١) الكديد التراب الناعم فإذا وطئ ثار غباره، أراد أنهم كانوا في جماعة وأن الغبار كان يثور من مشيهم - النهاية ٤/ ١٥٥ -.

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم / ٧٩.

ولم يكن لخروجه وإعلانه الأثر نفسه الذي كان للجماعة مع أنه رسول الله ﷺ، وهذا يدلنا على أهمية اجتماع المسلمين؛ لإظهار دينهم وإنكار المنكر، فإن الأعداء لا يبالون بالأفراد الذين ليسوا في جماعة مهما علا ذكرهم واشتهر أمرهم؛ لأنهم لن يغيروا من الأمور المنكرة شيئًا يذكر، ويستطيع الأعداء أن يحتووهم أحيانًا وأن يجابهوهم أحيانًا أخرى حتى يضعفوا وينتهي وجودهم.

ومن خروج النبي ﷺ يقود تلك الجماعة حينما أصبحت جماعة المسلمين قادرة على المجابهة السلمية.. من ذلك نستفيد وجوب اجتماع المسلمين لإظهار وجود الإسلام وإعزازه وإنكار المنكر، وذلك في المنكرات الظاهرة التي تحميها بعض القوى المهيمنة ولا يستطيع الأفراد أن يغيروها.

ومما يؤيد ثبوت خروج النبي ﷺ مع أصحابه ما أخرجه الحاكم من حديث عثمان بن عبد الله بن الأرقم عن جده الأرقم وكان بدريًا، وكان رسول الله ﷺ أوى في داره عند الصفا حتى تكاملوا أربعين رجلاً مسلمين، وكان آخرهم إسلامًا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما كانوا أربعين خرجوا إلى المشركين.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي[1].

وذكر الحافظ الهيثمي أن الإمام أحمد والطبراني أخرجاه وقال: ورجال الطبراني ثقات[2].

وهكذا تم إسلام عمر رضي الله عنه، وانطلق من تلك اللحظة في العمل لخدمة الإسلام متفانيًا في الدفاع عنه، معليًا من شأن المسلمين، ومازال بعد ذلك مجاهدًا في سبيل الله واهبًا نفسه بكل ما تملك من طاقات لخدمة الإسلام والمسلمين حتى قتل شهيداً في سبيل الله تعالى في آخر خلافته.

وكان كما وصفته عائشة - رضي الله عنها-: «كان والله أحوذيًّا نسيَج وحْده، كأنما خلق للإسلام، قد أعدَّ للأمور أقرانها» فرضي الله عنه وأرضاه.

*****

(١) المستدرك ٣/ ٥٠٤.

(٢) مجمع الزوائد ٤/ ٥.

مثل من الصبر على الشدائد
(حصار الشعب)

لقد غاظ المشركين إسلام بعض أشراف مكة وزعمائها، خاصة حينما أسلم حمزة ابن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، حيث امتنع بهم المسلمون وعزَّ بهم الإسلام، فأقدم المشركون على أسوء وأخطر محاولة فكروا فيها وهي القضاء على حياة النبي ﷺ واجتمع أمرهم على ذلك.

وكان من أثر ذلك أن قام أبو طالب بتأكيد حماية النبي ﷺ، فأمر بني عبد المطلب بالقيام بذلك داخل شعبهم المسمى شعب أبي طالب، ودخل معهم في هذه الحماية بقية بني هاشم وبني المطلب؛ مسلمهم وكافرهم، فلما رأى المشركون ذلك قاموا بمقاطعتهم اقتصاديًا واجتماعيًا.

وقد أخرج الخبر في تفاصيل ذلك الإمام البيهقي من طريقين عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب الزهري قال: «ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهدُ، واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية.

فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يُدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك؛ مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيمانًا ويقينًا.

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ واجتمعوا على ذلك، اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم ألا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهودًا ومواثيق ألا يقبلوا من بني هاشم أبدًا صلحًا ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل.

فلبث بنو هاشم في شعبهم يعني ثلاث سنين[1] واشتد عليهم البلاء والجهد،

(١) وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة كما جاء في إحدى روايات ابن سعد - طبقات ابن سعد ١/ ٢١٠ فيكون دخولهم في العام السابع.

وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركون طعامًا يقْدمُ مكة ولا بيعًا إلا بادروهم إليه فاشتروه يريدون بذلك أن يدركوا سفك دمِ رسول الله ﷺ.

وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد مكرًا به واغتياله، فإذا نوَّم الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه.

فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن بني قصي، ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بني هاشم، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم، واستخفوا بالحق، واجتمع أمرهم في ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه، وبعث الله عز وجل على صحيفتهم التي المْكرُ فيها برسول الله ﷺ الأرَضَة فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق.

ويقال: كانت معلقة في سقف البيت، ولم تترك اسمًا لله عز وجل فيها إلا لحسته، وبقي ما كان فيها من شرك أو ظلم، أو قطيعة رحم، وأطلع الله عز وجل رسوله على الذي صنع بصحيفتهم، فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب.

فقال أبو طالب: لا والثواقب ما كذبني، فانطلق يمشي بعصابة من بني عبد المطلب حتى أتى المسجد، وهو حافل من قريش، فلما رأوهم عامدين لجماعتهم أنكروا ذلك، وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء فأتوا؛ ليعطوهم رسول الله ﷺ.

فتكلم أبو طالب، فقال: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم فائْتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها، فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكُّون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم، فوضعوها بينهم وقالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم، فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد جعلتموه خطرًا لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم.

فقال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم أمرًا لكم فيه نصَفٌ، إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني: أن الله عز وجل بَرئَ من هذه الصحيفة التي في أيديكم، ومحا كلَّ اسم

هو له فيها، وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا وتظاهركم علينا بالظلم[1]، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا، فوالله لا نسلمه أبدًا حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتم أو استحييتم.

قالو: قد رضينا بالذي يقول، ففتحوا الصحيفة، فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها، فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا: والله إن كان هذا قط إلا سحرًا من صاحبكم! فارتكسوا وعادوا بشرٍّ ما كانوا عليه من كفرهم والشدة على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين رهطه، والقيام بما تعاهدوا عليه.

فقال أولئك النفر من بني عبد المطلب: إن أَوْلى بالكذب والسحر غيرنا فكيف ترون؟ فإنا نعلم أن الذي اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر من أمرنا، ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم وهي في أيديكم، طمس الله ما كان فيها له من اسم[2]، وما كان من بغي تركه، أفنحن السحرة أم أنتم؟.

فقال عند ذلك النفر من بني عبد مناف وبني قصي ورجال من قريش ولدتهم نساء من بني هاشم؛ منهم أبو البَخْتَري، والمطعم بن عدي، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة، وزمعة بن الأسود، وهشام بن عمرو، وكانت الصحيفة عنده، وهو من بني عامر بن لؤي في رجال من أشرافهم ووجوههم: نحن براء مما في هذه الصحيفة، فقال: أبو جهل: هذا أمرٌ قُضي بليل[3].

وقال الإمام البيهقي بعد رواية هذا الخبر: وهكذا ذكر شيخنا أبو عبد الله الحافظ رحمه الله هذه القصة عن أبي جعفر البغدادي، عن محمد بن عمرو بن خالد، عن أبيه، عن ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير[4].

وقد ذكر البيهقي هذه الرواية؛ لتقوية الرواية السابقة، حيث إنها مرسلة؛ لأن الزهري لم يذكر من روى عنهم من الصحابة.

---

(١) ورد في رواية ابن هشام عكس ذلك وهو أن الأرضة أكلت الصحيفة ما عدا «باسمك اللهم» - سيرة ابن هشام ١/ ٣٩٥ - ولكن ذكر الإمام الزرقاني أن الرواية الأولى أثبت وهى رواية موسى بن عقبة وعروة ابن الزبير - شرح المواهب اللدنية ١/ ٢٩٠ -.

(٢) يعني من أسماء الله تعالى.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١١ - ٣١٤.

(٤) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١٤.

وأخرجه أبو نعيم من طريق أبي الأسود، عن عروة بن الزبير قال: لما أقبل عمرو بن العاص من الحبشة من عند النجاشي إلى مكة قد أهلك الله صاحبه ومنع حاجته، اشتد المشركون على المسلمين كأشد ما كانوا، حتى بلغ [بالمسلمين][1]، الجهد، واشتد عليهم البلاء، وعمد المشركون من قريش فأجمعوا مكرهم وأمرهم على أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية، فلما رأى ذلك أبو طالب جمع بني عبد المطلب، فأجمع لهم أمرهم على أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله. . ثم ذكر مثل خبر موسى بن عقبة السابق[2].

وأخرج الإمام البيهقي رواية أخرى من طريق يونس بن بكير، عن ابن إسحاق قال: فلما مضى رسول الله ﷺ على الذي بعث به، وقامت بنو هاشم وبنو المطلب دونه وأبوا أن يسلموه وهم من خلافه على مثل ما قومهم عليه، إلا أنهم أنفُوا أن يُستذلُّوا ويسلموا أخاهم لمن فارقه من قومه، فلما فعلت ذلك بنو هاشم وبنو المطلب، وعرفت قريش أن لا سبيل إلى محمد ﷺ معهم اجتمعوا على أن يكتبوا فيما بينهم على بني هاشم وبني المطلب أن لا يُنكحوهم، ولا ينكحوا إليهم، ولا يبايعوهم ولا يبتاعوا منهم، وكتبوا صحيفة في ذلك وعلقوها بالكعبة، ثم عدوا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم، واشتد البلاء عليهم، وعظمت الفتنة، وزلزلوا زلزالاً شديداً.

ثم ذكر نحو خبر موسى بن عقبة، إلا أن فيه من وصف ما تعرض له بنو هاشم وبنو المطلب أن أصوات صبيانهم تسمع من وراء الشعب وهم يتضاغون من الجوع[3].

وأخرجه ابن هشام من روايته عن ابن إسحاق قال: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب على ألا يُنكحوا إليهم ولا ينُكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم. .

---

(١) ما بين القوسين مستدرك من كتاب الخصائص، أفاده محققاً الطبعة الثانية لدلائل النبوة.

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني / ٩٢.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٣١٤ - ٣١٥.

ثم ذكر خبر الصحيفة إلى أن قال: فلما اجتمعت على ذلك قريش وصنعوا فيه الذي صنعوا قال أبو طالب:

ألا أبلغا عني على ذات بيْننا[1] لُؤَيًّا وخُصًّا من لؤي بني كعب
ألم تعلموا أنا وجدنا محمدًا نبيًّا كموسى خُط في أول الكتب
وأنَّ عليه في العباد محبة ولا خير ممن خصه الله بالحب
وأن الذي ألصقْتُم من كتابكم لكُم كائن نحسًا كراغية السَّقب[2]
أفيقُوا أفيقوا قبل أن يُحفر الثرى ويصبح من لم يجن ذنبا كذي الذَّنب
ولا تتْبعوا أمر الوشاة وتَقْطعوا أواصرنا بعد المودة والقرْب
وتستجلبوا حربًا عوانًا، وربما أمر على من ذاقه جَلَبُ الحرب[3]
فلسنا وربِّ البيت نُسلم أحمدًا لعزَّاءَ من عض الزَّمان ولاكَرْب[4]
ولَمَّا تبنْ منا ومنكم سوالف وأيد أُثرت بالقُساسيَّة الشُّهْب[5]
بمُعْترك ضَيْق ترى كسر القنا به والنسور الطُّخم يعْكفن كالشِّرب[6]
كأن مجال الخيل في حَجَراته ومعْمَعة الأبطال معركة الحرب[7]
أليس أبونا هاشمٌ شد أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب؟
ولسنا نَمَلَّ الحرب حتى تملَّنا ولا نشتكي ما قد ينوب من النكب
ولكِّننا أهلُ الحفائظ والنُّهى إذا طار أرواحُ الكماة من الرُّعب[8]

(١) يعني الخصومة والعداوة.
(٢) يعني أن تلك الصحيفة ستكون شؤمًا عليكم كشؤم ناقة صالح وولدها على ثمود حين عقروها، والراغية هي الناقة والسقب ولدها.
(٣) عوانا أي مستمرة، أي لا تتسببوا في وقوع حرب مستمرة ربما كان مذاقها مرًا على من جلبوها.
(٤) يعني لن نتركه يواجه سنة قاسية من عض الزمان وشدته.
(٥) «تبن» يعني تنقطع، والسوالف جمع سالفة وهي صفحة العنق و«أثرت» يعني قطعت، و«القاسية» السيوف منسوبة إلى قاس مكان فيه معدن الحديد، و«الشهب» الصقيلة اللامعة.
(٦) الطخم جمع أطخم وهو الذي في لونه سواد، والشرب جماعة الشاربين.
(٧) المجال المكان الذي تجول فيه الخيل، والحجرات النواحي، والمعمعة صوت الأبطال في المعركة.
(٨) الحفائظ جمع حفيظة وهي الغضب، والنهي جمع نهيه وهي العقل، والكماة جمع كمى وهو الشجاع الذي يتكمى في سلاحه أي يستتر فيه.

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثًا حتى جُهدوا، لا يصل إليهم شيء إلا سرًا مستخفيًا به من أراد صلتهم من قريش.

وقد كان أبو جهل بن هشام فيما يذكرون لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، معه غلام يحمل قمحًا، يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهي عند رسول الله ﷺ، ومعه في الشعب، فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاءه أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فقال: مالك وله، فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال له أبو البختري: طعامٌ كان لعمته عنده بعثتْ إليه فيه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها! خلِّ سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ له أبو البختري لحي بعير فضربه به فشجه، ووطئه وطأ شديدًا، وحمزة بن عبد المطلب قريبٌ يرى ذلك، وهم يكرهون أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه، فيشمتوا بهم، ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا، مُباديًا بأمر الله، لا يتقي فيه أحدا من الناس[1].

ففي هذه الأخبار تصميم من الكفار على قتل النبي ﷺ بعدما يئسوا من القضاء على دعوته، وهكذا أهل الباطل لا يتورعون عن التصفية الجسدية لدعاة الحق إذا تمكنوا من ذلك، وذلك لعجزهم الفاضح عن مقاومة أهل الحق بالحجة والمنطق.

والقوة إذا لم يصاحبها دعوة حق فهي حماقة ورعونة؛ لأن صاحبها والحال هذه ليس أمامه مبدأ سليم يدافع عنه، ولا ضوابطُ محكمة يرجع إليها، فأما حينما تكون القوة مع أهل الحق فإنهم يستخدمونها عند الضرورة؛ للدفاع عما يدعون إليه من الحق، وإزالة العوائق التي تحول دون انتشاره، ويتقيدون بضوابط إلهية لا يمكن أن يتطرق إليها شيء من الظلم والعدوان.

وهكذا يلجأ أهل الباطل في كل زمن إلى القوة والعنف حينما تكون حجتهم ضعيفة ومهزوزة، فيبطشون بأهل الحق إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً؛ لأنهم لا يستطيعون الوقوف معهم في مجال الحجة والبيان، وهم يدركون جيدًا أن أي محاولة منهم لطرح القضايا الفكرية على بساط البحث والنقاش سيؤول في النهاية لغير صالحهم؛ لأنهم لم يشغلوا أنفسهم منذ نعومة أظفارهم بالتأمل الجاد والبحث عن حقائق الأمور، وإنما

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٤ - ٣٦٨.

بحثوا عن أسهل الطرق وأسرعها للسيطرة والتمكن في الأرض فسلكوه، وكونوا لأنفسهم عقيدة يرون أنها تحمي نظامهم وتكفل لهم سيادتهم.

وقد تكون هذه العقيدة مزيجًا من الحق والباطل، فليس في مقدورهم أن يناقشوا أقوامًا وهبوا أنفسهم لفهم عقيدتهم الحقة وبيانها والدفاع عنها، فكان الطريق القويم في نظرهم أن يتفادوا الدخول مع دعاة الحق في نقاش علني يعلمون سابقًا نتيجته المروعة لهم، فلم يبق في نظرهم إلا وأد دعاة الحق مع دعوتهم ما داموا في حال ضعف قبل أن يعلو شأنهم ويعظم خطرهم، وما دام هؤلاء الطغاة مدعومين في مبادئهم الفاسدة من قوى الباطل.

وحينما اعتصم المسلمون بشِعب أبي طالب لم يتركهم الكفار وشأنهم، بل حاصروهم اقتصاديًا، وضيقوا عليهم، حتى انقطعت الموارد عنهم، وهذا سلاح خطير يستعمله أهل الباطل ضد أهل الحق، حيث يعملون دائمًا على إضعافهم من الناحية المالية، والحيلولة بينهم وبين الموارد التي ترفع اقتصادهم، وتمنحه شيئًا من القوة والمنعة.

وإن بقاء المسلمين ثلاث سنوات داخل الشعب مع ذلك الحصار الشديد الذي ألجأهم إلى أكل أوراق الشجر، وارتفاع أصوات أبنائهم بالبكاء من الجوع، وعزلهم تمامًا عن المجتمع.. إن بقاءهم على هذا الوضع دليل على قوة إيمانهم بقضاء الله وقدره، وتجملهم بالصبر على الأذى.

هذا خبر من أسلم من بني هاشم وبني المطلب، أما بقية المسلمين من قريش فإن منهم من هاجر إلى الحبشة ومنهم من بقي في مكة، وهؤلاء وقعوا تحت حصار المشركين ورقابتهم وأذاهم، كما جاء في الرواية السابقة التي رواها يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، وفيها «ثم عدوا - يعني المشركين - على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم واشتد البلاء عليهم».

وإنهم بقيادة رسول الله ﷺ لأعلى مثل يمكن أن يقتدي به كل من حوصر وسجن من المسلمين من أجل إيمانهم بالله تعالى ودعوتهم إلى سبيله.

وإنه لمما يطلب من المسلم في حال النكبات والشدائد أن يرضى بقضاء الله وقدره، وأن يصبر صبرًا جميلاً، وأن يكون مستسلمًا لله تعالى، بحيث لا يقوم أثناء المحنة بأي

عمل مخالف للإسلام، كأن يحني رأسه للطغاة، أو يتنازل عن شيء من دعوة الحق التي يمثلها، أو أن يهبط مستواه في مخاطبة ظالميه أو من تقاعسوا عن نصرته.

ثم هو مكلف بأن يبذل أقصى جهده مع الأخذ بالأسباب المشروعة للخروج من المحنة، وأن يكل أمره قبل ذلك كله إلى الله تعالى، مستحضراً عظمته وجلاله وهيمنته عليه وعلى ظالميه، وأن يكون دائمًا حسن الظن بالله تعالى، عظيم الأمل بقرب الفرج، شديد الفزع من الذنوب والمخالفات التي تصرف عنه رحمة ربه جلا وعلا.

فإذا فعل ذلك فإن الله سبحانه بمنه وكرمه يكشف ضره وييسر له أمره، ويخرجه من محنته، كما أخرج نبيه ﷺ والمؤمنين معه من محنة الحصار في الشعب، وذلك بتسليط الأرَضة على صحيفة المشركين، وإعلام النبي ﷺ عمه أبا طالب؛ ليخبر المشركين فتكون آية على صدقه ونبوته، ثم بتسخير طائفة من زعماء المشركين ليعلنوا براءتهم من تلك الصحيفة الظالمة، مما جعل المشركين ينقسمون إلى قسمين: قسم ظل معاديًا للمسلمين متربصًا بهم الدوائر، وقسم ظل معتدلاً نحوهم يحاول دفع الظلم عنهم وتأنيب الظالمين في مغامراتهم الكبيرة التي تسيء إلى سمعة القبيلة بأسرها.

وقد كان ذلك من أهم أسباب خروج المسلمين من المحنة وعدم تكررها بنفس الحجم والمستوى.

هذا ومما يدل على أثر هذا الفريق المعتدل ما جاء في رواية الواقدي عند ابن سعد، وفيها: وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم، فيهم مطعم بن عدي، وعدي بن قيس، وزمعة بن الأسود، وأبو البختري بن هشام، وزهير بن أبي أمية، ولبسوا السلاح، ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا، فلما رأت قريش ذلك سُقط في أيديهم وعرفوا أن لن يسلموهم[1].

ولقد كان بعض هؤلاء وقف مع المسلمين حتى في أثناء حصارهم في الشعب كما سبق في رواية ابن إسحاق من خبر حكيم بن حزام وإيصاله الطعام إلى عمته خديجة -رضي الله عنها- وما كان من صراع بين أبي جهل وأبي البختري بن هشام حول هذا الأمر، وقد كانت نهاية ذلك الصراع أن غلب أبو البختري في دفاعه عن المسلمين، ولم يستطع أبو جهل منع حكيم بن حزام من إيصال ذلك الطعام داخل الشعب.

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٢١٠.

هذا وإن وقوف طائفة من المشركين مع المسلمين مبني على كون المسلمين جميعًا بقيادة النبي ﷺ كانوا يمتازون بمكارم الأخلاق؛ كالصدق والوفاء والأمانة وبذل المعروف، ومن يتصف بمكارم الأخلاق يكون موضع التكريم عند العقلاء الذين يقدرون مكارم الأخلاق ومن يتصف بها، فكان العقلاء من قريش يكرهون ذلك الحصار، ولكن الكلمة الأخيرة عند وقوع الخلاف تكون غالبًا للغوغائية الميالين للبطش والانتقام.

وقد يسكت المنكرون على مضض، يمنعهم من الإنكار الخوف من نقمة الغوغائية وتسلطهم، فلما حصلت تلك الآية الباهرة، حيث أخبر النبي ﷺ بأن الله تعالى سلط الأرضة على صحيفة قريش وقام أبو طالب بتلك المفاوضة التي تقضي بنقض ميثاق الصحيفة إن كان كما أخبر، أو بتسليم النبي ﷺ لهم إن كان على غير ما أخبر به، ثم كان الأمر على ما أخبر به.. لما كان ذلك ونكص زعماء الكفر على أعقابهم، واتهموا النبي ﷺ بالسحر تشجع أولئك المعتدلون فأعلنوا رأيهم بالبراءة مما جاء في تلك الصحيفة.

وهكذا كان تخلق المسلمين بمكارم الأخلاق سببًا في انجذاب بعض زعماء المشركين إليهم والوقوف في صفهم؛ لأنه لا بد أن يوجد في كل مجتمع من يقدِّرون مكارم الأخلاق وينحازون إلى أصحابها.

ولهذا ينبغي للدعاة في كل زمن أن يجتذبوا إلى صفهم من ليسوا معهم في دعوتهم ولكنهم معهم في تمثيل مكارم الأخلاق والدفاع عن المظلومين، والنقد الهادف للطغيان ومظاهره وسائر مساوئ الأخلاق.

ولقد كان تفرق الكفار إلى حزبين مما صنعه الله تعالى لنبيه ﷺ؛ ليكون تمهيدًا لفترة المواجهة الصعبة التي تلت موت أبي طالب حيث كان عقبة تحول بين كفار مكة وتنفيذ كثير مما يعزمون عليه يوم أن كان أمرهم جميعًا، فلما مات أبو طالب أصبح أفراد الحزب المعتدل يتولون التخفيف من حدة الحزب المتشدد المندفع نحو الانتقام.

وهكذا كانت مكيدة كفار مكة بذلك الحصار الاقتصادي وبالاً عليهم، حيث كان انتصار النبي ﷺ في تلك المفاوضة في أمر الصحيفة سببًا في تفرقهم وضعفهم عن

مواجهة المسلمين بالقوة لوجود فريق معتدل من الكفار يمانع في استعمال القوة ضدهم، فكان وجود هذا الفريق المعتدل تعويضًا للنبي ﷺ عما فقده من حماية عمه أبي طالب، إلى أن اجتمع أمرهم بعد ثلاث سنوات يوم أن اتفقوا في دار الندوة على قتل النبي ﷺ، فأنقذه الله عز وجل وأمره بالهجرة إلى المدينة.

ولا يمكن أن يظن بالنبي ﷺ وأصحابه أبدًا أن ثناء بعض الكفار عليهم مترتب على تساهلهم ببعض أمور دينهم؛ لأن سيرة النبي ﷺ وأصحابه تأبى ذلك، وقد سبقت أمثلة تبين صلابتهم في دعوتهم، وإنما كان الدافع لأولئك الكفار المعتدلين إلى الوقوف مع المسلمين هو إعجابهم بهم في النواحي الأخلاقية.

*****

انتصار رسول الله ﷺ للمظلومين
(خبر الإراشي والزبيدي)

لما كان رسول الله ﷺ يدرك أهمية إقرار العدالة في الأرض والانتصار للمظلومين، فإنه كان يسارع إلى نجدة المظلومين وإنصافهم من ظالميهم؛ لأنه يعلم أن ذلك يعدُّ من معالم تطبيق الإسلام في الأرض، وأن ذلك من أهم أسباب انجذاب الناس لفهم الإسلام والإيمان به.

ومن الأمثلة الرائعة لقيام النبي ﷺ بإنصاف المظلومين وإن كانوا غير مسلمين ما أخرجه ابن إسحاق - رحمه الله - قال: حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان الثقفي، وكان واعية، قال: قدم رجل من إراش[1]، بإبل له مكة، فابتاعها منه أبو جهل، فمطله بأثمانها.

فأقبل الإراشي حتى وقف على ناد من قريش، ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد جالس، فقال: يا معشر قريش، من رجل يؤديني[2]، على أبي الحكم بن هشام، فإني رجل غريب، ابن سبيل، وقد غلبني على حقي؟ قال: فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل الجالس - لرسول الله ﷺ وهم يهزؤون به؛ لما يعلمون بينه وبين أبي جهل من العداوة - اذهب إليه فإنه يؤديك عليه.

فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا عبد الله، إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي قِبَله وأنا رجل غريب ابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يؤديني عليه يأخذ لي حقي منه، فأشاروا لي إليك، فخذ لي حقي منه يرحمك الله، قال: انطلق إليه، وقام معه رسول الله ﷺ، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم: اتبعه، فانظر ماذا يصنع.

قال: وخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه فضرب عليه بابه فقال: من هذا؟ قال: محمد، فاخرج إليَّ، فخرج إليه، وما في وجهه من رائحة[3]، وقد انتقع لونه، فقال:

(١) قال ابن هشام: ويقال: إراشة.

(٢) يعينني وينصفني وكأنه مأخوذ من الأداة التي يتوصل بها الإنسان إلى ما يريد.

(٣) قال السهيلي: أي بقية من روح.

أعط هذا الرجل حقه، قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، قال: فدخل فخرج إليه بحقه فدفعه إليه، قال: ثم انصرف رسول الله ﷺ، وقال للإراشي: الحق بشأنك، فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس، فقال: جزاه الله خيراً فقد والله أخذ لي حقي.

قال: وجاء الرجل الذي بعثوا معه، فقالوا: ويحك ماذا رأيت؟ قال: عجبًا من العجب، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه، فخرج إليه وما معه روحه، فقال: أعط هذا حقه، فقال: نعم لا يبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل فخرج إليه بحقه، فأعطاه إياه.

قال: ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء، فقالوا له: ويلك! مالك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط! قال: ويحكم! والله ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي، وسمعت صوته فملئت رعبًا، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل، ما رأيت مثل هامته ولا قصرته[1]، ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلني[2].

فهذا الخبر يحكي صورة من سلوك أهل الجاهلية في ظلم المستضعفين ومطلهم حقوقهم، وهذا السلوك المنحرف ناتج عن خواء العقل من الوازع الديني الذي يترتب على الخوف من الله تعالى ورجاء ما عنده.

فالكفار خاوية قلوبهم من هذه العقيدة؛ لأنهم لا يؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر، وإنما يؤمنون بالحياة الدنيا، ويعتمدون في سلوكهم على نظرة المجتمع بما فيها من قوة وضعف، فيخضعون للأقوياء، ويوفونهم حقوقهم كاملة، ويهضمون حقوق الضعفاء؛ لعدم مقدرة الضعفاء على الانتقام منهم.

ولذلك رأينا في هذا الخبر أبا جهل يشتري الإبل من ذلك الأعرابي ولا يوفيه أثمانها؛ لعلمه بضعفه وعدم مقدرته على استخلاص حقه منه.

ونجد في هذا الخبر صورة أخرى من صور الجاهلية، حيث اغتنم أولئك الكفار شكوى ذلك الأعرابي ليتخذوا منها مادة للسخرية من رسول الله ﷺ وإحراجه، حيث أشاروا على الأعرابي بشكوى أبي جهل إليه ﷺ، وهم يعلمون عداوة أبي جهل

(١) الهامة: الرأس، والقصرة: أصل العنق.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٤١٠، وأخرجه أبو نعيم الأصبهاني من طريق ابن إسحاق وذكر نحوه - دلائل النبوة لأبي نعيم / ٦٧ - وكذلك أخرجه البيهقي من هذا الطريق - دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٩٣ -.

الشديدة له، وما يتصف به أبو جهل من العنف والحقد الدفين، فأرادوا بهذه المشورة أن يوقعوا رسول الله ﷺ بأحد حرجين: إما أن يعتذر من الأعرابي، وذلك إضعاف لموقفه في دعوته، حيث لا يسارع إلى نصرة المظلومين وهو الذي يدعو إلى ذلك، وإما أن ينهض مع الأعرابي ثم يتلقى الرد القاسي والمعاملة العنيفة من أبي جهل، وكلاهما أمر شاق على النفس، ولكن النبي ﷺ لم يكن يبالي بما يواجهه في سبيل دعوته، فلذلك نهض مع ذلك الأعرابي وانتصر له.

وفي مقابل ذلك نجد صورتين من السلوك الإسلامي:

الأولى: في اهتمام النبي ﷺ بتحدي المشركين وتفويت الفرص التي يحاولون بها أن يكيدوا للإسلام ودعاته، فإن أولئك المشركين قد اغتنموا فرصة شكوى ذلك الأعرابي من أبي جهل لإحراج النبي ﷺ، ولكنه فوت عليهم هذه الفرصة، وكان إيجابيًا في مقاومة مكيدتهم حيث سار مع ذلك الأعرابي وقضى له حقه، ولا شك أن النبي ﷺ كان يعلم قصدهم من تحويل ذلك الأعرابي إليه، إذ لو كانوا يريدون الشفاعة له لإنجاز حقه لأحالوه إلى زعماء قريش الذين يقدرهم أبو جهل ويخشى خلافهم.

وهكذا ينبغي للدعاة أن يبذلوا جهدهم في معركة مكائد أعدائهم والحيلولة بينهم وبين تنفيذها، حتى لا يوهنوا موقفهم ويعزوا موقف أعدائهم.

والصورة الثانية: قيام رسول الله ﷺ بنصر المظلومين، حيث قام مع ذلك الرجل انتصارًا له؛ ليأخذ له حقه من ظالمه، وهذا دليل على أهمية هذا الموضوع؛ لأن النبي ﷺ قام معه وهو رجل كافر، فكيف لو كان مسلمًا؟ ولأن الذي ظلم ذلك الرجل هو أعدى أعداء الإسلام، وهو أبو جهل، ومن المنتظر عادة أن يواجه النبي ﷺ منه ما لا يحمد عقباه، ومع ذلك قام ﷺ مع ذلك المظلوم حتى نصره وأخذ له حقه.

ويشبه هذا الخبر من ناحية وقوع أبي جهل في الظلم وقيام رسول الله ﷺ بالانتصار للمظلومين ما أخرجه أبو نعيم، عن أبي يزيد المدني، وأبي فرعة الباهلي، أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد معه رجال من أصحابه إذ أقبل رجل من زبيد يقول: يا معشر قريش كيف تدخل عليكم المادَّة أو يُجلب إليك جَلَبٌ أو يحل تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم؟ يقف على الحلق حَلْقة حَلْقَة، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ في أصحابه.

فقال له رسول الله ﷺ: ومن ظلمك؟ فذكر أنه قد قدم بثلاثة أجمال كانت خير إبله، فسامه أبو جهل ثلث أثمانها، ثم لم يَسُمه بها لأجل أبي جهل أحد شيئًا، ثم قال: فأكسد عليَّ سلعتي وظلمني.

قال رسول الله ﷺ: وأين جمالك؟ قال: هي هذه بالجزورة[1]، فقام رسول الله ﷺ وقام أصحابه فنظر إلى الجمال فرأى جمالا فُرْهًا، فساوم الزبيدي حتى ألحقه برضاه، فأخذها رسول الله ﷺ فباع جملين منها بالثمن وأفضل بعيرًا باعه وأعطى أرامل بني عبد المطلب ثمنه، وأبو جهل جالس في ناحية السوق لا يتكلم ثم أقبل إليه رسول الله ﷺ فقال: يا عمرو، إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الإعرابي فترى مني ما تكره، فجعل يقول: لا أعود يا محمد، لا أعود يا محمد، فانصرف رسول الله ﷺ.

وأقبل أمية بن خلف ومن حضر، فقالوا: ذَلَلت في يدي محمد، فإما أن تكون تريد أن تتبعه وإما رعب دخلك منه، فقال: لا أتبعه أبدًا إن الذي رأيت مني لما رأيت معه، قد رأيت رجالاً عن يمينه وشماله معهم رماح يشرعونها إليَّ لو خالفته لكانت إياها - أي لأتواْ على نفسي[2].

فهذا الخبر يبين لنا صورة من الظلم في المعاملات التجارية في حياة العرب في الجاهلية، حيث يقوم بعض الأكابر بالتسلط على المستضعفين من التجار، فيكسِّدون تجارتهم بحكم مالَهم من جاه وسطوة في المجتمع.

فهذا الرجل الزبيدي يعرض إبله في سوق مكة فيسومها أبو جهل بثلث أثمانها، ثم يتوقف الناس عن سومها مراعاة لأبي جهل أو خشية منه، وهكذا يعمل أمثاله مع التجار الوافدين، والويل للواحد من هؤلاء الأعراب إذا تعرض أولئك لسوم بضاعته، فإنه والحالة هذه بين أمرين: إما أن يبيعهم بضاعته بثمن بخس، وإما أن يضطر إلى إعادتها إلى مضارب قبيلته، فيكون قد خسر سفرته تلك.

وهذا التصرف السيئ يترتب عليه ضرر خاص بأصحاب البضائع المعروضة، حيث تبخس أثمانها، وضرر عام بسوق ذلك البلد، حيث سيحجم التجار عن عرض

(١) اسم مكان في مكة.
(٢) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٤٢٠.

تجارتهم بذلك السوق، وبهذا يكون أبو جهل قد ظلم التجار، كما أنه قد ظلم أهل مكة، حيث سيكون سببًا في حرمانهم من رواج البضائع في بلدهم.

والظاهر أن هذا التصرف ليس خاصًا بأبي جهل، إذ يبعد أن يقره على ذلك كبار أهل مكة لو لم يكن لهم فائدة من السكوت عنه، حيث يسكت عنهم إذا وقعوا في ظلم التجار الوافدين.

ولعل ذلك يفسر سكوت أهل السوق بمكة آنذاك، حيث انساقوا وراء أبي جهل بتجاوزاته الظالمة إما رغبة أو رهبة.

ولكن ذلك الأعرابي لم يستسلم لذلك الظالم العنيف، فأبى أن يبيعه إبله بذلك الثمن، ولم يرجع بها، بل قام باستنهاض همم أهل مكة لعلهم ينكرون ذلك الوضع الظالم، وذكرهم بحرمة المكان وبمصير بلدهم التجاري المشؤوم إذا لم يغيروا ذلك المنكر.

ولكنه في نداءاته المتكررة لم يجد قومًا يرتفعون بشهامتهم وشجاعتهم إلى تغيير المنكر، بل وجد أقوامًا يعلو وجوه بعضهم العبوس والامتعاض من ذلك التصرف السيئ مما يوحي بالإنكار الداخلي، وهؤلاء هم الذين لا يستفيدون من تلك التجاوزات التجارية، ويخشون من ضررها على السوق، وأقوامًا لم يرفعوا بذلك رأسًا ولم يبد على وجوههم شيء من التأثر كما هو المعتاد في مثل ذلك المجتمع، إما لكونهم مستفيدين من تلك التجاوزات، أو لكونهم لا يهتمون بأمور المجتمع، ولكن الجميع قد عقرت ألسنتهم، وهيمن عليهم شعور ضاغط باحترام إرادة عمرو بن هشام السليط اللسان الذي يستطيع في نظرهم القاصر أن يوصل إليهم شيئًا من الضرر لو تعرضوا له.

ولكن هذا الأعرابي لم يخب أمله، فواصل عرض الشكاية حتى مر برسول الله ﷺ ومعه أصحابه، فعرض عليه تلك المظلمة الفاقرة، فما كان من رسول الله ﷺ بشجاعته العالية وعدالته البالغة إلا أن هب مع ذلك المظلوم، وقام بشراء تلك الإبل بالقيمة التي رضيها صاحبها، وحذر أبا جهل من القيام باحتكار السوق مرة أخرى.

ولقد كان لهذا الموقف الكريم أثر في رفع الظلم عن ذلك الرجل وإنقاذ حقه الخاص، كما أن له أثرًا في إنقاذ الحق العام، وذلك بحماية سوق مكة التجاري من التعرض لنقص الموارد من البضائع الذي يترتب على تجاوزات أبي جهل وأمثاله من المحتكرين الظالمين.

هذا وإن أمثال أبي جهل يوجدون في بعض المجتمعات الإسلامية، حيث يقيمون تجارتهم ومعاملاتهم على احتكار الأسواق واستغلال حاجة البائع والمشتري، فإذا اشتروا خفضوا الثمن، وإذا باعوا رفعوه.

وتتكرر الصورة نفسها، حيث يحجم التجار عن الإنكار ويتقاعس أفراد المجتمع عن ذلك، رغبة أو رهبة، أو من باب عدم المبالاة وعدم الاهتمام بإصلاح المجتمع.

وإن انحدار المجتمع الإسلامي في باب التعامل إلى التشبه بأوضاع الجاهلية يعدُّ نذير سوء وبادرة شر.

هذا وإن ما جرى للنبي ﷺ من معجزة بحماية الله إياه وحياطته بالملائكة عليهم السلام ليس هو المشجع الذي شجعه على القيام بهذا العمل النبيل في الخبرين السابقين؛ لأنه لم يكن يعلم بحدوث ذلك إلا بعد وقوعه، وإنما قام به لأنه عمل صالح يؤجر عليه، وإن ناله شيء من الأذى فإن أجره يضاعف.

وإن هذا السلوك العالي يعدُّ قدوة حسنة للمسلمين؛ ليدركوا أن لإخوانهم المسلمين عليهم حقوقًا لا بد من أدائها، ومن ذلك نصرة المظلوم، ولقد أوضح النبي ﷺ هذا الحق في عدد من الأحاديث، فمن ذلك قوله: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره**» أخرجه الإمام مسلم[1].

فمن حق المسلم على أخيه بمقتضى هذه الأخوة ألا يتعدى عليه بالظلم، وألا يدعه فريسة لظالمه، بل يجب عليه إذا قدر على مساعدته أن ينقذه من الظلم.

وما أكثر وقوع المسلمين المستضعفين تحت سطوة الجبارين الذين ينهبون حقوقهم ويعتدوا على أبشارهم وأعراضهم وأموالهم، وما أقل من ينجد هؤلاء المظلومين ويمد لهم يد العون والنصرة!

وإذا كان النبي ﷺ قد انتصر لرجلين كافرين بحكم أنهما مظلومان، فكيف يتخاذل المسلمون عن نصرة إخوانهم في الدين الذين ممن يحاول الجبارون أن يهضموهم حقوقهم، سواء كان هؤلاء الجبارون من أصحاب السلطة أو ممن وقعوا في الظلم في غيبة حكم العدل والإنصاف؟!

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر، رقم ٣٢.

تفوق النبي ﷺ في الدعوة
(شكوى قريش لأبي طالب في مرضه)

إن المبادئ السامية تظل مثُلاً عالية في عالم الذهن، حتى يوجد من يمثلها في عالم الواقع، وكم من إنسان يتصور هذه المبادئ في ذهنه ويتحمس للدفاع عنها في تخيله، ويراها هي الحقَّ كلَّ الحق حتى إذا تحول إلى عالم الواقع جبن عن الدفاع عنها وضعف عن تمثيلها بنفسه، وفضَّل مداراة الناس بما هم عليه من باطل على مجابهتهم بما هو عليه من الحق.

أما رسول الله ﷺ فهو الإمام الأعظم والمثل العالي في تمثيل الحق والدفاع عنه، ومجابهة الباطل وأهله وإن اغتروا بكثرتهم وقوتهم المادية.

يبين ذلك ما رواه الإمام الطبري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته».

ومن هذا نعرف تفاني أهل الباطل في الدفاع عن باطلهم، واغتنامهم الفرص المناسبة للهجوم على المعتقدات التي يرون أنها تهدد وجود باطلهم، الذي يتوقف وجودهم عليه، وتتمثل زعامتهم في علو رايته وقيام أمره، فقد اغتنم هؤلاء الكفار فرصة مرض أبي طالب الذي كان يقف سدًا منيعا بينهم وبين رسول الله ﷺ.

والإنسان حال المرض يكون ضعيف الجسم، فتضعف إرادته، وتقل مقاومته، فأرادوا أن يحصلوا منه على موقف يَهُون فيه عن نصرة ابن أخيه ﷺ فيعتزَّ جانبهم، ويكسبوا الجولة الأخيرة لصالحهم.

«قال: فبعث إليه فجاء النبي ﷺ فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال فخشي أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرقَّ له عليه، فوثب فجلس في ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسًا قرب عمه فجلس عند الباب».

وهكذا يبدو شراسة أهل الباطل في منافسة أهل الحق ومحادَّتهم، ومحاولة الحيلولة بينهم وبين منابر الهداية ووسائل البلاغ التي يستطيعون منها أن يبلِّغوا دعوتهم بشكل مؤثر، كما أنهم يحاولون جاهدين أن يضعفوا من شخصية أهل الحق بأي صورة من الصور، حتى ينزووا بأنفسهم بعيدًا عن الأنظار ويجبنوا عن تمثيل الحق والدفاع عنه.

«قال: فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟ قال: فأكثروا عليه القول».

وهذا موقفٌ ما كانوا ليظفروا به من أبي طالب لولا ضعفه حال المرض، فقد كان قبل ذلك يجابههم، ولا يخفى عليه ما كان يصدر من رسول الله ﷺ من التنديد بآلهتهم وانتقاد ما هم عليه من مظاهر الشرك المختلفة.

«قال: وتكلم رسول الله ﷺ فقال: يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية».

وهنا تبدو الحكمة العالية في الدعوة، والأسلوب البارع في إثارة السامعين للاهتمام، وذلك في جمع المقاصد العظيمة التي بها قوام الحياة وما بعد الممات في كلمة واحدة، إلى جانب ما يترتب على قولها من الهيمنة في الأرض.

وهل كان زعماء قريش يحلمون في يوم من الأيام بأن يكونوا سادة العرب، وأن تخضع لهم دول العجم بأجمعها فتدفع لهم الجزية؟

إنه لحلم بعيد المنال يفزع الإنسان من مجرد تصوره في الذهن إذا كان خاليًا من الإيمان بالله تعالى واليقين بوعده الذي لا يتخلف، ولذلك فزع زعماء قريش.

«قال: ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة؟ نعم وأبيك عشرًا، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟».

لقد ظن القوم أن حصر النبي ﷺ دعوته في كلمة واحدة يعني أنه بدأ بالتنازل لهم عن بعض ما كان يدعو إليه، وأنه سيوافقهم في بعض مطالبهم، فاستخفُّوا بطلبه، وأبدوا استعدادهم لأكثر مما طلب منهم.

قال: قال ﷺ: «**لا إله إلا الله**».

إنها كلمة واحدة، ولكنها تعني مجمل منهج كامل يرسم للمسلم طريق الاستقامة في هذه الحياة؛ الذي يتضمن التخلي الكامل عن جميع المقدسات التي تعارف عليها البشر على غير هداية الله، وما يترتب على ذلك من تشريعات ونظم، ثم التحلي بعبادة الله تعالى وحده، وما يترتب على ذلك من إخضاع جميع شؤون الحياة لهذه العبادة.

ولقد كان المشركون يفهمون جيِّدًا مدلول كلمة التوحيد، ويقدِّرون مسؤولية النطق بها، ولذلك فزعوا منها.

«قال: فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾، قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ**﴾ [ص: ٥][(١)(٢)].

لقد كان زعماء المشركين يفهمون أن هذه الكلمة هدم لموروثاتهم التي سادوا الناس بها، ولقد كانوا يفهمون أن آلهتهم التي يقدسونها لا تُحل لهم ولا تحرم عليهم شيئًا، وإنما هم الذين يحلون للناس ويحرمون عليهم بأهوائهم باسم الآلهة، فهذه الكلمة تحول بينهم وبين تقديس ميراث آبائهم، وتحول بينهم وبين اتباع أهوائهم، وتحول بينهم وبين استعباد المستضعفين من البشر الذين يرونهم دونهم في الحياة.

ولقد كان النبي ﷺ صريحًا معهم قويًّا في مجابهتهم، فلم يداهنهم رغم محاولاتهم المتكررة، ولم تلنْ له معهم قناة رغم محاولتهم إضعاف موقفه وتكالبهم عليه وهو يواجههم وحده.

وإنه ﷺ ليضرب المثل عاليًا لأمته في معاملة الكافرين في مختلف الأحوال حسب ما تقتضيه مصلحة الدعوة، وإنه لمن الواجب على الدعاة أن يدرسوا سيرته بتعمق وفقه حتى يتأسوا به في تعامله مع الناس، وفي دعوته حتى لا يسيروا في دعوتهم على جهالة وانحراف.

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿**وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ۝٧ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ**﴾.

(٢) تفسير الإمام الطبري ٢٣/ ١٣٥. وأخرجه الإمام أحمد، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر - مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر ٣/ ٣١٤ رقم ٢٠٠٨. وأخرجه الإمام الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح - جامع الترمذي، كتاب التفسير (تحفة الأحوذي ٨/ ٩٩). وأخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبي - المستدرك ٢/ ٤٣٢ -.

وهكذا رأينا أن النبي ﷺ قد وعد قومه إذا هم أسلموا بالسيادة على العرب والعجم، إضافة إلى سعادة الآخرة التي تتمثل بالفوز برضوان الله تعالى والظفر بالجنة والنجاة من النار، ومع ذلك فإنهم ظلوا متمسكين بخرافات وأوهام تتيح لهم السيادة على مكة وحدها، ولا يضمنون بها سعادة بعد الموت.

فما أنقص عقولهم، وما أضعف تفكيرهم حينما قصروا اهتمامهم على الحياة الدنيا ولم يقبلوا دعوة الإصلاح التي تتيح لهم مجد الدنيا والآخرة!!

هذا وإن الذين ورثوا هذا الدين جيلاً عن جيل وأصبحت أنظارهم مقصورة على السيادة على بلدانهم وليس في حسِّهم نقلُ هذا الدين إلى العالم والسيادة به على الأرض، وليس حاضراً في وجدانهم مستقبلهم الأخروي، وقد عُمرت أفكارهم بالحفاظ على المستوى الأعلى من متاع الدنيا ولو في ظل هيمنة الأعداء عليهم.. إن هؤلاء لا يختلفون كثيراً عن الذين حاورهم رسول الله ﷺ في هذا الخبر وأمثاله من ناحية الاقتصار على الأهداف القريبة التي تشغل بالهم، وقصور تفكيرهم عن الأهداف السامية التي نقلهم إليها الإسلام، وإن كانوا يختلفون عنهم بالإيمان وبالإسلام، ومعاداة أولئك لهذا الدين الحنيف.

*****

صبر جميل وعزيمة نافذة
(وفاة الحاميَيْن: خديجة وأبي طالب)

تقدم لنا خبر مرض أبي طالب وما كان من زعماء قريش من محاولة استمالته إلى صفهم؛ ليتخذ موقفًا يوهن فيه من دعوة الإسلام وما كان من موقف النبي ﷺ في الثبات والحكمة في الدعوة.

وقد توفي أبو طالب في مرضه ذلك، وذلك في العام العاشر للبعثة ففقد النبي ﷺ بموته ناصرًا مخلصًا وحاميًا قويًا.

ويشاء الله تعالى أن تموت في هذا العام نفسه خديجة بنت خويلد أم المؤمنين الوفية الصابرة - رضي الله عنها - فيجتمع على رسول الله ﷺ بموتهما مصيبتان كبيرتان، فلقد كان كل واحد منهما يقدم له جانبًا من الحماية والتأييد، كان أبو طالب يحميه من الأعادي، ويهددهم أحيانًا بخوض معامع القتال دونه إذا لزم الأمر، وكانت خديجة تحوطه بعطفها وحنانها إذا عاد إلى البيت وتمْسح من نفسه آثار الصدام والصراع الذي يجري بينه وبين المناوئين لدعوته، وتبثُ له سمعة واسعة في مجتمع النساء، ببيان أخلاقه العالية ومعاملته الكريمة، وصدق دعوته وسُمو أهدافه.

ولا شك أن النساء لهن تأثير كبير على الرجال، فإذا وجد الواحد منهم في بيته من يلومه على عداوة الرسول ﷺ ويدافع عنه فإن ذلك يكسر مما في نفسه من تحديه ومحاولة إيذائه.

يقول محمد بن إسحاق - رحمه الله - في بيان وفاة الحاميين، خديجة وأبي طالب وما حصل على النبي ﷺ من المصائب بفقدهما:

ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب: بهُلْك خديجة وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها، وبهُلْك عمه أبي طالب وكان له عضدًا وحرزًا في أمره، ومنعة وناصرًا على قومه، وذلك قبل مُهاجره إلى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ

من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابًا.

قال ابن إسحاق: فحدثني هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير، قال: لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ﷺ ذلك التراب، دخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله ﷺ يقول لها: لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك، قال: ويقول بين ذلك: ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب[1].

ولكن مع فقد رُكْنَي الحماية القويين، فإن النبي ﷺ لم يضعف أمام أعدائه الذين كشَّروا له عن أنيابهم، ولم يتراجع عن دعوته قيد أنملة، بل استمر في دعوته داخل مكة وخارجها.

ولقد ركز دعوته ﷺ خارج مكة، حيث كان يبحث في قبائل العرب عن ناصر قوي يتكفل بحماية الدعوة والمؤمنين بها، وسيأتي في المواقف التالية بيان ما قام به ﷺ من جهود مكثفة في اللقاء بزعماء القبائل.

*****

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩.

مواقف وعبر في دعوة أهل الطائف

بعدما نصر الله تعالى رسول الله ﷺ والمؤمنين على أعدائهم من زعماء مكة، واضطر هؤلاء الأعداء إلى فك الحصار الاقتصادي والاجتماعي الذي فرضوه على المسلمين في حصار الشعب حصل شيء من الانفراج للدعوة؛ حيث كسب المسلمون أنصاراً من الكفار غير بني هاشم وبني المطلب، ولكن ما أن تم ذلك حتى قدر الله تعالى وقوع مصيبتين كبيرتين على رسول الله ﷺ والمؤمنين، وهما وفاة عمه أبي طالب وخديجة أم المؤمنين - رضي الله عنها - وذلك في العام العاشر من البعثة، فقوي بذلك موقف الأعداء من المشركين، وبدؤوا في تدبير المكائد والتخطيط للقضاء على وجود الإسلام في مكة.

عند ذلك فكر النبي ﷺ في البحث عن قبيلة قوية تقوم بحمايته وأتباعه حتى يُبلغ رسالة ربه جلا وعلا، ووقع اختياره على قبيلة ثقيف في الطائف.

قال ابن إسحاق - رحمه الله -: ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، فخرج إليهم وحده[1].

قال: فحدثني يزيد بنُ زياد، عن محمد بن كعب القرظي قال: لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافُهم وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير، وذكر نسبه.

ولم يذكر الثالث وهو مسعود بن عمرو، كما جاء في روايات أخرى[2].

قال: فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله تعالى وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو يمرط[3] ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك.

---

(١) يعني لم يكن في جماعة من أصحابه ولكن ثبت في روايات أخرى أنه كان معه مولاه زيد بن حارثة. (وكان ذلك في ليال بقين من شوال سنة عشر من البعثة - طبقات ابن سعد ١/ ٢١١) -.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤١٥.

(٣) يعني يمزق

وقال آخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك!

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم - فيما ذُكر لي-: إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فَيُذْئرهم[1] ذلك عليه، فلم يفعلوا، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وهما فيه.

ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل حبلة من عنب، فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف[2].

وقد جاء في بعض الرويات أن زيد بن حارثة كان معه، وكان يصد بعض الحجارة عنه حتى أصيب ببعض الشجاج رضي الله عنه[3].

في هذا الخبر بيان واضح لاهتمام النبي ﷺ بأمر دعوته، فهو لم يقتصر على الدعوة داخل مكة وإنما خرج بها خارج حدودها.

وقد جاء في هذه الرواية أن خروج النبي ﷺ إلى الطائف كان بعد موت عمه أبي طالب واشتداد أذى الكفار عليه وعلى أتباعه، فكان يرجو بذلك أن يجد متنفسًا للدعوة فتقوى وتنتشر.

ولكن زعماء ثقيف ردوا عليه ردًا سيئًا كما جاء في الخبر وآذَوه في بدنه حتى احتمى بأحد البساتين وكان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما من زعماء المشركين في مكة.

وكون رسول الله ﷺ يتعرض لمثل هذا النوع من البلاء دليل على مكانته عند الله تعالى كما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه**»[4].

---

(١) يعني يهيجهم.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣.

(٣) طبقات ابن سعد ١/ ٢١١.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، رقم: ٤٠٢٣، سنن الدارمي، كتاب الرقائق، رقم: ٢٧٨٣.

والرسول ﷺ هو القدوة العليا لهذه الأمة، فإذا تصور الدعاة إلى الله تعالى ما أصابه من الأذى وقوة صبره وتصميمه على مواصلة الدعوة، فإنه يهون عليهم ما يصيبهم من الأذى والمكروه في هذه الحياة.

وكون زيد بن حارثة يقي رسول الله ﷺ بنفسه من الحجارة حتى أصيب ببعض الشجاج يدل على أنه قد بذل جهداً كبيراً في حماية رسول الله ﷺ، حيث كان يتلقى الحجارة ببدنه ولم يصل منها إلى رسول الله ﷺ إلا التي وجهوها إلى قدميه.

وهذا موقف من مواقف زيد الكثيرة التي كان جلُّها في خدمة رسول الله ﷺ وحمايته، فلا غرابة بعد ذلك في أن يكون هو وابنه أسامة من أحب الناس إليه ﷺ وآثرهم عنده.

وكون هؤلاء الزعماء الثلاثة يردون بهذه الردود القاسية دليل على قسوة قلوب الكفار، واعتزازهم بما يعتقدون من الباطل، وتكبرهم عن سماع الحق، وما يحدثه الكفر في قلب صاحبه من إغلاق الفكر عن النظر فيما يدعو إليه الآخرون بعقل رشيد وفكر سديد.

كما أن هذا دليل على ما يتصف به الكفار من الإسفاف في القول في تعاملهم مع دعاة الحق، وتعمد المبالغة في التحدي لتحطيم معنوية هؤلاء الدعاة.

وإذا كان هذا شأن السادة الذين كانوا في الجاهلية يختارهم قومهم لكمال صفاتهم التي تؤهلهم للسيادة، فكيف يكون شأن عامة الناس في مجتمعات الجاهلية؟!

على أنه ما يجب التنويه به أن تلك القبيلة التي كانت متصلبة في الكفر حتى تأخر إسلامها بعد فتح مكة، كانت بعد ذلك من أشد القبائل التزاماً بالإسلام والدفاع عنه، فقد كانوا من القلائل الذين ثبتوا على إسلامهم وولائهم لدولة الإسلام يوم الردة، وأمدوا الجهاد الإسلامي بقادة وجنود أكفاء، ولعل تصلُّبهم في التمسك بعقيدتهم الباطلة في الجاهلية تحوَّل إلى تصلب في التمسك بعقيدة الإسلام بعدما هداهم الله تعالى.

قال ابن إسحاق في سياق هذا الخبر: فلما اطمأنَّ رسول الله ﷺ قال - فيما ذُكر لي -: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين،**

أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

لقد كان النبي ﷺ شديد الحزن على واقع أمته، عظيم الأسى على واقع خلَّفه وراء ظهره في الطائف وواقع أليم ينتظره وهو قادم إلى مكة، وقد أخذ به الهم المتكاثف من ذلك الصدود المتواصل من قومه ومن القبائل التي عرض عليها الإسلام، وإنا لنلمح ذلك في هذا الدعاء المشهور الذي دعا الله به مُنْصَرفه من الطائف، حيث اشتكى إلى ربه جل وعلا ضعف قوته، فهو لا يملك القوة التي يجابه بها المعاندين ويزيل بها الطغاة الذين فرضوا الحجْر الفكري على الناس وضيقوا مجال الاستجابة للدعوة.

«**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي**» حيث لا يستطيع الخروج بواقع الدعوة من المأزق الذي وضعها فيه أعداؤه.

«**وهواني على الناس**» حيث يتجرأ أعداء الله على السخرية منه والاعتداء على جسده الشريف، وإنه لعجب أن يوجد في وقت واحد من يسيل دمه ومن يتبرك بدمه، فليس على وجه الأرض من يعظمه أتباعه ويتبركون به مثله، ومع ذلك ينتهك أعداؤه من حرماته ما لا يُقدمون عليه مع خدمهم ومماليكهم.

ثم يستجدي رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء، ويعلن ضعفه واضطراره إلى ربه جلا وعلا الذي يملك أمره وأمر كل شيء: «**يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي**»، فهو سبحانه سند أوليائه المؤمنين، وتكرار ذكر ربوبية الله تعالى بالتخصيص بعد التعميم؛ لتأكيد أمر اللجوء إلى الله جلا وعلا.

ثم يسأل ربه أن يكون معه وألا يتخلى عنه وألا يكل أمره إلى بعيد يعبس بوجهه له ويترفع عليه كما حصل من أهل الطائف، ولا إلى قريب له السيطرة والنفوذ في بلده كالملأ من أهل مكة: «**إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى قريب ملَّكته أمري**».

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤.

ثم يبين ﷺ أن الشيء الذي امتلك عليه لبَّه وأخذ عليه مشاعره هو أن يحوز على رضوان الله تعالى، وأن يكون بعيداً عن سخطه وغضبه. . إذا تم له ذلك فلْيعاده من شاء أن يعاديه من البشر، وليعملوا ما شاؤوا في أذيته والكيد له.

غير أن الجمع بين الظفر برضوان الله تعالى والتمتع بعافيته من أذى الناس هو أرفق بالعباد الذين من شأنهم الضعف والافتقار: «**إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي**».

وفي هذه الفقرة يتبين عمق توحيد النبي ﷺ، ومبلغُ تجرده لله جلا وعلا، فهو لم يشعر بهذا الحزن المضني والهم المتواصل؛ ليدرأ عن نفسه الأذى، أو ليجلب لنفسه شيئًا من حياة الهدوء والنعيم، بل هو يستعذب كل هذا الأذى من أجل الله تعالى، غير أنه مشفق من غضب ربه سبحانه أن يكون قصَّر في أمر من أمور الدعوة من غير أن يشعر فيتعرض لشيء من غضب مولاه جل وعلا، فإذا لم يكن صدود الناس وأذيتهم إياه بسبب تقصير حصل منه فإنه لا يبالي بما حصل له من الأذى على يد أعدائه؛ لأنه إنما يحتسب ذلك كله عند ربه جل وعلا.

ويؤكد النبي ﷺ رجاءه بنيل البراءة من سخط الله تعالى وغضبه بهذا التوسل العظيم والالتجاء البليغ: «**أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تُنزل بي غضبك، أو يَحلَّ عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى**».

فرضوان الله تعالى إذًا هو الهدف الأعلى عند رسول الله ﷺ، وهو المطلوب الأعظم الذي تُسخَّر له كل المطالب، وإذا كان البلاء من الله تعالى من أجل أن يحل رضاه وينجلي سخطه، فحيهلاً بالبلاء، وهو ساعتئذ نعمة ورخاء.

ثم يختم رسول الله ﷺ دعاءه بالكلمة العظيمة التي يقولها وعلَّم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره «**ولا حول ولا قوة إلا بك**» فلا تحوُّل للمؤمن من حال الشدة إلى حال الرخاء، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى، ولا قوة له على مواجهة الشدائد وتحمل المكاره إلا بالله جل وعلا.

قال ابن إسحاق رحمه الله في سياق روايته: «فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحمهما، فدعوا غلاما لهما نصرانيًا يقال له: عداس، فقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكلْ منه.

ففعل عداس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: **بسم الله**، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.

فقال رسول الله ﷺ: **ومن أهل أي البلاد أنت يا عداسُ وما دينك؟** قال: أنا رجل نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: «**من قرية الرجل الصالح يونس بن متى**» فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟! فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك أخي كان نبيًا وأنا نبي**»، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ، يقبل رأسه ويديه وقدميه، قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟

قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه[1].

هذا وإن تسمية النبي ﷺ قبل الأكل تطبيق لسنة من سنن الإسلام الظاهرة، وقد كان من بركة ذلك انجذاب رجل نصراني إلى الإسلام.

فما أن ذكر رسول الله ﷺ اسم الله تعالى قبل الأكل حتى اهتز كيان ذلك المولى النصراني وجاشت مشاعره فأخبر النبي ﷺ بعجبه من ذلك حيث لا يعرف أهلُ تلك البلاد ذكر اسم الله تعالى.

والتسمية قبل الأكل كسائر السنن الظاهرة من أسباب تميز المسلمين على من حولهم من الوثنيين، وهذا التمييز يلفت أنظار الكفار، ويدفعهم إلى السؤال عن سبب ذلك، ثم يقودهم ذلك إلى فهم الدين الإسلامي والانجذاب إليه، وإن لنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، حيث جهر بتطبيق الإسلام بكل تكاليفه ولم يخش في ذلك لومة لائم، أما محاولة الاندماج في المجتمعات الوثنية والاستخفاء بمعالم الإسلام الظاهرة، فإن هذا يحصر انتشار هذا الدين، إلى جانب أنه يضعف شخصية المسلمين.

وبينما كان رسول الله ﷺ يعاني من ذلك الأذى النفسي والجسماني في صدود الأعداء وإهانتهم إياه إذا به يفاجأ برجل يُقبل رأسه ويديه وقدميه، لقد شاء الله تعالى

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٥

أن يحتجب هذا النور الإلهي عن سادة ثقيف، وأن يبصره مولى من الموالي كان محل الاحتقار وموئل الذلة والمهانة لدى علْيَتهم.

ولا شك أن عثور النبي ﷺ على رجل يحفظ له حق النبوة ويعظمه بعدما واجهه الأعداء بأشد أنواع القسوة والعنف يعدُّ مواسيًا له، وباعثًا على الشعور بعدم خلو البلاد ممن يقدِّرون دعاة الحق ويحفظون لهم كرامتهم.

ولقد كان يقين عداس بنبوة رسول الله ﷺ قويًا، حيث كان في اعتقاده أنه سينتصر على أعدائه وأنه لا يقف له أحد، يدل على ذلك موقفه من سيِّدَيه عتبة وشيبة ابني ربيعة لما أرادا الخروج إلى بدر وأمراه بالخروج معهما، حيث قال لهما: قتال ذلك الرجل الذي رأيت في حائطكما تريدان؟ فوالله ما تقوم له الجبال، فقالا: ويحك يا عداس قد سحرك بلسانه[1].

وهكذا كانت شفافية تفكير ذلك الغلام المملوك وعمق إدراكه لكونه على علم بالكتب السماوية، في مقابل قساوة قلوب سيديه وأمثالهما من الكفار الذين يحملون كل أثر للنبي ﷺ في قلوب الناس على السحر.

وخرج سيداه فما رجعا، بل قُتلا وسُحبا مع من سُحب من قتلى الكفار إلى قليب بدر، وكان عداس المحتقر عندهما أعلم منهما بالله تعالى وبسننه في خلقه، وأدرى منهما بعوامل انتصار الأمم وعوامل اندحارها[2].

وأبلغ من خبر عداس مع النبي ﷺ أن الله جل وعلا صرف نفرًا من الجن إلى رسول الله ﷺ وهو في وادي نخلة مرجعه من الطائف، فسمعوا قراءته فأسلموا، كما جاء في رواية ابن إسحاق أنه قال: ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة[3] قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جنِّ

(١) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٥٧٨.

(٢) هذا الخبر والخبر السابق يدلان على أن عداسًا قد أيقن بنبوة رسول الله ﷺ، ولكن هل دخل في الإسلام؟ ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمته أن سليمان التيمي ذكر في سيرته أنه قال للنبي ﷺ: «أشهد أنك عبد الله ورسوله» - الإصابة ٢/ ٤٥٩ - وإن ثبت هذا فإنه لم يعلن إسلامه قطعًا وإلا لحصل له الإيذاء والتعذيب كما تعرض لذلك الموالي في مكة وقد كان في مكة في العهد المكي، فربما كان من الأفراد الذين كانوا يكتمون إيمانهم.

(٣) هو واد بين مكة والطائف، قال البكري: موضع على ليلة من مكة وهي التي ينسب إليها بطن نخلة وهي التي ورد فيها الحديث ليلة الجن - معجم معالم الحجاز ٩/ ٤٢ -.

أهل نصيبين[1]، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله تعالى خبرهم عليه ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ** ﴾ [الجن: ١][2] إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة.

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن حميد، عن سلمة بن الفضل الأبرش، عن ابن إسحاق به وذكر مثله[3].

وأخرج نحوه الإمام البيهقي من حديث الإمام الزهري مرسلاً[4].

وأخرج الإمام أحمد خبر خروج النبي ﷺ إلى الطائف مختصراً من حديث خالد العدواني رضي الله عنه[5].

وأخرجه الطبراني مختصراً من حديث عبد الله بن جعفر، وذكر دعاء النبي ﷺ كاملاً، ذكره الهيثمي وقال: وفيه ابن إسحاق مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات[6].

وما جاء في آخر هذا الخبر من سماع الجن يعدُّ تبكيتا لقساة القلوب من الإنس الذين يتكرر عليهم سماع كلام الله تعالى ولا يتأثرون به، بينما سمعه الجن مرة واحدة فأسلموا.

هذا ومن العرض السابق في رواية ابن إسحاق تبين لنا كيف عانى رسول الله ﷺ من المشاقِّ في رحلة الطائف الدعوية، إضافة إلى أن خروجه ﷺ إلى الطائف ماشيًا على قدميه ذهابًا وإيابًا يُعدُّ بحد ذاته مجهودًا ضخمًا وتضحية كبيرة، حتى لو قوبل مقابلة

---

(١) نصيبين بفتح النون وكسر الباء: مدينة في شمال العراق الذي كان يسمى الجزيرة، وتقع على الطريق بين الموصل والشام، معجم البلدان: ٥/ ٢٨٨، وهي الآن في سوريا.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٦.

(٣) تاريخ الطبري ٢/ ٣٤٤.

(٤) دلائل النبوة ٢/ ٤١٤.

(٥) المسند ٤/ ٣٣٥.

(٦) مجمع الزوائد ٦/ ٣٥.

حسنة، فكيف إذا اجتمع مع هذا الجهد الكبير والعناء البالغ سوء المقابلة والتعرض للأذى؟!

ومما يصور هذه المعاناة ما أخرجه الإمام البخاري من حديث عروة بن الزبير أن عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ حدَّثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟

قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وما كان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[1]**، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، فناداني ملك الجبال، فسلَّم عليَّ ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين.**

فقال النبي ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**»[2].

وقوله ﷺ: «**وكان أشدَّ ما لقيت منهم يوم العقبة**»، يعني: أن إصابته على يد أعدائه يوم الطائف أشد من إصابته يوم أحد.

وإننا إذا نظرنا إلى الموضوع من ناحية الإصابة الجسمية فإن إصابته في أُحد أبلغ، ولكننا إذا نظرنا من الناحية النفسية، فإن إصابته يوم الطائف أبلغ وأشد؛ لأن فيها إرهاقًا كبيراً لنفسه ومعاناةً فكرية شديدة جعلته يستغرق في التفكير من الطائف إلى السيل الكبير، كما جاء في الرواية، ولا شك أن المعاناة النفسية أشدُّ وأقسى من الإصابة الجسمية.

وقوله ﷺ: «**فانطلقت وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب**» يدل على مبلغ الهمِّ الذي أخذ بفكر النبي ﷺ وهو نازل من الطائف، وإذا نظرنا إلى المسافة بين

(١) هو قرن المنازل ميقات أهل نجد (المواهب اللدنية ١/ ٢٩٩) ويسمى الآن «السيل الكبير».
(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق: ٦/ ٣١٢، رقم: ٣٢٣١.

الطائف وبين قرن الثعالب نجد أنها مسافة طويلة نسبيًا، خاصة وأن النبي ﷺ كان يمشي على قدميه كما جاء في رواية الطبراني[1].

فبأي شيء كان يفكر رسول الله ﷺ؟ وعلام يدل هذا الاستغراق الطويل في التفكير؟

لعل رسول الله ﷺ كان يفكر في أمر الدعوة إلى هذا الدين.

كيف مر عليه عشر سنوات ولم يستطع نشر الإسلام في مكة بالحجم الذي يتمناه، ولم يستطع نقل الإسلام إلى القبائل الأخرى رغم ما حاول من عرض هذا الدين في المواسم!

وكيف كانت مواجهة أهل الطائف له بهذا الأسلوب من الجفاء!

وكيف سيدخل مكة وقد خرج منها وهي تغلي حقدًا عليه وتربصًا به! فهو بين عدوين؛ عدوٌّ قد خلفه وراء ظهره قد أساء معاملته ولم يسمح له بالدعوة في بلده، وعدو مقبل عليه ينتظره ليوقع به الأذى، ولقد عبر عن ذلك بقوله في دعائه المشهور: «**إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهَّمني أم إلى قريب ملَّكته أمري**».

هذا التفكير المتواصل يدل على أن النبي ﷺ يعيش قضيته بكل مشاعره وأحاسيسه، والذي يعيش قضيته بهذه القوة من الحماس والاهتمام لا بد أن يصل إلى النجاح بتوفيق الله تعالى، وهو إن أخفق مرة فسينجح مرات أخرى، ولذلك نجد أن النبي ﷺ نجح بتسديد من الله تعالى في اجتذاب أفضل العناصر البشرية في مكة المكرمة.

وإذا كان لم ينجح هذه المرة مع أهل الطائف فقد نجح بعدها في موسم ذلك العام في اجتذاب نفر من الخزرج اعتنقوا الإسلام لما عرضه عليهم ثم كانوا سببًا في انتشار الإسلام في المدينة كما سيأتي.

هذا وإن للمسلمين أسوةً حسنة برسول الله ﷺ في أن يجعلوا الإسلام هو قضيتهم الكبرى في الحياة، يطبقونه كما جاء من عند الله تعالى، ويدعون إليه باهتمام وحماس، ويدافعون عنه بقوة وحكمة، ويجاهدون في سبيله بجد وإخلاص.

---

(١) انظر إلى مجمع الزوائد ٦/ ٣٥.

ولقد كان رسول الله ﷺ رحيمًا بقومه إذ عرض عليه ملك الجبال أن يُطبق عليهم الأخشبين وهما جبلا مكة؛ أبو قبيس وقعيقعان، فلم يستجب لذلك على الرغم من المعاملة القاسية التي عاملوه بها، بل رجا الله تعالى أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله جلا وعلا ولا يشرك به شيئًا، وقد استجاب دعاءه فأسلم قليل منهم قبل فتح مكة وأسلم بقيتهم بعد الفتح.

كما كان رسول الله ﷺ عظيم الأمل في هداية قومه وإن قَدَّر الله تعالى أن تحقيقه بعيدُ الأجل، فهو قد رجا أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى إن كان في قدر الله تعالى أن أولئك لن يدخلوا في الإسلام.

وإن هذا الأفق البعيد في الأمل يدلنا على مقدار اهتمام النبي ﷺ بدعوته حتى أصبح الأملُ في هداية الناس يفوق في إحساسه الشعور بالرغبة في الانتقام من أعدائه واغتنام ذلك العرض الكبير للتشفي من قومه الذين أنزلوا به وبأتباعه صنوف الأذى وأحاطوا دعوته بالأغلال والقيود.

وإن هذا ليعد مثلاً على بعد النظر والتخطيط للمستقبل البعيد للدعوة، فليس المهم أن تأتي مفاجآت يحصل بها النصر المادي للمسلمين وينهزم الأعداء، وإنما المهم توافر المكاسب الدعوية الكبيرة ولو بعد جيل كامل.

وفي هذا الموقف من رسول الله ﷺ درس بليغ للذين يتعجلون وقوع انتصار الدعاة إلى الله تعالى وانهزام أعدائهم؛ لأن هذا ليس هو المهم، وإنما المهم هو التخطيط البعيد للحصول على المكاسب الدعوية الكبيرة بأقل التضحيات.

هذا وقد ذكر الأموي في مغازيه أن رسول الله ﷺ بعث «أريقط» إلى الأخنس بن شريق فطلب منه أن يجيره بمكة، فقال: إن حليف قريش لا يجير على صميمها.

ثم بعثه إلى سهيل بن عمرو ليجيره، فقال: إن بني عامر بن لؤي لا تجير علي بني كعب بن لؤي.

فبعثه إلى المطعم بن عدي ليجيره، فقال: نعم، قُل له فليأت، فذهب إليه رسول الله ﷺ فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج معه هو وبنوه - ستة أو سبعة -، متقلِّدي السيوف جميعًا، فدخلوا المسجد، وقال لرسول الله ﷺ: طف، واحْتَبَوا بحمائل سيوفهم في المطاف.

فأقبل أبو سيفان إلى مطعم، فقال: أمجير أو تابع؟ قال: لا بل مجير، قال: إذًا لا تُخْفَر، فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه، وذهب أبو سفيان إلى مجلسه.

ثم ذكرنا أبياتًا لحسان بن ثابت رضي الله عنه في مدح مطعم بن عدي لهذا الموقف حيث قال:

فلو كان مجدٌ مخْلد اليومَ واحدا ... من الناس نجَّى مجدُه اليوم مطعما
أجرتَ رسول الله منهم فأصبحوا ... عبادك مالبَّى مُحلٌّ وأحرَما
فلو سُئلتْ عنه مَعَدٌّ بأسرها ... وقحطان أو باقي بقية جرهما
لقالوا هو المُوفي بخُفْرة جاره ... وذمته يومًا إذا ما تجشّما
وما تطلع الشمس المنيرة فوقهم ... على مثله فيهم أعزَّ وأكرما
إباءٌ إذا يأبى وألينُ شيمة ... وأنومُ عن جار إذا الليل أظلما

ذكره الحافظ ابن كثير[1].

وذكر الحافظ ابن حجر أن الفاكهي أورد هذه القصة بإسناد حسن مرسل[2].

وأخرج الإمام البخاري من حديث الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه «أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر: «**لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء النَّتْنَى لتركتهم له**»[3].

يعني لتركهم له بغير فداء مكافأة له على ذلك الموقف النبيل.

وهكذا رأينا رسول الله ﷺ بأبي هو وأمي يدخل مكة في جوار رجل من أشرافها وهو القادر على أن يسأل الله تعالى أن يحميه بملائكته أو بأي أمر آخر خارق للعادة.

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٣٥.
(٢) فتح الباري ٧/ ٣٢٤.
(٣) صحيح البخاري، المغازي، فتح الباري: ٧/ ٣٢٣، رقم: ٤٠٢٤، والنتنى جمع نتن أي كريه الرائحة والمقصود الرائحة المعنوية لاتصافهم بالكفر.

لقد عرض عليه في هذه الرحلة ملَك الجبال ما هو أكبر من ذلك حيث عرض عليه أن يُطبق على أهل مكة جبليها، ولكن رسول الله ﷺ أبى؛ رجاء أن يُخرج الله تعالى من أصلابهم من يعبد الله جلا وعلا.

ولقد حماه الله سبحانه قبل ذلك بملائكته ولكن بدون طلب منه، ونراه يدخل مكة كما يدخل البشر العاديون فيحتاط لنفسه بطلب الجوار.

إنه ﷺ قدوة عليا لأمته، وإذا كان الله تعالى قد منَّ عليه بالعصمة والحماية فليس ذلك مما يتحقق لأفراد أمته، وهو قدوتهم في تطبيق شريعة الله تعالى، فهو لذلك يقوم بالتصرفات المطلوبة من أي مسلم عاديٍّ، حيث يأخذ بالأسباب الممكنة للوصول للنتائج المطلوبة، ثم يَدَع ما فوق قدرته وطاقته لله تعالى.

وكونه ﷺ دخل في جوار المطعم بن عدي لا يتنافى مع التوكل على الله تعالى، بل إن ذلك من الأسباب التي كان يفعلها تلافيًا لوقوع حرب بينه وبين الكفار والله سبحانه لم يأذن له بالقتال في ذلك الوقت.

هذا وكون النبي ﷺ أقرَّ حسان بن ثابت رضى الله عنه في ثنائه البالغ على المطعم بن عدي، وكونه ﷺ أثنى عليه أيضًا إلى حدٍّ أنه أبدى استعداده لأن يتنازل عن الأسرى لو كان المطعم حيًّا وكلمه فيهم.. دليل واضح على أن من شريعة الإسلام الاعتراف بفضل أهل الفضل والثناء عليهم بمالَهم من معروف وإن كانوا من غير المسلمين.

وإن هذا الموقف الكريم من رسول الله ﷺ يعدُّ أكبر مشجع لعقلاء الكفار على مناصرة المسلمين وحمايتهم والدفاع عنهم.

وكم يحتاج المسلمون إلى مثل هؤلاء ليقفوا في صفهم في مثل العصر الحاضر الذي تكالب فيه الأعداء على المسلمين الصادقين في إسلامهم، وحاربوهم بالمواجهة أحيانًا، وبالمكر في الخفاء أحايين كثيرة، بينما قل وجود المناصرين لهؤلاء الصادقين حتى من إخوانهم المسلمين.

هذا ومنْ طلب النبي ﷺ لهذه الحماية والاستفادة منها في حماية الدعوة وتثبيتها نستفيد جواز قبول حماية المعتدلين من الكفار بشرط وجود التمثيل الكامل لدعوة الإسلام من غير نقص ولا انحراف.

هذا في حال ضعف المسلمين وعدم وجود قوة لهم يستغنون بها عن حماية الكفار، أما في حال وجود هذه القوة فيجب على المسلمين أن يقوموا بحماية الدعاة إلى الله تعالى حتى يتمكنوا من القيام بمهمتهم في الدعوة، وإذا نكل المسلمون عن القيام بحماية الدعاة بالدرجة الكافية أو ضعفوا عن ذلك فإنه يجوز للدعاة أن يبحثوا عن مصادر أخرى للحماية وإن كانت من الكفار المعتدلين في نظرتهم إلى الإسلام والذين يقدِّرون عادةً قيام العدل، وينصبون أنفسهم للانتصار للمظلومين.

*****

مثل أعلى للشجاعة في قول الحق
(خبر الإسراء برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس)

حينما يكون القلب معموراً بالإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وممتلأ يقينًا بالحقائق الكبرى المنبثقة عن ذلك فإن هذا الإيمان لا يبقى حبيسًا في نفس صاحبه، بل لا بد أن يظهر أمام الناس وإن قاموا بمجابهته وإنكاره؛ لأن الإيمان القوي يولِّد الشجاعة العالية في قول الحق والدفاع عنه، وكلما كان الإيمان أقوى كانت الشجاعة أبلغ وأوسع مجالاً.

وإن أصدق مثال على ذلك ما قام به رسول الله ﷺ صبيحة ليلة الإسراء من إعلان الإسراء به من المسجد الحرام إلى بيت المقدس.

ومن أكمل الروايات التي رويت في حادث الإسراء ما أخرجه الحافظ أبو يعلى بإسناده إلى أم هانئ - رضي الله عنها - قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ بغلس، فجلس، وأنا على فراشي، فقال: **شَعُرت أني بتُّ الليلة في المسجد الحرام**[1]، **فأتاني جبريل، فذهب بي إلى باب المسجد فإذا بدابة أبيض، فوق الحمار، ودون البغل، مضطرب الأذنين، فركبت وكان يضع حافره مد بصره، إذا أخذني في هبوط طالت يداه وقصرت رجلاه، وإذا أخذني في صعود طالت رجلاه وقصرت يداه، وجبريل لا يفوتني، حتى انتهينا إلى بيت المقدس، فأوثقته بالحلقة التي كانت الأنبياء توثق بها، فنُشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم، وموسى وعيسى، فصليت بهم، وكلمتهم.**

وأُتيتْ بإناءين أحمر وأبيض، فشربت الأبيض، فقال لي جبريل: شربت اللبن، وتركت الخمر، لو شربت الخمر لارتدت أمتك، ثم ركبته، فأتيت المسجد الحرام وصليت به الغداة.

قالت: فعلقتُ بردائه: أنشدك الله يا بن عمي! أن تحدِّث بهذا قريشًا، فيكذبك من صدَّقك، فضرب بيده على ردائه، فانتزعه من يدي، فارتفع عن بطنه فنظرت إلى عُكَنه[2]، فوق إزاره كأنها طيُّ القراطيس، فإذا نور ساطعٌ عند فؤاده، كاد يخطف

(١) يعني هل عَلمت؟ أراد إخبارها بذلك.

(٢) جمع عُكْنة وهي ما انطوى وتثنَّى من لحم البطن.

بصري، فخررت ساجدةً، فلما رفعت رأسي إذا هو قد خرج، فقلت لجاريتي نبعة: ويحك اتبعيه، فانظري ماذا يقول، وماذا يقال له:

فلما رجعت نبعة، أخبرتني أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر من قريش، في الحطيم، فيهم المطعم بن عدي، وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة، فقال: «**إني صليت الليلة العشاء في هذا المسجد، وصليت به الغداة، وأتيت فيما دون ذلك بيت المقدس، فنشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم، وموسى وعيسى، وصليت بهم وكلمتهم**».

فقال عمرو بن هشام كالمستهزئ به: صفهم لي، فقال: **أما عيسى، ففوق الربعة، ودون الطول، عريض الصدر، ظاهر الدم، جعد، أشعر تعلوه صهبة**[1]**، كأنه عروة ابن مسعود الثقفي، وأما موسى، فضخم آدم، طوالٌ، كأنه من رجال شنوءة متراكب الأسنان، مقلص الشفة، خارج اللثة، عابس، وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بي خَلقًا وخُلقًا.**

قال: فضجوا، وأعظموا ذلك، فقال المطعم بن عدي: كل أمرك قبل اليوم كان أممًا[2]، غير قولك اليوم، أما أنا فأشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس، نصعد شهرًا، ونحدر شهرًا، تزعم أنك أتيته في ليلة، واللات والعزى لا أصدقك، وما كان الذي تقول قط.

وكان للمطعم بن عدي حوض على زمزم أعطاه إياه عبد المطلب فهدمه وأقسم باللات والعزى لا يسقي قطرة أبدًا، فقال أبو بكر: يا مطعم، بئس ما قلت لابن أخيك جبهته وكذبته، أنا أشهد أنه صادق.

فقالوا: يا محمد! فصف لنا بيت المقدس، قال: «**دخلت ليلاً وخرجت منه ليلاً**» فأتاه جبريل بصورته في جناحه، فجعل يقول: «**باب منه كذا، في موضع كذا، وباب منه كذا، في موضع كذا**»، وأبو بكر يقول: صدقت، قالت نبعة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ: «**يا أبا بكر! إني قد سميتك الصديق**».

قالوا: يا مطعم! دعنا نسأله عما هو أغنى لنا من بيت المقدس، يا محمد! أخبرنا عن عيرنا، فقال: «**أتيت على عير بني فلان بالرَّوحاء، قد أضلوا ناقةً لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم، ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منه، فاسألوهم**

(١) أي بياض بحمرة.

(٢) أي قريبا.

عن ذلك»، قالوا: هذه والإله آية: «**ثم انتهيت إلى عير بني فلان، فنفرت مني الإبلُ، وبرك منها جمل أحمر، عليه جُوالق**[1]**، مخطط ببياض، لا أدري أكسر البعير، أم لا، فاسألوهم عن ذلك**»، قالوا: هذه والإله آية: «**ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم، يقدُمها جمل أورق**[2]**، وها هي ذه تطلع عليكم من الثنية**»[3]، فقال الوليد بن المغيرة: ساحر.

فانطلقوا فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال: فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال[4].

وأخرجه الحافظ ابن سيد الناس من طريق الحافظ أبي يعلي وذكر مثله[5].

وأخرجه بنحوه الإمام ابن إسحاق بلاغا عن أم هانئ - رضي الله عنها -[6].

ورواه الإمامان أحمد ومسلم مختصراً من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه[7].

وذكره الحافظ الهيثمي مختصراً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح[8].

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي[9].

وأخرج الإمام البخاري من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لما كذَّبتني قريش، قمت في الحجْر فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**»[10].

ولم يرد في رواية أم هانئ السابقة ذكر المعراج، ولكنه ورد في روايات أخرى أخرجها الإمام البخاري وغيره[11]، ولم أذكرها؛ لأن المقصود هو الإشادة بالمواقف المترتبة على الإسراء؛ لأن النبي ﷺ أعلنه أمام الكفار متحدياً إنكارهم وجحودهم لما

---

(١) هو العدْل الذي يوضع فيه المتاع.
(٢) أي لونه أبيض وفيه سواد.
(٣) أي الطَريق الجبلي.
(٤) المطالب العالية للحافظ ابن حجر ٤/ ٢٠١ - ٢٠٤.
(٥) عيون الأثر ١/ ١٤٠ - ١٤٢.
(٦) سيرة ابن هشام ٢/ ١١.
(٧) الفتح الرباني ١٠/ ٢٥١، صحيح مسلم رقم ١٦٢. كتاب الإيمان. باب الإسراء (ص ١٤٥).
(٨) مجمع الزوائد ١/ ٦٤.
(٩) المستدرك ٣/ ٦٢.
(١٠) صحيح البخاري كتاب مناقب الأنصار حديث رقم ٣٨٨٦ (الفتح ٧/ ١٩٦).
(١١) انظر صحيح البخاري رقم ٣٨٨٧ ومسلم رقم ٢٥٩.

يخبرهم به من خبر السماء، وطوى رسول الله ﷺ خبر المعراج عن المشركين لَمَّا أخبرهم بخبر الإسراء؛ لأنهم باعتبار أنهم لم يكونوا يصدقونه في خبر السماء مع وضوح الفرق الشاسع بين كلام الله تعالى المنزل وكلامهم، فيكف يصدقونه في خبر العروج إلى السماء، وليس هناك دلائل مشاهدة تلزمهم بالتصديق كما هو الحال في الإسراء.

أما الإسراء إلى بيت المقدس فقد أظهر الله تعالى علامات مشاهدة تلزم الكفار بالتصديق وهذه العلامات هي:

أولاً: وصف النبي ﷺ بيت المقدس، وبعضهم قد سافر إلى الشام ورأى المسجد الأقصى، وقد سبق في رواية البخاري أن الله تعالى كشف لنبيه ﷺ المسجد الأقصى حتى وصفه للمشركين، وقد أقروا بصدق الوصف ومطابقته للواقع الذي يعرفونه.

ثانيًا: إخباره عن العير التي بالروحاء، والبعير الذي أضلوه، وما قام به من شرب الماء الذي في القدح.

ثالثًا: إخباره عن العير الثانية التي نفرت فيها الإبل، ووصفه الدقيق لأحد جمالهم.

رابعًا: إخباره عن العير الثالثة التي بالأبواء، ووصفه الجمل الذي يقدمها، وإخباره بأنها تطلع ذلك الوقت من ثنية التنعيم.

وقد جاء في رواية ابن عباس والرواية التي أخرجها ابن إسحاق أن المشركين ذهبوا إلى ثنية التنعيم فوجدوا العير كما وصفها الرسول ﷺ.

وجاء في رواية ابن إسحاق أن المشركين سألوا أصحاب العير الأخرى الذين أضلوا بعيرهم وفقدوا ماءهم، فكان جوابهم كما أخبر النبي ﷺ.

فكانت هذه الأدلة الظاهرة مفحمة لهم ولا يستطيعون معها أن يتهموه بالكذب.

وبعد عرض حادث الإسراء تبين لنا مثلٌ فريد من شجاعة النبي ﷺ العالية، فقد واجه المشركين بأمر تنكره عقولهم ولا تدركه في أول الأمر تصوراتهم، ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم وتلقى نكيرهم واستهزائهم، فضرب بذلك لأمته أروع الأمثلة في الجهر بالحق أمام أهل الباطل وإن تحزبوا ضد الحق وجندوا لحربه كل ما في وسعهم.

لقد قام سريعًا حال عودته من هذه الرحلة العلوية المباركة، وأخبر بها أعداءه قبل أكثر المؤمنين به، ولم يستأن بالأمر حتى يخبر المؤمنين ويتقوى بموقفهم، بل جابه الكفار بهذا الخبر وهو يعلم ما سيترتب عليه من الإنكار والسخرية، وذلك أن من مرَّ بهذه الرحلة العظمى سيرى الأرض كلها بما فيها من مخلوقات نقطةً صغيرة في ذلك الكون الفسيح.

ثم ما مقام كفار مكة في هذه النقطة؟ إنهم لا يمثِّلون إلا جزءًا يسيرًا جدًا من هذا الكون، فما الذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه وخصه بتلك الرحلة العلوية الميمونة وجمعه بالملائكة والأنبياء عليهم السلام وأراه السموات السبع وسدرة المنتهى والبيت المعمور وكلمه جلا وعلا؟

لقد عاد النبي ﷺ بقوة عظمى لا يقاومها بأس الكفار الضعيف، فكانت المواجهة والمجابهة، ثم التفوق والانتصار للحق على الباطل.

ومن هنا وبصورة مصغرة جدًا نتصور قوة المؤمن الحق الذي يمتلئ قلبه بالإيمان، وتشحن مشاعره بتصور عظمة مخلوقات الله جلا وعلا من السماوات والأرض وما بينهن، وما أخبر الله تعالى به عن يوم القيامة وما فيه من أهوال ونعيم أو جحيم، وما بين الدنيا والآخرة من الحياة البرزخية، ثم مقارنة مقام المرء في هذه الحياة الدنيا بالنسبة لما بعدها من حياة الخلود وما بين ذلك.

لا شك أن من عمُر قلبه بهذه المشاعر سيهون عليه كل ما في الدنيا من مظاهر العظمة وأسباب القوة التي ينخدع بها قصار النظر، الخاويةُ قلوبهم من نفحات الإيمان الحية التي تهز المشاعر وتتحكم في السلوك.

*****

نماذج من الانطلاق بالدعوة خارج مكة

بدأ رسول الله ﷺ بدعوة عشيرته الأقربين، فاستجاب منهم من استجاب، وسالمه بعضهم وعاداه آخرون.

ثم دعا قومه، فاستجاب بعضهم وعاداه أكثر قومه، وخاصة كبراؤهم، وجرى منهم له ولأتباعه ما سبق بيان بعضه من الأذى والعداء، ثم قام رسول الله ﷺ بدعوة قبائل العرب، وقد مكنه من ذلك كون مكة المكرمة مقصد العرب في المواسم، فكان ﷺ يدور على القبائل يدعوهم إلى الإسلام.

فمن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد - رحمه الله - من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف[1]، فيقول: «**هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشًا قد منعوني أن أُبلغ كلام ربي عز وجل**»، فأتاه رجل من همدان، فقال: «ممن أنت؟» فقال الرجل من همدان، قال: «**فهل عند قومك من منعة**[2]؟» قال: نعم، ثم إن الرجل خشي أن يخفره قومه، فأتى رسول الله ﷺ فقال: آتيهم فأخبرهم ثم آتيك من عام قابل، قال: «**نعم**» فانطلق وجاء وفد الأنصار في رجب[3].

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي الزناد عن ربيعة بن عباد الدؤلي قال: رأيت رسول الله ﷺ بَصَر عيني بسوق ذي المجاز يقول: **يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**، ويدخل في فجاجها والناس مُتقصِّفون عليه، فما رأيت أحدًا يقول شيئًا، وهو لا يسكت يقول: **أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**، إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه ذا غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد بن عبد الله وهو يذكر النبوة، قلت من هذا الذي يكذبه؟ قالوا: عمه أبو لهب.

---

(١) يعني موقف الحجاج في عرفة.

(٢) يعني قوة يمنعون بها من لجأ إليهم.

(٣) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٦٧، وذكره الهيثمي وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات - مجمع الزوائد ٦/ ٣٥.

قلت: إنك كنت يومئذ صغيراً، قال: لا والله إني يومئذ لأعقل[1].

وأخرج الحاكم بإسناده عن محمد بن المنكدر سمع ربيعة بن عباد الدؤلي يقول: رأيت رسول الله ﷺ بمنى في منازلهم قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول: «**يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا**» قال: ووراءه رجل يقول: يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم، فسألت عن هذا الرجل، قيل: أبو لهب.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ورواته عن آخرهم ثقات أثبات وأقره الذهبي[2]، وأخرجه ابن سيد الناس[3].

وأخرج الإمام أحمد وابن حبان والحاكم واللفظ له من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنة وعكاظ ومنازلهم من منى: «**من يؤويني، من ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة**»، فلا يجد أحداً ينصره ولا يؤويه، حتى إن الرجل ليرحل من مضر أو من اليمن إلى ذي رحمه فيأتيه قومه فيقولون له: احذر غلام قريش لا يفتنك ويمشي بين رحالهم يدعوهم إلى الله عز وجل، يشيرون إليه بالأصابع[4].

وأخرج الطبراني من حديث الحارث بن الحارث الغامدي قال: قلت لأبي ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء القوم قد اجتمعوا على صابئ لهم، قال: فنزلنا، فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله عز وجل والإيمان به، وهم يردون عليه ويؤذونه، حتى انتصف النهار وانصدع الناس عنه، وأقبلت امرأة قد بدا نحرها تحمل قدحًا ومنديلاً، فتناول منها وشرب وتوضأ، ثم رفع رأسه وقال: «**يا بنية خمِّري عليك نحرك ولا تخافي على أبيك**»، قلنا: من هذه؟ قالوا: زينب بنته[5].

ذكره الهيثمي وقال: ورجاله ثقات[6].

---

(1) مسند أحمد: ٣/ ٤٩٢، وقوله: «قلت» يعني: قال ابن أبي الزناد عبد الله بن ذكوان لربيعة هذا الكلام، وذكره الهيثمي من رواية الإمام أحمد وابنه، ووثق رجال إحدى الروايات التي رواها عبد الله بن الإمام أحمد، مجمع الزوائد: ٦/ ٢٢، وأخرجه الإمام أبو بكر بن أبي شيبة، وصححه البوصيري، المطالب العالية: ٤/ ١٩١، رقم: ٤٢٧٧.

(2) المستدرك ١/ ١٥.

(3) عيون الأثر ١/ ١٠٠.

(4) مسند أحمد ٣/ ٣٢٢، موارد الظمآن ٤٠٨ رقم ١٦٨٦، المستدرك ٢/ ٦٢٤.

(5) معجم الطبراني الكبير ٣/ ٣٠٤ رقم ٣٣٧٣.

(6) مجمع الزوائد ٦/ ٢١.

وأخرج الحافظ أبو بكر بن أبي شيبة من حديث طارق بن عبد الله المحاربي قال: رأيت رسول الله ﷺ مرتين: مرة بسوق ذي المجاز، في بياعة[1] لي أبيعها، ومرة وعليه جبة له حمراء، وهو ينادي بأعلى صوته: «**أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»، ورجل يتبعه بالحجارة وقد أدمى كعبه وعرقوبه، ويقول: يا أيها الناس، لا تطيعوه، فإنه كذاب، قلت: من هذا؟ قالوا: عمه عبد العُزى، وهو أبو لهب، قال: فلما ظهر الإسلام قبل المدينة، أقبلنا في ركب من الربذة حتى نزلنا قريبًا من المدينة.. فذكر الحديث[2].

وروى أبو نعيم عن عبد الله بن وابصة العبسي عن أبيه عن جده: جاءنا رسول الله ﷺ بمنى فدعانا فاستجبنا له، وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسي فقال لنا: أحلفُ بالله لو صدَّقنا هذا الرجل وحملناه حتى نحلَّ به وسط رحالنا لكان الرأي، فأحلف بالله ليظهرنّ أمره حتى يبلغ كل مبلغ فأبى القوم وانصرفوا.

فقال لهم ميسرة: ميلوا بنا إلى فدَك، فإن بها يهودًا نسألهم عن هذا الرجل، فمالوا إلى يهود فأخرجوا سفْرهم[3]، فوضعوه ثم درسوا ذكْر رسول الله ﷺ النبي الأمي العربي يركب الحمار ويجتزئ بالكسرة، وليس بالطويل ولا بالقصير ولا بالجعد ولا بالسبط، في عينيه حمرة، مُشرب اللون، قالوا: فإن كان هو الذي دعاكم فأجيبوه وادخلوا في دينه فإنا نحسده ولا نتبعه ولنا منه في مواطن بلاء عظيم، ولا يبقى أحد من العرب إلا اتبعه أو قتله، فقال ميسرة: يا قوم إن هذا الأمر بيِّن فأسلم ميسرة[4].

وذكر الإمام الذهبي عن شعبة عن الأشعث بن سليم عن رجل من كنانة قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز وهو يقول: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» وإذا خلفه رجل يسفي عليه التراب فإذا هو أبو جهل، ويقول: لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى.

قال الذهبي: إسناده قوي[5].

---

(١) أي سلعة يبيعها.

(٢) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية للحافظ ابن حجر ٤/ ١٩١ رقم ٤٢٧٧.

وقال المحقق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي: قال البوصيري: رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح وأبو يعلي وابن حبان والحاكم، ورواه النسائي وابن ماجه مختصرًا.

(٣) بكسر السين وسكون الفاء أي كتاب دينهم.

(٤) سبل الهدى والرشاد ٢/ ٤٥٦.

(٥) تاريخ الإسلام/ السيرة/ ١٥١.

هذه نماذج من أمثلة كثيرة تدل على اهتمام النبي ﷺ البالغ بدعوته؛ حيث لم يجلس في بيته أو في المسجد الحرام فقط ينتظر الناس أن يأتوا إليه، بل خرج إلى القبائل في منازلهم، وغشيهم في مجالسهم ونواديهم وأسواقهم يدعوهم إلى الله تعالى.

وفي هذه الأخبار مثل من التسابق القائم بين دعاة الحق ودعاة الباطل، فرسول الله ﷺ وهو إمام الدعاة وهاديهم يتنقل بين أحياء العرب يدعوهم إلى الإسلام، ولا يمنعه صدودهم وجفاؤهم ومنطق بعضهم الساخر بل وإيذاؤهم من أن يواصل دعوته إياهم كل عام.

وبينما نجد رسول الله ﷺ يشيد بهدفه الأعلى في هذه الدعوة، فيركز على توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة نجد المشركين يركزون على الدعوة إلى آلهتهم التي يقدسونها ويشفقون على رموز باطلهم، فالأصنام عندهم هي معالم دينهم، فهم يدافعون عنها ولو ماتوا، في سبيل ذلك؛ لأنهم يعدون وجودهم من وجود هذه المعالم، وسيادتهم منوطة باستمرار هيمنتها على النفوس.

وهكذا أغلب دعاة الباطل يتفانون في الدفاع عن باطلهم، وقد تكون معالم الباطل أصنامًا من الأشجار والأحجار، وقد تكون أوثانًا من البشر الذين طغوا في البلاد إما بدافع من قوتهم المادية وتمكنهم في الأرض، أو بدافع من بروزهم في المجال الفكري، فيجتمع إليهم كل من قصر همه وطموحه على منافع الحياة الدنيا وغفل عن نعيم الآخرة وأهوالها، فقد ينخدع المسؤول بما لَه من سلطة وهيمنة، ويرى أنه أعلى ممن تحت إدارته فيطغى ويتجبر، وقد يوصله طغيانه إلى رد شريعة الله تعالى واختيار القوانين البشرية التي تلائم هواه.

وقد ينخدع المفكر بفكره إذا لم يحجزه إيمان صادق أو عقل راسخ، فيتطاول على خالقه وخالق كل شيء جلا جلاله، أو على من هم فوق البشر العاديين وهم الأنبياء عليهم السلام، أو على ما دعوا إليه من الهدى، فيجتمع على الإعجاب بهؤلاء المفكرين صرعى الشبهات، الذين يتخبطون هنا وهناك بحثًا عن الحق، والحق أقرب شيء إليهم، ولكنهم يريدون أيَّ فكرة بشرية جديدة؛ ليستغنوا بها عن الدين الإلهي العظيم الذي ورثوه، فأصبح مألوفًا لديهم، وأصبحوا به في نظرهم مغمورين؛ لأنهم لم يكونوا فيه من الرؤوس ولا من البارزين، فهم يضربون في الأرض يبحثون عن كل فكرة تقاوم هذا الدين وإن كانوا ممن يجهل حقيقتها وأهدافها.

مثلان من منهج رسول الله ﷺ في الدعوة

كان رسول الله ﷺ حليمًا في معاملته، حكيمًا في دعوته، فكان يحاول الدخول إلى قلوب الناس من الجوانب التي يرى أنها تؤثر عليهم، من غير أن يتفوه بباطل، ولا أن يمارس سلوكًا منحرفًا.

وإن من أمثلة منهجه ﷺ الحكيم في دعوته ما ذكره ابن إسحاق رحمه الله في سياق روايته عن دعوة النبي ﷺ من حديث محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين: أن رسول الله ﷺ أتى قبيلة كلب في منازلهم - يعني في الحج والمواسم الأخرى - إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله، فدعاهم إلى لله تعالى وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم: «**يا بني عبد الله، إن الله قد أحسن اسم أبيكم**»[1].

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق وذكر مثله[2].

ومن ذلك ما أخرجه البيهقي من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: إن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أني كنت أمشي أنا وأبو جهل ابن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل: «**يا أبا الحكم هلمَّ إلى الله عز وجل وإلى رسوله، أدعوك إلى الله**» قال أبو جهل: يا محمد هل أنت مُنتهٍ عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حقًّا ما اتبعتك.

فانصرف رسول الله ﷺ: قال: وأقبل عليَّ فقال: فوالله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكنَّ بني قصي قالوا: فينا الحجابة فقلنا: نعم، فقالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكَّت الركب قالوا منا نبي، والله لا أفعل[3].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٨.
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣٤٩.
(٣) دلائل النبوة، للبيهقي: ٢/ ٢٠٧، وذكره الحافظان؛ الذهبي وابن كثير، وسكتا عنه، تاريخ الإسلام، السيرة: ١٦١، سيرة ابن كثير: ١/ ٤٠٦.

ففي هذين الخبرين مثل مما كان يتمتع به رسول الله ﷺ من حسن العرض والحكمة في الدعوة حيث يخاطب الناس بما يحبون، ففي الخبر الأول أثنى على بني عبد الله ببيان أن الله تعالى قد أحسن اسم أبيهم، وهذا أسلوب من أساليب التودد للدخول إلى قلوب الناس والتأثير عليهم.

وفي الخبر الثاني يخاطب أبا جهل بكنية «يا أبا الحكم» والنداء بالكنية تكريم عند العرب، وقد تناسى النبي ﷺ بذلك مواقفه السيئة في سبيل الدعوة، وهذا درس مهمٌّ يتعلم منه الدعاة إلى الله تعالى ضبط النفس، ومحاولة التودد إلى الناس من أجل نشر الإسلام وإن سبقت منهم مواقف مؤلمة.

ويشبه هذا السلوك العالي من رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى خبر إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه، حيث كان ذلك بسبب ثناء النبي ﷺ كما سيأتي في خبر إسلامه.

وفي هذا الخبر شهادة للإسلام بأنه دين الحق صدرت من رجل من ألدِّ أعداء هذا الدين وهو أبو جهل، ثم بيان للمانع الذي منعه من الدخول في الإسلام وهو التنافس على الشرف الوهمي الذي ورثه وقومه في الجاهلية.

لقد ساء أبا جهل أن دوحة بني هاشم قد اخضرت وأينعت ثمراتها، بينما ظلت دوحة بني مخزوم على جفافها وذبولها كسائر فروع قبيلة قريش فحسد بني هاشم على ذلك الشرف العظيم الذي ليس باستطاعة قومه أن يصلوا إليه فأورثه ذلك الحسد حقداً دفينا في قلبه حجب عنه نور الحق ولو عقل وأدرك؛ لعرف أن بإمكانه إنقاذَ نفسه وقبيلته، والرفع من شأنها بالإيمان برسول الله ﷺ واتِّباعه.

*****

وضوح دعوة الحق في غبش الجاهلية
(موقفان لرسول الله ﷺ مع بني عامر ومع عمه أبي لهب)

لقد كان رسول الله ﷺ واضحًا في دعوته، يسير على منهج الله تعالى، لا يتقدم عليه بشيء، ولا يقبل المساومة في دين الله تعالى وإن كان الثمن هو التقدم لنصرته وحماية دعوته.

وإن من أمثلة وضوحه في دعوته وتسليمه لأمر الله تعالى ما جاء في حواره مع بني عامر.

ذكر ابن إسحاق - رحمه الله - أن رسول الله ﷺ أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال له «بَيْحرة بن فراس»: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «**الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء**» فقال: أفَنُهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك.

وذكر أن شيخًا لهم كبيراً لامهم بعدما رجعوا على رد هذه الدعوة، وقال: والذي نفس فلان بيده ما تقوَّلهَا إسماعيلي قط، وإنها لحق فأين رأيكم كان عنكم[1]؟.

هذا وإن قول أولئك القوم حينما دعاهم النبي ﷺ: أيكون لنا الأمر من بعدك مشهد يبين لنا كيف كان أهل الجاهلية يفكرون حينما كانوا ينظرون إلى دنياهم ولا يفقهون شيئًا عن الحياة الآخرة.

وهذه الروح الجاهلية التي يغلب عليها هذا التساؤل عند الإقدام على أي عمل: ماذا لنا في هذه الحياة؟ هي صورة تتكرر مع الأسى والحسرة في واقع المسلمين، فتجد بعضهم حينما يُعرض عليه أمر المشاركة في الدعوة إلى الله تعالى يتصور أولاً ما الذي سيستفيد من ذلك في دنياه، وما هو الخطر الذي سيواجهه في هذه الحياة من الإقدام على الدعوة، والشيطان في هذه الحال حريص على أن يضخم في عين المسلم مستقبله

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٨ - ٣٩، تاريخ الطبري ٢/ ٣٥٠، البداية والنهاية ٣/ ١٣٩.

الدنيوي سواء في جلب الخير أو اتقاء الشر، وأن يقلل في عينه مستقبله الأخروي، ويشغله عن التفكير فيه بما يزدحم على فكره من التصورات الدنيوية.

فحمَلة هذا الشعور وأصحاب هذا الاتجاه يشبهون أهل الجاهلية الذين يقدِّمون لخطوهم أمر مستقبلهم الدنيوي وهم عن الآخرة غافلون، وإذا كان أولئك لا يؤمنون بالآخرة فإن عدم عملهم لها مترتب على هذا الاعتقاد الجاهلي، ولكن كيف الحال بمن يعلمون أحوال الآخرة ويؤمنون بها، ثم يعملون لدنياهم كثيراً ولا يعملون لآخرتهم إلا قليلاً؟

لا شك أن هؤلاء فيهم جاهلية في سلوكهم وإن كانوا مسلمين.

هذا وإن في رد النبي ﷺ على عرضهم ذلك بيانا لعظمة توحيده، وقوة استسلامه لله تعالى، حيث فوض الأمر إليه وحده ولم يتقدم عليه بأمر يختص به جلا وعلا.

كما أن فيه بيانًا لوضوح دعوته وصلابته في الثبات عليها رغم قلة أتباعه واحتياجه لتأليف قلوب العرب نحوه، فإن احتياج الداعية إلى الأنصار مطلب مهم، ولكن أهم منه أن يلزم الطريق المستقيم الذي شرعه الله تعالى وإن قل أنصاره.

هذا وقد جرت مساومة أخرى لرسول الله ﷺ من عمه أبي لهب بتحريض من أبي جهل وعقبة بن أبي معيط، وقد روى الخبر في ذلك الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي بسنده عن ثعلبة بن صغير وحكيم بن حزام أنهما قالا: لما توفي أبو طالب وخديجة - وكان بينهما خمسة أيام- اجتمع على رسول الله ﷺ مصيبتان، ولزم بيته وأقلَّ الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع فيه، فبلغ ذلك أبا لهب، فجاءه فقال: يا محمد، امض لما أردت وما كنت صانعًا إذ كان أبو طالب حيًّا فاصنعه، لا واللات والعزى لا يوصَل إليك حتى أموت.

وسبَّ ابن الغيطلة رسول الله ﷺ فأقبل إليه أبو لهب فنال منه، فولَّى يصيح: يا معشر قريش صبأ أبو عتبة، فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال: ما فارقت دين عبد المطلب، ولكني أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد، فقالوا: لقد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم.

فمكث رسول الله ﷺ كذلك أيامًا يأتي ويذهب لا يعرض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب، إذ جاء عقبة بن أبي معيط وأبو جهل إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟ فقال له أبو لهب: يا محمد، أين مدخل عبد المطلب؟ قال: «**مع قومه**»، فخرج إليهما، فقال: قد سألته فقال: مع قومه، فقالا: يزعم أنه في النار.

فقال يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار**»، فقال أبو لهب - لعنه الله - والله لا برحت لك إلا عدوا وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار، واشتد عند ذلك أبو لهب وسائر قريش عليه.

ذكره الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - وسكت عنه[1].

وهكذا تفتقت أذهان هذين الشيطانين أبي جهل وعقبة عن هذا المكر الخبيث الذي استطاعا به أن يستخرجا من قلب أبي لهب العصبية الجاهلية من أصولها، فقد كان أقدس شيء عندهم ما ورثوه عن الآباء والأجداد، وهذه العصبية هي التي منعت أبا طالب من الإسلام مع يقينه بالإسلام، واعترافه في أشعاره وكلامه برسالة رسول الله ﷺ وأن دينه هو الحق، ولكن هذه العصبية جعلت آخر كلمة يقولها قبل موته: «**على ملة عبد المطلب، على ملة الأشياخ**».

فمن أجل هذه العصبية الجاهلية غيَّر أبو لهب رأيه وأعلن عن عداوته الأبدية لرسول الله ﷺ.

ولقد كان موقفًا عظيمًا من رسول الله ﷺ أن حافظ على كمال دينه وصفاء دعوته مع ما كلفه ذلك من خسارة أقوى نصير له كان قد استعد لحمايته بدلاً من عمه أبي طالب، في الوقت الذي كان أحوج ما يكون فيه إلى النصرة، ولكنه كان يعدُّ في الدرجة الأولى صفاء الهدف السامي الذي يدعو إليه وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة، وسلامة المنهج الموصل إلى ذلك وهو الاستقامة على هذا الدين العظيم، ويعدُّ قضية الحماية والنصرة أمرًا ثانوياً، إن حصل مع سلامة الهدف والمنهج فهو من الأسباب المطلوبة لتحقيق هذا المطلب، وإن لم يحصل إلا بتشويه ذلك المطلب والانتقاص منه فليذهب غير مأسوف عليه.

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٣٢.

من صفات حملة الرسالة
(دعوة قبيلة ربيعة)

مازال رسول الله ﷺ يدعو القبائل إلى الإسلام منذ أن أمره الله تعالى بتبليغ هذا الدين، وقد تقدمت بعض الأخبار عن هذه الدعوة.

والآن نورد خبراً عن دعوة النبي ﷺ لقبيلة ربيعة التي اختارت منازلها بين بلاد فارس وجزيرة العرب، وقد كانت هذه الدعوة في العام العاشر من البعثة حيث كان للنبي ﷺ جولة بين القبائل في موسم الحج بعدما كان ما كان من رد أهل الطائف دعوته كما سبق.

أخرج أبو نعيم رحمه الله بإسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبو بكر إلى منى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب.. ثم ذكر خبراً طويلاً في حوار أبي بكر مع قبيلة ربيعة في بيان أنسابها وأنساب قريش إلى أن قال في ذكر حوار «مفروق» زعيم من زعمائهم: «لعلك أخو قريش».

قال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله ﷺ فها هو ذا، فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك، ثم التفت إلى رسول الله ﷺ فقال: إلام تدعو يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ فجلس، وقام أبو بكر يُظلِّله بثوبه.

فقال رسول الله ﷺ: «**أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإلى رسول الله، أن تؤووني وتمنعوني وتنصروني حتى أؤدي عن الله تعالى ما أمرني به، فإن قريشًا قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد**».

قال له: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قرش؟ فتلا رسول ﷺ: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ**

إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

وقال له مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فقال له مفروق: دعوت والله يا قرشي إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

فقال له هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وصدقت قولك، وإني أرى إنْ تركْنا ديننا واتبعناك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، لم نتفكر في أمرك وننظر في عاقبة ما تدعونا إليه فإن ذلك زلة في الرأي وطيشة في العقل وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، وإن من ورائنا قومًا نكره أن نعقد عليهم عقدًا، ولكن ترجع ونرجع وننظر وتنظر، وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثنى: قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش، وأعجبني ما تكلمت به، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة، وإنما نزلنا بين صيْرين أحدهما اليمامة والآخر السماوة[1].

---

(١) هكذا جاء في البداية والنهاية، وفي الدلائل لأبي نعيم «السمامة» ولعل ما أثبته ابن كثير هو الأصح لشهرة هذا الاسم في العراق. و«الصيران» تثنية صير وهو الماء الذي يحضره الناس، وقد صار القوم يصيرون إذا حضروا الماء - النهاية مادة صير -.

فقال له رسول الله ﷺ: «**ما هذان الصِّيْران؟**» فقال: أما أحدهما فطُفُوف البر وأرض العرب، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثًا ولا نؤوي محدثًا، ولعل هذا الأمر الذي تدعو إليه تكرهه الملوك، فأما ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول، وأما ما كان مما يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، فإن أردت أن ننصرك ما يلي بلاد العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه**».

وجاء في رواية ابن حبان بعد هذا: «**أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم، ويفرشكم نساءهم أتسبِّحون الله وتقدسونه؟**».

فقال النعمان بن شريك: اللهم نعم، قال: فتلا رسول الله ﷺ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، ثم نهض رسول الله ﷺ قابضًا على يد أبي بكر، ثم دفعنا إلى مجلس الأوس والخزرج فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله ﷺ.

قال علي: وكانوا صُدُقًا صُبُرًا[1].

قال الحافظ ابن حجر: وقد أخرج الحاكم وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنه :حدثني على بن أبي طالب رضي الله عنه ..فذكر شيئًا من هذا الحديث[2].

وكذلك أخرجه ابن حبان من هذا الطريق[3]، وجاء في رواية عند الطبراني أن النبي ﷺ بعث إليهم أبا بكر رضي الله عنه فدعاهم إلى الإسلام، وفيها أن شيخهم المثنى بن حارثة قال: إن بيننا وبين الفرس حربًا، فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا، فقال له أبو بكر: أرأيت إن غلبتموهم أتتبعنا على أمرنا؟

---

(١) الدلائل لأبي نعيم ٩٧، وانظر البداية والنهاية ٣/ ١٣٩ - ١٤٣.
(٢) فتح الباري ٧/ ٢٢٠.
(٣) الثقات لابن حبان ١/ ٨٠ - ٨٨.

قال: لا نشترط لك هذا علينا ولكن إذا فرغنا فيما بيننا وبينهم عدنا فنظرنا فيما تقول: فلما التقوا يوم ذي قار هم والفرس قال شيخهم: ما اسم الرجل الذي دعاكم إلى ما دعاكم إليه؟ قالوا محمد، قالوا: فهو شعاركم، فنصروا على القوم، فقال رسول الله ﷺ: «**بي نصروا**»[1].

وذكره الهيثمي وقال: رجاله ثقات رجال الصحيح غير خلاد بن عيسى وهو ثقة[2]، وكذلك حسن إسناده القسطلاني ونسبه إلى الحاكم وأبي نعيم والبيهقي[3].

وهكذا رأينا هؤلاء وقد تأثروا بسماع كلام الله، واعترفوا بأنه ليس من كلام البشر، واقتنعوا بأن ما يدعو إليه رسول الله ﷺ هو الحق، ولكن مع ذلك لم يصلوا إلى مستوى حمل الرسالة في تطبيق الإسلام وتبليغه والدفاع عنه؛ لأنهم لم يتجردوا بعد من حظ النفس، ولم يحرروا أنفسهم من قيد النظر إلى المستقبل الدنيوي فمنعهم ذلك من الإيمان بالإسلام وقبول حماية الدعوة الإسلامية الممثلة آنذاك برسول الله ﷺ.

نعم إنه لا يصلح لحمل هذا الدين وحماية دعاته إلا من حاط به من جميع جوانبه، والقضية التي دار حولها الحوار في هذا الخبر تتعلق بأمر حماية النبي ﷺ حتى يُبلغ رسالة ربه، وإنما يكون ذلك بالإيمان الكامل بدعوته، وحيث إن الناس لا يريدون السير وراء من يخضعهم لنظام لم يقتنعوا به فإنهم سيعادون هذا النظام.

وقد أفصح المثنى بن حارثة عن وضع بلاده السياسي حيث أبان بأن قومه في منزل بين العرب والعجم، ونظراً لإدراكه العالي فإنه قد فهم أن الإيمان بالإسلام يعني معاداة الناس الذين لم يؤمنوا به والتعرض لحربهم، وقد أبدى استعداد قومه لحرب من حوله من العرب من أجل دعوة الإسلام، ولكنه أبان عذره في عجز قومه عن مقاومة الفرس والتعرض لحربهم، وأشار إلى أن هذا الأمر مما يكرهه الملوك، وأن ذلك سيثير الفرس على قومه.

وقد أجاب النبي ﷺ ببيان حقيقة دعوته وهي أن الذي يصلح لحمل هذا الدين وتبليغه وحمايته هو الذي حاط به من جميع جوانبه.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني ٦/ ٧٦ رقم ٥٥٢٠.
(٢) مجمع الزوائد ٦/ ٢١١.
(٣) شرح المواهب اللدنية ١/ ٣٠٩.

ومن أبرز ذلك قضية الولاء والبراء التي دار حولها الحوار؛ حيث إنه لما أبدى المثنى استعداد قومه للبراءة ممن يعادي دعوة الإسلام من العرب، وعدم استعدادهم للبراءة من الفرس قال النبي ﷺ هذا الكلام فموضوع الولاء والبراء أساس في الدعوة الإسلامية.

فالمسلم الحق هو الذي يتولى المسلمين من كانوا وأينما كانوا، ويتبرأ من الكافرين من كانوا وأينما كانوا، أما الذي يتبرأ من الأعداء الضعفاء من الدول الصغيرة بينما يظهر ولاء للدول الكبرى ذات السيادة والهيمنة في الأرض فإنه لا يصلح لحمل هذا الدين، ولا يمكن أن يدخل في سلك الدعاة فضلاً عن أن يكون له عمل قيادي في الدعوة.

وقبل أن نغادر الكلام على هذه الواقعة فإنه يجب أن لا يغيب عن بالنا أن المثنى بن حارثة الشيباني قد أسلم بعد ذلك ودخل قومه في الإسلام، وكانوا أجرأ المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس ولا يفكرون في قتالهم، بل إنهم ردوا دعوة النبي ﷺ بعد قناعتهم بها؛ لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس، الأمر الذي لم يكونوا يفكرون به أبدًا.

وبهذا نعلم عظمة هذا الدين الذي رفع الله به المسلمين في الدنيا؛ حيث جعلهم سادة الأرض، مع ما ينتظرون في أخراهم من النعيم الدائم في الجنة.

أما الخبر الأخير فإنه يدل على أنهم مقدمون على حرب مع الفرس، وهذا يدل على أن هذا الخبر جرى بعد الخبر الأول، والمقصود بهذه الحرب يومُ ذي قار، حيث قرر الفرس غزوهم على هذا الماء؛ لرفضهم تسليم الودائع التي أودعها عندهم النعمان بن المنذر ملك المناذرة.

وقد ذكر الإمام الطبري خبر هذه الوقعة وأسبابها وما انتهت إليه من هزيمة الفرس، وقدم ذلك بقوله: وذكر عن النبي ﷺ أنه لما بلغه ما كان من هزيمة ربيعة جيش كسرى قال: «**هذا أول يوم انتصفت العرب من العجم، وبي نصروا**»[1]، يعني ما ذكر في رواية الطبراني السابقة.

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٩٣.

وإن ما جاء في هذه الرواية من اعتزاز بني بكر بن وائل بالنبي ﷺ وجعل اسمه شعاراً لهم في الحرب، ثم قوله: «**بي نصروا**» دليل واضح على أن انتصار العرب الوحيد في الجاهلية على الفرس، والذي أصبح العرب بعد ذلك يفتخرون به كان من الله تعالى؛ بسبب توجههم نحو الإسلام، وإعزاز النبي ﷺ، فهو مقدمة لما لحق بعد ذلك من انتصارات باهرة للمسلمين على الفرس حتى أزالوا دولتهم.

وما يدل على ذلك بوضوح الزيادة التي جاءت في رواية ابن حبان حيث وعدهم النبي ﷺ وبشرهم بأنهم سيرثون أرض الفرس وديارهم وأموالهم ونساءهم.

وحيث إنهم قد آمنوا بصدق رسالة رسول الله ﷺ وأن القرآن الذي تلا عليهم ليس من كلام البشر فإنهم قد تفاءلوا خيراً بوعده وبشارته لهم بالنصر على الأعداء من الفرس فأقدموا على قتالهم لأول مرة في حياتهم، ولكن هذا المستوى من الإيمان لم يصل بهم إلى حد التحرر الكامل من روابط الجاهلية والتجرد لنصرة الإسلام فلم يسلموا آنذاك، ولكنهم أسلموا بعد ذلك وكانوا أول مشعل للجهاد الإسلامي ضد الفرس.

*****

بدء إسلام الأنصار

من مواقف النبي ﷺ العظيمة الناجحة ما قام به من دعوة الأوس والخزرج إلى الإسلام، حيث دخلوا بعد ذلك في الإسلام أفواجًا، وناصروا دعوته فاستحقوا بذلك لقب الأنصار الذي جمعهم وغلب على انتسابهم القبلي.

ولقد كان بدء دعوة الأنصار حينما قدم وفد من بني عبد الأشهل من الأوس يلتمسون حلف قريش على قومهم من الخزرج، وقد أخرج خبر ذلك الإمام أحمد من حديث محمود بن لبيد أخي بني عبد الأشهل قال: لمَّا قدم أبو الحيسر أنس بن نافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف مع قريش على قومهم من الخزرج سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم، فجلس إليهم، فقال لهم: «**هل لكم إلى خير مما جئتم إليه**» قالوا: وما ذاك قال: «**أنا رسول الله ﷺ بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليَّ كتابًا**» ثم ذكر الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ وكان غلامًا حدثًا: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم إليه، قال: فأخذ أبو الحيسر أنس بن نافع حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ.

وقام رسول الله ﷺ وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعاث[1]، بين الأوس والخزرج قال: ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك، قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومي أنه لم يزالوا يسمعونه يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكُّون أن قد مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع[2].

وذكره الحافظ الهيثمي وقال: رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات[3].

ورواه ابن هشام عن ابن إسحاق من هذا الطريق وذكر مثله[4].

ورواه أبو نعيم الأصبهاني من حديث ابن إسحاق بهذا الإسناد وذكر مثله[5].

---

(١) هو اسم حصن للأوس، وحوله جرت المعركة المشهورة.

(٢) مسند أحمد ٥/ ٤٢٧.

(٣) مجمع الزوائد ٦/ ٣٦.

(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٢.

(٥) معرفة الصحابة لأبي نعيم ٢/ ٣٢٥ رقم ١٦٢.

وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة من حديث ابن إسحاق، وقال: رواه جماعة عن ابن إسحاق هكذا وهو من صحيح حديثه، وقال في ترجمة إياس بن معاذ: قال ابن السكن، وابن حبان: له صحبة[1].

لقد كان لمجيء رسول الله ﷺ إلى ذلك الوفد من الأوس دلالة واضحة على اهتمامه بدعوته، فأولئك القوم كانوا يعانون من مشكلة كبيرة وهي قيام العداء والحروب بين قومهم وبني عمهم من الخزرج، والرسول ﷺ يعلم علم اليقين أن حل مشكلتهم تكمُن في دخولهم جميعًا في الإسلام فسارع إليهم وقدَّم لهم الحل الأمثل، ولكنه عُمِّيَ على أفراد ذلك الوفد وأبصره فتى منهم وهو إياس بن معاذ الذي سارع إلى نصيحة قومه ودعاهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ، ولكنه كان أصغر من أن يؤثر فيهم رأيه مع وجود الأكابر منهم، فلم يستجيبوا لهذه الدعوة ومضوا لما قدموا من أجله.

وهذا موقف يذكر لإياس بن معاذ - رحمه الله - الذي حكم له قومه من بني عبد الأشهل بالإسلام حيث مات وهو يهلل الله تعالى ويكبره ويسبحه.

هذا وقد تبين لنا ما كان من موقف أهل الطائف حينما ردوا دعوة رسول الله ﷺ، وما كان من موقف قبيلة ربيعة، حيث اقتنعوا بالإسلام، ولكنهم لم يلتزموا بمعاداة الفرس إذا هم وقفوا ضد الإسلام.

وكان مما هيأ الله تعالى لنبيه ﷺ ولدين الإسلام أن صرف إليه نفرًا من الخزرج اقتنعوا بدعوة الإسلام كاملة وآمنت بها قلوبهم حقًا، وكان ذلك في العام نفسه الذي رد فيه أهل ثقيف دعوة الإسلام، وهو العام العاشر للبعثة كما في رواية الزهري[2]، وفي الموسم نفسه الذي اشترط فيه بنو ربيعة عدم الالتزام بالبراءة من جميع الكفار كما في الرواية السابقة[3].

وقد ذكر محمد بن إسحاق - رحمه الله - بدء إسلام الأنصار، حيث قال: فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز موعده له خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

(١) الإصابة لابن حجر ١/ ١٠١ - ١٠٢.
(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٣٠.
(٣) انظر الموضوع رقم (٩).

قال: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «**من أنتم؟**» قالوا: نفر من الخزرج، قال: «**أمنْ موالي يهود؟**» قالوا: نعم، قال: «**أفلا تجلسون أكلمكم؟**» قالو: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيًا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله تعالى قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله، إنه والله للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

وقالوا إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا.

قال ابن إسحاق: وهم - فيما ذكر لي- ستة نفر من الخزرج، ثم ذكر أسماءهم وأنسابهم وهم: أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث بن رفاعة، ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبد الله بن رئاب.

قال: فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ[1].

ولقد نزل القرآن الكريم بتبكيت اليهود على ما كان منهم من وعيد الكفار بظهور رسول الله ﷺ ثم كفرهم به بعد ما عرفوه، وذلك في قول الله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٨٩].

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٣. وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد وذكر مثله - تاريخ الطبري ٢/ ٣٥٣ -، وذكره الهيثمي من رواية عروبة بن الزبير، وقال: رواه الطبراني مرسلا وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وهو حسن الحديث - مجمع الزوائد ٦/ ٤٠ - ٤٢.

وفي سبب نزول هذه الآية أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل من طريق عاصم بن عمر بن قتادة قال: حدثني أشياخ منا قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا، وكان معنا يهود وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب وثن، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا: إن نبيًّا يبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله ﷺ اتبعناه وكفروا به، ففينا والله وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿ **وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾[1].

وهكذا كان بدء انتشار الإسلام في المدينة على يد هؤلاء الستة، فهؤلاء كانوا أول سفراء الخير في بلادهم، وإذا كان للمشاهير في الخير والتضحية بعد انتشار الإسلام في المدينة من فضل لا ينكر، فإن الذين وفدوا بالإسلام معهم لأول مرة لا يجوز أن ينسى فضلهم، إن فضل غيرهم فيما يقدمونه من عمل صالح في الدعوة والجهاد، ولكن فضل هؤلاء في ذلك، وفي كونهم رُوَّادًا في نشر الإسلام في المدينة.. وإذا قلنا المدينة فإنها ليست كأي بلد، إن انتشار الإسلام في أي بلد يعني نقل الخير إليه، ولكن انتشار الإسلام في المدينة يعني ذلك، إضافة إلى نقل الإسلام للعالمين من هذه المدينة المباركة.

ولقد كان الدافع الأهم في انجذاب هؤلاء الستة للإسلام بعد قناعتهم به هو كون اليهود يستعملون بعثة النبي ﷺ المنتظر سلاحًا يوجهونه ضد الأوس والخزرج، وحيث إن اليهود أهل كتاب ويخبرون بذلك عما في كتبهم فقد تكوَّن لدى الأنصار قناعة بهذا النبي ﷺ الذي يهددهم به اليهود.

ولقد شاء الله أن يسبق إليه الأنصار فيؤمنوا به ويظهروا به على اليهود، وأن يتقاعس عن الإيمان به اليهود الذين بشروا به وأنذروا؛ لأن الله تعالى أراد الخير للأنصار؛ لتجرد قلوبهم من الحقد والهوى المنحرف، وحرم منه اليهود؛ لامتلاء قلوبهم بالحقد وانقيادهم لأهواء زعمائهم الزائغة.

فهذا السلوك الذي جرى من اليهود من عجائب الأمور، حيث بثُّوا دعاية للني المنتظر قبل بعثته لا عن قناعة به وإنما ليهددوا به الأوس والخزرج على اعتبار أن النبي

(١) الدر المنثور ١/ ٨٧.

المبعوث من الله تعالى سيرافقه النصر حتمًا، وهكذا كانت أهدافهم دنيوية حيث لم يلفت نظرهم من بعثة النبي المنتظر إلا ما سيرافق من اتباعه من النصر والعلو في الأرض، فكان ذلك مما رسَّخ هذا المطلب في أذهان رجال الأوس والخزرج رجاء أن يتم لهم النصر والتمكين فيقوموا بالقضاء على شوكة اليهود ويقلبوا الدائرة عليهم، ولقد تم للأنصار ما رجوه من ذلك حيث قامت دولة الإسلام وتمكنوا مع إخوانهم المهاجرين من القضاء على وجود اليهود في المدينة، فكان السلاح الذي وجهه اليهود للأنصار بالتهديد بالنبي المنتظر هو الذي قضى عليهم.

لقد كان إسلام هؤلاء النفر الستة بداية انطلاقه جديدة للإسلام خارج مكة المكرمة، وكان له ما بعده من انتشار الإسلام في المدينة وقيام دولته فيها بعد الهجرة، وقد استمر الأنصار بعد ذلك يفدون إلى مكة فرادى فيُسلمون على يد النبي ﷺ كما جاء في رواية الإمام أحمد والبزار من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: مكث رسول الله ﷺ عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم بمنى يقول: «**من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة؟**» حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه فيقولون: احذر من غلام قريش لا يفتنك، ويمشي بين رحالهم، وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بعثنا الله إليه من يثرب، فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيه رهط من المسلمين يظهرون الإسلام. . . ثم ذكر بيعة العقبة[1].

وفي هذه الرواية تصوير بليغ لمعاناة النبي ﷺ في سبيل نشر دعوته، كما أن فيها بيانًا لمقدار ما بثه أعداؤه ضده من سمعة سيئة بلغت أقطار الجزيرة العربية.

وأخيرًا فيها بيان للفتح الذي فتحه الله تعالى عليه بإسلام أبناء المدينة النبوية؛ حيث صاروا يفدون إليه لسماع القرآن منه والإسلام على يديه، حتى انتشر الإسلام في دور المدينة، وأصبحت مهيأة بعد ذلك لتكوين مجتمع إسلامي ودولة إسلامية.

*****

(١) مجمع الزوائد: ٦/ ٤٦، وقال الهيثمي: «ورجال أحمد رجال الصحيح»، وانظر: الفتح الرباني: ٢٠/ ٢٦٩، وقال الحافظ ابن حجر: وعند أحمد بإسناد حسن، وصححه الحاكم وابن حبان، وأشار إلى الحديث، فتح الباري: ٧/ ٢٢٢، انظر: المستدرك: ٢/ ٦٢٤، موارد الظمآن: ٤٠٨، رقم: ١٦٨٦.

مثل من الالتزام بتطبيق الإسلام
(بيعة العقبة الأولى)

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزني عن عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي عن عبادة بن الصامت قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثنى عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب: على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا، وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، «فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتُم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله عز وجل: إن شاء عذب، وإن شاء غفر»[1].

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق وذكر مثله[2].

وقد أخرجه الإمام البخاري من طريق الليث بن سعد بهذا الإسناد عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: إني من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ، ثم ذكر نحوه غير أنه لم يذكر أن هذه البيعة كانت بيعة العقبة الأولى[3].

وما ذكره ابن إسحاق من تحدي ذلك ببيعة العقبة الأولى وهو الظاهر، حيث لم يذكر الجهاد في هذه البيعة وذلك قبل أن يفرض الجهاد كما جاء مصرحًا به في هذه الرواية.

وقوله: «فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تفرض الحرب»، يعني أن الرسول ﷺ بايع النساء بعد ذلك بهذه البيعة بأمر الله تعالى كما جاء في قوله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الممتحنة: ١٢].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩.
(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣٥٦.
(٣) صحيح البخاري رقم ٣٨٩٣ (الفتح ٧/ ٢١٩).

وقد بايع النساء رسول الله ﷺ بهذه البيعة بعد فتح مكة بعد نزول هذه الآية، فكون النبي ﷺ قرر هذه البيعة على الأنصار قبل الهجرة مما أمره الله تعالى به من غير أن ينزل فيه قرآن، ثم نزلت هذه الآية بعد ذلك.

لقد كانت هذه البيعة تأكيداً على تطبيق الإسلام، حيث تتضمن الالتزام بطاعة الله تعالى واجتناب معصيته، فلقد آمن أولئك الأنصار بالإسلام حقًّا، ولكن النبي ﷺ أراد تأكيد إيمانهم بالبيعة على العمل الصالح واجتناب العمل السيئ، حتى يكونوا من المتقين.

والمتقون هم الذين يستطيعون حمل دعوة الإسلام والجهاد في سبيلها، وذلك لأن الاتجاه نحو الدعوة والدفاع عنها من غير أن يسبق ذلك الالتزام بتقوى الله تعالى يسيء إلى دعوة الإسلام، فالمدعوُّون ينظرون أولاً إلى سلوك الدعاة وأخلاقهم فإذا عملوا بالصالحات واجتنبوا السيئات كانوا قدوة صالحة للآخرين وأصبحوا دعاة إلى الإسلام بأعمالهم وإن لم يباشروا الدعوة بأقوالهم، فكيف إذا جمعوا بين الأمرين؟

أما إذا كانوا بضد ذلك فإنهم يكونون دعاية سيئة للإسلام ولا يصلحون بسبب ذلك لحمل دعوة الإسلام، وإذا دخلوا في مجال الجهاد قبل أن يحققوا صفة التقوى في أنفسهم فإنهم لن ينجحوا في هذا المجال؛ لأن أهم أسباب الفشل في الحروب هو انهزام المجاهدين أمام أنفسهم وذلك باتباعهم أهواءهم في معصية الله تعالى، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله**»[1].

إن أفراد الجيل الأول لم ينتصروا في الميدان الحربي إلا بعد أن انتصروا على أنفسهم فحملوها على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته، وعلى ذلك رباهم رسول الله ﷺ، وما هذه البيعة إلا مثلٌ من أمثلة تلك التربية النبوية الناجحة.

هذا وقد نشط المشاركون في تلك البيعة في الدعوة إلى الإسلام في المدينة، ومن أمثلة هذا النشاط ما قام به رافع بن مالك بن العجلان الزرقي من حفظ ما نزل من القرآن آنذاك من النبي ﷺ، وقراءته على قومه في مسجد بني زريق الذي تم إنشاؤه قبل الهجرة النبوية.

---

(١) مسند أحمد ٦/ ٢٢، جامع الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب ٢-.

وقد روي في ذلك الزبير بن بكار عن عمر بن حنظلة أن مسجد بني زريق أول مسجد قرئ فيه القرآن، وأن رافع بن مالك لما لقيه ﷺ بالعقبة أعطاه ما أنزل عليه في العشر سنين التي خلت، فقدم به رافع المدينة، ثم جموع قومه فقرأ عليهم في موضعه.

قال: وتعجب رسول الله ﷺ من اعتدال قبلته[1].

وهذا موقف في الدعوة يذكر لرافع بن مالك، ولا شك أن بقية أصحاب البيعة قد بذلوا جهوداً كبيرة في الدعوة إلى الإسلام، مما كان سبباً في انتشاره في المدينة بسرعة فائقة رضي الله عنهم أجمعين.

*****

(١) شرح المواهب اللدنية ١/ ٣١١.

داعية ناجح ونفوس متجردة
(مصعب بن عمير والدعوة في المدينة)

قال محمد بن إسحاق - رحمه الله - بعد أن ذكر بيعة الأنصار لرسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى: «فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويُعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة مصعبُ، وكان منزله على أسعد بن زرارة بن عدُس، أبي أمامة.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أنه كان يصلي بهم، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض».

ونشط مصعب بن عمير في الدعوة إلى الله في المدينة تحت حماية أسعد بن زرارة ومن المؤمنين رضي الله عنهم حتى استطاع استقطاب زعيمين من زعماء الأوس كان لإسلامهما الأثر الكبير في نشر الإسلام في المدينة.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبيد الله بن المغيرة بن مُعَيقب وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: «أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطًا[1] من حوائط بني ظفر، على بئر يقال لها بئر مرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجل ممن أسلم.

وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبالك[2]، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا؛ ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني ما حيث علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مَقْدمًا».

---

(١) يعني بستانًا.

(٢) لا أبالك كلمة مدح ومعناها لا كافي لك إلا نفسك.

فهذا سعد بن معاذ الرجل العظيم القدر في الإسلام بعد ذلك صاحب المواقف الكبيرة في نصرة النبي ﷺ في بدر والخندق وغيرهما من المشاهد، الذي قال عنه رسول الله ﷺ يوم موتة: «**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**» نجده قبل أن ينشرح صدره للإسلام بقليل يصف هذا الدين بأنه تسفيه للضعفاء، وما صدر منه هذا الحكم إلا لأنه كان لا يزال قبل إسلامه يسير على تقليد الأوائل والتمسك بالعادات المألوفة من غير تفكير وإعمال للرأي، وهذا داء وبيل يصاب به أكثر الناس حتى بعض المسلمين فيصرفهم عن التفكير في الحق ثم اتباعه إذا تبين.

قال: «فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، قال: فوقف عليهما متشتمًا -يعني عابس الوجه- فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة».

وقد يتعجب المتأمل من صدور مثل هذا الكلام من رجل كان بعد ذلك تتنزل الملائكة في الليل لسماع تلاوته، ولكنه البون الشاسع بين الضلال والهداية، والفرق الواضح بين استخدام طاقات العقل فيما خُلق لأجله وبين تغطية العقل بحجاب كثيف من التقليد الأعمى.

«قال: فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما».

وهنا تبدو الحكمة البالغة في الدعوة، والمقدرة الفائقة في محاولة تحطيم الحجاب الفكري الذي كان يحول بين أسيد وأمثاله، ومحاولة التفكير في الحق، من غير عنف ينفِّر من سماع الحق، ولا ضعف يهوِّن من شخصية ممثليه.

لقد علق الأمر على رضاه وسخطه، ورتب على الرضى قبول الحق، وعلى السخط الاستعداد بإبعاد مصدر الكراهية والأذى الذي كان يتصور وجوده وإن كان هو الحق.

وهذا من التنزل مع المخالفين، وهو نوع من الحكمة في الدعوة، ولذلك لم يجد أسيد بن حضير بدًا من قبول هذا العرض الذي لم يشعر بأنه أجبر عليه وإنما أصبح معلقًا على كامل حريته ورضاه، فوصف هذا العرض بأنه عين الإنصاف والعدل وجلس لسماع كلامه.

قال: «فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن فقالا -يعني مصعب وأسعد- فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟قالا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين».

وهكذا دخل أسيد بن حضير في الإسلام بهذه السرعة والسهولة حينما شرح الله صدره للهداية، ووفق برجل حكيم عرض عليه الإسلام.

قال: «ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم»، وإنما عرف ذلك لأن نور الهداية يسطع في الوجه أول ما يلامس الهدى قلب المهتدي، وكون الإنسان يقبل على أمر عظيم يُعرف في وجهه، ولا أعظم من إقبال الإنسان على سلخ دين الباطل المتوارث ودخوله في دين الحق.

قال: «فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت: قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليُخفروك».

وهكذا أراد أسيد أن يشاركه قومه في هذا الخبر العظيم الذي هداه الله إليه وهو يعلم أن سعد بن معاذ لو أسلم لم يختلف عليه اثنان من قومه؛ لسيادته العظيمة

فيهم، فأراد أن يجذبه إلى الإسلام لينقله وقومه إلى الخير، فوفقه الله إلى هذه الحيلة التي استطاع بها أن يغطي على سمات الإسلام الظاهرة على وجهه التي أدركها سعد ابن معاذ، وذلك لأن أسيدًا يريد أن يسمع سعد من مصعب بن عمير قبل أن يعلم بإسلامه خشية أن تأخذه العزة ويهيمن عليه الغضب المبني على التعصب قبل أن يصل إلى مبلغ الدعوة؛ ليسمع منه كلام الله تعالى الذي تأثر به، فنقله حالاً إلى تركيز كل طاقته الفكرية حول هذا الخبر الذي اختلقه ليصل منه إلى ما يريد من هدايته.

«قال: فقام سعد مغضبًا مبادرًا تخوفًا للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف سعد أن أسيدًا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا، ثم قال لأسعد ابن زرارة: يا أبا أمامة أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟ وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب جاءك والله سيد من وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف عندك منهم اثنان.

قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتَطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلى نادي قومه ومعه أسيد ابن حضير.

وهذا هو الموقف العظيم الذي خطط له أسيد والذي كان ينتظر نتائجه لعلمه بمكانة سعد العالية في قومه.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأوصلنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله»

وهذه كلمة عظيمة تدل على إيمان قوي ويقين راسخ وشجاعة فذة وحزم نافذ، فما أعظم آثار الهداية في النفوس!!

قبل ساعات قلائل كان سعد يهدد دعاة الحق؛ ليحمي ما هو مقتنع به من الباطل، ثم لما هداه الله تعالى صار يهدد كل من ظل على الباطل من قومه ولم يتبع سبيل الحق.

«قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة»[1].

وهكذا تحقق أمل أسعد بن زرارة حينما ذكر أنه لو أسلم سعد لم يتخلف عنه قومه رضي الله عنهم أجمعين.

وإننا في هذا الخبر المثير بقدر ما نقدر لأسعد بن زرارة ومصعب بن عمير جهودهما في مجال الدعوة إلى الله تعالى فإننا نقدر لسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سرعة استجابتهما لهذه الدعوة مع ما يتمتعان به من سيادة وعزة.

إن النفوس البريئة من اتباع الهوى، المتجردة لطلب الحق تتأثر سريعًا بنداء الحق إذا وُجد من يُحسن عرضه عليها، ويحاول أن يجذبها إلى النور الذي هداه الله تعالى إليه.

وهكذا دخل هؤلاء السادة في الإسلام بهذه السهولة، ولقد كان مما هيأه الله تعالى لرسوله ولدينه أن حرب «بعاث» التي سبقت الهجرة بخمس سنين قد أفنت عددًا كبيرًا من سادة الأوس والخزرج الكبار، والكبار ممن ترسخت فيهم السيادة يتمسكون عادة بموروثاتهم التي هي مؤهلات سيادتهم، ويرون أنه من العيب والنقص أن يتحولوا

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٥١- ٥٤، وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق بإسناده، وذكر مثله: ٢/ ٣٥٧، وذكره الهيثمي، وقال: رواه الطبراني مرسلاً، وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وهو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات، مجمع الزوائد: ٦/ ٤١.

تابعين بعدما كانوا متبوعين، فبقي أغلب السادة في القبيلتين من الصف الثاني الذين ما زالوا في سن الشباب أو تجاوزوها بقليل كهذين السيدين الجليلين سعد بن معاذ وأسيد ابن حضير، فكانوا أسرع إلى الاستجابة لدعوة الإسلام.

وفي هذا المعنى تقول عائشة - رضي الله عنها-: «كان يوم بعاث يومًا قدمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقتلت سرواتهم، وجرحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام»[1].

وقد كان من الكبار الذين سلموا يوم بعاث عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان مؤهلا لسيادة قبيلته، فمنعه كبرياؤه وحسده من الدخول في الإسلام وأصبح زعيمًا للمنافقين إلى أن مات.

(١) صحيح البخاري، ٣٨٤٦، ٧/ ١١٠، ١٥٦، رقم: ٣٧٧٧.

فهم دقيق وإيمان عميق وتضحية خالدة
(بيعة العقبة الثانية)

إن سيرة رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم كلها مواقف رائعة، وإن من أبرز هذه المواقف موقف الأنصار رضي الله عنهم حينما بايعوا رسول الله ﷺ على حمايته حتى يُبلغ رسالة ربه، وإن كلفهم ذلك أموالهم وأنفسهم.

وقد أخرج ابن إسحاق - رحمه الله - خبرهم في السيرة فيما رواه عن كعب بن مالك رضي الله عنهم قال بعدما ذكر خروجهم من المدينة إلى مكة: «ثم خرجنا إلى الحج، فواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق، قال: فلما فرغنا من الحج وكانت الليلةُ التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من سادتنا، أخذناه معنا وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبًا للنار غدًا، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيبًا».

وهنا نقف قليلاً لنتأمل هذا الأسلوب البارع في الدعوة إلى الله، وما نتج عنه من سرعة في الإجابة وقوة في التأثير.

فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم حينما أرادوا دعوة عبد الله بن حرام رضي الله عنهم نادوه بكنيته، والنداء بالكنية تكريم للرجال عند العرب ورفع من قدره، ثم أثنوا عليه بأنه سيِّد من ساداتهم وشريف من أشرافهم، والثناء على الرجل الكريم يقلِّص من نفسه الأنانية والتعصب للذات، ويفتح فكره لتقبل الأمور العالية وإن خالفت هوى النفس في بداية الأمر؛ لأن الثناء على الكريم يشبع رغبته في النظر إلى حظ النفس من غير طغيان نحو الكبرياء ولا جنوح نحو الغضِّ من شأن الآخرين، فتكون مكافأته نحو من أسدى إليه هذا الجميل أن يلين في يده ويسمع قوله؛ لأن كرمه يمنعه من أن يرد من تواضع له وأثنى عليه من غير أن يحقق له ما يريد أو بعض ما يريد.

«قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا، نسيبة بنت كعب أم عمارة، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي، إحدى نساء بني سلمة وهي أم منيع».

وهذا نوع رفيع من التخطيط المنظم والتدبير المحكم، حيث يتسلل خمسة وسبعون من بين أظهر المشركين ويجتمعون في مكان واحد من غير أن يشعر بهم أحد، ولا شك أن هاتين المرأتين اللَّتين شهدتا معهم البيعة قد بلغ الإيمان لديهما من القوة إلى الحد الذي دفعهما إلى ركوب المخاطر والمجازفة بالنفس لتشهدا مشهداً عظيماً طالما تاقت نفوس المؤمنين إليه، وذلك بسماع كلام من هو أعز عليهم من أنفسهم ﷺ.

قال: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج؛ - قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحى من الأنصار: الخزرجى، خزرجها وأوسها، إن محمداً منَّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده.

قال: فقلنا له قد سمعنا ما قلتَ، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسولُ الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون نساءكم وأبناءكم**».

وهكذا جاءت هذه البيعة مختصرة في رواية كعب بن مالك رضي الله عنه، وجاءت مبسوطة في رواية عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وذلك فيما رواه الإمام البيهقي بإسناده عن عبيد بن رفاعة قال: قدمتْ روايا خمر، فأتاها عبادة بن الصامت فخرقها، وقال: إنا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في

العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا فيه لومة لائم، وعلى أن ننصر رسول الله ﷺ إذا قدم علينا يثرب بما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة، فهذه بيعة رسول الله ﷺ بايعناه عليها»[1].

وفي هذا الأثر دلالة واضحة على ما لهذه البيعة من أثر عميق في نفوس أصحابها.

وقد يقال: لماذا يطلب النبي ﷺ الحماية من البشر وهو يعلم أن الله تعالى قادر على أن يحميه بالملائكة عليهم السلام أو بدونهم؟ فيقال: إن النبي ﷺ مشرع لأمته وهو قدوتهم في أقواله وأفعاله، فهو يسير في دعوته في السلم والحرب في حدود ما يستطيعه البشر العاديون.

وإذا كان الأنبياء عليهم السلام - على جلالة قدرهم - بحاجة إلى حماية من المؤمنين الصادقين فإن الدعاة إلى الله تعالى الذين ورثوا هذه الدعوة من رسول الله ﷺ أحوج إلى هذه الحماية.

إن الدعاة المصلحين يواجهون أهل الباطل والإفساد، وقد يتعرضون للأذى على أيديهم، فهم بحاجة ماسة إلى أن يقوم أهل التقوى بحمايتهم وتأييدهم؛ حتى ينجحوا في مهمتهم، وقد تكون جهود هؤلاء أكبر من جهود المصلحين؛ لأن جهود أهل الإصلاح إنما تتم بحمايتهم، وبهم تعمر الدعوة ويثمر الإصلاح.

«قال: فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق نبيًا لنمنعك مما نمنع منه أزرنا[2]، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة[3]، ورثناها كابرًا عن كابر».

وهذا مثال عال من المواقف الإيمانية التي تتلاشي فيها المصالح الذاتية في سبيل خدمة المبادئ السامية والدفاع عنها، فلقد تكفل هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم بحماية النبي ﷺ بما يحمون به نساءهم، وهذا أبلغ مستوى يمكن تصوره من النصرة؛ لأن الإنسان يبذل في حماية عرضه من الطاقة مالا يبذله في حماية نفسه، ولقد صدقوا رضي الله عنهم فيما تكفلوا به، فحموا رسول الله ﷺ ومنعوه من أعدائه، وناصروا دين الإسلام بكل ما أوتوا من قوة، حتى استحقوا بجدارة لقب «الأنصار».

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٥١ - ٤٥٢.

(٢) أي نساءنا هو جمع إزار.

(٣) الحلقة بفتح اللام وسكونها اسم للسلاح كله.

«قال: فاعترض القول -والبراء يكلم رسول الله ﷺ- أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً[1]، وإنا قاطعوها -يعني اليهود-[2]، فهل عسينا إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟! قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**».

وقوله: «**بل الدم الدم**»، يعني من طلب دمكم فقد طلب دمي، وقوله: «**والهدم الهدم**»، يعني القبر والمنزل، والمعنى: أقْبَر حيث تقبرون.

وهكذا كان هذا الاعتراض الوجيه من أبي الهيثم بن التيهان سببًا في بروز هذا الموقف الجليل من رسول الله ﷺ؛ حيث أعلن بهذه الكلمات القوية أن موطن المسلم ليس هو الذي ولد فيه وعاش فيه آباؤه من قبل، وإنما هو الذي يستطيع أن يعبد ربه فيه بحرية، وأن يطبق فيه الإسلام. ومن هذا المنطلق كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.

لقد كان رسول الله ﷺ يحب مكة حبا عظيمًا، وقد سجل هذا الحب بقوله: «**والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليَّ وإلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت**» أخرجه الأئمة الترمذي وابن ماجه والدارمي[3].

ولكن حبه لها لا يعني بقاءه فيها والطغيان يحكمها، ويحول بينه وبين نشر الدعوة، وتطبيق الإسلام كاملاً، ولذلك سعى في وقت مبكر في عرض نفسه على القبائل علَّه يجد قبيلة تأخذه معها وتنصره حتى يبلغ رسالة ربه ويطبق شريعته.

هذا وقد أصبح رسول الله ﷺ بهذا الموقف قدوة عليا لمن جاء بعده من الدعاة ومروا بمثل هذا الوضع، ومن ذلك ما جرى بين الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود - رحمهما الله - حيث وجه له محمد بن سعود أثناء البيعة والتعاقد على نصرة دعوة التوحيد هذا التساؤل نفسه، فرد عليه الشيخ بجواب رسول الله ﷺ نفسه.

هذا وإننا لنلحظ في اعتراض أبي الهيثم بن التيهان نموذجًا من الحرية العالية التي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبر عما في نفسه بكامل حريته، مع أنه كان

---

(١) الحبال: العهود. (٢) يهود المدينة.

(٣) سنن ابن ماجه، المناسك رقم ٣١٠٨، جامع الترمذي، المناقب، باب ٦٨، سنن الدارمي، السير، باب ٦٦.

يخاطب رسول الله ﷺ والحال أن أبا الهيثم بن التهيان يقطع جازمًا بأن رسول الله ﷺ لن يسلك معهم إلا ما فيه خيرهم، ولكنه خشي أن يَبُر بهذا الخير قومه وأن يقدِّمهم عليه.

لقد كان العرب في جاهليتهم من أعظم الناس حرية في عصرهم، ولكنهم مع ذلك كانوا مأسورين لإرادة كبرائهم وسادتهم، فأخرجهم الإسلام من هذا الأسر؛ ليكونوا جميعًا عبادًا لله تعالى ولا يستعبد بعضهم بعضًا.

هذا ولما تمت البيعة أراد رسول الله ﷺ أن يؤكدها باختيار مجموعة من أولئك المبايعين يكونون قادة لقومهم يكفلونهم في الاستمرار بالعمل فيما تمت عليه البيعة والنشاط في الدعوة وتطبيق الإسلام، ويقول كعب بن مالك في روايته المذكورة: «وقد كان رسول الله ﷺ قال: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبًا؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس».

وقد ذكر ابن إسحاق أسماء هؤلاء النقباء وأنسابهم وهم: أبو أمامة وأسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء ابن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، فهؤلاء التسعة من الخزرج، ومن الأوس: أسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر[1].

قال ابن إسحاق: «فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال للنقباء: «**أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين ليعسى ابن مريم وأنا كفيل علي قومي**» - يعني المسلمين- قالوا: نعم».

وفي هذا النص حدد النبي ﷺ مهمة النقباء، وهي أن يكفلوا له قومهم فيما يتعلق ببنود البيعة خاصة، وبكل ما يتعلق بالالتزام بالدين والدعوة إليه والجهاد في سبيله عامة.

---

(١) قال ابن هشام: وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التَّيِّهان ولا يعدون رفاعة، وذكر قصيدة لكعب بن مالك يتحدى فيها زعماء أهل مكة ويبين لهم أن الرهط الذين بايعوا لن ينقضوا بيعتهم، وذكر أسماء النقباء فذكر أبا الهيثم بن التيهان ولم يذكر رفاعة بن المنذر.

ثم إن النبي ﷺ أعطى هذه المهمة قدراً كبيراً من الأهمية حينما شبه هؤلاء النقباء بالحواريين الذين كانوا مع عيسى عليه السلام، وذلك فيما إذا شعروا بأنهم حلقة في سلسلة ذهبية رافقت الأنبياء عليهم السلام، ثم زاد الأمر أهمية حينما عدَّ نفسه ﷺ كفيلاً على قومه، وفي ذلك توثيق لأهمية هذا التكليف حيث يكون طرفًا آخر في المسؤولية، كما أن فيه رفعًا لمعنوية هؤلاء النقباء، حيث يشاركون رسول الله ﷺ في هذا التكليف، إضافة إلى رفع ما قد يتوهمه بعض الناس من احتمال نقض الثقة بالمشاركين في تلك البيعة، فما أعظم هذا التكليف! وما أبلغ هذا التوجيه النبوي!

هذا وإن من أهم فوائد تحديد المسؤولين أن ذلك مما يكفل نجاح القضية، لأن بقاء المسؤولية عائمة وسط جمع كبير قد يجعل الأذهان كلها مفرغة من الشعور بالمسؤولية وأداء الواجب؛ لإمكانية شيوع التواكل بينهم، بحيث يعتمد كل واحد منهم على أن الآخرين قد قاموا بالأمر المطلوب، فإذا تركزت المسؤولية في أفراد معروفين، فإن كل واحد منهم يشعر بمسؤوليته في حدود قبيلته أو في فرع من فروعها.

والإنسان المؤمن بموجب إيمانه وإخلاصه لابد أن يفكر في الأمور التي تكفل نجاح دعوة الإسلام، والأمور التي تكون سببًا في إخفاقها، ولكن حينما يكون مسؤولاً فإن تفكيره في هذا الموضوع يتضاعف بقدر مسؤوليته، وذلك أدعى إلى الظفر بالنجاح، والسلامة من الإخفاق.

«قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاريُّ أخو بني سالم بن عوف: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم: قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن فهو والله - إن فعلتم- خزي الدنيا والآخرة، وإن كنت ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه».

وهذا النص يهدينا إلى الهدف السامي الذي يجب أن يكون ماثلاً أمام كل مسلم وهو يقوم بأي عمل في خدمة الإسلام، ذلكم هو طلب الفوز بالجنة الذي يترتب على ابتغاء رضوان الله تعالى.

وفي هذا النص دلالة واضحة على أن الصحابة رضى الله عنهم قد تجردوا لإرادة الآخرة، ولم يعدُّوا الدنيا إلا عرضًا موصلاً للآخرة، وهذا هو سر نجاحهم في الدنيا وانتصاراتهم الباهرة.

هذا وإن مبايعتهم رسول الله ﷺ على حرب الأحمر والأسود، وقتل أشرافهم، ونهك أموالهم دليل على قوة إيمانهم، ووعيهم لما يتطلبه الإيمان الحق بهذا الدين.

فالذي يؤمن بهذا الدين كاملاً ويعلم بأن عليه أن يطبقه كاملاً، وأن يدعو الناس إلى الإيمان به وتطبيقه لا بد أن يكون في وعيه وإدراكه أن كثيرين من الناس سيعادونه ويقاومون دعوته؛ لأن الإسلام يقاوم في بعض تشريعاته أهواءهم، ويقضي على أحلامهم وتطلعاتهم المنحرفة، ولا بد أن يكون تخطيطه وحساباته أن هؤلاء سيتصدون لدعوته بالقوة إذا لزم الأمر، وأن عليه أن يقاوم ويجاهد حتى تعلو كلمة الله تعالى، ويتم تطبيق الإسلام.

وهكذا فكر أولئك الصحابة رضي الله عنهم، وخططوا لما يمكن أن يكون مستقبلاً مع حداثة عهدهم بالإسلام بينما نجد السواد الأعظم من المسلمين في هذا العصر وقد مر على كثير منهم عقود من الزمن وهم يطبقون ما فهموه ووعوه من الإسلام.. نجدهم لا يفكرون في جهاد الأعداء ولا يحسبون حسابًا لإمكانية غزو الأعداء بلادهم، وإن من أهم أسباب ذلك أنهم ورثوا الإسلام على فهم ناقص ووعي قاصر، فظلوا حياتهم على هذا القصور في الفهم والوعي، وأصبحوا ينكرون أي دعوة تدعوهم إلى فهم الإسلام كاملاً وتطبيقه كاملاً كما جاء من عند الله تعالى، ولذلك تقلص مفهوم بعض التكاليف الشرعية في أذهانهم التي من أبرزها الجهاد في سبيل الله.

وهكذا تمت بيعة أهل المدينة بعدما فهموا مقاصد الإسلام وأدركوا بدقة ما يطلبه الإسلام منهم.

وأما رأس الشر في هذا العالم الذي كُتب عليه أن يعاصر الشر من أوله إلى آخر ة في حياة بني آدم، وهو إبليس اللعين فإنه لم يكن غائبًا عن ذلك الاجتماع المبارك، ولو شاء الله لحال بينه وبين ذلك، لكن الله جلا وعلا أراد له أن يطَّلع، وأن يمتلئ قلبه غيظًا وحقدًا، وأن يقوم بما قام به من الإعلان عن ذلك الاجتماع، ثم لا يكون لإعلانه أي أثر في نقض شيء مما تم فيه.

يقول كعب بن مالك رضى الله عنه في روايته المذكورة: «فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب -والجباجب المنازل-: هل لكم من مذَّم والصبُّاء معه[1]، قد أجمعوا على حربكم، قال: فقال رسول الله: هذا أزَبُّ العقبة، **هذا ابن أزْيَب**[2]، **أتسمع عدو الله: أما والله لأفرغن لك**.

وجاء في رواية أخرجها الطبراني: «وصرخ الشيطان من رأس الجبل: يا معشر قريش، هذه الخزرج والأوس تبايع محمداً على قتالكم، ففزعوا عند ذلك وراعهم، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يرعكم هذا الصوت فإنه عدو الله إبليس ليس يسمعه أحد ممن تخافون**»، وقام رسول الله فصرخ بالشيطان: «**يا بن أُزَب هذا عملك فسأفرغ لك**».

ذكره الهيثمي وقال: رواه الطبراني هكذا مرسلاً وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف[3].

هذا وإن موقف رسول الله ﷺ في ثباته وتهديده الشيطان دليل على قوة قلبه وشجاعته، وعلمه اليقيني بضعف كيد الشيطان أمام قوة إيمان المؤمنين المعتصمين بحبل الله المتين، وإذا كان النبي ﷺ قد أخبر بأن الشيطان يفر من عمر كما سيأتي فكيف يقف لرسول الله ﷺ؟!

قال كعب بن مالك في هذه الرواية: «ثم قال رسول الله ﷺ: «**ارْفَضُّوا إلى رحالكم**»، قال: فقال له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت

(١) يريد بمذمَّم: محمداً ﷺ كما كان المشركون يسمونه سخرية به، والصباء: جمع صابئ يعني المسلمين، سموهم بذلك لخروجهم عن دين قومهم.
(٢) قال ابن هشام: ويقال ابن أُزَيْب.
(٣) مجمع الزوائد ٦/ ٤٧.

لنميلَنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا! فقال رسول الله ﷺ: «**لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم**»، قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا».

وهذا الإقدام الرائع والتطلع السريع للجهاد دليل يضاف إلى ما سلف ذكره على قوة إيمان أولئك الصحابة، حيث تخطوا مرحلة الالتزام الخاص، والدعوة إلى الإسلام، إلى مرحلة الجهاد في سيبل الله تعالى، علمًا بأن هذا التوثب نحو معالي الأمور والتطلع المبكر لمقارعة الأعداء قد حقق قسطًا كبيراً من نجاح هؤلاء المؤمنين في نزالهم مع الأعداء بعد ذلك.

وفي قول رسول الله ﷺ: «**لم نؤمر بذلك**» تركيز تربوي على أمر مهمٍّ وهو أن الدفاع عن الإسلام، والتعامل مع أعداء هذا الدين ليس متروكًا لاجتهاد أتباعه وإنما هو خضوع لأوامر الله تعالى وتشريعاته الحكيمة، فإذا شرع الجهاد فإن أمر الإقدام أو الإحجام متروك لنظر المجتهدين بعد التشاور ودراسة الأمر من جميع جوانبه.

هذا وعلى الرغم من كون أولئك المسلمين من الأوس والخزرج يشكِّلون جماعة كبيرة بالنسبة لذلك الزمن، فقد وصلوا إلى مضارب قومهم ولم يشعر بهم أحد، ومن غير شك أنهم تسللوا متفرقين كما جاؤوا حتى لا يلفتوا الأنظار بجماعتهم.

ومما يدل على أن قومهم لم يشعروا بهم ما كان من جواب قومهم من المشركين لمشركي مكة حينما اتهموهم بالتخطيط لإخراج رسول الله ﷺ إلى المدينة والاتفاق معه على حربهم كما جاء في هذه الرواية، حيث يقول كعب بن مالك: «فلما أصبحنا غدت علينا جلَّة قريش حتى جاؤونا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم، قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه، قال: وقد صدقوا، لم يعلموه: قال: وبعضنا ينظر إلى بعض.

قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان جديدتان، قال: فقلت كلمة كأني أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر، أما تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها

الحارث، فخلعهما من رجليه، ثم رمى بهما إلي وقال: لتَنْتعلنَّهما، قال: يقول أبو جابر: مَهْ أحْفَظت والله الفتى[1] فاردد إليه نعليه، قال قلت: والله لا أردهما، فأل والله صالح، لئن صدق لأسلبنَّه».

هذا وإن معرفة مشركي مكة بلقاء تم بين الرسول ﷺ ومسلمي المدينة قد يكون لأن بعضهم أحسوا ببعض الاتصالات الأخرى التي تمت بزيارة فرد أو أفراد لرسول الله ﷺ إن كان وقع شيء من ذلك، حيث لم يحدِّد المشركون مكان ولا زمان هذا اللقاء الذي ارتابوا منه.

أما صياح الشيطان من فوق الجبل، فمن المؤكد أنهم لم يسمعوه لقول رسول الله ﷺ السابق: «**لا يرعكم هذا الصوت فإنه عدو الله إبليس، ليس يسمعه أحد ممن تخافون**»، وهذا من دلائل نبوته ﷺ حيث أخبر بشيء لا يمكن معرفته إلا بإعلام الله تعالى إياه بذلك، كما أنه معْلم من معالم معية الله تعالى لأوليائه بالحماية والتأييد.

ومن الحكم البالغة في سماع المسلمين ذلك الصوت وحجبه عن الكافرين مع أن الشيطان قد وجهه إليهم تقوية إيمان أولئك المؤمنين، والربط على قلوبهم وهم يستقبلون واقعًا مليئًا بالابتلاءات والتضحيات.

ومما يدل على عدم سماع المشركين ذلك الصوت أن المسلمين وصلوا إلى مضارب قومهم وباتوا تلك الليلة من غير أن يشعر بهم أحد، ولو كان المشركون سمعوا ذلك الصوت لهبُّوا من نومهم وسارعوا إلى مضارب الأوس والخزرج لمعرفة حقيقة ما جرى.

وقول كعب عن نعلي الحارث بن هشام لا قيمة له بحد ذاته، ولكن قيمته في أن كعبًا أراد أن يشغل القوم بواقعة حاضرة، هي وإن كانت صغيرة إلا أنها تشغل تفكيرهم عن قراءة ما قد يظهر على وجوه بعض المؤمنين من انفعال يوحي بأن لديهم معرفةً بما وجَّه إليهم القرشيون من اتهام، وقد انشغلوا بها فعلاً، ما بين كرم فياض من ذلك القرشي وعتاب من أبي جابر عبد الله بن حرام لكعب بن مالك، فحصل ما أراده كعب من تلك المشَاركة.

---

(١) يعني اكفف فقد أغضبته.

هذا وإن في قول كعب حينما ألقى إليه الحارث بن هشام نعليه: «فأل صالح، لئن صدق الفأل لأسلبنه» لفتة جليلة تدلنا على نموذج مما كان يدور في أفكار أولئك الصحابة الكرام، حيث ذهب فكر ذلك الصحابي حالاً إلى الجهاد في سبيل الله تعالى، فقارن بين حصوله على نعلي ذلك الرجل وبين أخذ سلبه إذا قتله في المعركة، وهذا يعطينا تصوراً واضحًا لبروز الروح الجهادية لدى المسلمين آنذاك، والتي نجحوا بها في إقامة دولة الإسلام الكبرى.

إن نجاح كل أمة يترتب على ما يدور في أفكار أفرادها بشكل ضاغط يُحوِّل تلك الأفكار إلى قضية تشغل بالهم وتستحوذ على تفكيرهم، وبقدر ضخامة هذه القضية، وطموح أصحابها نحو السمو إلى المعالي يكون تقدم تلك الأمة، وبقدر ضآلة القضية وتقاعس أصحابها يكون تخلف تلك الأمة.

والآن بعد أن عرفنا تشكك زعماء مكة في ذلك الخبر، فهل استمروا على ذلك الارتياب؟

إن آخر الرواية يفيد بأن ارتيابهم استمر وأنهم تأكدوا من الخبر ولكن بعد رحيل حجاج المدينة، يقول كعب بن مالك رضى الله عنه«ونفر الناس من منى، فتنطَّس القوم الخبر[1] فوجدوه قد كان، وخرجوا في طلب القوم فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر، والمنذر بن عمرو أخا بني ساعدة بن كعب بن الخزرج، وكلاهما كان نقيبًا، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه بجمته، وكان ذا شعر كثير.

قال سعد: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليهم نفر من قريش فيهم رجل وضىء أبيض شعشاع حلو من الرجال، قال فقلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا، قال فلما دنا مني رفع يده فلكمني لكمة شديدة، قال: فقلت في نفسي: لا والله ما عندهم بعد هذا من خير[2].

قال: فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذا أوى لي رجل ممن كان معهم[3]، فقال: ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال: قلت: بلى والله قد كنت

(١) يعني استقصوه وتحروا عنه.

(٢) وهذا الرجل هو سهيل بن عمرو كما ذكر ابن إسحاق.

(٣) وهو أبو البَخْتَري بن هشام كما ذكر ابن هشام.

أُجير لجبير بن مُطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف تُجَّاره، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف.

قال: ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما، قال: ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يضرب بالأبطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جوارا، قالا: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة، قالا: صدق والله إن كان ليجير لنا تُجَّارنا، ويمنعهم أن يظلموا ببلده، قال: فجاءا فخلَّصا سعدا من أيديهم فانطلق[1].

وأخرجه الإمام أحمد بنحوه[2] وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع[3].

وأخرجه الحاكم وذكر نحوه وقال: هذا حديث صحيح جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه وأقره الذهبي[4].

وأخرجه الإمام أحمد والبزار من حديث جابر رضى الله عنه وذكر نحوه، ذكره الهيثمي وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح[5].

لقد أظهر الكفار شراستهم وانتقامهم حينما ظفروا بواحد من مسلمي المدينة، ولم يخلصه منهم إلا معرفته باثنين من أشرافهم كان يحمي تُجارهما إذا قدموا المدينة.

وهكذا كانت حياة المشركين في مكة حيث يتزعمهم مجموعة من الطغاة، كانوا يعدُّون أنفسهم سادة البلد، ويحترم بعضهم بعضًا غاية الاحترام، ويحفظ بعضهم حقوق بعض، ومبادئهم التي يرجعون إليها ويقدسون تخضع لمصالحهم الشخصية، فهذا سعد بن عبادة قد قبضوا عليه بتهمة التآمر على مقدساتهم التي يعظمونها، وعذبوه من أجل ذلك، ثم أفرجوا عنه حالاً حينما تدخَّل رجلان منهم كان له معروف سابق عليهما.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١ ٥٦ - ٦٩.
(٢) مسند أحمد ٣/ ٤٦٠ - ٤٦٢.
(٣) مجمع الزوائد ٦/ ٤٥.
(٤) المستدرك ٢/ ٦٢٤ - ٦٢٥.
(٥) مجمع الزوائد ٦/ ٤٦.

وهكذا الطغاة في كل زمن يرفعون شعارات وهمية يعدُّونها مبادئ سامية، يدعون إليها بحماس، ويدافعون عنها بقوة، ويحملون الناس على اعتناقها، ومن خالفهم فيها كان مصيره السجون والتعذيب والتشريد، ثم يكون هؤلاء الطغاة هم أول من ينقض أنظمة هذه المبادئ إذا خالفت منافعهم الشخصية، والحق عندهم ما رأوه وقرروه ولو كان ذلك مجاملة لواحد منهم، وقد يغيرون المبادئ التي كانوا يقدسونها إذا فقدت بعض مفعولها، وينتحلون مبادئ أخرى يرون أنها تحقق لهم قدرًا أكبر من التضليل واستغلال غفلة العقول.

والحقيقة الكبرى أن مبادئ هؤلاء المقدسة إنما تصبُّ في مصالحهم الخاصة، فمن أجلها يشرعون، ومن أجلها ينقضون ما شرعوا، ومن أجلها يوالون، ومن أجلها يعادون.

هذا وقد كان لحسان بن ثابت رضى الله عنه موقف يذكر في إسهامه بشعره الرائع في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وتبكيت المشركين، وقد قال في خبر ملاحقة المشركين للأنصار شعرًا يردُّ به على أحد شعراء المشركين، وفي ذلك يقول ابن إسحاق: وكان أول شعر قيل قبل الهجرة بيتين قالهما ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بني محارب بن فهر، فقال:

تداركت سعدًا عنوةً فأخذته ... وكان شفاءً لو تداركت منذرًا

ولو نلته طلَّتْ[1] هنا جراحه ... وكان حريًّا أن يُهان ويهدرا

وينبغي أن يُعلم بأن ضرارًا أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه.

وقد ذكر ابن إسحاق أن حسان بن ثابت رضى الله عنه أجابه بأبيات منها:

ولستَ إلى سعد ولا المرء منذر ... إذا ما مطايا القوم أصحبن ضُمَّرا[2]

فلا تك كالوسنان يحلم أنه ... بقرية كسرى أو بقرية قيصرا

فإنا ومن يُهدي القصائد نحونا ... كمستبضع تمرا إلى أرض خيبرا[3]

---

(١) أي أهدرت.

(٢) جمع ضامر، والضامر من الخيل والإبل الخفيف اللحم من التدريب والعمل لا من الهزال.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٦٩ - ٧٠.

من مغامرات الشباب المؤمن

قال محمد بن إسحاق - رحمه الله - في بيان ما قام به الأنصار بعد عودتهم من بيعة العقبة الثانية: فلما قدموا المدينة أظهروا الإسلام بها، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك، منهم عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب بن غَنْم بن كعب بن سلمة، وكان ابنه معاذ بن عمرو شهد العقبة، وبايع رسول الله ﷺ بها، وكان عمرو بن الجموح سيدًا من سادات بني سلمة وشريفًا من أشرافهم، وكان قد اتخذ في داره صنمًا من خشب، يقال له: مناة، كما كانت الأشراف يصنعون، يتخذه إلهًا يعظمه ويطهره.

فلما أسلم فتيان بني سلمة: معاذ بن جبل، وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح، في فتيان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كان يُدلجُون[1]، بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة، وفيها عذَرُ[2] الناس، منكسًا على رأسه.

فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم! من عدا على إلهنا هذه الليلة؟ قال: ثم يغدو يلتمسه، حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه، فإذا أمسى ونام عمرو عدَوا عليه، ففعلوا به مثل ذلك؛ فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فيغسله ويطهره ويطيبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى، فيفعلون به مثل ذلك.

فلما أكثروا عليه، استخرجه من حيث ألقوه يومًا، فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك.

فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه، فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عذر من عذر الناس، ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به، فخرج يتبعه حتى وجده في تلك

(١) أي يغيرون في الليل.
(٢) أي أوساخ.

البئر منكسًا مقرونًا بكلب ميت فلما رآه وأبصر شأنه، وكلمه من أسلم من رجال قومه، فأسلم يرحمه الله وحسن إسلامه.

فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف، وهو يذكر صنمه ذلك وما أبصر من أمره، ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

والله لو كنت إلهًا لم تكن ... أنت وكلبٌ وسْط بئر في قَرَنْ
أُفٍّ لَمَلْقاك إلهًا مستَدَنْ ... ألآن فتشناك عن سوء الغبن
الحمد لله العلى ذي المنن ... الواهب الرزاق ديان الدِّين
هو الذي أنقذني من قبل أن ... أكون في ظلمة قبر مرتهن
بأحمد المهدي النبي المؤتمن[1]

وهكذا رأينا شباب الإيمان معاذ بن جبل ومعاذ بن عمرو بن الجموح وأصحابهما يحاولون إقناع بعض شيوخ قبيلتهم بالإسلام، فلما رأوا عمرو بن الجموح مصرّا على عبادة صنمه قاموا بتلك الغارات الليلية على ذلك الصنم، حيث كانوا يأخذونه ويضعونه في وضع مهين مشين يفهم منه من رآه على تلك الحال أنه حقير لا يستحق شيئًا من الاهتمام فضلاً عن العبادة.

لقد ساء هؤلاء الشباب الذين نور الله تعالى بصائرهم أن يروا شيخًا من شيوخهم مازال يتمسك بأوهام الجاهلية، ويحجب بصره بظلماتها، فقاموا بتلك المغامرات؛ لإخراجه من ذلك الوضع المزري الذي يحجب عنه سعادة الدنيا والآخرة، فنجحوا في مهمتهم وكسبوا رجلاً كان له دور بارز في تثبيت الإسلام في قبيلته.

ويصل عمرو بن الجموح قبل أن يهديه الله تعالى إلى وضع يخزي العقل البشري وينحط به إلى أسفل الدركات من المهانة والذل والسذاجة حيث يضع سيفه على صنمه ويخاطبه طالبًا منه أن يدفع الاعتداء عن نفسه، ولا أدري كيف ينحدر العقل البشري حتى يتصور أن صنمًا من الخشب يستطيع أن يدافع عن نفسه، ولكنه صحا من غفوته وتنبه من غفلته حينما رآه من الغد مجردًا من سيفه مقرونًا بكلب ميت مُلقى في موضع قذر، فهل يبقى بعد ذلك أي مسوِّغ لتقديسه وعبادته؟

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٧٠ - ٧٢.

فلهذا هداه الله تعالى وقال تلك الأبيات التي يندب حظه فيها مع ذلك الصنم الذي سلب لبه وحوَّله إلى رجل ساذج مغفل.

إن هذا يعدُّ مثلاً على سذاجة أفكار أهل الجاهلية، وانحصار تفكيرهم في مجالات ضيقة محدودة، كما أنه يعدُّ مثلاً على انطلاق تفكيرهم بعد الإسلام في مجالات فسيحة رحبة لا تحدُّها الأرض ولا مفاهيم البشر المعاصرين.

ومقارنة بين نظرة ابن الجموح إلى صنمه حال جاهليته وبين نظرته إليه بعد إسلامه تبين لنا البعد الشاسع بين الجاهلية والإسلام، والنقلة العالية التي رفع الله تعالى بها المسلمين بعد إسلامهم.

لقد أصبح عمرو بن الجموح رضي الله عنه بعد إسلامه يسابق الشباب إلى ميادين الجهاد في سبيل الله تعالى حتى استشهد يوم أحد، وذلك بعد حياة إسلامية مليئة بالعبادة والفكر العالي المتطلع إلى بلوغ الهدف الإسلامي النبيل، وذلك بالظفر برضوان الله تعالى والسعادة الأخروية.

فما أعظم الإسلام منقذاً للبشرية من أوهاق الكفر والضلالة ومخرجا لهم من الظلمات إلى النور!

*****

مثل من الاهتمام بأمور المسلمين

لقد كان رسول الله ﷺ عظيم الاهتمام بأمور المسلمين الذين دخلوا في الإسلام من أهل المدينة وكان يتابع أخبار أفرادهم على الرغم مما كان يعاني منه هو وأصحابه في مكة من شدة أذى الكفار وحصارهم إياهم ورقابتهم عليهم.

ومن أمثلة هذا الاهتمام الكبير ما أخرجه الإمام البيهقي بإسناده عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، قال: «كانت حواء بنت زيد بن السكن عند قيس بن عبيد الخطيب - كذا قال وإنما هو ابن الخطيم- بالمدينة وكانت أمها عقرب بنت معاذ أخت سعد بن معاذ، فأسلمت حواء، فحسن إسلامها، وكان زوجها قيس على كفره، فكان يدخل عليها وهي تصلي، فيؤذيها، وكان لا يخفى على رسول الله ﷺ أمر يكون بالمدينة إلا بلغه وأُخبر به.

قال قيس: فقدمت مكة في رهط من مشركي قومي حُجَّاجًا، فبينا نحن[1] إذجاء رجل يسأل عني فدُلَّ عليَّ فأتاني فقال: أنت قيس؟ قلت نعم قال: زوج حواء؟ قلت: نعم، قال: فمالك تعبث بامرأتك وتؤذيها على دينها؟ فقلت: إني لا أفعل، قال: فلا تفعل ذلك بها دعها لي، قلت: نعم، فلما قدم قيس المدينة ذكر ذلك لامرأته وقال فشأنك بدينك، فوالله ما رأيته إلا حسَن الوجه حسَن الهيئة[2].

فهذا الخبر فيه دلالة واضحة على اهتمام النبي ﷺ بأحوال المسلمين في المدينة ومتابعته أخبارهم فقد علم بخبر هذه المرأة المسلمة مع زوجها الكافر الذي يؤذيها في دينها فجعل من اهتماماته النظر في إنقاذ هذه المرأة وإصلاح حالها، وقد قاده ذلك إلى متابعة السؤال عن القادمين من المدينة إلى مكة حتى علم بقدومه، فذهب إليه وكلمه في شأن زوجته حواء، وقد كان لمنظر رسول الله › البهيج المهيب أثر على ذلك الرجل حيث وافق على طلبه على الفور، وفي هذا توجيه عملي للمسلمين -وخاصة المسؤولين منهم- إلى ضرورة الاهتمام بأمور المسلمين وإنصافهم من ظالميهم.

*****

(١) هكذا جاء في الرواية وقد سقط منها بيان الحال التي كانوا عليها.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٥٥ - ٤٥٦.

الهجرة إلى المدينة النبوية

لقد كان العهد المكي منذ أن أعلن رسول الله ﷺ دعوته حافلاً بصنوف الأذى لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، من المشركين الذين كانوا يسيطرون على مكة كما تقدم ذكر أمثلة كثيرة لذلك.

ولقد كان موقف الرسول ﷺ وأصحابه إزاء ذلك هو الصبر الجميل، وانتظار الفرج من الله تعالى، ولقد حصل نوع من الفرج لبعض الصحابة بالهجرة إلى الحبشة ولكن تلك الهجرة لم تكن شاملة لجميع المسلمين، كما أنه لم يقُصد منها إقامة دولة الإسلام في تلك البلاد.

ولما أن بلغت الدعوة في مكة نهايتها واستنفدت مقاصدها أذن الله تعالى لرسوله ﷺ وللمسلمين بالهجرة إلى المدينة النبوية بعد أن انتشر الإسلام فيها وأصبح المسلمون من أهلها هم أصحاب القوة والغلبة.

ولقد أخبر النبي ﷺ المسلمين بدار هجرتهم التي قدرها الله تعالى لهم، ومما جاء في ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة: يثرب**»[1].

وجاء في حديث آخر أخرجه الإمام البخاري من حديث عائشة - رضي الله عنها- قالت: فقال النبي ﷺ للمسلمين: «**إني أُريت دار هجرتكم ذات نخل بين لا بتين، وهما الحرتان**»، فهاجر من هاجر قبلَ المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر قبَل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «**على رسلْك، فإني أرجو أن يؤذن لي**»، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: نعم. فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ؛ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر - وهو الخبط- أربعة أشهر[2].

---

(١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار باب ٤٥ (٧/ ٢٢٦).

(٢) صحيح البخاري ٧/ ٢٣١، رقم: . ٣٩٠٥ .

ولقد وجَّه النبي ﷺ أصحابه إلى الهجرة وأمرهم بها.

أخرج ابن سعد من طريق شيخه محمد بن عمر الواقدي قال: حدثني معمر بن راشد عن الزهري عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، وعن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالا: لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ، طابت نفسه وقد جعل الله له منعة وقومًا أهل حرب وعُدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج، فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة، فقال: «**قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين؛ هما الحرتان، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي**».

ثم مكث أيامًا، ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد الخروج فليخرج إليها، فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت حثمة، فهي أول ظعينة قدمت المدينة.

ثم قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً[1]، فنزلوا على الأنصار في دورهم، فآووهم ونصروهم وآسوهم، وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين بقباء قبل أن يقدم رسول الله ﷺ، فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة كلبت قريش عليهم وحَربوا واغتاظوا على من خرج من فتيانهم.

وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ، في العقبة الآخرة، ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة حتى قدموا مع أصحابه في الهجرة فهم مهاجرون أنصاريون، وهم: ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب بن كلدة، والعباس بن عبادة بن نضلة، وزياد بن لبيد.

وخرج المسلمون جميعًا إلى المدينة، فلم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ، وأبو بكر وعلي، أو مفتون محبوس، أو مريض، أو ضعيف عن الخروج[2].

---

(١) أي متتابعين جماعة بعد جماعة.

(٢) طبقات ابن سعد ١/ ٢٢٦.

وأخرج محمد بن إسحاق هذا الخبر مختصراً[1] .

ولقد كانت الهجرة صعبة على المسلمين الذين ولدوا ونشؤوا بمكة، ولكنهم هاجروا منها استجابة لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ، وقد رويت أشعار وأقوال تدل على صعوبة مفارقة الوطن على المهاجرين، ومن ذلك قول بلال رضي الله عنه .

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بوادٍ وحولي إذخر وجليل
وهل أردَنْ يومًا مياه مجَنَّة ... وهل يبدوَنْ لي شامة وطفيل[2]

ومما جاء من الأشعار التي تصور مشاعر المسلمين حول الهجرة قول أبي أحمد بن جحش رضي الله عنه .

ولما رأتني أم أحمد غاديًا ... بذمة من أخشى بغَيْب وأرهبُ
تقول: فإما كنت لا بد فاعلا ... فيمم بنا البلدان ولتُنْأ يثرب
فقلت لها: بل يثرب اليوم وجهنا ... وما يشإ الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهي والرسول، ومن يُقم ... إلى الله يومًا وجهه لا يُخيَّب
فكم قد تركنا من حميم مناصح ... وناصحة تبكي بدمع وتندب
ترى أن وترًا نأيُنا عن بلادنا ... ونحن نرى أن الرغائب نطلب[3]

*****

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٨ .

(٢) صحيح البخاري رقم: ٣٩٢٦، والإذخر والجليل: نوعان من النبات، ومجنة: مكان على بعد أميال من مكة وبه السوق المشهور، وشامة وطفيل: جبلان بمكة، الفتح: ٧/ ٢٦٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٤ .

هجرة أبي سلمة وأم سلمة
ومثل من الصبر الجميل

قال ابن إسحاق: فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين، من قريش، من بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، واسمه عبد الله، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، كان قدم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجراً.

قال ابن إسحاق: فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر ابن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة، زوج النبي ﷺ قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحَّل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتَنَا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففُرِّق بيني وبين زوجي وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كل غداة، فأجلس بالأبطح فما أزال أبكي، حتى أمسي سنة أو قريبًا منها، حتى مر بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة! فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، قالت: ورد بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله، قالت: فقلت: أتبلَّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبُني هذا.

قال: والله مالك من مَتْرك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يَهْوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، وقال: اركبي فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية -وكان أبو سلمة نازلاً فيها- فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة[1].

في هذا الخبر مثل من قساوة المشركين وفظاظتهم، حيث لا يردعهم عن الظلم رادع إلا خوف محاسبة الناس في الدنيا وانتقامهم، وقد أمنوا حساب الدنيا في معاملتهم لهذه المرأة المسكينة، وهم لا يؤمنون بحساب الآخرة الذي لا يفرق بين قوي وضعيف وشريف ووضيع؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة.

وأخيرًا أدركت الرحمة أحد أقارب أم سلمة -رضي الله عنها- فطالب بإنصافها بدافع من القرابة، ونجت من يد الأعداء، ولكن كيف لها أن تسافر ذلك السفر

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٨- ٩١، وعثمان بن طلحة هو العبدري حاجب البيت، أسلم بعد الحديبية وهاجر مع خالد بن الوليد، وشهد الفتح مع النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاه مفتاح الكعبة، الإصابة: ٢/ ٤٥٢، رقم: ٥٤٤٢.

الطويل وحدها؟ وما هذا الدافع الذي دفع هذه السيدة إلي الإقدام على هذه المغامرة الخطرة؟ ألم تخش على نفسها وحشة الطريقة؟ ألم تخش على ولدها الصغير؟ إنه اليقين الراسخ والإيمان بأن الله تعالى لن يضيعها وقد كان سبحانه وتعالى عند حسن ظنها حيث قيض لها عثمان بن طلحة العبدري رضي الله عنه الذي أبت شهامته أن يتركها تسافر وحدها فصحبها طول الطريق وقام بشؤونها خير قيام.

وإن ظهور هذا السيد الشهم لها واستعداده للسفر معها وهي على أبواب مغادرة مكة دليل واضح على عناية الله تعالى بأوليائه وتسخيره لهم، فهو جل وعلا الذي سخر قلب ذلك الرجل للعناية بها وبذل الجهد والوقت من أجلها.

ومما ينبغي أن يلاحظ أن عثمان بن طلحة لم يكن آنذاك مسلمًا، ومع ذلك قدم هذه الخدمة الجليلة لامرأة كانت على دين أعدائه، وهذا مثل مما كان العرب يتصفون به من مكارم الأخلاق، وخاصة قبيلة قريش التي اختار الله جلَّ وعلا نبيه ﷺ منها.

*****

مثل من فطنة عمر وإيثار إخوانه
(هجرة عمر وخبره مع عياش بن أبي ربيعة)

قال ابن إسحاق: «ثم خرج عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي حتى قدما المدينة، فحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب، قال: اتَّعدت، لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام ابن العاص بن وائل السهمي التناضبَ من أضاة بني غفار[1]، فوق سَرف[2]، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حُبس فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنا هشام، وفُتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك ولا تستظل من شمس حتى تراك فرقَّ لها».

وهكذا ندرك كيف يبذل دعاة الضلالة من وقتهم وجهدهم وأموالهم في سبيل نصرة باطلهم، ومحاولة إخماد دعوة الحق، حيث خرج أبو جهل وأخوه من مكة إلى المدينة وتحملا عناء السفر من أجل محاولة فتنة فرد واحد عن دينه، أفلا يتحمل المسلمون مثل هذا الجهد أو أفضل منه من أجل دعوة الناس إلى الرشد واتباع الحق؟!

ولقد أدرك أبو جهل كيف يدخل على عياش من الجانب المؤثر عليه، حيث ذكر وضع أمه؛ ليكسب موافقته على العودة، وهو يعلم أن عياشًا من أهل البر والصلة، وقد كان له ما كان وهذا مشهد يبين لنا صورة من مخططات أعداء الإسلام التي يحاولون بها صرف المسلمين عن التمسك بدينهم.

---

(١) التناضب بكسر الضاد نوع من الشجر تألفه الحرباء، والأضاة: الغدير، وأضاة بني غفار على عشرة أميال من مكة - الروض الأنف للسهيلي ٤/ ١٨٩ - ١٩٠ -.

(٢) بفتح السين وكسر الراء هو واد قرب مكة على طريق المدينة، وقد قام العمران حوله حاليًا.

«قال عمر رضي الله عنه في سياق روايته: فقلت له: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمَّك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت».

وهكذا كان عمر رضي الله عنه فطنًا مدركًا لمكائد الكفار فقد تفرَّس في وجوه القوم فعرف فيهم الغدر والمكيدة مع ما اشتهر عن أبي جهل قبل ذلك من عداوة المسلمين.

وهكذا ينبغي لكل مسلم أن يكون حذرًا من الكفار وإن أظهروا النوايا الحسنة، وأن يُغلب جانب إساءة الظن بهم، وألا يضع ثقته بهم؛ لأن الأصل فيهم أنهم لا يراعون في مسلم عهدًا ولا ذمة؛ لشدة حقدهم على الإسلام والمسلمين، كما قال الله تعالى: ﴿**لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ**﴾ [التوبة: ١٠]، أي لا يراعون حرمة القرابة ولا الجوار ولا العهد.

«قال: فقال -يعني عياش-: أبرُّ قسم أمي ولي هناك مال فآخذه».

وهكذا استطاع عدو الإسلام أبو جهل أن يخدع عياشًا، وأن يستميله للموافقة على العودة إلى مكة.

«قال أي عمر -: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالا، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما، قال فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلاَّ ذلك قال: قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها».

وهذه تضحية كبيرة من عمر حيث تنازل لعياش عن نصف ماله وهو صاحب المال الكثير في مقابل حمايته من الفتنة في الدين، وإن بذل المال في سبل الخير دليل على قوة الإيمان ووضوح الهدف الإسلامي العالي، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والدار الآخرة، وذلك لأن المال من أعز المحبوبات لدى الإنسان، فإذا جاد به من أجل الله تعالى فهو من أهل الإيمان الراسخ.

«قال عمر: فخرج عليها - يعني على ناقة عمر - معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا بن أخي، والله لقد استغلظ عليَّ بعيري هذا أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، قال: فأناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه رباطًا، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحاق: فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهاراً موثقًا ثم قالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا».

وهكذا تحقق ظن عمر بأبي جهل وأمثاله، ووقع عياش في مكائد المشركين؛ لأنه وضع ثقته بهم ولم يغلِّب جانب الحذر منهم، وفي ذلك عبرة للمسلمين حتى لايأمنوا الكفار وإن أظهروا لهم المودة وقدَّموا لهم المعونة فإن ذلك نوع من الطُّعم الذي يصطادون به المسلمين، كما قال الله تعالى: ﴿**كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ [التوبة: ٨].

وفي المشهد المؤلم الذي دخل فيه عياش مكة موثقًا، ووصفه بالسفاهة إمعان من أبي جهل في إذلال المسلمين وتحطيم معنوياتهم، فكيف يثق المسلمون بالكفار وهم لا يريدون بهم إلا الشر.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن أخا أبي جهل الحارث بن هشام قد أسلم بعد فتح مكة وحسن إسلامه وكان له في الجهاد بلاء كبير.

قال ابن إسحاق: وحدثني نافع، عن عبد الله بن عمر، عن عمر في حديثه قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفًا ولا عدلاً[1]، ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أنزل الله تعالى فيهم، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٥][2].

---

(١) الصرف: التوبة وقيل النافلة، والعدل: الفدية وقيل الفريضة. ذكره ابن الأثير في النهاية، فيكون ذكر التوبة على القول الأول من باب عطف التفسير.

(٢) أخرج هذا الجزء من الخبر الحاكم وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي ٢/ ٤٣٥.

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص، قال: فقال هشام بن العاص: فلما أتتني جعلت أقرؤها بذي طوى أصعِّد بها فيه وأصوِّب ولا أفهمها، حتى قلت: اللهم فهمنيها، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا، قال: فرجعت إلى بعيري، فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ وهو بالمدينة[1].

وذكر الحافظ الهيثمي نحو هذا الخبر، وقال: رواه البزار ورجاله ثقات[2].

وقال الحافظ ابن حجر: وأخرج ابن السَّكن بسند صحيح عن ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن عمر: ثم ذكر أول الخبر[3].

وهكذا كانوا يظنون أن من فتنه الكفار فافتتن ورضي بالعيش معهم أن الله تعالى لا يقبل منه توبة حتى نزلت هذه الآيات ففرح بها عمر رضى الله عنه، وقد كان في هم وأسف على إخوانه الذين استجابوا لفتنة الكفار، فبادر بكتابة هذه الآيات إلى هشام بن العاص.

وقد كان هشام وأمثاله في حالة يأس وقنوط من رحمة الله تعالى؛ لظنهم بأن من كان في مثل حالهم لا توبة له، فلما أخذ الصحيفة التي كتبها عمر وقرأ الآيات أصبح في حيرة من أمره إذ إنه لم يكن يتصور أن رحمة الله تعالى تتسع لأمثاله، فسأل الله تعالى أن يفهمه المقصود من الآية - وإن كان يفهم معناها - فألهمه الله سبحانه أنه وأمثاله هم المقصودون بها، فتاب إلى الله تعالى، وعزم على الهجرة.

*****

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٩٥ - ٩٨.
(٢) مجمع الزوائد ٦/ ٦١.
(٣) الإصابة ٣/ ٥٧٢ رقم ٨٩٦٧.

مثل عظيم من الإيثار والتوكل على الله تعالى

بعد أن أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة ورغَّبهم فيها، سارعوا إلى ذلك حتى لم يبق من القادرين على الهجرة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي رضي الله عنهما.

وفي ذلك يقول محمد ابن إسحاق - رحمه الله تعالى-: وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حُبس أو فتُن إلا عليٌّ بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق رضي الله عنهما، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: «**لا تعجل لعلَّ الله يجعل لك صاحبًا، فيطمع أبو بكر أن يكونه**»[1].

لقد حبب رسول الله ﷺ الهجرة للمسلمين وحثهم عليها، ولم يعدَّها مجرد رخصة للخروج من أذى المشركين وحصارهم، بل عدَّها عملاً صالحًا يثاب عليه فاعله ثوابًا جزيلاً، فتسابق المسلمون لهذا العمل الصالح، وخرجوا جماعات جماعات بتسلُّل واختفاء من المشركين حتى لا يحبسوهم وتركوا مالا يستطيعون حمله من أموالهم التي استولى عليها المشركون بعد ذلك.

لقد خرج المهاجرون من وطنهم الذي كانوا يعيشون فيه برغد وسعة إلى ضيق من العيش وضيق في السكن في المدينة؛ طاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ؛ ليتكون بهم وبالأنصار المجتمع الأول المتكافل الذي قامت به دولة الإسلام بعد هجرة الرسول ﷺ.

ولقد كان عجيبًا أن يخرج المسلمون من مكة جميعًا، ولا يبقى فيها من غير المحبوسين والمفتونين غير أبي بكر وعلي بن أبي طالب اللَّذين بقيا مع رسول الله ﷺ بأمر منه.

وإنه لموقف عظيم من رسول الله ﷺ أن أفرد نفسه من جنوده المخلصين له؛ الذين يفدونه بأرواحهم، وهو القائد المستهدف من أعدائه الذين يتربصون به الدوائر؛ ليقتلوه أو يحبسوه، ولكنه القائد العظيم الذي يكون في ساقة جنوده حتى يحرزهم، ثم إنه

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢.

يعظمه عظمة توكله على ربه جل وعلا موقن بأنه سبحانه معه بنصره وتأييده ومانعه من أعدائه.

ولقد كان بقاء رسول الله ﷺ في مكة حماية للمؤمنين، فلو أنه هاجر لقضى المشركون على من بقي معلنًا إسلامه من المستضعفين، ولعل بقاءه سهَّل هجرة المؤمنين لما كان المشركون يخططون له من قتله، فلم يعرقلوا هجرة أصحابه؛ ليتم ما أرادوا من الكيد به، وما حصل من الحبس لبعضهم؛ كعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص كان من أقاربهم المتصلبين في الكفر فلم يشمل ذلك جميع المسلمين.

ولا شك أن هجرة عمر وحمزة وأمثالهما من المسلمين الأشداء ممن كانوا يحمون الرسول ﷺ مما سهَّل على المشركين تنفيذ مؤامراتهم على رسول الله ﷺ، ولقد تم كل ذلك بأمر الله تعالى وتوجيهه؛ ليتم ما أراده جل وعلا من هذه الهجرة المباركة التي كانت فتحًا عظيمًا للإسلام والمسلمين.

*****

الهجرة النبوية

بعد أن أمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة ولم يبق في مكة من القادرين على الهجرة إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق وعليٌّ بن أبي طالب كَبُر ذلك على المشركين، ورأوا أن خروج رسول ﷺ إلى المدينة يُشكل خطرًا كبيرًا على أمْنهم، فاجتمع زعماؤهم في دار الندوة، واتخذوا بعد المشاورة أسوأ وأخطر قرار اتفقوا عليه، وهو: الإقدام على قتل النبي ﷺ.

هذا وقد رُويت في الهجرة النبوية أحاديث وآثار، فمن ذلك:

١- قال محمد بن إسحاق - رحمه الله-: ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة -وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه[1].

ثم ذكر فيما رواه عن ابن عباس - رضي الله عنهما- ما تم بينهم من مشاورة ومداولة؛ حيث رأى بعضهم أن يحبسوه في الحديد حتى يموت، ورأى بعضهم أن يخرجوه من بلادهم، ورأى بعضهم أن يقتلوه، وأن يتولى قتله شباب من قريش حتى يتفرق دمه في القبائل، وكان هذا رأي أبي جهل، وقد استقر رأيهم على ذلك[2].

وهكذا عقد زعماء قريش ذلك المجلس الخطير في دار الندوة، وخرجوا منه بنشوة الماكرين وفرحة الآثمين، وهم يظنون لجهلهم ونظرهم القاصر أنهم قد أصابوا من الإسلام موجعًا، وأضافوا إلى ما ورثوه من مهازل الجاهلية رفعةً وعُلوا.

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٠٣- ١٠٥، تاريخ الطبري: ٢/ ٣٧٠- ٣٧٢، وقد جاء في رواية ابن هشام عن زياد البكائي قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم من أصحابنا عن عبد الله بن أبي نجيح، وجاء في رواية الطبري عن سلمة بن الفضل الأبرش قال: حدثني محمد بن إسحاق قال: حدثني عبد الله بن أبي نجيح، وهذا يعني أن ابن إسحاق رواه مرة عن ابن أبي نجيح بواسطة، فحدث بذلك زيادًا البكائي، ورواه عنه مرة أخرى بدون واسطة فحدث به سلمة بن الفضل، فهو بهذا محمول على الاتصال.

إن ما ذكره زعماء مكة من التخطيط الأثيم لقتل النبي ﷺ وهو أعزل من جنوده، خوفًا من أن يهاجر فيقيم دولة ويثيرها حربًا عليهم. . إن ذلك دليل على اتصافهم بالجبن والبعد عن الحياة الحربية التي يعتز بها العرب المعاصرون لهم.

لقد كان مما يعتز به العرب إثارة الحروب فيما بينهم، وأشعارهم طافحة بالحماسة والاعتزاز بالشجاعة والافتخار بخوض المعارك، فما بال جبابرة مكة آنذاك يصولون ويجولون على العزَّل من السلاح، الداعين إلى السعادة والصلاح!

وما بالهم لما لاحت لهم بوارق الحرب التي سيثيرها عليهم رسول الله ﷺ حاولوا كتم أنفاسه قبل أن يثيرها!

إنهم لا يفعلون ذلك بدافع من محاولة الإصلاح، بل يفعلونه؛ لكبت دعوة الإصلاح العظمى، وكتم صوت المصلح الأكبر والداعية الأعظم ﷺ.

وقد ذكر الله سبحانه هذه الآراء الثلاثة بقوله عز وجل: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ **لِيُثْبِتُوكَ** ﴾ أي ليحبسوك.

٢- ما أخرجه الإمام أحمد والطبراني عن ابن عباس - رضي الله عنهما- أنه قال في قول الله عز وجل ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ** ﴾، قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق؛ يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك، فبات عليٌّ رضي الله عنه على فراش رسول الله ﷺ.

وخرج رسول الله ﷺ، حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليًا يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا عليًا ردَّ الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار، فرأوا نسج العنكبوت على بابه، فبات فيه ثلاث ليال.

ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: رواه أحمد والطبراني، وفيه عثمان بن عمرو الجزري وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح[1].

(١) مجمع الزوائد ٧/ ٢٧.

وذكره الحافظ ابن كثير، وقال: وهذا إسناد حسن، وهو من أجود ما رُوي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار، وذلك من حماية الله تعالى رسولَه ﷺ[1].

وحسَّن إسناده الحافظ ابن حجر[2]، وكذلك حسَّنه الزرقاني[3].

وقوله: «فأطْلَع الله عز وجل نبيه على ذلك»؛ يعني على مؤامرة قريش ضده، وجاء في رواية ابن إسحاق: «فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ، فقال: لا تَبتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه»[4].

وهكذا كان الله تعالى مع نبيه ﷺ بنصره وحمايته، ومن هنا نعلم أن المعركة بين الحق والباطل ليست معركة أرضية فقط؛ لأن الحق موصول بالسماء، وجنود الحق مؤيدون من الله تعالى.

ولئن كان رسول الله ﷺ مؤيداً من الله تعالى بجبريل عليه السلام الذي يخبره بما يدبر له أعداؤه ويوجهه إلى خطة العمل المضاد لذلك، فإن جنود الحق من أتباع رسول الله ﷺ مؤيدون من الله تعالى بأنواع من النصر قد تظهر تكريمًا من الله تعالى لأوليائه وقد لا تظهر، وقد أيَّد الله نبيه ﷺ وأصحابه بالكثير من ذلك كما سيتبين لنا في مواقف أخرى بإذن الله تعالى، وذلك تفسير واقعي لقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٧]، فنصر الله تعالى يكتب لكل من ناصَر هذا الدين.

وبهذا التدبير الإلهي أحبط الله مؤامرتهم وأبطل مكرهم، كما بين ذلك بقوله: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ [الأنفال: ٣٠].

٣- أخرج الإمام البخاري بإسناده عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنِّعًا -في ساعة لم يكن يأتينا فيها-، فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ، فأستأذن، فأذنَ له، فدخل، فقال ﷺ لأبي بكر: «**أخرج مَنْ عندك**»، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٧٩.
(٢) فتح الباري ٧/ ٢٣٦.
(٣) شرح المواهب ١/ ٣٢٣.
(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٢.

رسول الله، قال: «**فإني قد أذن لي في الخروج**»، فقال أبو بكر: الصِّحابة بأبي أنتَ يا رسول الله، إحدى راحلتيَّ هاتين، قال رسول الله ﷺ: «**بالثمن**».

قالت عائشة: فجَّهزناهما أحث الجهاز[1]، وصنعنا لهما سُفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سُمِّيت ذات النطاق.

وأخرجه ابن إسحاق من حديث عائشة - رضي الله عنها- وفيه أن اليوم الذي جاء فيه رسول الله ﷺ هو اليوم الذى أذن له بالخروج فيه من مكة.

وعلى هذا فإن النبي ﷺ جاء؛ لإخبار أبي بكر بذلك، وللاتفاق معه على كيفية الخروج ليلاً.

وجاء فيه أن أبا بكر بكي من الفرح بصحبة النبي ﷺ، وتقول عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ[2].

لقد جاء النبي ﷺ إلى بيت أبي بكر مستخفيًا، قد قنع وجهه حتى لا يراه المشركون، واختار وقت الظهيرة؛ لأن الناس لا يخرجون من بيوتهم من شدة الحر، فهو قد دخل في معركة غير متكافئة إطلاقًا؛ حيث يمثلها النبي ﷺ وحده من جانب، ويمثلها الكفار بعَددهم وعُددهم من الجانب الآخر، فهو مضطر إلى الاستخفاء وتدبير الخطط التي تضمن خروجه من بين ظهرانيهم بسلام، وهذا هو النجاح في تلك المعركة وهو ما كان يخشاه المشركون.

وأبو بكر رضي الله عنه يبكي من الفرح بصحبة النبي ﷺ في تلك الرحلة الجهادية المحفوفة بالمخاطر من أول قدم فيها إلى نهايته.

أو ليس رسول الله ﷺ وصاحبه يتحديان بذلك الخروج إرادة جميع زعماء مكة وجنودهم المسخَّرين لهم؟! فما الذي يحمل أبا بكر على الفرح بالصحبة في تلك الرحلة الشاقة الخطرة؟!

إنه الإيمان القوي بالإسلام، ومادام وجود هذا الدين وقيامه مترتبا على سلامة النبي ﷺ وتمكنه من الدعوة فلمَ لا يستسهل أبو بكر كل صعب من أجل حماية النبي ﷺ؟ ولم لا يبكي فرحا بصحبته والفوز بخدمته والدفاع عنه؟!

---

(١) أي جهزوهما بسرعة.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٨.

وقوله في رواية ابن عباس: «فبات عليٌّ على فراش رسول الله ﷺ»[1]، كان ذلك بأمر من رسول الله ﷺ كما جاء في رواية ابن إسحاق: «فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي: **نَمْ على فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحصرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم**»[2].

وهذا جزء من تدبير الله تعالى لرسوله ﷺ؛ حيث علم أن قيام عليٍّ بن أبي طالب بذلك الدور لن يؤدي إلى قتله.

ومع الثقة والطمأنينة التي حصلت لعليٍّ رضي الله عنه بوعد النبي ﷺ، فإن بياته في ذلك المكان الخطر الذي كان هدفًا لعدد كبير من المشركين قد تجمعوا وراء الباب يعدُّ شجاعة فذة وجسارة عظيمة، ولعل هذه أول تجربة كبيرة لقوة قلبه ورباطة جأشه، وقد سجل له التاريخ بعد ذلك مواقف عالية في الشجاعة والإقدام.

وقول رسول الله ﷺ حينما عرض عليه أبو بكر إحدى الناقتين: «بالثَّمن»[3]، بيان لاهتمام النبي ﷺ بالعمل الصالح، فهو يريد أن تكون هجرته من ماله؛ ليكسب العمل الصالح في الجهد البدني والمالي، وإلا فإنه يعلم أن أبا بكر لا يهمه المال بقليل ولا بكثير وأنه قد أعد تلك الراحلة عن طيب نفس.

وهذا مثل من أمثلة كون النبي ﷺ القدوة العظمى لهذه الأمة، فينبغي للمسلم أن ينافس إخوانه على العمل الصالح، وألا تستريح نفسه لكون غيره يبذل عنه المال فيما إذا كان بذل المال عملاً صالحًا.

وجاء في سياق حديث عائشة - رضي الله عنها- السابق، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلامٌ شابٌ ثقفٌ لقنٌ، فيدلج من عندهما بسَحَر[4]، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما

(١) الحديث رقم (٢).
(٢) تابع للحديث رقم (١).
(٣) حديث رقم (٣).
(٤) يقال: أدلج بالتخفيف إذا سار من أول الليل، وادَّلج بالتشديد إذا سار من آخره، والاسم منهما الدُّلجَة.

حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسْل - وهو لبنُ منحتهما ورَضيفهما[1]- حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

وفي هذا الخبر فضائل أخرى لأبي بكر رضي الله عنه، منها: أنه كلف ابنه عبد الله بأن يسمع ما يقوله المشركون وما يخططونه نهاراً، ثم يأتيهما ليلاً، فيزودهما بالأخبار.

ومنها: أنه كلف مولاه عامر بن فهيرة بأن يأتي بغنم أبي بكر ليلاً، فيتزود هو ورسول الله ﷺ من حليبها، وتلك من فضائل أبي بكر رضي الله عنه الذي جنَّد في تلك الرحلة نفسَه وأهله وماله في سبيل الله تعالى.

إلى أن قالت: واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيل، وهو من بني عبد بن عدي هاديًا خرِّيتا - والخريت الماهر بالهداية- قد غمس حلفًا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعَا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل، فأخذ بهم طريق الساحل[2]، وهذا هو الذي جعل رسول الله ﷺ وأبا بكر يبحثان عن دليل، وذلك لأنهما أرادا السفر من طريق غير مألوف؛ للتعمية على قريش.

وأخرجه الإمام الطبراني من حديث أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما- ومما جاء فيه من الزيادات:

فخرجا، فمكثا في الغار في جبل ثور، فلما انتهيا إليه دخل أبو بكر الغار قبله فلم يترك فيه جُحْرًا إلا أدخل فيه إصبعه مخافة أن يكون فيه هامة.

وخرجت قريش حين فقدوهما في بغائهما وجعلوا في النبي ﷺ مائة ناقة، وخرجوا يطوفون في جبال مكة حتى انتهوا إلى الجبل الذي هما فيه فقال أبو بكر لرجل مواجه الغار: يا رسول الله ﷺ، إنه ليرانا، فقال: «**كلا، إن ملائكة تسترنا بأجنحتها**»، فجلس ذلك الرجل، فبال مواجه الغار، فقال رسول الله ﷺ: «**لو كان يرانا ما فعل هذا**».

---

(١) الرسل بكسر الراء اللبن الخفيف، والرضيف بفتح الراء وكسر الضاد اللبن الغليظ وكانوا يضعون فيه الحجارة المحماة لينعقد، والمنحة الشاة (فتح الباري ٧/ ٢٣٧).

(٢) صحيح البخاري: مناقب الأنصار: ٧/ ٢٣١، رقم: ٣٩٠٥.

ذكره الإمام الهيثمي، وقال: وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب، وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه أبو حاتم وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح[1].

٤- قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جُعلت لكم نار تحرقون فيها.

قال: وخرج عليهم رسول الله، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: «**نعم أنا أقول ذلك، أنت أحدهم**»، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس: ﴿**يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ**﴾، إلى قوله: ﴿**فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**﴾ [يس: ١- ٩]، حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب[2].

وهكذا حينما أظلم الليل نادى أهل الباطل بعضهم بعضاً، واجتمعوا؛ لتنفيذ الخطة المرسومة التي اتفقوا على تنفيذها في تلك الليلة، والغرور يحدوهم، والحبور بالإثم يغمرهم حتى قال أبو جهل هذا الكلام الساخر.

إن خروج النبي ﷺ وحده من بين جمع من أعدائه المسلحين الذين ينتظرون خروجه؛ ليقتلوه يعدُّ مثلاً عالياً للشجاعة الفذة.

وإن أبلغ صورة لهذه الشجاعة قوله لأبي جهل: «**نعم، أنا أقول ذلك**»، لقد كان رسول الله ﷺ ثابت الجنان، راسخ اليقين، على ثقة كاملة بوعد ربه جل وعلا له بالنصر والتمكين.

ولقد اغتر أبو جهل بذلك الجمع من الشباب المسلحين الذين استطاع أن يجندهم لقتل رسول الله ﷺ، فقال ذلك الكلام الساخر، ولكن ما أن خرج عليهم رسول الله

(١) مجمع الزوائد ٦/ ٥٣ - ٥٤.
(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٧.

ﷺ حتى أعمى الله تعالى أبصارهم وطمس بصائرهم، فذرَّ ﷺ التراب على رؤوسهم ومرَّ من بين أيديهم وهم لا يبصرون.

وهذه معجزة ظاهرة من دلائل نبوته ﷺ، ومثل واضح لمعية الله تعالى لأوليائه بالنصر والحماية.

قال ابن إسحاق في سياق رواية محمد بن كعب القرظي: فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدًا، قال: خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم،؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليًا على الفراش مُتسجِّيًا ببرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائمًا عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام عليٌّ رضي الله عنه عن الفراش، فقالوا: والله لقد كان صدَقَنا الذي حدثنا[1].

ولكن حتى بعد أن أيقنوا بتلك المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ فإنهم استمروا في المعركة معه وجدُّوا في البحث عنه؛ ليقتلوه، ولو عقلوا لعرفوا أنه في حماية الله تعالى ورعايته وأنهم لن يصلوا إليه مهما بذلوا من جهد ومحاولات.

لقد كان إفلات النبي ﷺ من بين أيديهم بداية واضحة لخذلانهم وفشل خطتهم، ودليلا ظاهرًا لكل ذي عقل سليم بأنه لم يكن في الميدان وحده، وأنه مؤيد بقوة عظمى لا يستطيعون إدراكها ولا مجابهتها.

٥- وأخرج أبو عبد الله الحاكم - رحمه الله تعالى- من حديث عمرو بن ميمون، عن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: شَرى عَليٌّ نفسه[2]، ولبس ثوب النبي ﷺ، ثم نام مكانه، وكان المشركون يرمون رسول الله ﷺ، وقد كان رسول الله ﷺ ألبسه برده، وكانت قريش تريد أن تقتل النبي ﷺ، فجعلوا يرمون عليًا ويرونه النبي ﷺ وقد لبس برده، وجعل عليٌّ رضي الله عنه يتضوَّر، فإذا هو علي، فقالوا: إنك للئيم، إنك لتتضور وكان صاحبك لا يتضور ولقد استنكرناه منك.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٠٧.

(٢) يعني باع نفسه إلى الله تعالى.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد رواه أبو داود الطيالسي وغيره عن أبي عوانة بزيادة ألفاظ، وأقره الإمام الذهبي[1]، وأخرجه الإمام أحمد بنحوه وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى[2].

وهذا الحديث الصحيح يفيد بأن النبي ﷺ نام على فراشه أول الليل، وأن المشركين لما طوقوا بيته رأوا النائم على الفراش، فتوقعوه هو، فصاروا يرمونه بالحجارة؛ ليقوم ويخرج إليهم، ولكنه تحمل وقع الحجارة ولم يتحرك، وهذا دليل على قوة احتماله وطول صبره، ثم إنه قام وأمر عليًا رضي الله عنه أن ينام في فراشه ذلك، ثم خرج عليهم وحصل ما حصل من طمس أبصارهم وذَرِّ التراب على رؤوسهم والنجاة منهم.

ولكنهم لم يدركوا حقيقة ما حدث، فاستمروا يرمون ذلك النائم على الفراش، وأنه كان يتحرك ويضطرب وهم لا يدرون أنه عليٌّ رضي الله عنه.

ولقد كان من حكمة أمر النبي ﷺ عليًا بأن ينام على فراشه: إيهام المشركين بأنه ﷺ ما يزال داخل البيت، وذلك يتيح له فرصة الذهاب إلى أبي بكر، ثم اللجوء إلى الغار قبل أن يبدأ الكفار في البحث عنه.

٦- أخرج أبو عبد الله الحاكم بإسناده عن محمد بن سيرين قال: ذُكر رجال على عهد عمر رضي الله عنه، فكأنهم فضلوا عمر على أبي بكر - رضي الله عنهما- قال: فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه، فقال: والله لَلَيْلة من أبي بكر خير من آل عمر، ولَيوم من أبي بكر خير من آل عمر، لقد خرج رسول الله ﷺ؛ لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله ﷺ، فقال: «**يا أبا بكر، مالك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي؟**»، فقال: يا رسول الله، أذكر الطَّلَب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرَّصَد فأمشي بين يديك، فقال: «**يا أبا بكر، لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟**» قال: نعم والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من مُلمَّة إلا أحببت أن تكون بي دونك، فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستَبْرِئَ لك الغار، فدخل واستبرأه، حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ

(١) المستدرك ٣/ ٤.

(٢) مسند أحمد بتحقيق شاكر ٥/ ٢٦ - ٢٧.

الجحَرة[1]، فقال: مكانك يا رسول الله ﷺ حتى أستبرئ الجحرة، فدخل واستبرأ، ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل.

فقال عمر: والذي نفسي بيده، لتلك الليلة خير من آل عمر.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، لولا إرسال فيه ولم يخرجاه، وقال الذهبي صحيح مرسل[2].

وأخرجه الحافظ البيهقي عن شيخه الحاكم بهذا الإسناد نفسه[3].

وأشار إليه الحافظ ابن حجر من رواية البيهقي والبغوي[4].

وقد ذكر في هذا الأثر ليلة أبي بكر الفاضلة ويومه الفاضل مجملاً، ثم جاء البيان لليلة الفاضلة ولم يأت بيان اليوم الفاضل وهو يوم الردة؛ حيث وقف أبو بكر للمرتدين والمتمردين بقوة وحزم.

وقد ذكر الحافظ البيهقي رواية أخرى فيها بيان هذا اليوم وقد جاء فيها: وأما يومه فلما توفي رسول الله ﷺ وارتدت العرب، فقال بعضهم: نصلي ولا نزكي، وقال بعضهم: لا نصلي ولا نزكي، فأتيته ولا آلوه نصحًا، فقلت: يا خليفة رسول الله تألَّف الناس وارفق بهم، فقال: جبَّار في الجاهلية خوَّار في الإسلام! فبماذا أتألفهم أبشعر مفتعل أو بشعر مفترى؟ قُبض النبي ﷺ وارتفع الوحي، فوالله لو منعوني عقالاً مما كانوا يعطون رسول الله لقاتلتهم عليه، قال: فقاتلنا معه فكان - والله - رشيد الأمر، فهذا يومه[5].

ولكن قال الإمام الذهبي عن هذا الخبر: وهو منكر سكت عنه البيهقي، ثم قال: وآفته من هذا الراسبي؛ يعني عبد الرحمن بن إبراهيم الراسبي، قال: فإنه ليس بثقة مع كونه مجهولاً[6].

---

(١) بكسر الجيم وفتح الحاء جمع جُحْر، والمراد أن يتأكد من خلوها من الهوامّ.

(٢) المستدرك ٣/ ٦، وفيه أخطاء تم تصحيحها من دلائل النبوة للبيهقي.

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٧٦.

(٤) فتح الباري ٧/ ٢٣٧.

(٥) دلائل البيهقي ٢/ ٤٧٦ - ٤٧٧.

(٦) تاريخ الإسلام / السيرة / ٢٢١ - ٢٢٢.

وكون هذا الخبر فيه ضعف شديد في إسناده لا يخفى على الحافظ البيهقي، ولكنه ذكره؛ لما فيه من بيان ما أُجمل في الرواية السابقة، ولكن كان ينبغي له أن يبين ضعف إسناده.

وهذا الخبر فيه مثال عال من التضحية والفداء، فقد جعل أبو بكر من نفسه درعًا لوقاية النبي ﷺ، فصار يمشي أحيانًا أمامه؛ ليتلقى هجوم الأعداء المترصدين له، وأحيانًا خلفه؛ ليتلقى هجوم الأعداء الذين يطلبونه، وقد ذكر وهو الصادق الصِّدِّيق بأنه يفدي رسول الله ﷺ بنفسه في أي مُلمَّة.

والمثال الآخر في دخوله الغار قبل النبي ﷺ واستبرائه الجحور؛ للتأكد من سلامتها من الهوام، وقد سبق في حديث أسماء - رضي الله عنها- أن أبا بكر لم يترك في الغار جحرًا إلا أدخل فيه إصبعه؛ مخافة أن يكون فيه هامَّة.

فهذا مثال واضح لتضحيته بنفسه في سبيل رسول الله ﷺ، وذلك لاحتمال أن يكون في بعض تلك الجحور من الحيات أو العقارب ما تؤذيه، لكنه رضي الله عنه لم يُلق لهذا الاحتمال بالاً؛ فداء للنبي ﷺ.

٧- أخرج الإمام البخاري ومسلم - واللفظ له- من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق حدثه قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما!**»[(١)].

وذكر الحافظ ابن كثير نحوه من طريق الحافظ أبي بكر بن علي القاضي عن الحسن البصري قال: انطلق النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار، وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا: لم يدخل أحد، وكان النبي ﷺ قائمًا يصلي وأبو بكر يرتقب، فقال أبو بكر للنبي ﷺ: هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسي أئلُّ[(٢)]، ولكنه مخافة أن أرى فيك ما أكره، فقال له النبي ﷺ: «**يا**

(١) صحيح البخاري، التفسير رقم: ٤٦٦٣، مناقب الأنصار، رقم: ٣٩٢٢، الفتح: ٨/ ٣٢٥، ٧/ ٢٥٧، صحيح مسلم، فضائل الصحابة رقم: ٢٣٨١، ١٨٥٤.
(٢) أي أحن وأبكي.

أبا بكر لا تخف إن الله معنا»، وهذا مرسل عن الحسن، وهو حسن بحاله من الشاهد، وفيه زيادة صلاة النبي ﷺ في الغار، وقد كان عليه السلام إذا أحزنه أمر صلَّى[1].

وهكذا وصل المشركون إلى مشارف الغار، فأعمى الله تعالى أبصارهم عن رؤية من بداخله، وطمس بصائرهم عن التفكير في ماضي النبي ﷺ، وما أجرى الله تعالى على يديه من المعجزات التي كانوا يعدونها من السحر، فكان بإمكانهم أن يقدروا أن نسيج العنكبوت نوع من ذلك.

وقول أبي بكر: «أما والله ما على نفسي أئلُّ، ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره»، يدل على تجرده الكامل من حظِّ النفس وبيعه نفسه خالصة لله تعالى ولرسوله ﷺ، فالقضية الوحيدة التي ملأت جوانحه وشغلت باله هي نجاة رسول الله ﷺ؛ ليستمر باستمرار بقائه نزول النور الإلهي وإكمال هذا الدين.

وفي جواب النبي ﷺ دلالة ظاهرة على نبوته؛ إذ أن أقوى الناس إيمانًا لا يصل إلى هذه الدرجة من اليقين التي كان يتصف بها رسول الله ﷺ فإن أبا بكر كان أقوى هذه الأمة إيمانًا كما ثبت عن رسول الله ﷺ ولم يصل إلى هذه الدرجة من اليقين.

٨- قال ابن إسحاق: فحُدِّثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل ابن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي! قالت: فرفع أبو جهل يده - وكَان فاحشًا خبيثًا- فلطم خدِّي لطمة طرح منها قُرطي[2].

وهذا مثل من أمثلة طغيان الكفار وجبروتهم، ولقد كان من عادة العرب تكريم النساء، والترفُّع عن الاعتداء عليهن؛ لأنهم يعدُّون أن ذلك مما يخل بالمروءة ويسقط الكرامة، ولكن أبا جهل لخبثه وشدة حقده على رسول الله ﷺ وعلى الإسلام تناسى العرف السائد بين العرب وأفرغ حقده في لطم تلك الفتاة البريئة بعد أن عزَّ عليه لطم الرجال والظفر بهم.

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٧٩.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١١١ - ١١٢.

٩- قال ابن إسحاق: فحدثني يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير أن أباه عبَّادا حدَّثه عن جدته أسماء بنت أبي بكر قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه، قالت: فدخل علينا جدِّي أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: قلت: كلا يا أبت! إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا.

قالت: فأخذت أحجارًا فوضعتها في كُوَّة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت، ضع يدك على هذا المال، قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم، ولا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكني أردت أن أُسكِّن الشيخ بذلك[١].

وأخرجه الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد[٢].

وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع[٣].

وأخرجه الحاكم من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق بهذا الإسناد وقال: حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الإمام الذهبي[٤] مع أنه قد سقط من هذا الإسناد أحد الرواة وهو عباد بن عبد الله بن الزبير وقد جاء الإسناد كاملاً في رواية ابن هشام وأحمد والطبراني، ولا يخفى ذلك على الحافظيْن؛ الحاكم والذهبي، ولكن لعل ذلك سقط من أحد النساخ.

وهكذا يبذل أبو بكر رضي الله عنه ماله في سبيل الله تعالى كما بذل نفسه، فقد حمل معه ماله كله؛ لينفق منه في تلك الرحلة الميمونة التي كان يُعدُّ لها نفسه وأسرته وماله.

إن الإيمان الذي يصل إلى حد بذل النفس والمال وكل الإمكانات من أجل نصر القضية التي يؤمن بها صاحبها لا بد أن يصل إلى نتائج إيجابية فعالة، فكيف إذا كانت هذه الجهود تبذل لنصر دين الله تعالى، والحال أن من نصر هذا الدين كان الله تعالى معه بنصره وحمايته؟

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١١٣.
(٢) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٨٢.
(٣) مجمع الزوائد ٦/ ٥٩.
(٤) المستدرك ٣/ ٥.

١٠- أخرج الإمام مسلم من حديث البراء بن عازب قال: جاء أبو بكر الصدِّيق إلى أبي في منزله، فاشترى منه رَحْلاً، فقال لعازب: ابعث معي ابنك يحمله معي إلى منزلي، فقال لي أبي: احمله فحملته.

وخرج أبي معه ينتقد ثمنه، فقال له أبي: يا أبا بكر حدثني كيف صنعتما ليلة سريت مع رسول الله ﷺ، قال: نعم، أسرينا ليلتنا كلها، حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق لا يمر فيه أحد، حتى رُفعتْ لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليه الشمس بعد، فنزلنا عندها، فأتيت الصخرةَ فسويت بيدي مكانًا ينام فيه النبي ﷺ في ظلها، ثم بسطت عليه فروة، ثم قلت: نم يا رسول الله، وأنا أنفض لك ما حولك[1]، فنام.

وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا براعي غنم مقبل بغنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا، فلقيته فقلت: لمن أنت يا غلام؟ فقال لرجل من أهل المدينة، قلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم، قلت: أفتحلب لي؟ قال: نعم، فأخذ الشاة، فقلت له: انفض الضرع من الشعر والتراب والقذى: «قال فرأيت البراء يضرب بيده على الأخرى ينفض»، فحلب لي في قعب[2]، معه كُثْبَةً من لبن، قال: ومعي إداوة أرتوي فيها للنبي ﷺ؛ ليشرب منها ويتوضأ.

قال: فأتيت النبي ﷺ وكرهت أن أوقظه من نومه، فوافقته استيقظ، فصببت على اللبن من الماء حتى برد أسفله، فقلت: يا رسول الله اشرب من هذا اللبن، قال: فشرب حتى رضيت، ثم قال: «**ألم يأن للرحيل؟**» قلت: بلى، قال: فارتحلنا بعد ما زالت الشمس[3].

هذه الرواية فيها تلخيص لبعض أحداث رحلة الهجرة النبوية، وهي تبين شيئًا مما قام به أبو بكر رضي الله عنه في خدمة النبي ﷺ خلال هذه الرحلة.

ولئن بيَّن أبو بكر شيئًا من ذلك، فإن ما سكت عنه أعظم، فكم هي الأعمال الصالحة التي اكتسبها أبو بكر خلال تلك الرحلة المباركة ورُفعت له!

---

(١) أي انظر حتى لا يكون هناك عدو.

(٢) القعب قدح من خشب مقعر.

(٣) صحيح مسلم، الزهد رقم ٧٥/ ٢٠٠٩.

خبر سراقة بن مالك المُدلجي مع رسول الله ﷺ:

١١- أخرج الإمام البخاري من حديث سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي أنه قال: «جاءنا رُسُل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سُراقة، إني قد رأيت آنفًا أسْودةً بالساحل أراها محمدًا وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهُم، ولكنك رأيت فلانا وفلانًا انطلقوا بأعيننا، ثم لبثتُ في المجلس ساعة، ثم قمت، فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي - وهي من وراء أكمة- فتحبسها علي.

وأخذتُ رمحي، فخرجت به من ظهر البيت فخططت بزُجِّه الأرض[١]، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها، فرفعتها تقرِّب بي، حتى دنوت منهم، فعثرَتْ بي فرسي، فخررت عنها، فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها: أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي - وعصيت الأزلام- تقرِّب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها، ثم زجرتها، فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثُان ساطع في السماء مثل الدخان[٢]، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره.

فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني[٣]، ولم يسألاني إلا أن قال: «**أخْف عنَّا**»، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم[٤]، ثم مضى رسول الله ﷺ[٥].

---

(١) أي وضع حديدة الرمح على الأرض حتى لا يراه قومه.

(٢) أي غبار يشبه الدخان.

(٣) يعني لم يأخذا مني شيئًا.

(٤) أي رقعة من جلد.

(٥) صحيح البخاري، مناقب الأنصار رقم ٣٩٠٦.

١٢- وأخرج الإمام مسلم من حديث أبي بكر رضي الله عنه وجاء فيه: فلما دنا دعا عليه رسول الله ﷺ، فساخ فرسه في الأرض إلى بطنه، ووثب عنه، وقال يا محمد! قد علمت أن هذا عملك، فادع الله أن يخلصني مما أنا فيه، ولك عليَّ لأُعمِّين على مَنْ ورائي[١]، وهذه كنانتي، فخذ سهمًا منها، فإنك ستمر على إبلي وغلماني بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك، قال: «**لا حاجة لي في إبلك**».

وفي رواية أخرى لمسلم قال: فرجع لا يلقي أحدًا إلا قال: قد كُفيتم ماههنا فلا يلقي أحدًا إلا رده، قال: ووفَّي لنا[٢].

١٣- وأخرجه ابن إسحاق من حديث الزهري بإسناد الإمام البخاري نفسه، وزاد في آخره: «حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله وفرغ من حنين والطائف، خرجت ومعي الكتاب؛ لألقاه، فلقيته بالجعرانة، قال: فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار، فجعلوا يقرعونني بالرماح، ويقولون إليك إليك، ماذا تريد؟ قال: فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، والله لكأنِّي أنظر إلى ساقه في غرزه كأنها جُمَّارة[٣].

قال: فرفعت يدي بالكتاب، ثم قلت: يا رسول الله، هذا كتابك لي، أنا سراقة بن جعشم قال: فقال رسول ﷺ: «**يومُ وفاء وبرٍّ، ادْنه**»، فدنوت منه، فأسلمت، ثم تذكرت شيئًا أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره، إلا أني قلت: يا رسول الله، الضالة من الإبل تغشى حياضي، وقد ملأتها لإبلي، هل لي من أجر في أن أسقيها؟ قال: «**نعم، في كل ذات كبد حرَّى أجر**»، قال: ثم رجعت إلى قومي، فسقت إلى رسول الله ﷺ صدقتي[٤].

وأخرج الإمام الطبراني من حديث أسماء نحو حديث الإمام البخاري وابن إسحاق.

ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: فيه يعقوب بن حُميَد بن كاسب، وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه أبو حاتم وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح[٥].

---

(١) لأعمين على من ورائي: يعني لأخفين عمن ورائي من يطلبكم، وألبِّس عليهم حتى لا يتبعكم أحد.
(٢) صحيح مسلم، الزهد رقم ٧٥/ ٢٠٠٩ (ص٢٣١٠ - ٢٣١١).
(٣) الجمَّار هو لب النخل ولونه أبيض بحمرة.
(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ١١٥ - ١١٦.
(٥) مجمع الزوائد ٦/ ٥٣ - ٥٤.

هذا الحديث يشتمل على معجزة عظيمة، وآية باهرة؛ حيث دعا رسول الله ﷺ على ذلك الفارس فحصل له ما حصل.

وهذه حلقة من حلقات المعركة التي أثارها كفار قريش ضد النبي ﷺ فخسروا فيها ونجح في الخلاص منهم وممن سخَّروه لتعويق هجرته، ولو أدركوا من البداية أنهم يحاربون الله تعالى لوفَّروا على أنفسهم الجهد والمال، وإن هذا الانكسار والتغير الذي حصل لفارس من أقوى وأشجع فرسان العرب دليل واضح على أن معركة أعداء الإسلام مع الله تعالى بالدرجة الأولى؛ لأنه سبحانه مع أوليائه بنصره وحمايته ولن يخذلهم إذا صدقوا معه.

١٤- أخرج الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «أقبل نبي الله ﷺ إلى المدينة وهو مردف أبا بكر، وأبو بكر شيخ يُعرف ونبي الله ﷺ شاب لا يُعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر، من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل، قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير، فالتفت أبو بكر، فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال: يا رسول الله، هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت نبي الله ﷺ، فقال: «**اللهم اصرعه**»، فصرعه الفرس، ثم قامت تحمحم، قال: يا نبي الله، مرني بما شئت، قال: «**فقف مكانك**»، لا تتركن أحدًا يلحق بنا.

قال: فكان أول النهار جاهدًا على نبي الله ﷺ وكان آخر النهار مَسْلَحةً له[1].

١٥- وقال الحافظ ابن كثير في سياق خبر سراقة بن مالك: ولما رجع سراقة جعل لا يلقي أحدًا من الطلب إلا ردَّه، وقال: كفيتم هذا الوجه، فلما ظهر أن رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة جعل سراقة يقص على الناس ما رأى وما شاهد من أمر النبي ﷺ وما كان من قضية جواده واشتهر هذا عنه، فخاف رؤساء قريش معرَّته، وخشوا أن يكون ذلك سببًا لإسلام كثير منهم، وكان سراقة أمير بني مُدْلج ورئيسهم، فكتب أبو جهل - لعنه الله- إليهم:

(١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار: ٧/ ٢٤٩، رقم: ٣٩١١، وقوله: «أبو بكر شيخ» يعني قد ظهر فيه الشيب وقوله «يُعرَف» يبينه ما جاء في رواية الإمام أحمد عن أنس وفيها «وكان أبو بكر يختلف إلى الشام فكان يعرف»، مسند أحمد: ٣/ ٢٨٧، وقوله: «ونبي الله صلى الله عليه وسلم شاب»، يعني لم يظهر فيه الشيب مع كونه أكبر من أبي بكر بسنتين وأشهُر، وقوله: «مسلحة له» يعنى يدافع عنه بسلاحه.

بني مـدلج إني أخـافُ سـفـيـهكم سـراقـة مُـسـتـغْـو لنصـر مـحـمـد
عليكم به ألا يفـرق جـمـعكم فـيـصـبح شـتى بعـد عـزٍّ وسـؤدد

قال: فقال سراقة بن مالك يجيب أبا جهل في قوله هذا:

أبا حكَم والله لو كنت شـاهدًا لأمـر جـوادي إذ تَسـوخ قـوائمـه
عـجـبت ولم تشكك بأن مـحـمـدًا رسـول وبرهان فـمن ذا يقـاومـه
عليك فكفَّ القـوم عنه فـإنني إخـالُ لنا يومًـا سـتـبـدو مـعـالمه
بأمـر تَودُّ النصـر فـيـه فـإنهم وإنَّ جميع الناس طرًّا[1] مسالمه[2]

وذكر الحافظ ابن حجر شعر سراقة هذا في ترجمته[3].

في هذا الخبر نجد الفرق واضحًا بين أبي جهل وسراقة بن مالك، فسراقة لمَّا شاهد معجزة واحدة من معجزات النبي ﷺ دخل قلبَه الإسلام وصار من جنوده، بينما نجد أبا جهل قد شاهد الكثير من المعجزات النبوية؛ سواء منها ما كان معه، أو مع غيره، فلم يسلم، وظل يقود العداء الشرس ضد النبي ﷺ، وإن هذا لهو الفرق بين المتجرد من الهوى المنحرف، ومن استحوذ الهوى المنحرف على قلبه؛ فسراقة لم يحمل في قلبه بغض النبي ﷺ وإرادة حربه وعدائه، بينما حمل أبو جهل بغضَه ورفع لواء عدائه وحربه، وامتلأ قلبه حسدًا وضغنًا عليه، فلم تَعُد الآيات تؤثر على قلبه ولم تزده إلا حقدًا وشرًّا.

١٦- وذكر الحافظ ابن حجر رواية عن الحسن البصري: أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «**كيف بك إذا لبست سواري كسري؟**» قال: فلما أُتي عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة فألبسه، وكان رجلاً أزبَّ كثير شعر الساعدين، فقال له: ارفع يديك وقل الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة الأعرابي، قال: وروى ذلك عنه ابن أخيه عبد الرحمن بن مالك بن جعشم[4].

وهذه معجزة أخرى لرسول الله ﷺ؛ حيث أخبر سراقة بأنه سيلبس سواري كسرى؛ إذ لا يتصور من إنسان عادي وهو في قلة من أنصاره وقد خرج في خوف

---

(١) يعني كلهم.
(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٨٤.
(٣) الإصابة ٢/ ١٨ رقم ٣١١٥.
(٤) الإصابة ٢/ ١٨ - ١٩ رقم ٣١١٥.

وخفية من قومه أن يخبره بزوال دولة الفرس على يد أنصاره، وحصول سراقة على سواري كسرى، فلا يمكن أن يكون هذا الخبر إلا بوحي من الله تعالى.

ويتم ما أخبر به رسول الله ﷺ، وتزول دولة الفرس على يد الصحابة رضي الله عنهم، وتصل غنائمهم إلى المدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فيدعو سراقة ويلبسه سواري كسرى.

نزول رسول الله ﷺ على أم معبد:

١٧- ذكر هذا الخبر العلامة القسطلاني في «المواهب»، ونسبه شارحه العلامة الزرقاني إلى الحاكم وذكر تصحيحه إياه، والبيهقي وصاحب الغيلانيات، ومن طريقه اليعمري عن أبي سليط الأنصاري البدري، كما نسبه إلى ابن عبد البر وابن شاهين وابن السَّكن والطبراني وغيرهم عن أخي أم معبد حُبَيْش بن خالد الخزاعي صاحب رسول الله ﷺ قال: لما خرج ﷺ في الهجرة ومعه أبو بكر وابن فُهيرة وابن أريقط يدلهم على الطريق مروا بقُدَيد على أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية، وكانت برْزَة جَلْدة[١]، تحتبي بفناء القبة، ثم تسقي وتطعم من يمر بها، وكان القوم مُرْملين مُسنتين[٢]، فطلبوا لبنا، أو لحمًا، أو تمرًا يشترونه منها، فلم يجدوا عندها شيئًا، وقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القرى[٣].

فنظر ﷺ إلى شاة في كسْر الخيمة خلفها الجهد عن الغنم، فسألها ﷺ: «**هل بها من لبن**»؟ قالت: هي أجهد من ذلك، قال ﷺ: «**أتأذنين أن أحلبها؟**» فقالت: نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها، فدعا ﷺ بالشاة فاعتقلها، ومسح ضرعها وسمَّي الله تعالى، فتفاجَّت[٤] ودرَّت، ودعا بإناء يُربض الرَّهط[٥] فحلب فيه ثجًا[٦]، وسقى القوم حتى رووا، ثم شرب ﷺ آخرهم، ثم حلب فيه مرة أخرى عَلَلاً بعد نَهَل[٧]، ثم غادره عندها، وذهبوا، فما لبث أن جاء أبو معبد زوجها يسوق أعنزا

(١) أي كبيرة تبرز للرجال ولا تحتجب، وجلدة أي قوية.
(٢) مرملين أي قد فنيت أزوادهم، ومسنتين أي أصابهم القحط.
(٣) أي ما أحوجناكم إلى طلب الكرم منا الذي يُلمح إليه طلب الشراء.
(٤) يعني فرجت رجليها.
(٥) أي يشبع الجماعة حتى يستريحوا من الشبع.
(٦) أي حلبا قويًا.
(٧) يعني فشربوا ثانيًا بعد الأول.

عجافًا، يتساوكن[1]، هزلا، فلما رأى اللبن أبو معبد عجب، وقال: ما هذا يا أم معبد؟ أنَّى لك هذا والشاة عازب حيال[2]، ولا حلوب في البيت، فقالت أم معبد: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك من شأنه كذا، وكذا، فقال أبو معبد: صفيه يا أم معبد، فقالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، مبُلج[3] الوجه، حسن الخَلْق، لم تعبه ثُجْلة[4]، ولم تُزْر به صَعْلة[5]، وسيم قسيم[6]، في عينيه دعج[7]، وفي أشفاره وطف[8]، وفي صوته صحل[9]، أحور، أكحل، أزجَّ، أقرن[10]، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع[11]، وفي لحيته كثاثة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نُظمْنَ يتحدرن، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر[12]، أجهر الناس وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة؛ لا تشنؤه من طول ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا لأمره، محفود محشود[13]، لا عابس ولا مفُنَّد[14].

فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش، لو رأيته لاتَّبعته[15].

وجاء في رواية أبي عبد الحاكم: ولقد هممت أن أصحبه، ولأفعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، وأصبح صوت بمكة يسمعون الصوت ولا يدرون من صاحبه، وهو يقول:

---

(١) أي يتمايلن من الضعف.
(٢) أي ليست بذات لبن.
(٣) أي مشرق الوجه.
(٤) الثجلة عظم البطن.
(٥) يعني صغر الرأس أو نُحُول البدن.
(٦) أي حسن الوجه.
(٧) أي شدة في سوادها.
(٨) الوطف كثرة شعر العينين.
(٩) أي لم يكن حاد الصوت.
(١٠) الحور شدة سواد العين مع شدة بياضها، والكحل شدة سواد أجفان العين، والزجج دقة الحاجبين في طول. والأقرن المقترن الحواجب.
(١١) أي طول.
(١٢) أي وسط لا قليل ولا كثير.
(١٣) محفود أي مخدوم، ومحشود يعني عنده حَشْد وهم الجماعة.
(١٤) المفنّد هو الذي يكثر اللوم.
(١٥) شرح المواهب اللدنية: ١/ ٣٤٠- ٣٤٣، وذكره الهيثمي وقال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير حزام بن هشام بن حبيش وأبيه، وكلاهما ثقة، مجمع الزوائد: ٨/ ٣١٣.

جـزى الله رب الناس خيـر جـزائه رفـيـقين حـلاَّ خـيـمـتَي أم مـعـبـد
همـا نزلاها بالهـدى واهتـدت به فـقـد فـاز من أمسى رفيق مـحـمـد
فـيـا لقُـصَيٍّ مـا زوى الله عنكم به من فـعـال لا تُجَـاري وسـؤدد
ليَـهْن أبا بكر سـعـادة جـده بصـحـبـتـه من يسـعـد الله يسـعـد
ويَهْن بني كـعـب مـقـام فـتـاتهم ومـقـعـدها للمـؤمنين بمرصـد
سلوا أخـتكم عن شـاتهـا وإنائهـا فـإنكمُ إن تسـألوا الشـاة تشـهـد
دعـاها بشـاة حـائل فـتـحلَّبت عليـه صـريحًـا ضَـرَّة الشـاة مـزبد
فـغـادره رهنًا لديهـا لحـالب يردِّدها في مـصـدر بعـد مـورد

فما سمع حسان الهاتف بذلك، شبَّب يجاوب الهاتف، فقال:

لقـد خـاب قـوم زال عنهم نبـيـهم وقُـدِّس من يسـري إليـهم ويغـتـدي
ترحَّل عن قـوم فـضلَّت عـقـولهم وحلَّ على قـوم بنور مـجـدَّد
هداهم به بعـد الضـلالة ربهم فـأرشـدهم من يتـبع الحق يرشـد
وهل يستـوي ضُـلاَّل قوم تسفـهـوا عَـمًى وهداة يهـتـدون بمهـتـد
وقـد نزلت منه على أهل يثـرب ركـابُ هدًى حلَّت عليـهم بأسعـد
نبي يرى مـالا يرى الناس حـوله ويتلو كـتـاب الله في كل مـشـهـد
وإن قـال في يوم مـقـالة غـائب فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد[1]

وقال الحافظ ابن كثير عن أم معبد: وقصتها مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضًا، وقد ذكر عددًا من هذه الطرق[2].

وفي هذه الرواية موقف يُذكر لحسان بن ثابت رضي الله عنه؛ حيث مدح النبي ﷺ، وأشاد بالإسلام، وضلل أعداءه.

(١) المستدرك ٣/ ٩ - ١١.
(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٨٨ - ١٩٢.

١٨- أخرج الإمام البيهقي بإسنادين عن عبد الرحمن بن أبي ليلى من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة، فانتهينا إلى حي من أحياء العرب، فنظر رسول الله ﷺ إلى بيت مُنْتحيًا، فقصد إليه، فلما نزلنا لم يكن فيه إلا امرأة، فقالت: يا عبد الله! إنما أنا امرأة، وليس معي أحد، فعليكما بعظيم الحي إذا أردتم القرَى، قال: فلم يجبها، وذلك عند المساء.

فجاء ابنٌ لها بأعنز له يسوقها، فقالت له: يا بني، انطلق بهذه العنز والشفرة إلى هذين الرجلين، فقل لهما: تقول لكما أمي: اذبحا هذه، وكلا وأطعمانا، فلما جاء، قال له النبي ﷺ: «**انطلق بالشفرة وجئني بالقدح**»، قال: إنها قد عزَبَت وليس لها لبن، قال: «**انطلق**»، فانطلق، فجاء بقدح، فمسح النبي ﷺ ضرعها، ثم حلب حتى ملأ القدح، ثم قال: «**انطلق به إلى أمك**»، فشربت حتى رويت، ثم جاء به، فقال: انطلق بهذه وجئني بأخرى، ففعل بها كذلك، ثم سقى أبا بكر، ثم جاء بأخرى ففعل بها ذلك، ثم شرب النبي ﷺ.

قال: فبتنا ليلتنا، ثم انطلقنا، فكانت تسميه المبارك وكَثُرت غنمها، حتى جلبت جلبًا إلى المدينة، فمر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أمه، إن هذا الرجل الذي كان مع المبارك، فقامت إليه، فقالت: يا عبد الله، من الرجل الذي كان معك؟ قال: وما تدرين من هو؟! قالت: لا، قال: هو النبي ﷺ، قالت: فأدْخلني عليه، قال: فأدخلها عليه، فأطعمها وأعطاها، زاد ابن عبدان في روايته: قالت: فدُلَّني عليه، فانطلقتْ معي وأهدت له شيئًا من أقط ومتاع الأعراب، قال: فكساها وأعطاها، قال: ولا أعلمه إلا قال أسلمت.

قال البيهقي: وهذه القصة وإن كانت تنقص عما روينا في قصة أم معبد، ويزيد في بعضها، فهي قريبة منها، ويشبه أن يكونا واحدة[١]، ورجَّح الزرقاني تعدد القصة؛ لاختلاف بعض تفاصيل الخبرين، ونقل عن الحافظ ابن حجر القول باحتمال التعدد[٢]، وهو الظاهر.

وذكر الحافظ ابن كثير هذه الرواية وحسَّن إسنادها[٣].

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٩١ - ٤٩٢.
(٢) شرح المواهب ١/ ٣٤٩.
(٣) البداية والنهاية ٣/ ١٨٩ - ١٩٠.

في هذا الخبر أن النبي ﷺ قصد ذلك البيت المنفرد البعيد عن الحي، ولما أخبرته المرأة بعظيم الحي، وأشارت عليه بأن يذهب إليه لم يفعل ذلك، وهذا التصرف هو الموافق للحكمة، فإن زعماء قريش قد أرسلوا إلى زعماء القبائل وأغروهم بذلك الجُعْل الكبير من الإبل في مقابل أن يأتوا برسول الله ﷺ، فكان الأمر يقتضي أخذ الحيطة والحذر، والابتعاد عن مضارب كبار القوم.

وفي هذا الخبر حدثت معجزة عظيمة لرسول الله ﷺ؛ حيث مسح على ضروع تلك الشياه الخالية من اللبن فدرَّت حالاً وشربوا جميعًا من حليبها، وقد تكررت هذه المعجزة لرسول الله ﷺ في هذه الرحلة وفي غيرها.

كما أن هذا الخبر يشتمل على معجزة أخرى للنبي ﷺ، وهي ما حصل لغنم تلك المرأة من البركة والنماء، حتى سَمَّت النبي ﷺ بسبب ذلك: الرجل المبارك.

وفي هذا الخبر من المواقف ما حصل من رسول الله ﷺ؛ من إكرام تلك المرأة حينما وفدت إلى المدينة، والاهتمام بها.

خبر الراعي مع رسول الله ﷺ:

١٩- أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث قيس بن النعمان قال: لما انطلق النبي ﷺ وأبو بكر مستخفين مرَّا بعبد يرعى غنمًا فاستسقياه من اللبن، فقال: ما عندي شاة تحلب غير أن ههنا عَناقًا[1] حملت أول الشتاء، وقد أخدجت[2]، وما بقي لها لبن، فقال: «ادع بها»، فدعا بها، فاعتقلها النبي ﷺ، ومسح ضرعها، ودعا حتى أنزلت.

قال: وجاء أبو بكر رضي الله عنه بمجَنٍّ، فحلب فسقى أبا بكر، ثم حلب فسقى الراعي، ثم حلب فشرب، فقال الراعي: بالله من أنت، فوالله ما رأيت مثلك قط، قال: «**أو تُراك تكتم عليَّ حتى أخبرك؟**» قال: نعم، قال: «**فإني محمد رسول الله**»، فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ، قال: «**إنهم ليقولون ذلك**»، قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلت إلا نبي، وأنا متبعك، قال: «**إنك لا تستطيع ذلك يومك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فأتنا**»، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي[3].

---

(١) العناق هي الأنثى من الماعز.

(٢) أي أسقطت ما في بطنها.

(٣) المستدرك ٣/ ٩.

وقال البوصيري: رواه أبو يعلى بإسناد رواته ثقات[1].

ورواه الحافظ البزار من حديث قيس بن النعمان، قال: لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر مستخفيين نزلا بأبي معبد... ثم ذكر خبراً يشبه هذا الخبر.

ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: ورجاله رجال الصحيح[2].

وقوله: «نزلا بأبي معبد» لعله وهم من أحد الرواة؛ لأن هذا الخبر مخالف في تفاصيله لأخبار أم معبد المشهورة السابقة، ومن ذلك: أن جميع أخبار أم معبد تدور على أنها هي صاحبة القصة، وليس فيها أن أبا معبد لقي النبي ﷺ وخاطبه وأسلم على يديه في تلك الساعة، فهذا الخبر مشبه لخبر الراعي، وألفاظ الخبرين تكاد تكون واحدة.

هذا الخبر فيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ؛ حيث مسح ضرع عناق لا لبن فيها، ودعا الله تعالى، فدرت بالحليب فشرب هو وصحبه والراعي.

وقد اعترف الراعي بأن هذا التسخير لا يكون لبشر عادي، وأن من تم على يديه ذلك نبي مرسل من الله تعالى، فآمن به بعد أن عرَّفه رسول الله ﷺ بنفسه، وقد تم هذا الإقرار السريع من الراعي؛ لتجرده من الهوى المنحرف، بينما كان أصحاب الهوى المنحرف من المشركين يتهمون رسول الله بالسحر كلما أجرى الله تعالى على يديه آية من الآيات.

وفي هذه الخبر وأخبار سابقة نجد أمثلة من تواضع النبي؛ حيث كان يحلب الشياه بنفسه، ويقدم أصحابه بالسقي ويكون آخرهم.

خبر اللصَّين ومواقف لرسول الله ﷺ:

٢٠- أخرج عبد الله بن الإمام أحمد بإسناده عن فائد مولى عبادل قال: خرجت مع إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة، فأرسل إبراهيم بن عبد الرحمن إلى ابن سعد، حتى إذا كنَّا بالعرج[3] أتانا ابن سعد، وسعدُ الذي دلَّ رسول الله ﷺ على طريق ركوبة[4]، فقال إبراهيم: أخبرني ما حدَّثك أبوك؟

(١) المطالب العالية ٤/ ٢٠٩.
(٢) مجمع الزوائد ٦/ ٥٨.
(٣) هي قرية بين مكة والمدينة على أيام من المدينة.
(٤) هي ثنية عند العرج وهي الطريق الجبلي.

قال ابن سعد: حدثني أبي أن رسول الله ﷺ أتاهم ومعه أبو بكر، وكان لأبي بكر عندنا بنت مسترضعة وكان رسول الله ﷺ أراد الاختصار في الطريق إلى المدينة، فقال له سعد: هذا الغائر[1]، من ركوبة وبه لصَّان من أسلم، يقال لهما المُهانان فإن شئت أخذنا عليهما، فقال رسول الله ﷺ: «**خُذ بنا عليهما**»، قال سعد: فخرجنا حتى أشرفنا، إذا أحدهما يقول لصحابه: هذا اليماني[2]، فدعاهما رسول الله ﷺ، فعرض عليهما الإسلام فأسلما، ثم سألهما عن أسمائهما، فقالا: نحن المهانان، فقال: «**بل المكرمان**»، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة[3].

في هذا الخبر أن رسول الله ﷺ فضَّل الطريق المختصر إلى المدينة لما تجاوز المراحل الأولى من الطريق، مع أن الدليل ذكر له أن الطريق المختصر فيه خطر الهجوم عليهم من لصين مشهورين هناك، وهذا دليل على شجاعته ﷺ وإقدامه على المخاطر عندما تكون فيها المصلحة، وذلك من قوة توكُّله على الله تعالى.

وفيه اهتمامه ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى؛ حيث اغتنم الفرصة، فدعا اللصين المذكورين إلى الإسلام فأسلما، وإن في إسلام هذين اللصين مع ما ألفاه من حياة البطش والسلب والنهب دليلاً على سرعة إقبال النفوس على اتباع الحق إذا وجد من يمثله بصدق وإخلاص، وتجردت نفس السامع من الهوى المنحرف.

وإن في إسلام هذين اللصين تقريعًا وتوبيخًا لكفار مكة الذين بقي عندهم رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الله تعالى، فما لانت قلوبهم، ولا استنارت بصائرهم؛ حيث أصبح اللصوص المهانون المنبوذون أسرع منهم استجابة لنداء الحق وتأثُّرًا بدعاته.

وإن في اهتمام الرسول الله ﷺ بتغيير اسميَ هذين اللصين من المهانَيْن إلى المكرمين دليلاً على اهتمامه بسمعة المسلمين ومراعاته مشاعرهم؛ إكرامًا لهم ورفعًا من معنويتهم، وإن في رفع معنوية الإنسان تقوية لشخصيته، ودفعا له إلى الأمام؛ ليبذل كل طاقته في سبيل الخير والصلاح.

---

(١) هو جبل قرب المدينة.

(٢) يعني القادم من جهة اليمن، وكانوا يعبِّرون عن جهة الجنوب باليمن.

(٣) الفتح الرباني ٢٠/ ٢٨٩، وفائد راوي الحديث قال عنه الحافظ ابن حجر: فائد مولى عبادل باللام، صدوق - التقريب ٢/ ١٠٧.

وصول النبي ﷺ إلى المدينة:

٢١- أخرج الإمام البخاري من حديث عروة بن الزبير: «أن رسول الله ﷺ لقيَ الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثياب بياض.

وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه، حتى يردهم حرُّ الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أوَوْا إلى بيوتهم أوفيَ رجل من يهود على أُطُم من آطامهم[١]، لأمر ينظر إليه، فبصُر رسول الله ﷺ وأصحابه مبيِّضين، يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب، هذا جدُّكم الذي تنتظرون[٢].

فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار -ممن لم يرَ رسول الله ﷺ- يُحيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمسُ رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلَّل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك.

فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أُسس على التقوى، وصلَّى فيه رسول الله ﷺ، ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس، حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مرْبدًا للتمر[٣] لسهيل وسهل؛ غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «**هذا إن شاء الله المنزل**».

ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين، فساومهما بالمربد؛ ليتخذه مسجدًا، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدًا، وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللَّبِن في بنيانه ويقول -وهو ينقل اللبن-:

(١) أي حصن من حصونهم.

(٢) أي هذا حظكم وصاحبكم.

(٣) يعني المكان الذي يجفف فيه التمر.

هذا الحمالُ لا حمال خَيبرْ[1] هذا أبرٌّ ربنا وأطهر

ويقول:

اللهم إن الأجرَ أجرُ الآخرة فارحم الأنصارَ والمهاجرة

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يُسمَّ لي[2].

في هذا الحديث بيان خبر وصول النبي ﷺ إلى المدينة، وهو يُصور مدى حب الأنصار له؛ حيث كانوا يخرجون كل يوم لانتظاره إلى أن يمسهم حر الشمس، وقد استقبلوا رسول الله ﷺ استقبالاً كبيراً، وكان عدد الذين استقبلوه خمسمائة[3].

ويصور البراء بن عازب الموقف بقوله: «ثم قدم رسول الله ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ، حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ»[4].

وصار الناس يهتفون «جاء نبي الله، جاء نبي الله»[5].

ومما يشتمل عليه هذا الحديث: بيان تواضع النبي ﷺ العظيم؛ حيث لم يكن في لباسه مختلفًا عن أبي بكر رضي الله عنه، حتى أصبح الذين لا يعرفونه يحيُّون أبا بكر يظنون أنه رسول الله ﷺ.

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يظهر بهيئة متميزة، ولو فعل ذلك لم يوجه إليه نقد؛ لكون الرؤساء عادة يعرفون بتميزهم، ولكن رسول الله ﷺ الذي جعله الله تعالى هاديًا وقدوة في الخير لم يصنع شيئًا من ذلك؛ تواضعًا لله عز وجل، وليكون أسوة لأمته في هذا الخلق النبيل.

ومما يشتمل عليه هذا الحديث من المواقف: ما كان من رسول الله ﷺ من الاهتمام ببناء المساجد، والإسراع في ذلك، فقد بقي في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة

---

(١) يعني هذا المحمول وهو لبن البناء هو الحمال المعتبر لأنه يراد به ثواب الآخرة، بخلاف حمال خيبر من التمر ونحوه فإنه يراد منفعة الدنيا.

(٢) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، رقم ٣٩٠٦ (٧/ ٢٣٩).

(٣) فتح الباري ٧/ ٢٥١.

(٤) صحيح البخاري: ٧/ ٢٦٠، رقم: ٣٩٢٤.

(٥) صحيح البخاري: ٧/ ٢٥٠، رقم: ٣٩١١.

فقط، فأسس في حيِّهم مسجد قباء الذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿**لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾ [التوبة: ١٠٨].

ثم لما تحول رسول الله ﷺ إلى داخل المدينة قام بتأسيس المسجد النبوي حال وصوله، وهذا يدلنا على أهمية بناء المساجد وأنها المعْلم الأول من معالم الإسلام.

ولقد كان رسول الله ﷺ مشاركًا لأصحابه في بناء المسجد، ينقل معهم اللبن حتى قام المسجد واكتمل بناؤه، وكان في الصحابة رضي الله عنهم - الذين كانوا يفدونه بأرواحهم - ما يكفي ويغني، ولكنه ﷺ كان حريصًا على السبق إلى الأعمال الصالحة، والمنافسة عليها، فما كان ليفرط بتلك المناسبة الجليلة، ولقد ضرب بذلك مثلاً عاليًا في القدوة الحسنة؛ ليسير على دربه المسلمون، وخاصة أصحاب المسؤولية منهم؛ لأنهم ممن يقتدى بهم.

ولقد كان إسهام النبي ﷺ في بناء المسجد دافعًا قويًا للصحابة ليواصلوا العمل، كما جاء في قول أحدهم:

لئن قعدنا والنبي يعمل ... ذاك إذا للعمل المضلَّل

ولقد كانوا في غاية النشاط والحماسة وهم يبنون المسجد، يصور ذلك قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

لا يستوي من يعمر المساجدا ... يدأب فيها قائمًا وقاعدا

ومن يُرى عن التراب حائدا[1]

وممن أثر عنهم التنافس في هذا العمل الصالح عمار بن ياسر - رضي الله عنهما-، كما أخرج الإمام أحمد بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المسجد فجعلنا ننقل لبنة لبنة، وكان عمار ينقل لبنتين لبنتين، فتَترَّب رأسه، قال: فحدثني أصحابي ولم أسمعه من رسول الله ﷺ أنه جعل ينفض رأسه، ويقول: «**ويحك يا بن سمية، تقتلك الفئة الباغية**»[2].

---

(١) فتح الباري ٧/ ٢٤٧.

(٢) مسند أحمد ٣/ ٥.

وهذه الجملة رواها الإمام مسلم من حديث أم سلمة - رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**»[1]، وهذا من دلائل النبوة، فقد قُتل عمار في الفتنة التي كانت في عهد علي رضي الله عنه.

وهكذا وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد هذه الرحلة الشاقة المحفوفة بالمخاطر، وقد يقول قائل: لماذا يتعرض رسول الله ﷺ لهذه المخاطر والمشاق والمواقف المخيفة، والله قادر على أن يحمله إلى المدينة في لمح البصر؟!

فيقال: إن الله تعالى قادر - وهو القادر على كل شيء- أن يحمل رسول الله ﷺ على البراق الذي حمله ليلة الإسراء، وعلى ما هو أعظم وأسرع من ذلك، ولكن الله تعالى جعل نبيه ﷺ قدوة عظمى للناس، فلذلك شرع له فعل الأسباب التي يفعلها الناس عادة.

ولو تمت الهجرة بخارق للعادة لم تحصل تلك المواقف العالية والعبر العظيمة التي استفدناها من هذه الهجرة المباركة ولم تكن تلك الدروس العالية التي تم بها إسلام من أسلم، وظلت دروساً خالدة مع الزمن تقوي الإيمان وتبعث الثقة واليقين.

هذا وإن أحداث الهجرة من أولها إلى آخرها دليل على قوة توكل النبي ﷺ على ربه جل وعلا، فحينما خرج من بيته وحده لم يتردد ولم يخامره شعور بالخوف من المشركين؛ لقوة يقينه بأن الله تعالى معه بنصره وتأييده، وحينما شعر أبو بكر بوجود المشركين حول الغار، وبكي خوفًا على رسول الله ﷺ أجابه ﷺ بلغة الواثق بربه ثقة تامة، المتوكل عليه توكلاً كاملاً: «**يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا**».

وحينما لحق سراقة بن مالك كان ﷺ رابط الجأش ثابت الجنان، وهذا مظهر من مظاهر التوكل التام على الله تعالى.

ولقد كانت أحداث الهجرة مثالاً حيًّا في الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله تعالى، فقد قام النبي ﷺ بفعل الأسباب الممكنة حينما اختفى هو وصاحبه في الغار، وكان مصاحبًا للتوكل على الله تعالى من أول لحظة، خطا فيها خطوات الهجرة إلى نهايتها.

---

(١) صحيح مسلم، الفتن: ٤/ ٢٢٣٦، رقم: ٢٩١٦.

وحينما أنهى رسول الله ﷺ فعل الأسباب الممكنة، واستقر في الغار مع صاحبه تمحَّض التفكير للتوكل على الله تعالى؛ لأنه قد انتهى دور الأسباب المصاحب للتوكل، وأصبح النظر منصرفًا إلى التوكل على الله تعالى وحده، فلذلك قال النبي ﷺ لأبي بكر: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**» ولم يذكر فعل أسباب أخرى حال كونها في الغار.

وقد كانت مدة إقامة النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة، كما أخرج الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما- قال: بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحَي إليه، ثم أُمر بالهجرة، فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين[1].

*****

(١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، رقم ٣٩٠٢.

هجرة علي بن أبي طالب

قال محمد بن إسحاق - رحمه الله تعالى- : وأقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها[1]، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ، فنزل معه على كلثوم بن هدْم.

فكان علي بن أبي طالب - وإنما كانت إقامته بقباء ليلة أو ليلتين - يقول: كانت بقباء امرأة لا زوج لها مسلمة، قال: فرأيت إنسانًا يأتيها من جوف الليل فيضرب عليها بابا، فتخرج إليه فيعطيها شيئًا معه فتأخذه، قال: فاستربت بشأنه، فقلت لها: يا أمة الله، من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئًا لا أدري ما هو، وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف بن واهب، قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عَدَا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان علي رضي الله عنه يأثرُ ذلك من أمر سهل بن حنيف حين هلك عنده بالعراق.

قال ابن إسحاق: وحدثني هذا من حديث علي رضي الله عنه، هندُ بن سعد بن سهل بن حنيف رضي الله عنه[2].

في هذا الخبر مواقف إسلامية عالية:

الأول: في بقاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه وحده في مكة ثلاثة أيام بعد هجرة النبي ﷺ، وقد هاجر قبل ذلك المسلمون ولم يبق في مكة إلا مَفتون أو محبوس، وهذا دليل على شجاعته وجسارته؛ حيث كان مُعَرَّضا لنقمة زعماء قريش منه، ثم في سفره بعد ذلك وحده إلى المدينة.

الثاني: في اهتمامه الدقيق بأمور المسلمين، فقد لاحظ وضع تلك المرأة مع قلة إقامته في دار قومها، فسألها عن أمرها، وهذا التحري الدقيق والاهتمام البالغ من نتائج التربية النبوية العالية، فأفراد المسلمين يعدُّون بالنسبة للمسلم كأفراد أسرته يغار عليهم كغيرته على أهله ويسد حاجتهم ويصلح ما فسد من أمرهم.

---

(١) يعني: بعدما هاجر رسول الله ﷺ من الغار.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١١٩ - ١٢٠.

الثالث: موقف يذكر لسهل بن حنيف رضي الله عنه، جمع فيه بين عملين صالحين: تحطيم الأصنام، ودفع حطامها لتلك المرأة الفقيرة؛ لتتخذ منه وقوداً لنارها، وما أعظم أن يجمع المسلم بين جهاد أعداء الإسلام وإزالة معالم الوثنية وبين الإحسان إلى المسلمين والبرِّ بهم.

الرابع: في بقاء عليٍّ رضي الله عنه على ذكر هذا العمل الصالح عقوداً من الزمن، وثنائه على سهل بن حنيف رضي الله عنه بعد ذلك الزمن الطويل، وإنما يقدِّر العمل الصالح وفضل أهل الفضل من كان عميق الشعور بذلك.

*****

مثل في التضحية
(هجرة صُهيب بن سنان الرومي)

أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه قال، قال: رسول الله ﷺ: «**رأيت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرة؛ فإما أن تكون هجَرًا أو تكون يثرب**».

قال: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وخرج معه أبو بكر رضي الله عنه، وكنت قد هممت بالخروج معه، فصدَّني فتيان قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم ولا أقعد، فقالوا: شغله الله عنكم ببطنه ولم أكن شاكيًا، فقاموا، فلحقني منهم ناس بعدما سرت بريدا ليردوني، فقلت لهم: هل لكم أن أعطيكم أواقيَّ من ذهب وتخلون سبيلي وتَفُونَ لي؟ فتبعتهم إلى مكة، فقلت لهم: احفروا تحت أسكفَّة الباب فإن تحتها الأواق، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين، وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قبل أن يتحوَّل منها - يعني قباء - فلما رآني قال: «**يا أبا يحيى ربح البيع**» ثلاثًا، فقلت: يا رسول الله، ما سبقني إليك أحد، وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي[1].

وأخرجه الإمام أحمد من حديث أبي عثمان النهدي، وفيه: أن كفار قريش قالوا: أتيتنا صعلوكا حقيرًا، ثم أصبت بين أظهرنا المال وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج أنت ومالك؟! والله لا يكون ذلك، قال: فقال صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتخلون أنتم سبيلي؟ قال: فقالوا: نعم، فخلع لهم ماله، قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**ربح صهيب، ربح صهيب**»[2].

وأخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث عكرمة قال: لما خرج صهيب مهاجرًا، اتبعه أهل مكة، فنثل كنانته، فأخرج منها أربعين سهما، فقال: لا تصلون إليَّ حتى أضع في

(١) المستدرك ٣/ ٤٠٠.

(٢) فضائل الصحابة ٢/ ٨٢٨، وقال محققه الدكتور وصي الله: مرسل رجاله ثقات.

كل رجل منكم سهما، ثم أصير بعدُ إلى السيف، فتعلمون أني رجل، وقد خلَّفت بمكة قينتَيْن فهما لكم.

قال: وحدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس نحوه، ونزلت على النبي ﷺ: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، فلما رآه النبي ﷺ قال: «**أبا يحيى ربح البيع**»، قال: وتلا عليه الآية، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه[١].

وقوله: «فتعلمون أني رجل»؛ يعني رجل الحرب، وقد جاء في رواية ذكرها الحافظ ابن حجر: «فقال: يا معشر قريش إني من أرماكم»[٢].

في هذا الأثر موقف جليل لصهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه؛ حيث ضحى بماله، وفدى به دينه، وهو نموذج لعموم المهاجرين الذي تركوا أموالهم التي لا يمكن نقلها؛ كالبيوت وبعض أموالهم الأخرى التي غلبهم عليها الكفار، كما تركوا مصالحهم التجارية؛ حيث كان أهل مكة يتمتعون برحلتي الشتاء والصيف لليمن والشام، ووفادة العرب على مكة.

لقد هاجروا وتركوا مصالحهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة في الآخرة، ولقد امتدح الله تعالى صهيبًا وأمثاله بقوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وموقف جهادي رائع لصهيب؛ حيث أعلن الحرب ضد الكفار وهو وحده وهم جميع، وقد خضعوا له وتركوه يهاجر؛ إبقاء على أنفسهم، ورغبة في الحصول على ماله الذي دلهم عليه وتنازل عنه لهم.

وهذا دليل على أن الكفار ينظرون أولاً وقبل كل شيء إلى مصالحهم الخاصة؛ من وقاية أنفسهم، وحصولهم على أكبر قدر ممكن من متاع الدنيا، أما النظر إلى المبادئ المقدسة عندهم فهو أمر ثانوي، بخلاف المسلمين الذي يعدُّون الإسلام هو المطلب

(١) المستدرك ٣/ ٣٩٨.

(٢) الإصابة ٢/ ١٨٨ رقم ٤١٠٤.

الأول والقضية الكبرى كما فعل صهيب وغيره من الصحابة رضي الله عنهم، وهذا هو أحد أسرار انتصار المسلمين الساحق على الكفار رغم ضعف المسلمين الواضح من الناحية المادية.

وإلى جانب ما في هذا الأثر من موقف جليل لصهيب رضي الله عنه، فإن فيه معجزة للنبي ﷺ؛ حيث قال لصهيب: «**يا أبا يحيى ربح البيع**»، فأخبره عن أمر غيبي، وقد عبر عن هذه المعجزة صهيب بقوله: يا رسول الله، ما سبقني إليك أحد وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام.

ونجد في عبارة النبي ﷺ معاني سامية من مواساة المنكوبين، ورفع معنوية المقهورين، فإن أولئك الرعيل المختار لو أعطي أحدهم أضعاف أضعاف ما فقد من الدنيا لم يَزِنْ عنده البشارة برضوان الله تعالى والسعادة الأخروية.

*****

مواقف وعبر

ما بين الهجرة وغزوة بدر

رسول الله ﷺ في المدينة

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة نزل عند أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وقد أخرج أبو عبد الله الحاكم في ذلك من حديث أبي أمامة الباهلي عن أبي أيوب قال: لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ قلت: بأبي أنت وأمي، إني أكره أن أكون فوقك وتكون أسفل منِّي، فقال رسول الله ﷺ: «**إني أرفق بي أن أكون في السفليِّ لما يغشانا من الناس**»، قال: فلقد رأيت جرة لنا انكسرت فأهريق ماؤها، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء؛ فَرَقًا أن يصل إلى رسول الله ﷺ شيء يؤذيه.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي[1].

وأخرجه ابن إسحاق من طريق أبي رهم السماعي عن أبي أيوب رضي الله عنه، وذكر مثله[2].

وقد ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما نزل عن ناقته، بادر أبو أيوب الأنصاري فاحتمل رحله فوضعه في بيته[3].

وهذا سبْقٌ من أبي أيوب؛ خالد بن زيد الأنصاري إلى هذا الخير الكبير، فحاز شرف نزول المصطفى ﷺ في بيته، وقد ذكر ابن إسحاق قبل ذلك أن جميع الأنصار الذين مرَّ رسول الله ﷺ بدورهم كانوا يعرضون عليه النزول عندهم، فيقول: «**خَلُّوا سبيلها فإنها مأمورة**»؛ يعني ناقته، حتى وصلت إلى موضع مسجده فبركت فيه[4].

وإن ما قام به أبو أيوب الأنصاري من إكرام النبي ﷺ إلى الحد الذي ذكره في هذه الرواية يعدُّ من مواقفه المأثورة رضي الله عنه.

وأخرج أبو عبد الله الحاكم بإسناده عن سماك بن حرب قال: سمعت جابر بن سمرة يقول: نزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب، وكان إذا أكل طعامًا بعث إليه بفضله، فينظر إلى موضع يد رسول الله ﷺ فيأكل من حيث موضع يده، فصنع ذات يوم طعامًا فيه ثوم، فأرسل به إليه فردَّه رسول الله ﷺ، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول

(١) المستدرك ٣/ ٤٦٠ - ٤٦١.
(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٢٥.
(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ١٢٢.
(٤) سيرة ابن هشام ٢/ ١٢١ - ١٢٢.

الله، لم أر أثر أصابعك! فقال: «**إنه كان فيه ثوم**» «قال شعبة» في حديثه: أحرام هو؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا**» «وقال حماد» في حديث: يا رسول الله، بعثت إليَّ بما لم تأكل؟ فقال: «**إنك لست مثلي، إنه يأتيني الملك**».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الإمام الذهبي[1]، وأخرجه ابن إسحاق من حديث أبي أيوب رضي الله عنه، وذكره مثله[2].

وهذا مثل آخر من عناية أبي أيوب رضي الله عنه برسول الله ﷺ، وحبه الكبير له، فقد كان يتبرك بفضلته من الطعام.

وكونه ﷺ يُفْضل من الطعام دليل على أن السُّنة أن يأكل الإنسان قدر طاقته من الطعام، وأن إبقاء شيء من الطعام لا يعدُّ جحودًا للنعمة ما لم يكن في ذلك سرف أو خيلاء.

*****

(١) المستدرك ٣/ ٤٦٠.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ١٢٦.

مثل من زهد النبي ﷺ
(بناء بيوته في المدينة)

قال السهيلي - رحمه الله - : وأما بيوته عليه الصلاة والسلام فكانت تسعة؛ بعضها من جريد مطَيَّن بالطين، وسقفها جريد، وبعضها من حجارة مرضومة بعضها فوق بعض مسقفة بالجريد أيضًا.

قال: وقال الحسن بن أبي الحسن[1]: كنت أدخل بيوت النبي ﷺ وأنا غلام مراهق فأنال السقف بيدي[2].

وذكر محمد بن يوسف الصالحي من طريق محمد بن عمر الواقدي عن معاذ بن محمد الأنصاري قال: سمعت عطاء الخراساني قال: أدركت حجر أزواج النبي ﷺ من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يقرأ، يأمرنا بهدم حجر أزواج النبي ﷺ[3]، فما رأيت يومًا كان أكثر باكيا من ذلك اليوم.

قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: والله لوددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناشئٌ من أهل المدينة ويقدم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التفاخر والتكاثر.

قال معاذ: وقال يومئذ أبو أمامة رضي الله عنه: ليتها تُركت فلم تهدم حتى يفصل الناس عن البناء ويروا ما رضي الله تعالى لنبيه ﷺ ومفاتيح خزائن الدنيا بيده[4].

وهكذا كانت بيوت النبي ﷺ في غاية البساطة، بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية التي كان يتخذها عليةُ القوم؛ تباهيًا بها في السلم واتقاءً بها في

(١) يعني الإمام الحسن البصري رحمه الله تعالى.
(٢) الروض الأنف ٤/ ٢٦٧.
(٣) يعني لإضافة مكانها إلى المسجد النبوي.
(٤) سبل الهدى والرشاد ٣/ ٣٤٨ - ٣٤٩.

الحرب، وكانوا من تفاخرهم بها يضعون لها أسماء، كما كان حصن عبد الله بن أُبي بن سلول اسمه مزاحم، وكما كان حصن حسان بن ثابت رضي الله عنه اسمه فارع.

ولكن النبي ﷺ بنى بيوته بتلك الصورة البسيطة جداً، وكان باستطاعته أن يبني لنفسه قصوراً شاهقة، ولو أنه أشار إلى رغبته بذلك مجرد إشارة لسارع الأنصار في بنائها له، كما كان بإمكانه أن يشيدها من أموال الدولة العامة كالفيء ونحوه، ولكنه ﷺ لم يفعل ذلك؛ لأنه القدوة العليا لأمته في التواضع، والزهد في الدنيا، وجمع الهمة لعمل الآخرة.

******

مثل من جهاد النفس وتحكيم العقل
(إســلام عبد الله بن ســلام)

إن مواقف الصحابة رضي الله عنهم في نصرة الإسلام قد أخذت صُوَرًا متعددة، وإن إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه يتسم بطابع الانتصار في جهاد النفس وانتزاعها من سيطرة الهوى والتقليد الأعمى، فقد كان عبد الله بن سلام من علماء اليهود وسادتهم، فأيقن بأن الإسلام هو الدين الحق، وعرف أنه الدين الذي بشَّر به أنبياء بني إسرائيل - عليهم السلام -، فأظهر إسلامه وتحدَّى بذلك قومه من اليهود.

وكان من خبر إسلامه ما أخرجه الإمام محمد بن إسحاق - رحمه الله - قال: «وكان من حديث عبد الله بن سلام - كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه، وكان حبرًا عالمًا - قال: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكَّف له»[1].

وهذا دليل على أن رسول الله ﷺ معروف بعينه لدى اليهود من الأوصاف التي كانت مبينة في التوراة والإنجيل، وهذا من علامات نبوة رسول الله ﷺ البارزة، قال تعالى في ذلك: ﴿ **أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

«قال: فكنت مُسرًّا لذلك صامتًا عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعْت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبَّرت، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيَّبك الله، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما زدت، قال: فقلت لها: أي عمة، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه، بعث بما بعث به».

يعني بذلك: أنهما على دين التوحيد الذي بعث الله به جميع الرسل، وإن اختلفت شرائعهم فيما يتعلق بتنظيم حياة الناس.

قال: فقالت: أيْ ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبره أنه يُبعث مع نفس الساعة؟ قال: فقلت لها: نعم، قال: فقالت: فذاك إذًا.

---

(١) أي ننتظره.

وهذا دليل على أن بعثة النبي ﷺ معلومة لدى جميع اليهود، وليست خاصة بعلمائهم، وأنه يبعث قبيل الساعة، وهذا موافق لقول رسول الله ﷺ: «**بُعثت أنا والساعة كهاتين**، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى»، أخرجه الشيخان[1].

«قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا»[2].

قال: وكتمت إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله، إن يهود قوم بُهْت[3]، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك تغيبني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني».

وهذه شهادة من عالم كان من علماء اليهود تدل على مدى الانحدار الخلقي الذي آل إليه أمر اليهود؛ حيث أصبحوا لا عهد لهم ولا ذمة، وإذا كانت هذه حال أسلاف اليهود وهم أقرب إلى عهد رسالتهم فكيف بخَلَفهم في هذا الزمن؟!

«قال: فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه، ثم قال لهم: «**أيُّ رجل فيكم الحصين بن سلام**»[4]؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا[5].

قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم، فقلت: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأوصي به، وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت ثم وقعوا بي[6].

---

(١) صحيح البخاري، الرقاق رقم ٦٥٠٣ (١١/ ٣٤٧) صحيح مسلم، الجمعة رقم ٨٦٧ (ص ٥٩٢).

(٢) قد جاء ذكر إسلام عبد الله بن سلام مجملا في هذه الرواية، ولكنه جاء مفصلاً في رواية الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه وفيها: فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلكَ عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلا نبي: فما أوَّلُ أشراط الساعة؟ وما أوَّل طعام أهل الجنة؟ وما يَنزعُ الولدُ إلى أبيه أو إلى أمه؟.
قال: أخبرني بهنَّ جبريل آنفًا، قال: جبريل؟ قال: نعم. قال: ذلك عدوُّ اليهود من الملائكة. فقرأ هذه الآية ﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾. أما أول أشراط الساعة فنارٌ تحشُر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أولُ طعام أهل الجنة فزيادةُ كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزعَ الولدُ، وإذا سبقَ ماء المرأة نَزعت. قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأشهدُ أنك رسول الله، وسيأتي تخريجه في نهاية عرض هذا الخبر.

(٣) يعني يفترون الكذب.

(٤) كان هذا اسمه قبل الإسلام.

(٥) جاء في رواية الإمام البخاري أن النبي ﷺ قال لهم: «**أفرأيتم إن أسلم**؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، قال: **يا ابن سلام اخرج عليهم**.

(٦) يعني سبوه وشتموه.

قال: قلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله، أنهم قوم بُهت أهل غدر وكذب وفجور؟».

وهكذا تحقق ظنه فيهم، وبقيت شهادة عليهم من أحد علمائهم الذين كانوا يعتبرونه من سادتهم.

«قال: فأظهرتُ إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلمتْ عمتي خالدة بنت الحارث فحسُن إسلامها»[1].

ومما يدل على أن اليهود كانوا يعرفون رسول الله ﷺ بعينه، وأنهم تحققوا من أنه هو النبي المنتظر ما جاء في شهادة صفية بنت حيي - رضي الله عنها - قالت: كنت أحَبَّ ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر لم ألقهما قط مع وَلَد لَهُما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدَا عليه أبي حيي ابن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلِّسين[2].

قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالَّين، كسلانين ساقطين، يمشيان الهويني، قالت: فهششت لهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليَّ واحد منهما مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي ابن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتُثْبتُه؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[3].

فهذا شاهد يدل على معرفة اليهود اليقينية برسول الله ﷺ وعلى ما جُبلت عليه قلوبهم من التنكر للحق واتباع الهوى.

أما عبد الله بن سلام رضي الله عنه، فقد كان من القلائل الذين برئوا من هذه الصفات السيئة، وعمرت قلوبهم بالتجرد والطهارة من الحقد والحسد، فقد سارع إلى اعتناق الإسلام مع أنه كان سيداً من سادات اليهود، ولم يمنعه مركزه في قومه من أن يدخل في الإسلام ويكون جنديًا من جنوده.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥٠، وقد أخرج الإمام البيهقي رواية ابن إسحاق من طريق عبد الله بن الأجلح، عن محمد بن إسحاق، قال: حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن يحي بن عبد الله، عن رجل من آل عبدالله بن سلام، قال: كان من حديث عبد الله بن سلام، وذكر مثله، دلائل النبوة: ٢/ ٥٣٠، وأخرجه الإمام البخاري باختصار في صحيحه، كتاب التفسير، رقم: ٤٤٨٠، ٨/ ١٦٥، وقد قدَّمتُ رواية ابن إسحاق بالذكر؛ لكونها أكثر تفصيلاً للواقع التاريخي للخبر، وذكرت ما في رواية البخاري من الزوائد المفيدة.

(٢) يعني في وقت الغلس وهو ظلمة آخر الليل.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ١٥٣.

مثل من دعوة رسول الله ﷺ
(خبر عبد الله بن أبيّ في عدم إجابة الدعوة)

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري من حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - : «أن رسول الله ﷺ ركبَ على حمار على قطيفة فدكية، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يُسلم عبد الله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غَشيت المجلس عَجاجةُ الدابة خمَّر عبد الله بن أُبي أنفهُ بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا، فسلَّم رسول الله ﷺ عليهم، ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي بن سلول، أيُّها المرءُ، إنه لا أحسن مما تقولُ إن كان حقًّا فلا تُؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصُص عليه، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يُخفِّضُهم حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: **يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حُباب** - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله، اعفُ عنه واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء اللهُ بالحق الذي أنزلَ عليك ولقد اصطلحَ أهل هذه البحيرة على أن يُتوِّجوهُ فيعصِّبونه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرقَ بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ وأصحابه يعفونَ عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصطبرون على الأذى، قال الله عز وجل: ﴿ **وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال الله: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وكان النبي ﷺ يتأوَّلُ العفو ما أمرَهُ الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أُبي بنُ سلول ومن معه من المشركين وعبَدة الأوثان: هذا أمرٌ قد توَجَّه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، فأسلموا»[1].

هذه الواقعة جرت قبل أن يُظهر عبد الله بن أُبي الإسلام نفاقًا، كما هو ظاهر في الخبر، وكان ابن أُبيٍّ قبل إظهاره الإسلام يمثل زعامة بقية الوثنيين في المدينة من قومه الخزرج، ولما رآه النبي ﷺ جالسًا مع أصحابه اغتنم هذه الفرصة ودعاه ومن معه إلى الإسلام، ولكن ابن أُبي كان لئيمًا مستكبراً، فأساء الردَّ على رسول الله ﷺ.

وكان ﷺ حليمًا صبوراً حكيمًا حينما لم يرد عليه، وقد تولى الرد عليه عبد الله بن رواحة ومن معه من المسلمين رضي الله عنهم؛ حيث أظهروا السرور والاعتزاز بدعوة الإسلام.

*****

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير: ٨/ ٢٣٠، رقم: ٤٥٦٦.

موقف لأسعد بن زرارة
(أول جمعة أقيمت بالمدينة)

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن أبي أمامة سهل بن حنيف، عن أبيه أبي أمامة، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، قال: كنت قائد أبي؛ كعب بن مالك، حين ذهب بصره، فكنتُ إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها صلَّى على أبي أمامة، أسعد ابن زرارة[1]، قال: فمكث حينًا على ذلك: لا يسمعُ الأذان للجمعة إلا صلى عليه واستغفر له، قال: فقلت في نفسي: والله إن هذا بي لعَجْز، ألا أساله ماله إذا سمع الأذان للجمعة صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة؟ قال: فخرجت به في يوم جمعة كما كنت أخرج، فلما سمع الأذان للجمعة صلَّى عليه واستغفر له، قال: فقلت له: يا أبت، مالك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبي أمامة؟ قال: فقال: أي بني، كانَ أوَّلَ من جمَّع بنا بالمدينة في هَزْم النبيت، من حرَّة بني بياضة، يقال له[2]: نقيع الخَضمات، قال: قلت: وكم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلاً[3].

وهذا موقف يذكر لأسعد بن زرارة رضي الله عنه الذي كان من أبرز الدعاة إلى الإسلام في المدينة، وكان من الستة الذين هم أول من أسلم من أهل المدينة ونقلوا الإسلام إليها، ومن الاثنى عشر الذين بايعوا بيعة العقبة الأولى وفي بيته في المدينة نزل مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي أوفده رسول الله ﷺ للدعوة في المدينة وإمامة أهلها، وكان بعد ذلك من أبرز من حضروا بيعة العقبة الثانية، وكان من النقباء الاثنى عشر الذين اختارهم رسول الله ﷺ؛ ليكونوا مسؤولين عن قومهم.

وموقف آخر لكعب بن مالك رضي الله عنه؛ حيث ظل يذكر فضل أهل الفضل حتى أواخر حياته، ويكرر ذكر أبي أمامة أسعد بن زرارة كل جمعة ويستغفر له، وهذا دليل على عمق تخلقه بخلق الوفاء الذي يعدُّ من أبرز الأخلاق التي يقوم عليها بناء الأمم.

---

(١) يعني دعا له وترحم عليه.

(٢) يعني في مكان يقال له.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩ - ٥١.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

لَمَّا قدم النبي ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، فجعلَ كل واحد من المهاجرين أخًا لواحد من الأنصار.

وقد ذكر ابن إسحاق أسماء عدد من المهاجرين والأنصار الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ[1].

وأخرج ابن سعد من طريق شيخه الواقدي بأسانيده عن محمد بن إبراهيم التيمي ويحيى بن زيد بن ثابت، وضمرة بن سعيد، قالوا: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بينهم على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، وكانوا تسعين رجلاً، خمسة وأربعون من المهاجرين، وخمسة وأربعون من الأنصار، ويقال: كانوا مائة؛ خمسون من المهاجرين، وخمسون كانوا من الأنصار[2]، وكان ذلك قبل وقعة بدر، وأنزل الله تعالى: ﴿ **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ٧٥]، فنسخت هذه الآية ما كان قبلها، وانقطعت المؤاخاة في الميراث، ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه[3].

وأخرج الإمام أبو داود الطيالسي من حديث عكرمة عن ابن عباس قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه وورَّث بعضهم من بعض، حتى نزلت: ﴿ **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** ﴾، فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب[4].

وأخرجه الإمام الطبراني من طريق أبي داود الطيالسي بإسناده وذكر مثله[5].

وقال الحافظ الهيثمي عن إسناد الطبراني: رجاله رجال الصحيح[6].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ١٣٥.

(٢) وهذا حسب ما روي من العدد، ولا يعني ذلك الحصر إذ أن المؤاخاة قد شملت كل المهاجرين مع أعدادهم من الأنصار.

(٣) طبقات ابن سعد ١/ ٢٣٨.

(٤) منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داود ٢/ ١٩ رقم ١٩٥٢.

(٥) معجم الطبراني ١١/ ٢٨٤ رقم ١١٧٤٨.

(٦) معجم الزوائد ٧/ ٢٨.

وقد بيَّن حَبر الأمة عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - الأمور التي قامت عليها هذه الأخوَّة، وذلك فيما أخرجه الإمام البخاري عنه في قول الله تعالى: ﴿ **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا** ﴾ [النساء: ٣٣]، أنه قال: ﴿ **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ** ﴾، قال: ورثة: ﴿ **وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾، كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي رحمه؛ للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿ **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ** ﴾، نسخت، ثم قال: ﴿ **وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ** ﴾[1]، من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصىَ له[2]، والرِّفادة هي الإعانة بالعطية[3].

ومن هذه الرواية يتبين لنا أن الأمور التي عقدت من أجلها هذه الأخوة هي: التوارث والنصر والرفادة والنصيحة بين المتآخين، وأن التوارث نُسخ، مع استحباب الوصية للأخ بشيء من المال، وبقيت الحقوق الأخرى.

ومن هذه المؤاخاة يتبين لنا مثلٌ من الجهد الكبير الذي قام به رسول الله ﷺ في تثبيت دعائم ذلك المجتمع الإسلامي الناشئ في المدينة النبوية، كما أن هذه المؤاخاة تشتمل على موقف مشكور من الأنصار رضي الله عنهم؛ حيث رضوا بما يترتب عليها من التوارث مع أنهم هم أصحاب الأموال غالبًا.

ولقد رُويت أخبار رائعة لما جرى بين أفراد هؤلاء الإخوة من المواساة والإيثار والنصيحة والثقة.

ومن أمثلة آثار هذه المؤاخاة في مجال التناصح ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه قال:

آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة فقال لها: ما شأنك؟. قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء

---

(١) هذه الجملة من الآية ليست في رواية البخاري، وهي في رواية الطبراني بنفس إسناد البخاري ولابد من إضافتها لأن قوله «من النصر» متعلق بـ(آتوهم) وليس بـ(عاقدت)، انظر فتح الباري ٨/ ٢٤٩.

(٢) صحيح البخاري، التفسير، ٨/ ٢٤٧، رقم: ٤٥٨٠.

(٣) فتح الباري ٨/ ٢٤٩.

أبو الدرداء، فصنع له طعامًا، فقال له: كل، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصلَّيا، فقال له سلمان: إن لربِّك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقَّه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال له النبي ﷺ «**صدق سلمان**»[1].

ومن أمثلة آثارها في مجال الثقة ما ذكره ابن إسحاق - رحمه الله - من خبر بلال بن رباح رضي الله عنه قال: فلما دوَّن عمر بن الخطاب الدواوين بالشام، وكان بلال قد خرج إلى الشام، فأقام بها مجاهدًا، فقال عمر لبلال: إلى مَنْ تجعل ديوانك يا بلال؟ قال: مع أبي رويحة[2]، لا أفارقه أبدًا؛ للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بينه وبيني، فضُمَّ إليه، وضُمَّ ديوان الحبشة إلى خثعم لمكان بلال منهم، فهو في خثعم إلى هذا اليوم بالشام[3].

وهذا دليل على عمق آثار هذه المؤاخاة حيث ظل بلال على ذكر لها بعد تلك المدة الطويلة.

ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال: لما قدموا المدينة [يعني المهاجرين]، آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن [يعني ابن عوف]، وسعد بن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسمُ مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمِّها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلُّوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن[4].

فهذا نموذج من المواساة والإيثار، وهو مثل لحياة حافلة بالأمثلة العالية التي قدَّمها الأنصار رضي الله عنهم.

---

(١) صحيح البخاري، الصوم، ٤/ ٢٠٩، رقم: ١٩٦٨، وقوله «متبذله» يعني لابسة ثياب المهنة تاركة ثياب الزينة.

(٢) هو أبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي رضي الله عنه.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ١٣٨.

(٤) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، ٧/ ١١٢، رقم: ٣٧٨٠.

وإذا كان الناس اعتادوا على أن يجودوا بشيء من أموالهم قَلَّ أو كثير فإن الجود بالتنازل عن الزوجات أمر نادر الوجود، ولم يكن معروفًا عند العرب قبل الإسلام، ولقد كان ما أقدم عليه سعد بن الربيع رضي الله عنه من ذلك مظهراً من مظاهر كمال الإيثار، وكان الباعث عليه رسوخ الإيمان بالإسلام الذي جعل الفرد المسلم يلغي من باله التمسك بالكماليات في المعيشة في سبيل إعزاز هذا الدين والتآخي مع رجاله.

*****

مواقف من إيثار الأنصار

حينما هاجر المهاجرون إلى المدينة النبوية لم يكن معهم مال يكفيهم لضرورات المعيشة، فقام الأنصار بإيوائهم وإعاشتهم خير قيام، وضربوا أمثلة عالية في إيثار المهاجرين على أنفسهم.

ولقد ذكَرهم الله تعالى بالصفات العالية في القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر: ٩].

أي والأنصار الذين اتخذوا المدينة مباءة لهم، يعني: مسكنا ثابتًا، والذين آمنوا بالإسلام وثبتوا عليه في المدينة قبل قدوم المهاجرين إليها: ﴿ **يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ** ﴾ من إخوانهم أهل مكة وغيرهم من المسلمين.

ومن مظاهر حب الأنصار للمهاجرين أنهم قدمُّوهم في الولاء والنصرة على حلفائهم من اليهود، بل قدموهم على أقاربهم الذين لم يدخلوا في الإسلام.

ومن مظاهر هذا الحب أنهم تنازلوا لهم عن محبوبات الدنيا التي يتنافس الناس عليها عادة من الأموال والمساكن، ونحو ذلك: ﴿ **وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا** ﴾، فإذا قدَّم النبي ﷺ المهاجرين بشيء من أمور الدنيا المعنوية كالولايات أو المادية؛ كأموال الفيء، فإن الأنصار لا يجدون في صدورهم؛ أي شيء من التأثر والكراهية؛ فضلاً عن الحسد، وهذا دليل على كمال حبِّهم إياهم وطهارة قلوبهم نحوهم.

﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾، يعني: ويقدِّمون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم بمتاع الدنيا، وإن كان هؤلاء الأنصار فقراء يحتاجون إلى ذلك المتاع.

إن الإيثار درجة أعلى من المواساة، والأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم، وزادوا على ذلك بأن آثروهم على أنفسهم بخير الدنيا، وهذا شاهد على صدق محبتهم وقوة إيمانهم.

ولقد رُويت نماذج عالية من مواقف الأنصار في الكرم والمواساة والإيثار، فمن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: «**لا**»، فقالوا: تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا[1].

فهذا الحديث يفيد أن الأنصار عرضوا على النبي ﷺ أن يتولى قسمة أموالهم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، وقد كانت أموالهم هي النخيل، فأبى عليهم النبي ﷺ، وأراد أمرا تكون فيه المواساة من غير إجحاف بالأنصار بزوال ملكية أموالهم منهم، فقال الأنصار للمهاجرين: تكفوننا المؤونة - أي العمل في النخيل من سقيها وإصلاحها- ونشرككم في الثمرة، فلما قالوا ذلك رأى رسول الله ﷺ أن هذا الرأي يضمن سد حاجة المهاجرين مع الإرفاق بالأنصار فأقرهم على ذلك، فقالوا جميعًا: سمعنا وأطعنا.

وسيأتي في ثناء المهاجرين على الأنصار أن الأنصار قد قاموا بالمؤونة وأشركوا المهاجرين في الثمرة، ولعل المهاجرين كانوا يساعدونهم في العمل، ولكن كان أكثر العمل عند الأنصار، ومن ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث خارجة بن زيد في بيان خبر عثمان بن مظعون، وفيه أن الأنصار اقترعوا على سكني المهاجرين[2].

وهذا يفيد أن الأنصار قد تنافسوا على إسكان المهاجرين في بيوتهم، وأنهم قد رضوا بالقرعة فيما بينهم.

ولقد أراد النبي ﷺ أن يكافئ الأنصار على تلك المكارم العظيمة التي قدَّموها لإخوانهم المهاجرين، وقد أخرج الإمام البخاري في ذلك من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يُقطع لهم البحرين، قالوا: لا، إلا

(١) صحيح البخاري، المزارعة، ٥/ ٨، رقم: ٢٣٢٥.
(٢) صحيح البخاري: مناقب الأنصار، ٧/ ٢٦٤، رقم: ٣٩٢٩.

أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: «**إمَّا لاَ فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم بعدي أثرة**»[1].

وهكذا ضرب الأنصار مثلاً عاليًا في مواساة إخوانهم المهاجرين مع وجود ما يسوِّغ قبولهم ذلك الإقطاع الذي كان مكافأة لهم على ما سبق من تفضلهم وتكرمهم.

وكان شكر المهاجرين للأنصار عاليًا، ولقد سجَّلوا ذلك بثنائهم عليهم عند النبي ﷺ، وقد أخرج خبر ذلك الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلا في كثير، ولقد كفونا المؤونة وأشركونا في المَهْنأ[2]، حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: «**لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله عز وجل لهم**»[3].

وفي إشارة المهاجرين إلى الأجر الأخروي بيان لعمق تصورهم للحياة الآخرة، وهيمنة هذا التصور على تفكيرهم.

ولقد كان إيثار الأنصار على أنفسهم عظيمًا، يبين ذلك ما أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه، فقلنَ: ما معَنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: «**من يَضُمُّ -أو يضيف- هذا؟**» فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيِّئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها، ثم قامت كأنها تُصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبحا غدَا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «**ضحك الله الليلة -أو عجب- من فعالكما**»، فأنزل الله: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[4].

---

(١) صحيح البخاري / مناقب الأنصار، رقم ٣٧٩٤ (٧/ ١١٧).

(٢) يعني كفونا العمل وأشركونا في الثمرة.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٣/ ٢٠٠، ٢٠١، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه من حديث أنس بمثله: ٩/ ٨٦، رقم: ٦٥٦١.

(٤) صحيح البخاري، فضائل الأنصار، ٧/ ١١٩، رقم: ٣٧٩٨.

مثل من جهود النبي ﷺ وصحابته في جهاد المنافقين

قال محمد بن إسحاق - رحمه الله تعالى - بعد أن ذكر أسماء عدد من المنافقين:

وكان هؤلاء المنافقون يحضُرون المسجدَ فيستمعون أحاديث المُسلمين ويسخرون منهم ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يومًا في المسجد منهم ناسٌ، فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضي أصواتهم، قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ فأخرجوا من المسجد إخراجًا عنيفًا.

فقام أبو أيوب؛ خالد بن زيد بن كليب، إلى عمرو بن قيس، أحد بني غنم بن مالك ابن النجار - وكان صاحب آلهتهم في الجاهلية - فأخذ برجله فسحبه، حتى أخرجه من المسجد، وهو يقول: أتخرجني يا أبا أيوب من مرْبد بني ثعلبة! ثم أقبل أبو أيوب أيضًا إلى رافع بن وديعة، أحد بني النجَّار، فلبَّبه بردائه ثم نَتَره نترًا شديدًا، ولطم وجهه، ثم أخرجه من المسجد وأبو أيوب يقول له: أفٍّ لك منافقًا خبيثًا! أدْرَاجَك[1] يا منافق من مسجد رسول الله ﷺ.

وقام عُمَارة بن حَزم إلى زيد بن عمرو، وكان رجلاً طويل اللحية، فأخذ بلحيته، فقاده بها قودًا عنيفًا حتى أخرجه من المسجد، ثم جمع عُمارة يديه جميعًا فلَدَمَه بهما في صدره لدمة خرَّ منها[2]، وقال: يقول: خدشتني يا عمارة، فقال: أبعدك الله يا منافق، فما أعدَّ الله لك من العذاب أشدَّ من ذلك، فلا تقربنَّ مسجدَ رسول الله ﷺ.

وقام أبو محمد - رجل من بني النجَّار، كان بدريًا، وأبو محمد مسعود بن أوْس بن زيد بن أصرم بن زيد بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النجار- إلى قيس بن عمرو بن سهْل، وكان قيس غلامًا شابًا، وكان لا يُعْلَم في المنافقين شاب غيره، فجعل يدفع في قفاه حتى أخرجه من المسجد.

وقام رجل من بَلْخُدْرة بن الخزرج، رهط أبي سعيد الخدري، يقال له: عبد الله بن الحارث - حين أمر رسول الله ﷺ بإخراج المنافقين من المسجد- إلى رجل يقال له:

---

(١) قال ابن هشام: أي ارجع من الطريق التي جئت منها.

(٢) قال ابن هشام: اللدم الضرب ببطن الكف.

الحارث بن عمرو، كان ذا جمة[1]، فأخذ بجمته فسحبه بها سحبًا عنيفًا، على ما مرَّ به من الأرض، حتى أخرجه من المسجد، قال: يقول المنافق: لقد أغلظت يا بن الحارث، فقال له: إنك أهل لذلك، أي عدوَّ الله، لما أنزل الله فيك، فلا تقربن مسجد رسول الله ﷺ، فإنك نجس.

وقام رجل من بني عمرو بن عوف إلى أخيه زُوَيِّ بن الحارث، فأخرجه من المسجد إخراجًا عنيفًا وأفف منه، وقال: غلب عليك الشيطانُ وأمرُه.

فهؤلاء من حضر المسجد يومئذ من المنافقين، وأمر رسول الله ﷺ بإخراجهم[2].

هذا الخبر يدل على انحطاط مستوى هؤلاء المنافقين في السلوك؛ حيث كانوا يسخرون من المؤمنين ويهزؤون بهم.

وقد كان أمر النبي ﷺ بإخراجهم نوعًا من جهادهم وتطهيرًا للمسجد من عبثهم.

وإن ما قام به هؤلاء الصحابة من إخراج المنافقين من المسجد بعنف يعدُّ شاهدا على قوة إيمانهم وإخلاصهم لدينهم؛ حيث إن المنافقين المذكورين من قبائلهم فلم يجاملوهم ولم تأخذهم في الله لومة لائم.

*****

(١) الجمة ما سقط من شعر الرأس على المنكبين.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٦٨، ١٦٩.

موقف لرسول الله ﷺ في الحكم بما أنزل الله
(حكمه على اليهود بما في توراتهم)

أخرج مسلم بسنده عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّما[1] مجلودا، فدعاهم النبي ﷺ، فقال: «**هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟** قالوا نعم، فدعا رجلا من علمائهم،[2] فقال: «**أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟**»، قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أول من أحيا أمرك إذْ أماتوه**»، فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ**﴾ [المائدة: ٤١]، يقول ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [المائدة: ٤٧]، في الكفار كلها[3].

وهكذا عندما ضعف إيمان اليهود بدينهم رأوا أنه ليس بإمكانهم تطبيق حدود الله تعالى على جميع من يرتكبون الجرائم؛ سواء كانوا أغنياء أو فقراء، أقوياء أو ضعفاء،

---

(١) أي مسود الوجه كما ذكر صاحب القاموس.

(٢) هو عبد الله بن صوريا الأعور كما في رواية الطبري - تفسير الطبري ٦/ ٢٣٢ -.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الحدود، رقم ١٧٠٠، ص: ١٣٢٧.

فاصطلحوا فيما بينهم على حدود يمكن أن تقام على الأغنياء والأقوياء، كما تقام على الفقراء والضعفاء، وذلك كحد الزنى؛ حيث أبدلوا الرجم بالجلد مع تسويد الوجه، كما جاء في هذه الرواية.

وكان موقف رسول الله ﷺ منهم في هذا التلاعب بشريعة الله قويًا حازمًا؛ حيث قال: «**اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه**»، وأمر بذلك الزاني فرجم.

وهكذا ضرب النبي ﷺ لأمته مثلاً عاليًا في تطبيق حدود الله تعالى على الكبير والصغير.

*****

مثل من مقدرة النبي ﷺ على إخماد الفتنة وموقف للأنصار بالسمع والطاعة

حينما انتشر الإسلام في المدينة وهاجر إليها رسول الله ﷺ، والتفَّ حوله المؤمنون من الأنصار إلى جانب إخوانهم المهاجرين، وتكوَّن منهم مجتمع إسلامي متماسك غاظ ذلك اليهود، وعرفوا أنهم لن يستطيعوا مقاومة المسلمين بالقوة، فقد كانوا يعلمون عجزهم قبل ذلك عن التغلب على الأوس والخزرج لو فُرض أنهم اجتمعوا، فكيف بهم وقد اجتمعوا وانضم إليهم المهاجرون، فلجؤوا إلى سلاحهم القديم الذي تفننوا فيه ونجحوا في تفريق القبائل والأمم بواسطته وهو سلاح الغزو الفكري.

وقد تفتق ذهن أحد شيوخهم الكبار في السن عن حيلة هدف بها إلى تفريق مجتمع الأنصار، وذلك بإثارة العصبية القبلية بينهم؛ ليعودوا إلى جاهليتهم، فتعود الحروب بينهم كما كانت، ويخسر النبي ﷺ بذلك أقوى أنصاره، وفي بيان هذا الخبر يقول محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى:

ومَرَّ شأس بن قيس وكان شيخًا قد عسا[1]، عظيم الكُفْر شديد الضَّغن على المسلمين، شديد الحَسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من أُلفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة[2] بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابًا من يهود كان معهم، فقال: اعْمدْ إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعاث وما كان قَبله، وأنشِدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار.

وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي، أبو أُسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن النعُّمان البياضى، فقتلا جميعًا.

(١) أي كبرت سنه.

(٢) هي أم الأوس والخزرج، اللَّذين ينتسب إليهما الأنصار، والنسبة إلى الأم تعني شيئًا من التحقير عند العرب.

قال ابن إسحاق: ففعل، فتكلم القومُ عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيَّين علي الرُّكب: أوس بن قَيْظى، أحد بني حارثة بن الحارث، من الأوس، وجبَّار بن صخر، أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة[1]، فغضب الفريقان جميعًا وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة - والظاهرة: الحرَّة - السِّلاح السِّلاحَ، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «**يا معشر المسلمين، اللهَ اللهَ أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنفذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم؟**»، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيدٌ من عدوهم، فبكوا وعانق الرجالُ من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوِّ الله شأس بن قيس.

فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس وما صنَع: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [آل عمران: ٩٨، ٩٩].

وأنزل الله في أوس بن قيظى وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا عمَّا أدخل عليهم شأسُ من أمر الجاهلية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [آل عمران: ١٠٠ - ١٠٥][2]. فهذا الخبر فيه موقفان:

---

(١) أي: رددنا الحرب فتية قوية.

(٢) يعني قوله تعالى ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾، سيرة ابن هشام ٢/ ٢١١ - ٢١٤.

الموقف الأول: في اهتمام النبي ﷺ بأمور المسلمين وإشفاقه عليهم، وفزعه مما يصيبهم من الفتن والمصائب، فقد أسرع في الحضور إلى هؤلاء الأنصار الذين ثارت بينهم العصبية القبلية، وذكرهم بالله تعالى الذي هداهم من الضلالة، وجمعهم بعد الفرقة.

والغالب على هؤلاء الصحابة أنهم - وقد تقابلوا في الميدان - قد غاب عن قلوبهم استحضار عظمة الله تعالى ورقابته عليهم؛ لأن من عُمر قلبه بذكر الله جل وعلا فإن سلوكه يكون منبثقًا من الخضوع له تعالى، بفعل أوامره، والتماس رضاه، واجتناب نواهيه، والبعد عن سخطه، فكانت أول كلمة قالها رسول الله ﷺ «**اللهَ اللهَ**»؛ أي تذكروا عظمة الله وجلاله، وأخضعوا تصرفاتكم لما يحبه ويرضاه.

ثم ذكَّرهم بأن الأمر الذي أقدموا عليه هو من دعوى الجاهلية، وأنكر عليهم أن يُقدموا على ذلك مع وجوده بينهم، وهذا يعني أنه: إذا فعلتم هذا المنكر مع وجودي بين ظهرانيكم فكيف الحال مع عدم وجودي بينكم؟!

ثم ذكَّرهم بالإسلام... هذا الدين العظيم الذي هداهم الله تعالى إليه، والذي هو أغلى قيمة يمكن تصورها في الحياة... إن الناس بدونه أشبه شيء بالبهائم، بل قد يكونون أضل منها، فلذلك ذكر النبي ﷺ امتنان الله جل وعلا عليهم بهذا الدين وإكرامهم به؛ حيث رفعهم به إلى أعلى درجات الإنسانية.

ثم ذكَّرهم بما يتعلق بموضوعهم من فضائل الإسلام، فقد قطع الله تعالى به عنهم أمر الجاهلية بما فيها من عداوة وحروب انتقامية، وأنقذهم به من الكفر الذي يعدُّ انحرافا عن الهدف الأعلى الذي خُلق الإنسان من أجله، وانحطاطا إلى درجة إبليس وجنوده من الشياطين، كما ذكَّرهم بنعمة التأليف بين قلوبهم بهذا الدين... هذه المعجزة التي لم يستطيعوا الوصول إليها قبل ذلك، فكيف بعد هذا كله ينسون هذه النعم العظيمة، ويهيمن على قلوبهم التعصب لأمور الجاهلية التي أنقذهم الله منها؟!

وبعد هذا التذكير العظيم الذي تركز في كلمات معدودات، سرت في كيان أولئك الصحابة روح جديدة مسحت كل أثر لأمور الجاهلية، وشعروا بأنهم قد ارتكسوا قبل ذلك في ظلمة حالكة وأشفوا على هلاك محقق، فأنقذهم الله تعالى بكلمات نبيه ﷺ

العالية المعبرة، وروحه القوية المؤثرة، وهيئته الوثابة المنذرة، فنزعوا عمَّا هم فيه حالاً، وأدركوا أن ما وقعوا فيه كان من وساوس الشيطان وكيد عدوهم من اليهود، فبكوا ندمًا على ما قارفوا من الإثم، وعانق بعضهم بعضًا؛ تعبيراً عن زوال كل دَرَن طرأ على قلوبهم.

إن بكاء الرجال حدثٌ جليل، وخصوصًا إذا صدر من مثل هؤلاء الأبطال الذين يندفعون إلى الحرب بمثل هذه السرعة، فإن الدمع عند هؤلاء وأمثالهم عزيز؛ لأن نفوسهم قد تشكلت على حب البطش والانتقام، لولا ما كان من تهذيب الإسلام والتربية النبوية، فإذا بكوا فإنما يكون بكاؤهم لأمر جسيم هيمن على مشاعرهم، وحوَّل ما كان في قلوبهم من القساوة وحب الانتقام إلى لين ولطف وأحاسيس جياشة نحو الود والصفاء.

ومن هنا ندرك عظمة الرسول ﷺ ومقدرته الخارقة في الإقناع، وتغيير المشاعر، وتحويل الاتجاهات الشريرة حالاً إلى اتجاهات نحو الخير والصَّلاح.

الموقف الثاني: موقف أولئك الصحب الكرام من الأنصار الذين سارعوا إلى الأوبة والتوبة، واقتلعوا وساوس الشيطان من جذورها، ووضعوا عصبية الجاهلية تحت أقدامهم، فما أن رأوا رسول الله ﷺ وسمعوا كلامه حتى تحوَّلوا إلى أناس من نوع آخر، وهجمت على مشاعرهم بسرعة فائقة أحاسيس الرحمة والمودة، فنكسوا أسلحتهم إجلالاً لرسول الله ﷺ ولشرف الكلام النوراني الذي سمعوه، وجرت بينهم مظاهر الأخوة الفائقة، والمحبة الصادقة، ورجعوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين.

إن تراجع هؤلاء الصحابة عن أفكارهم وقناعاتهم بهذه السرعة دليل على تجرد قلوبهم من اتِّباع الهوى، وعمرانها بتوحيد الله تعالى والإخلاص له، وإن ما طرأ عليهم إنما كان استجابة لغضب مهيمن، سرعان ما انقشع بسماع الموعظة المؤثرة فتغير سلوكهم حالاً؛ لأن قلوبهم كانت معمورة بالتجرد والصفاء رضي الله عنهم جميعًا.

*****

مواقف لرسول الله ﷺ في بناء المجتمع الإسلامي
(صحيفة المعاهدة بين أهل المدينة)

قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، وادَعَ فيه يهود، وعاهدهم، وأقرَّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبيِّ ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين؛ من قريش ويَثرب ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس.

المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم[1]، وهم يفْدون عانيهم[2]، بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عَوْف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكلُّ طائفة تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ثم ذكر فروع قبيلتي الأوس والخزرج على نحو ما ذكر في المهاجرين، إلى أن قال: وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرحًا[3]، بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

وألا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دَسيعة ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين[4]، وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولَدَ أحدهم.

ولا يَقْتل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس[5].

---

(١) جاء في النهاية لابن الأثير «على رباعتهم» وقال: أي يكونون على ما كانوا عليه من أخذ الديات وإعطائها، ويتعاقلون أي يدفعون العقل وهو الدية - النهاية ٣/ ٢٧٩ - وكذلك جاءت «على رباعتهم» في رواية الزهري - الأموال لابن زنجويه ١/ ٤٦٧ -.

(٢) أي أسيرهم.

(٣) قال ابن هشام: المُفرَح المثقل بالدين الكثير العيال.

(٤) الدَّسيعة: هي العطية، وتطلق على دفع المكروه؛ أي منْ طلب عطية أو دفع مكروه على وجه الظلم والإثم والعدوان والفساد، النهاية: ٢/ ١١٧.

(٥) أي يتولى بعضهم بعضًا بالمحبة والنصرة دون سائر الناس.

وإنه من تَبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم.

وإن سلْم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم[1].

وإن كلَّ غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضًا، وإن المؤمنين يُبئ بعضهم عن بعض[2] بما نال دماءهم في سبيل الله.

وإن المؤمنين المتقين على أحس هدْي وأقْومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمنًا قتلا عن بينه فإنه قودٌ به[3]، إلا أن يرضى وليُّ المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيامٌ عليه.

وإنه لا يحلُّ لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحْدثًا ولا يُؤويه، وإنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صَرفٌ ولا عدل[4]، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإنَّ مردَّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين؛ لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته[5].

ثم ذكر يهود بني النجار وبني الحارث وبني ساعدة وبني جشم وبني الأوس وبني ثعلبة وجفنة وبني الشطبية، وأن لهم ما ليهود بني عوف، إلى أن قال: وإن البرَّ دون الإثم، وإن موالي ثعْلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا ينحجز على ثأر جُرح[6] وإنه من فَتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم وإن الله على أبرِّ هذا.

(١) أي أنه لا يجوز أن يتولى فرد أو أفراد من المسلمين قضايا السلم مع الأعداء، بل إن هذا الأمر من شأن جماعة المسلمين وإمامهم.

(٢) يعني أن دماءهم متكافئة، يقال باء الرجل لصاحبه إذ قتل به كفؤا - عيون الأثر ١/ ٩.

(٣) أي من قتل مؤمنًا بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله فإن القاتل يقاد به فيقتل - النهاية ٣/ ١٧٢.

(٤) تقدم أن الصرف التوبة، والعدل الفدية وقيل الصرف الفريضة والعدل النافلة، والأول أقرب.

(٥) أي لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته.

(٦) الجرح الإصابة والهزيمة، والمقصود النهي عن التمسك بثأر الجاهلية.

وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصَّحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محارَبين، وإن يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مُضارٍّ ولا آثم، وإنه لا تجار حُرمة إلا بإذن أهلها.

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإنَّ مَرَدَّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرِّه.

وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على منْ دَهَم يثرب، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دَعَوْا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا مَن حارب في الدين، على كلِّ أناس حصَّتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس؛ مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة[1].

وإن البرَّ دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرِّه، إنه لا يحول هذا الكتابُ دون ظالم أو آثم، وإن الله جار لمن برَّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ[2].

وبعد: فهذا كتاب عظيم، اشتمل على قضايا كثيرة بالغة الأهمية في النواحي الاجتماعية والسياسية والإدارية والجهادية، وسأقف وقفات سريعة مع بعض فقرات هذه الصحيفة؛ لالتماس بعض المواقف النافعة.

---

(١) قال ابن هشام: ويقال مع البَرِّ المحسن من أهل هذه الصحيفة. وما ذكره ابن هشام أوضح في المعنى، وقد جاء كذلك في رواية الزهري - الأموال لابن زنجويه - ١/ ٤٧٠ -.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام: ٢/ ١٣٠، ١٣٤، وقد ذكر هذه الصحيفة ابن سيد الناس: عيون الأثر: ١/ ١٩٧، وابن كثير: البداية والنهاية: ٣/ ٢٢٣، ٢٢٤، وقد أخرجها كل من أبي عبيد القاسم بن سلام، وحميد بن زنجويه في كتابيهما: الأموال، لأبي عبيد: ٩٤، رقم: ٥١٧، الأموال، لابن زنجويه، تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه «المجتمع المدني في عهد النبوة»: ١٠٧، فأجاد في تحقيقها وأفاد وردَّ على من حكم عليها بأنها موضوعة.

١- قول الرسول ﷺ عن المسلمين من أهل المدينة «**إنهم أمة واحدة من دون الناس**»، فالمسلمون أمة متميزة على جميع الناس في جميع نواحي الكمال البشري.

أمة موحَّدة يعبدون إلها واحدًا جل جلاله... بينما يتخبط الناس في متاهات من الشرك والحيرة والضلال.

أمة تمتاز بأهدافها العالية، ومناهجها القويمة... يتنافس أفرادها على أعمال الآخرة، ويسخِّرون دنياهم لآخرتهم، بينما يتنافس الناس على دنياهم.

٢- «**وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل**»، فهم لا يتركون المُثْقل بالديون كثير العيال يصارع مشكلاته وحده، ويوزع فكره بين همِّ سداد الدَّين، وهمِّ الإنفاق على العيال، بل يسارعون إلى مد أيديهم إليه؛ لسداد دينه، والرفع من مستواه المعيشي، ويتنافسون على هذا المطلب النبيل.

٣- «**وإن المؤمنين المتقين على من بَغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم**».

فالمؤمنون وصف عام يشمل من وُجد عندهم أصل الإيمان، وإن لم يكن مؤثِّرًا على سلوكهم تأثيرًا قويًا، بينما المتقون هم الذين بلغ عندهم الإيمان درجة التأثير القوي على سلوكهم، فتكوَّن عندهم وازع ديني يدفعهم إلى امتثال الواجبات واجتناب المنهيات، وهؤلاء هم الجديرون بأن يُلقى عليهم هذا التوجيه النبوي الكريم.

فهؤلاء المتقون يدٌ واحدة على من بغى منهم فجاوز حدود الاستقامة؛ إما بفعل مباشر منه، أو بطلب شيء لا يحل له من عطية مال أو حق معنوي يكون فيه ظالمًا معتديًا على غيره مفسدًا بذلك مجتمع المؤمنين، فإن أيدي هؤلاء المؤمنين المتقين تتحول إلى يد واحدة تأخذ على يد الظالم ولو كان من أبنائهم حتى تردعه عن الظلم.

٤- «**ولا يقتُل مؤمنٌ مؤمنًا بكافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن**».

وفي بيان واضح لحرمة المسلم وقيمته الكبرى، فهو إنسان كغيره؛ من حيث التكوين، ولكنه حينما يحل الإيمان في قلبه يتبدل إلى إنسان آخر.

إنه يحمل الجوهرة العظمى التي لا مثيل لها في حياة الناس، وهل أعظم من أنه قد انفتح له الطريق النوراني الذي بينه وبين الله تعالى؟!

فمهما كانت عظمة الكافر في عرف أهل الدنيا، فإن دمه لا يكافئ قطرة من دم أي فرد مسلم، ولا يجوز لمؤمن أن ينصر كافرا على مؤمن؛ لأن ذلك يُخل بعقيدته التي من أصولها: الولاء للمؤمنين، والبراء من الكافرين.

٥- «**وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين موالي بعض دون الناس**».

فأمر المؤمنين واضح لكبيرهم وصغيرهم؛ لأنهم إنما يُنفذون شريعة الله تعالى، وهي معلومة لكل من يدخل في مجال الجهاد فيما يتعلق بأمور السلم والحرب، ولا تتغير بتغير الأمير أو القائد، وإنما تنقسم إلى أمور واضحة لكل أفراد المسلمين المشاركين في الجهاد، وأمور فيها غموض، فهي تحتاج إلى اجتهاد من علماء الدين، فإذا كانت في الأمور الواضحة فإن الحديث عنها لا يختلف، سواء تحدث بها أكابر المسلمين أو أصاغرهم.

ومن هذا المنطلق استطاع ربعي بن عامر أن يحدِّد لقائد الفرس رستم مدة الهدنة يوم القادسية، وأن ينذره بالحرب في موعد معين، مع أن ربعي بن عامر ليس أمير الجيش ولا من قادته، وإنما هو موفد إلى جيش الفرس؛ حيث قال لرستم: إن مما سنَّ لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا ألا نُمكِّن الأعداء من آذاننا ولا نؤجِّلَهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثًا، فانظر في أمرك وأمرهم... إلى أن قال: أنا كفيل لك بذلك عن أصحابي وعلى جميع من ترى، قال: - يعني رستم -: أسيِّدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم[1].

فقول ربعي «يجير أدناهم على أعلاهم» مأخوذ مما جاء في هذه الصحيفة.

وهذا لا يعني أن يُقرِّر فرد أو أفراد من المسلمين قضايا السلم أو الحرب مع الأعداء بمقتضى رأيه أو آراء أفراد آخرين، والذي تم من ربعي بن عامر كان تطبيقًا لسنة رسول الله ﷺ، وإذا لم يكن في الأمر نصٌّ شرعي فإن الأمر يكون بالشورى بين القائد وأهل الحل والعقد؛ لأن ذلك يحتاج إلى نظر من أهل العلم والرأي، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ في هذه الصحيفة «**وإن سلْم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم**».

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٥٢٠.

٦- «وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قودٌ به إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه» .

وبهذا أقر النبي ﷺ قواعد الأمن للمجتمع المسلم، فقد كان الناس في الجاهلية لا يأمنون على أنفسهم؛ حيث كان المبدأ السائد فيهم هو الأخذ بالثأر من أي فرد من أفراد القبيلة التي اعتدى أحد أفرادها، فالإنسان لا يأمن على نفسه وإن حفظ نفسه وأسرته من الاعتداء؛ لأن أي فرد من أفراد القبيلة يعتدي يكون جميع أفراد القبيلة معرَّضين للقتل.

ولقد أبطل الإسلام مبدأ الأخذ بالثأر، وشرع القصاص من المعتدي دون أفراد قبيلته.

ويبين النبي ﷺ أن على المسلمين كافة أن يكونوا جميعًا ضد المعتدي، وأنه لا يجوز لهم السكوت عنه حتى يُحكم عليه بحكم الشريعة، وإن كان من أقرب الناس إليهم.

ولا شك أن تطبيق هذا الحكم ينتجُ عنه استتباب الأمن في المجتمع، وهذا هو الذي تم في المجتمع الإسلامي منذ أن طبق المسلمون هذا الحكم.

*****

وفد النصارى وخبر المباهلة

قال ابن إسحاق: وقَدم على رسول الله ﷺ وفْدُ نصارى نجْرَانَ؛ ستُّون راكبًا، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرَافهم، في الأربعة عشر منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم: العاقب، أميرُ القوم وذو رأيهم، وصاحب مشُورتهم والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمُه عبد المسيح، والسيِّد ثمالُهم[1] وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة، أحد بني بكر بن وائل أُسقفهم[2] وحبرهم وإمامهم وصاحب مدرَاسهم.

وكان أبو حارثة قد شرف فيهم، ودرس كتبهم، حتى حسن علمه في دينهم، فكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرَّفوه ومولوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس، وبسطوا عليه الكرامات لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم.

فلما وجَّهوا إلى رسول الله ﷺ من نجران، جلس أبو حارثة على بغلة له موجِّهًا إلى رسول الله ﷺ، وإلى جنْبه أخٌ له، يقال له: كُوز بن علقمة[3]، فعثرت بغلة أبي حارثة، فقال كوز: تعس الأبعد - يريد رسول الله ﷺ -، فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست، فقال ولمَ يا أخي؟ قال: والله إنه للنبي الذي كنَّا ننتظرهُ، فقال له كوز: ما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال: ما صنع بنا هؤلاء القوم، شرَّفونا ومولونا وأكرمونا، وقد أبوا إلا خلافه، فلو فعلتُ نزعوا منَّا كل ما ترى، فأضمر عليها منه أخوه كوز بن علقمة، حتى أسلم بعد ذلك، فهو كان يحدث عنه هذا الحديث فيما بلغني.

وهكذا كان كثير من علماء النصارى واليهود يعتقدون في رسول الله ﷺ أنه النبي المنتظر الذي بشَّر به أنبياؤهم، ولكن لم ينفعهم هذا الاعتقاد لأنهم لم يدخلوا في الإسلام إما حسدًا من عند أنفسهم أو رغبة في متاع الدنيا الزائل.

قال ابن هشام: وبلغني أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتبًا عندهم، فكلما مات رئيسٌ منهم فأفضت الرياسة إلى غيره، ختم على تلك الكتب خاتمًا مع الخواتم التي كانت قبله ولم يكسرها، فخرج الرئيس الذي كان على عهد النبي ﷺ يمشي فعثر، فقال له ابنه: تعس الأبعدُ! - يريد النبي ﷺ -، فقال له أبوه: لا تفعل، فإنه نبي، واسمه في

(١) أي قوامهم وغياثهم.
(٢) أي زعيمهم الديني.
(٣) قال ابن هشام: ويقال: كُرْز.

الوضائع؛ يعني في الكتب، فلما مات لم تكن لابنه همَّة إلا أن شد فكسر الخواتم، فوجد فيها ذكر النبي ﷺ، فأسلم فحُسن إسلامُه وحج، وهو الذي يقول:

إليك تَعْدو قَلقًا وَضينُها[1] مُعْتَرِضًا في بطنها جَنينُها

مُخالفًا دينَ النصارى دينُها[2]

ومن هذا الخبر وأمثاله يتبين لنا أن كثيراً من علماء أهل الكتاب كانوا يعرفون الرسول ﷺ، ويعلمون انطباق الصفات التي جاءت في كتبهم عليه، كما جاء في قول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**﴾ [البقرة: ١٤٦]، فمنهم من هداه الله تعالى؛ كهذا الرجل، وكعبد الله بن سلام، ومنهم من اتبعوا أهواءهم وهم الأكثر.

ومن هذا نعلم خطورة اتباع الهوى، حيث يقود صاحبه إلى الشقاء الدائم في حياة الخلود، ويحرمه من النعيم الخالد في تلك الدار، فما أشقى هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم وألغوا تحكيم عقولهم!

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال: لما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات، جُبَب وأرْدية، في جمال رجال بني الحارث بن كعب، قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلون، فقال رسول الله ﷺ: «دعُوهم»، فصلَّوا إلى المشرق.

ثم ذكر ابن إسحاق أسماء زعمائهم الأربعة عشر، وذكر شيئًا من اعتقادهم، ثم ذكر نزول سورة آل عمران فيهم من أولها، إلى آية المباهلة، وهي قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ [آل عمران: ٦١][3].

إلى أن ذكر آخر هذه الآيات التي نزلت فيهم وهي قول الله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤].

---

(١) قال ابن هشام: الوضين الحزام.

(٢) وقد أخرج هذا الخبر الإمام البيهقي من طريق شيخه الحاكم بإسناده عن يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: حدثنا بريدة بن سفيان عن ابن البيلماني عن كرز بن علقمة - دلائل النبوة ٥/ ٣٨٢، ٣٨٣.

(٣) قال ابن هشام: قال أبو عبيدة: نبتهل ندعو باللعنة.

قال: فدعاهم إلى النَّصف، وقطع عنهم الحجة.

فلما أتى رسول الله ﷺ الخبرُ من الله عنهم، والفصلُ من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من مُلاعنتهم إنْ ردُّوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك، فقالوا له: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن تفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خَلَوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح، ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى، لقد عرفتم إن محمداً لنبي مُرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم ما لاَعن قومٌ نبيًّا قطُّ فبقى كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم، والإقامة إلى بلادكم فوادعوا الرجل، ثم انصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نُلاعنك، وأن نتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضَى.

قال محمدُ بن جعفر: فقال رسول الله ﷺ: «**ائْتوني العشيَّةَ أبعثْ معكم القويَّ الأمين**»، قال: فكان عمرُ بن الخطاب يقول: ما أحببت الإمارة قطُّ حبِّي إياها يومئذ؛ رجاءَ أن أكون صاحبها، فرُحْتُ إلى الظُّهر مهجِّرًا[1]، فلما صلى بنا رسولُ الله ﷺ الظهر سلَّم، ثم نظر عن يمينه وعن يساره، فجعلت أتطاول له؛ ليراني، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه، فقال: «**اخرج معهم، فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه**»، قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة»[2].

وهذه منقبة عظمى لأبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه؛ حيث حاز على الوصفين اللازمين للقيام بأي عمل من الأعمال، وهما: القوة والأمانة، كما قال الله تعالى حكايةً عن ابنة شعيب: ﴿**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ [القصص: ٢٦]، فالقوة تعني: المقدرة على تحمل المسؤولية وأدائها، ويدخل في ذلك الخبرة الكافية في العمل، والأمانة تعني: الاستعداد الكامل لتنفيذ الحق، والتجرد الكامل من اتباع الهوى.

---

(١) يعني مبكرًا.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٧ - ٢٥٥ وأخرج هذا الخبر مختصرًا الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، رقم ٤٣٨٠ (٨/ ٩٣).

موقف لسعد بن معاذ في تحدي الكفار

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري من حديث عبد الله بن مسعود، أن سعد بن معاذ حدَّثه أنه كان صديقًا لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا، فنزل على أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم! أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا، فقال له سعد ورفع صوته عليه:

أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنك ما هو أشد عليك: طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إنهم قاتلوك**، قال: بمكة؟ قال: لا أدري، ففزع لذلك أميةُ فزعًا شديدًا، وفي رواية قال: فوالله ما يكذب محمدٌ إذا حدَّث.

فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم تري ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم قاتليَّ، فقالت له: بمكة؟ قال: لا أدري، فقال أمية: والله لا أخرج من مكة، فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس قال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني فوالله لأشترين أجود بعير بمكة - يعني لينجو عليه إذا أراد -، ثم قال أمية: يا أم صفوان، جهزيني، فقالت له: يا أبا صفوان، وقد نسيت ما قاله لك أخوك اليثربي؟ قال: لا أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا، فلما خرج أمية أخذ لا ينزل منزلا إلا عقل بعيره فلم يزل بذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر»[1].

(١) صحيح البخاري رقم ٣٩٥٠، ٣٦٣٢.

وهكذا رأينا سعد بن معاذ رضي الله عنه يظهر الاعتزاز بإسلامه ويتحدى الكفار، فيطوف حول الكعبة نهاراً، وإنها لمغامرة جريئة؛ لأنه سيد الأوس من الأنصار وأعظمهم نصراً للإسلام وإيواءً لرسول الله ﷺ، وإن في مجادلته أبا جهل مع ما عرف عنه من التصلب في عداء المسلمين دلالة ظاهرة على قوة إيمان سعد ورسوخ يقينه، وفي تهديده بقطع الطريق على تجار قريش إن منعوه من الطواف دليل على أهمية استيلاء المسلمين على المواقع المهمة التي تتوقف مصالح الأعداء على أمنها وسلامتها.

وفي واقعنا المعاصر نجد أن أكثر الحروب تقوم على المصالح الاقتصادية، فالدول التي تملك قدر أكبر من القوة المالية تكون هي الأقوى في الهيمنة على الأرض والسيطرة على الناس، ولكن هذه الدول القوية لا تقوم عادة إلا على وجود أمم تتسم بالضعف والجهل بالمصالح المادية، وطرقها المتشعبة، فتغتنم ذلك الأمم المتفتحة نحو الدنيا.

والأمة الإسلامية اليوم لو توافر لها الوعي الصحيح والإيمان القوي فإنها تستطيع أن تشل حركة الأمم القوية الطاغية المعتدية على حقوق الأمم الأخرى، وبالتالي فإن تلك الأمم الطاغية تخضع وتتنازل عن كثير من مظاهر طغيانها.

بل إن الأمر في هذا الزمن أيسر بكثير مما كان عليه في الأزمنة السابقة؛ لأن حياة الأمم القوية تقوم على تصدير المنتجات للأمم الأخرى، فلو أن هذه الأمم المستوردة قاطعت استيراد السلع من الأمم الطاغية لاستطاعت أن تقضي على كثير من مصانعها، وأن تشل حياتها، وهذا العمل ميسور، باستطاعة أي أمة أن تطبقه، خصوصًا مع وجود التنافس الشديد بين الدول المصدِّرة، وليس كل هذه الدول تحمل العدوان للمسلمين، فبإمكان المسلمين أن يتاجروا مع الدول المسالمة لهم. والأفضل أن تتاجر الأمم الإسلامية بعضها مع بعض فتقوي كل واحدة الأخرى حتى تصبح الأمة الإسلامية كتلة اقتصادية كبرى يحسب لها ألف حساب وتؤثر إيجابًا في المناخ السياسي.

وقول سعد «دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إنهم قاتلوك**» براعة منه في صرف اهتمام الرجلين عن قضية طوافه التي يدور حولها النزاع إلى موضوع يهمهما أكثر من ذلك، فاشتغلا به وتركا موضوع الجدال الأول.

وهو قبل ذلك توفيق من الله تعالى؛ حيث ألهم سعدًا هذه الفكرة التي كان بها خلاصه من ذلك المأزق، وإنما يترتب توفيق الله تعالى على تقوى العبد المبنية على الإيمان والإخلاص، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا**﴾ [الطلاق: ٢]، وقوله: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾ [الطلاق: ٤]، وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقوله: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولا شك أن الصحابة رضي الله عنهم قد حظوا من الإيمان والتقوى بحظ وافر.

*****

تبين لنا أنه لما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة سلبهم المشركون أكثر أموالهم، ومع كون المشركين قد ظلموا المسلمين بذلك فإنهم قد فقدوا الوعي السياسي لمصالحهم؛ لأن قوافل تجارة قريش إلى الشام تمر بالمدينة وضواحيها، والتجارة إلى الشام هي أكبر مصادر الثروة عندهم، وقد فاتهم التفكير السليم والتقدير الصحيح لمصالحهم التجارية حينما أقدموا على ذلك العمل الشنيع؛ من سلب المسلمين أموالهم.

فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، واستقرَّ به المقام، ووطَّد الأمور داخل المدينة بتقوية المجتمع الإسلامي، وعقد المعاهدات بينه وبين يهود المدينة فكَّر في إنصاف المسلمين من أعدائهم من أهل مكة، فصار يبعث السرايا؛ لرَصْد قوافل قريش التجارية ومصادرتها.

ولو لم يكن من أهداف الإغارة على قوافل قريش التجارية إلا هذا المقصد لكان كافيا في تسويغها شرعًا وعقلاً؛ لأنها من باب إنصاف المظلومين الذين لا يمكن استرداد حقوقهم إلا من هذا الطريق، فكيف ولهذا المسلك الحربي أهداف عالية، من أبرزها: محاولة إضعاف أكبر عدو للإسلام قد بدأ معركة الصراع مع المسلمين، وقد كان العامل القوي في استكبار زعماء قريش وتطاولهم على المسلمين ما يتمتعون به من مال كثير قد تنامَى مع الزمن، بسبب حياة الأمن التي يعيشونها في ظلال قدسية الحرم، وما وُفِّقوا إليه من الرحلات التجارية الضخمة التي يشترك فيها عادة كثير من أهل مكة، ولقد كانت خطورة هذا المال الضخم تتمثل في مقدرة أهل مكة على تمويل المعارك الكبرى مع أعدائهم، فكان من الحكمة لمن دخل معهم في عداء حربي أن يقص من أجنحتهم التي تمكِّنهم من التحليق في أجواء العدوان والظلم.

ومن السذاجة والتخلف في الوعي السياسي أن يفوِّت عدوُّهم هذه الفرصة وهو يقدر عليها.

ومما يدل على عزم قريش على حرب المسلمين ما أخرجه الإمام أبو داود السجستاني من حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك - رضي الله عنهما - عن رجل من أصحاب

النبي ﷺ: «أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أُبي وإلى جميع من كان عنده من عبدة الأوثان بالمدينة من الأوس والخزرج - ورسولُ الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر- يقولون: إنكم آويتم الصَّباة - وفي رواية: صاحبَنَا- وإنا نقسم باللات والعزى: لتقتُلنه، أولتُخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح ذراريكم - وفي رواية نساءكم-، فلما بلغ ذلك عبد الله وكُل من كان لم يسلم من الأوس والخزرج أجمعوا على قتال من أسلم منهم، وعلى قتال رسول الله ﷺ ومن كان معه، وأجمع المسلمون منهم لقتالهم، فجاءهم رسول الله ﷺ، فقال: «**قد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت قريش تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم**»، فلما سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ تفرَّقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، ثم كانت وقعة بدر، فكتبت كفار قريش إلى اليهود: إنكم أهلُ الحلقة والحصون، فلتُقاتلن صاحبنا، أو ليكونن بيننا وبينكم أمرٌ، فلما بلغ كتابُهم إليهم اجتمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن اخرج إلينا في ثلاثين من أصحابك، ويخرج منا ثلاثون حَبرًا، فنلتقي بمكان مَنْصف، فيسمعون منك، فإن صدقوك وآمنوا بك، آمنَّا أجمعون، فأعلمه جبريل بكيدهم، فغدا عليهم بالكتائب، فحصرهم، فقال: إنكم والله لا تأمنون عندي إلا بعهد تُعاهدونني عليه، فأبوا أن يعطوه عهدًا، فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا من الغد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا على بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، فخلتْ بنو النضير»[1].

*****

(١) سنن أبي داود، كتاب الخراج: ٣/ ٤٠٤، رقم: ٣٠٠٤، وقد ذكره الحافظ ابن الأثير في جامع الأصول: ٨/ ٢١٨، رقم: ٦٠٥٣، وصحَّحه المحقِّق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط.

سريَّة عبيدة بن الحارث إلى رابغ

كان أول بعث بعثه رسول الله ﷺ سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ، وسرية حمزة ابن عبد المطب إلى سيف البحر، وكان تاريخهما متقاربًا، ونظرًا لتقارب وقتهما حصل الخلاف بين المؤرخين الأوائل في تحديد أول سرية بعثها رسول الله ﷺ، هل هي سرية عبيدة كما سار على ذلك ابن إسحاق، أو سرية حمزة كما سار على ذلك الواقدي.

وفي سرية عبيدة بن الحارث يقول محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى:

وبعث رسول الله ﷺ، في مقُامه ذلك بالمدينة[1] عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي في ستين أو ثمانين راكبًا من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحدٌ، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المُرة، فلقي بها جمعًا عظيمًا من قريش، فلم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذٍ بسهم، فكان أوَّل سهم رُمي به في الإسلام.

ثم انصرف القومُ عن القوم، وللمسلمين حامية[2]، وفرَّ من المشركين إلى المسلمين المقدادُ بن عمرو البهراني، حليف بني زهرة، وعتبة بن غزوان بن جابر المازني، حليف بني نوفل بن عبد مناف، وكانا مسلمين، ولكنهما خرجا؛ ليتوصَّلا بالكفار، وكان على القوم عكرمةُ بن أبي جهل.

قال ابن هشام: حدثني ابن أبي عمرو بن العلاء عن أبي عمرو المدني: أنه كان عليهم مكرز بن حفص بن الأخيف، أخي بني معيص بن عامر بن لؤيٍّ بن غالب بن فهر[3].

وهكذا حاز سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه شرف السبق في الجهاد في سبيل الله تعالى، بكونه أول من رمى بسهم في الإسلام.

وإن أهم ما حصل عليه المسلمون في هذه السرية نجاة المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان - رضي الله عنهما-؛ حيث فرَّا من معسكر المشركين إلى معسكر المسلمين.

---

(١) الإشارة تعود إلى ما سبق أن ذكره ابن إسحاق من إقامة النبي ﷺ في المدينة في السنة الأولى من الهجرة إلى بداية السنة الثانية.

(٢) جاء في رواية الواقدي «ثم انصرف هؤلاء على حاميتهم وهؤلاء على حاميتهم».

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦٤، وانظر مغازي الواقدي ١/ ١٠، طبقات ابن سعد ٢/ ٧، تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ٤٦)، البداية والنهاية ٣/ ٢٣٣، وقد ذكر الواقدي أن هذه السرية كانت في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة.

سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر

قال محمد بن إسحاق رحمه الله تعالى:

وبعث في مقامه ذلك، حمزةَ بن عبد المطلب بن هاشم إلى سيف البحر، من ناحية العيص، في ثلاثين راكبًا من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم مجديٌّ بن عمرو الجهني، وكان موادعًا للفريقين جميعًا، فانصرف بعض القوم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال.

وبعض الناس يقول: كانت رايةُ حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين، وذلك أنَّ بعْثه وبعْث عبيدة كانا معًا، فشُبِّه ذلك على الناس[1].

ولقد كانت مغامرة جريئة، وتضحية كبيرة أن يعزم ثلاثون من المؤمنين على قتال عشرة أضعافهم من المشركين، وهذا دليل على رسوخ إيمان هؤلاء الصحابة وقوة تعلقهم بالحياة الآخرة، وضعف ارتباطهم بالحياة الدنيا، وهذا يمنحهم درجة عالية من الإقدام والشجاعة.

*****

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٦٩، وانظر مغازي الواقدي ١/ ٩، طبقات ابن سعد ٢/ ٦، تاريخ الإسلام للذهبي (المغازي / ٤٥)، البداية والنهاية ٣/ ٢٣٢. وقد ذكر الواقدي أن هذه السرية كانت في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة.

سرية عبد الله بن جحش إلى وادي نخلة

لم يكتف النبي ﷺ ببعث السرايا؛ لمحاصرة قريش من طريق تجارتهم نحو الشام، بل إنه أرسل رهطا من المسلمين؛ لاعتراض تجارة قريش فيما بين مكة والطائف، وهذا طريق لم يكن في حساب مشركي مكة أن يقف لهم به المسلمون.

وفي ذلك يقول ابن إسحاق رحمه الله تعالى:

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى[1]، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتابًا، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يستكْره من أصحابه أحدًا.

ثم ذكر أسماء أصحاب السرية، إلى أن قال:

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامْض حتى تنزل نخْلة، بين مكة والطائف، فترصد بها قريشا، وتعلم لنا من أخبارهم، فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعًا وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخْلة، أرصد بها قريشا، حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب بها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه، ولم يتخلف عنه منهم أحدًا.

وسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: بحران، أضلَّ سعدُ ابن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا عليه في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيبا وأدما[2] وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضْرمي.

قال ابن إسحاق: وعثمان بن عبد الله بن المُغيرة، وأخوه نوْفل بن عبد الله المخْزُوميان، والحكم بن كيْسان، مولى هشام بن المغيرة.

(١) يعني من السنة الثانية للهجرة.

(٢) يعني الجلود.

فلما رآهم القوم هابُوهم، وقد نزلوا قريبًا منهم، فأشرف لهم عُكاشة بن محْصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا، وقالوا: عُمَّار، لا بأس عليكم منهم.

وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلن الحرم، فيمتنعُنَّ منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله، فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ... إلى أن قال:

فلما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فوقَّف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئًا، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سُقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنَّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، فقال من يردُّ عليهم من المسلمين ممن كان بمكة إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان.

وقالت يهود - تفاءل بذلك على رسول الله ﷺ - عمرو بن الحضرمي قتله واقدُ بن عبد الله، عمرو: عمرت الحرب، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله: وقدت الحرب، فجعل الله ذلك عليهم لا لهم.

فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ أي إن كنتم قَتلتم في الشهر الحرام، فقد صدَّوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم: ﴿ **وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾؛ أي قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل: ﴿ **وَلَا**

يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾؛ أي ثم هم مقيمون على أخْبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين.

فلما نزل القرآن بهذا من الأمر، وفرَّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفَق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيريْن، وبعثت إليه قريشُ في فداء عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيْسان، فقال رسول الله ﷺ: لانُفديكموهما حتى يقدم صاحبانا - يعني سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان - فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل وقاص، وعُتبة بن غزوان - فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم فقدم سعدُ وعتبة، فأفداهما رسول الله ﷺ منهم[1].

فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيدًا، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة، فمات بها كافرًا.

فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نُعْطي فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٨]، فوضعهم الله عز وجل من ذلك على أعظم الرجاء.

والحديث في هذا عن الزهري ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير[2].

قال ابن هشام: وهي أوّل غنيمة غنمها المسلمون، وعمرو بن الحضرمي أوَّل من قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أوَّل من أسر المسلمون[3].

*****

---

(١) وكون سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان تأخر وصولهما بعد وصول السرية دليل على أنهما قد اجتهدا في اللحاق بالسرية بعد العثور على بعيرهما فلم يتمكنا من ذلك، وهذا هو المظنون بهما رضي الله عنهما.

(٢) وقال الحافظ ابن كثير: وهكذا ذكر موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري، وكذا روي شعيب عن الزهري نحوًا من هذا: البداية والنهاية: ٣/ ٢٤٩، وذكره الهيثمي، وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات، مجمع الزوائد: ٦/ ١٩٨.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧٦ - ٢٨٢.

مواقف وعبر في هذه السرية

١- جاء في هذا الخبر أن النبي ﷺ كتب لأمير السرية كتابًا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، وهذا مثلٌ لتطبيق مبدأ مهم من مبادئ الحرب، وهو إخفاء الخطط الحربية، ومنها خط السير، حتى يكون الجيش في أمان من كيد الأعداء، فالمدينة كانت آنذاك تضم اليهود والوثنيين، ومن المتوقع أن يسارع هؤلاء إلى إخبار أهل مكة بخط سير تلك السرية الموجهة ضدهم، فلما سار أفراد السرية وهم بأنفسهم لا يعلمون اتجاههم أصبح النبي ﷺ آمنا من انكشاف الهدف المقصود.

٢- موقف أولئك الصحابة الذين سمعوا وأطاعوا جميعًا، وساروا إلى منطقة أعدائهم، وتجاوزوها، حتى كانوا من ورائهم، وهذا شاهد على قوة إيمان الصحابة رضى الله عنهم، واستهانتهم بأنفسهم في سبيل الله تعالى.

٣- في هذا الخبر عبرة للمسلمين بما قام به المشركون من تشويه إعلامي خطير لسمعة المسلمين؛ حيث شهَّروا بهم فيما جرى من أصحاب تلك السرية؛ من القتل، وأخذ الأموال، والسبي في الشهر الحرام.

وقد كان ذلك في آخر يوم من شهر رجب، وقد جاء في رواية ابن إسحاق المذكورة أن المسلمين في مكة دافعوا عن إخوانهم أصحاب السرية بأن ذلك اليوم كان من شعبان، فهذا يفيد بأن أولئك الصحابة لم يتأكد لهم أن ذلك اليوم من رجب.

والكفار عادة يغتنمون كل فرصة؛ لتشويه سمعة المسلمين، فحينما ظفر كفار مكة بهذه المخالفة التي تعني انتهاكًا لأمر يُقدسه العرب اغتنموا ذلك للتشهير بالمسلمين، وقد طمعوا من خلال هذا الاتهام في أن يضعفوا من مكانة المسلمين، وأن ينفروا الناس من قبول دعوة الإسلام.

ولقد حصل التساؤل من المسلمين فيما صنع أصحاب تلك السرية، ولاموا إخوانهم على ما حدث.

ونزل القرآن في بيان هذا الأمر، وفي الرد على مقالة المشركين وذلك في قوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**

وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٧، ٢١٨].

ولقد قام ابن إسحاق بتفسير هاتين الآيتين على ضوء أحداث هذه السرية بما يكفي ويغني، كما جاء في هذا الخبر.

٤- وفي هذا الخبر عبرة مما جرى من اليهود من شماتة حاقدة؛ حيث تفاءلوا من اسم القاتل من المسلمين والمقتول من المشركين بأن الحرب ستشتعل على المسلمين، فجعل الله سبحانه الحرب عليهم لا على المسلمين.

وهذا الكلام من اليهود تعبير عن حقد دفين في نفوسهم على الإسلام والمسلمين.

*****

غزوات النبي ﷺ قبل بدر الكبرى

ذكرنا سابقًا أن النبي ﷺ بعد أن اطمأن به المقام في المدينة جهَّز عددًا من السرايا؛ لاعتراض تجارة قرش، ولغير ذلك من الأهداف الحربية.

ولم يكتف بذلك، بل خرج بنفسه ﷺ في عدة غزوات قبل غزوة بدر الكبرى وهي على ما ذكر المؤرخون: غزوة الأبواء، وهي غزوة ودَّان، وغزوة بواط، وغزوة العشيرة.

ولقد كان من أهداف هذه الغزوات اعتراض قوافل قريش التجارية، وتقرير العلاقات الحربية مع بعض القبائل القريبة من المدينة، ومنها قبيلة جهينة وبني ضمرة.

وقد تمت الموادعة بين رسول الله ﷺ وقبيلة بني ضَمُرة في غزوة الأبواء، وكُتب بينهم كتاب: على ألا يكثِّروا على رسول الله ﷺ ولا يعينوا عليه أحدًا[1].

وهكذا نجد أن النبي ﷺ خرج للغزو أربع مرات قبل غزوة بدر الكبرى، وذلك ما بين شهر صفر من السنة الثانية للهجرة وشهر جمادى الثانية من السنة نفسها.

وكوْن النبي ﷺ خرج بنفسه، وعانى من مشقة السفر وتلقِّي كيد الأعداء، واحتمال مواجهتهم أربع مرات خلال خمسة أشهر مثلٌ أعلى في التضحية بالنفس وبذل الجهد في سبيل إعزاز هذا الدين وحمايته، وبذلك أصبح ﷺ قدوة عليا لأمته في ركوب الصعاب وتحمُّل المشاق، والتهوين من راحة النفس في سبيل خدمة المثل العليا.

ولقد كان أصحابه على أتم استعداد للقيام بهذه المهمات نيابة عنه، بل كل واحد منهم على إستعداد أن يفديه بنفسه، ولكنه الرسول والمربي الأكبر الذي يريد أن يُنشئ جيلاً يكون قدوة للعالمين إلى قيام الساعة، فكلَّف نفسه ﷺ بهذه الأمور الشاقة؛ لتهون بعد ذلك على كل فرد من المسلمين حيث إنه من التقصير في حبه ﷺ والاقتداء به أن يرغب مؤمن لنفسه من الراحة والرفاهية بما يترفع عنه رسول الله ﷺ.

---

(١) ينظر في هذه الغزوات صحيح مسلم رقم ٣٠٠٩، كتاب الزهد، سيرة ابن هشام ٢/ ٢٦٢ - ٢٧٦، مغازي الواقدي ١/ ١١ - ١٢، طبقات ابن سعد ٢/ ٨ - ٩.

مواقف وعبر

في

غزوة بدر الكبرى

أمر النبي ﷺ أصحابه بالخروج للعير[1]

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ سمع بأبي سفيان بن حرب مُقبلاً من الشام في عير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش، وتجارةٌ من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون، منهم مخرمة بن نوفل بن أُهيب بن عبد مناف بن زهرة، وعمرو ابن العاص بن وائل بن هشام.

قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن ابن عباس، كلٌّ قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر[2]، قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عيرُ قريش؛ فيها أموالهم، فاخرجوا إليها؛ لعل الله يُنفِّلكُموها، فانتدب الناسُ، فخفَّ بعضهم وثقُل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا، وقد جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ضمن حديث عن غزوة بدر «قال: فخرج رسول الله ﷺ، فتكلم، فقال: «**إن لنا طلبة، فمن كان ظهره حاضرا فليركب معنا**»، فجعل رجال يستأذنونه في ظُهرانهم في علو المدينة، فقال: «**لا، إلا من كان ظهره حاضرًا**»[3].

---

(١) يعني قافلة قريش التجارية القادمة من الشام.

(٢) يعني أن جميع ما ساقه ابن إسحاق من حديث هذه الغزوات فهو بهذا الإسناد إلا إذا ذكر إسنادًا آخر، وقد اختصر ابن هشام ذكر الإسناد فنسب أخبار هذه الغزوة إلى ابن إسحاق نفسه.
وقد أخرج الإمام ابن جرير هذا الحديث في تفسيره بهذا الإسناد - ٩/ ١٨٥ - وكذلك في تاريخه - ٢/ ٤٢٧ بهذا الإسناد، وقد تخلله روايات أخرى عن ابن إسحاق بغير هذا الإسناد وروايات عن غير ابن إسحاق، وإذا رجع إلى هذا الحديث يقول: رجع الحديث إلى حديث ابن إسحاق، يعني فيما يحدث به عن شيوخه، وعبارته هذه أدق من صنيع ابن هشام الذي نسب القول إلى ابن إسحاق، فأوهم أنه من قوله بلا سند.

(٣) صحيح مسلم رقم ١٩٠١ (ص ١٥١٠) كتاب الإمارة، والظَّهر البعير.

قال ابن إسحاق: وكان أبو سفيان -حين دنا من الحجاز- يتحسَّس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان؛ تخوفًا على أمر الناس، حتى أصاب خبرًا من بعض الركبان أنَّ محمدًا قد استنْفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشًا فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعًا إلى مكة[1].

*****

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٨٤.

رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب وإضعاف معنوية الكفار

قال ابن إسحاق: فأخبرني من لا أتهم عن عكْرمة عن ابن عباس، ويزيد بن رومان عن عروة بن الزُّبير، قالا: وقد رأت عاتكةُ بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب، فقالت له: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رُؤيا لقد أفظعتني وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتُم عني ما أحدِّثك به.

فقال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيتُ راكبًا أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يَالَغُدُرُ[1] لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مَثَل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يالَغدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثَل به بعيره على رأس أبي قُبيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّت فما بقي بيتٌ من بيوت مكة، ولا دارٌ إلا دخلتها منها فلقَة، قال العباس: والله إن هذه لرؤيا! وأنت فاكتميها، ولا تذكريها لأحد.

ثم خرج العبَّاس: فلقي الوليد بن عُتبة بن ربيعة، وكان له صديقًا، فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليدُ لأبيه عتبة، ففشا الحديث بمكة، حتى تحدثت به قريش في أنديتها.

قال العباس: فغدوتُ لأطوف بالبيت، وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، فلما فرغت أقبلت حتى جلستُ معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب، متى حدَثت فيكم هذه النبيَّة؟.

قال: قلت: وما ذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكة، قال: فقلت: وما رأتْ؟ قال: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم! قد زعمتْ عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث، فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقًّا ما تقول، فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء، نكتب عليكم كتابًا أنكم أكذبُ أهل بيت في العرب.

---

(١) بضم الغين والدال جمع غدور، أي إن تخلفتم فأنتم غُدُر لقومكم: الروض الأنف ٥/ ١١٦.

قال العبَّاس: فوالله ما كان منِّي إليه كبير، إلا أني جحدتُ ذلك، وأنكرت أن تكون رأتْ شيئًا، قال: ثم تفرقنا.

فلما أمسيتُ، لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني، فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غيرٌ[1]، لشيء مما سمعت! قال: قلت: قد والله فعلتُ، ما كان مني إليه من كبير، وايمُ الله لأتعرَّضن له، فإن عاد لأكفينَّكُنَّه.

قال: فغدوتُ في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، وأنا حديدٌ مغضبٌ، أرى أني قد فاتني منه أمرٌ أحبُّ أن أدركه منه، قال: فدخلت المسجد فرأيته، فوالله إني لأمشي نحوه أتعرَّضه؛ ليعود لبعض ما قال فأقع به، وكان رجلاً خفيفًا، حديد الوجه، حديد اللسان، حديد النظر.

قال: إذْ خرج نحو باب المسجد يشتد، قال: فقلت في نفسي ماله لعنه الله! أكلُّ هذا فَرَق[2] منِّي أن أشاتمه! قال: وإذا هو قد سمع ما لم أسمع: صوت ضمضم بن عمرو الغفاريِّ، وهو يصرخ ببطن الوادي واقفًا على بعيره، قد جدَّع بعيره[3]، وحوَّل رَحله، وشقَّ قميصه، وهو يقول: يا معشر قُريش، اللطيمةَ اللطيمة[4]، أموالُكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تُدركوها، الغوثَ الغوثَ، قال: فشَغلني عنه وشغله عنِّي ما جاء من الأمر[5].

وهكذا أرى الله جل وعلا عاتكة هذه الرؤيا في ذلك الوقت المناسب؛ لتكون سببًا في تخذيل المشركين وإضعاف معنويتهم، فهم وإن خرج منهم جمع كبير فإنَّ كثيرا منهم كان كارها للخروج، كما سيتبين من الأخبار التالية.

---

(١) بكسر الغين وفتح الياء أي تغيير.

(٢) الفرق بفتح الفاء والراء الخوف.

(٣) يعني قطع أنفه.

(٤) اللطيمة اسم للجمال التي تحمل العطر، ولطائم المسك أوعيته والمعنى أدركوا العير. سبل الهدى والرشاد: ٤/ ١٣٢.

(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٨٥- ٢٨٧، وأخرج هذه الخبر الإمام الطبراني مرسلاً، ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن: مجمع الزوائد: ٦/ ٧٠، ٧١.

استعداد قريش للحرب

قال ابن إسحاق رحمه الله تعالى:

فتجهز الناسُ سراعًا، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي[1]، كلا والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين؛ إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً، وأوْعَبت قريش، فلم يتخلف من أشرافهم أحدٌ، إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب قد تخلف، وبعث مكانه العاص بن هشامَ بن المُغيرة، وكان قد لاط له[2] بأربعة آلاف درهم كانت له عليه أفْلس بها، فاستأجره بها، على أن يجزئ عنه، بعَثهُ، فخرج عنه وتخلَّف أبو لهب.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح: أن أُمية بن خلف كان أجمع القُعود، وكان شيخًا جليلاً جسيمًا ثقيلاً، فأتاه عقبة أبن أبي معيط، وهو جالس في المسجد بين ظهراني قومه بمجمرة يحملها، فيها نار ومجْمَر، حتى وضعها بين يديه، ثم قال: يا أبا علي، استجمر، فإنما أنت من النساء، قال: قبَّحك الله وقبَّح ما جئت به، قال: ثم تجهز، فخرج مع الناس.

قال ابن إسحاق: ولما فرغوا من جهازهم، وأجمعوا المسير، ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب، فقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا... ثم ذكر الحرب القديمة التي كانت بين قريش وبني بكر، إلى أن قال: وحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير، قال: لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي كان بينها وبين بني بكر، فكاد ذلك يثنيهم، فتبدَّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المُدْلجي، وكان من أشراف بني كنانة، فقال لهم: أنا لكم جارٌ من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعًا[3].

---

(١) يعني التي غنمها المسلمون في سرية نخلة.

(٢) أي له عليه دين من الربا، قال أبو عبيد، سمي الربا لياطًا: لأنه ملصق بالبيع وليس ببيع. سبل الهدى: ٥/ ١٣٣.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٨٨ - ٢٩١.

وهكذا كان إبليس - لعنه الله تعالى - مرافقًا للمشركين من حين استعدادهم للحرب، فلما أن عرض لهم ما قد يثنيهم عن الاستمرار في عزمهم من خوفهم على الذراري من أعدائهم الأقربين ظهر لهم في صورة سراقة بن مالك الرجل الشجاع الفاتك، فأجارهم من جميع بني كنانة، وكانوا يعلمون سلفًا أنه إذا قال فعل، وأنه لا تُخفر ذمته، ولا يستطيع أحد من قومه أن يتجاوز حماه، ففرحوا بذلك، وهم لا يشكون أن الذي خاطبهم هو سراقة نفسه.

ولقد رجع مكر إبليس وبالاً عليه وعلى شيعته من الكفار؛ حيث أصبح خروج قريش الذي شجعهم عليه إبليس نكبة كبرى عليهم، كما سيأتي.

*****

خبر جزور أبي جهل وموقف لعداس

أخرج الواقدي من حديث الزهري، عن أبي بكر بن سليمان بن أبي حثمة، قال: سمعت حكيم بن حزام يقول: ما وجهت وجهًا قط كان أكره لي من مسيري إلى بدر، ولا بان لي في وجه قط ما بان لي قبل أن أخرج، ثم يقول: قدم ضمضم، فصاح بالنفير، فاستقسمت بالأزلام، كلُّ ذلك يخرج الذي أكره، ثم خرجتُ على ذلك حتى نزلنا مرَّ الظهران[1].

فنحر ابن الحنظلية[2]، جُزُرًا، فكانت جزور منها بها حياة، فما بقي خباءٌ من أخبية العسكر إلا أصابه من دمها، فكان هذا بيِّنًا، ثم هممتُ بالرجوع، ثم أذكر ابن الحنظلية وشؤمه، فيردني حتى مضيت لوجهي.

فكان حكيم يقول: لقد رأيتنا حين بلغنا الثنية البيضاء، والثنية البيضاء التي تُهبطك على فخٍّ وأنت مقبل من المدينة؛ إذا عَدَّاس جالس عليها والناس يمرون؛ إذ مر عليه ابنا ربيعة، فوثب إليهما فأخذ بأرجلهما في غرْزهما، وهو يقول: بأبي وأمي أنتما، والله إنه رسول الله، وما تُساقان إلا إلى مصارعكما! وإنَّ عينيه لتسيل دموعهما على خدَّيه، فأردت أن أرجع أيضًا، ثم مضيتُ، ومرَّ به العاص بن منبه بن الحجاج، فوقف عليه حين ولَّى عتبة وشيبة، فقال: ما يبكيك؟ فقال:

يبُكيني سيِّدايَ وسيدا أهل الوادي، يخرجان إلى مصارعهما، ويقاتلان رسول الله، فقال العاص: وإن محمدًا رسول الله؟ قال: فانتفض عداس انتفاضة، واقشعرَّ جلده، ثم بكى، وقال: إي والله، إنه لرسول الله إلى الناس كافة، قال: فأسلم العاص بن مُنَبِّه، ثم مضى وهو على الشكِّ حتى قُتل مع المشركين على شكٍّ وارتياب[3].

---

(١) مرَّ الظهران على مرحلة من مكة: معجم البلدان: ٨/ ٢١.

(٢) هو أبو جهل، والعرب تنسب إلى الأم غالبًا إذا أرادوا التحقير.

(٣) مغازي الواقدي: ١/ ٣٤، ٣٥.

وفي هذا الخبر عبرة من تلك الناقة التي نحرها أبو جهل، فأصاب دمها جميع خيام جيش الكفار، فقد كان ذلك نذير لهم بأنهم مقبلون على مصيبة دموية كبرى، ولا شك أن ذلك مما كان له أثر في إضعاف معنويتهم؛ حيث يكونون قد أقبلوا على حرب لا يتوقعون أن نتائجها تكون لصالحهم.

كذلك موقف عداس من سيِّديه؛ عتبة وشيبة ابني ربيعة؛ حيث جزم لهما بأنهما إنما يسوقان أنفسهما إلى مصارعهما، وأقسم لهما أن من خرجوا لحربه هو رسول الله ﷺ حقًّا، وهذا من الدلائل على إسلامه، وأنه كان من الذين يكتمون إيمانهم، وموقفه هذا؛ لكونه أصلاً من أهل الكتاب لا شك أنه سيحدث أثرًا في نفوس سيديه ومن سمع هذا الكلام من التشكيك في نجاح قريش في مهمتهم الحربية تلك.

*****

خروج النبي ﷺ وأصحابه لتلقي العير

قال ابن إسحاق: وخرج رسول الله ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه[1]، واستعمل عمرو بن أم مكتوم، - ويقال: اسمه: عبد الله بن أم مكتوم أخا بني عامر بن لؤي - على الصلاة بالناس، ثم ردَّ أبا لبابة من الرَّوحاء[2]، واستعمله على المدينة[3].

قال ابن إسحاق: ودفع اللواء إلى مُصْعب بن عُمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار[4].

وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان؛ إحداهما مع عليٍّ بن أبي طالب، يقال لها: العقاب، والأخرى مع بعض الأنصار[5].

قال ابن إسحاق: وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ سبعين بعيرًا، فاعتقبوها، فكان رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد الغنويِّ يعتقبون بعيرًا، وكان حمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وأبو كبشة وأنسة، موليَا رسول الله ﷺ يعتقبون بعيرًا، وكان أبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرًا[5].

*****

(١) قال ابن هشام: خرج يوم الاثنين لثمان ليال خلون من شهر رمضان.

(٢) الروحاء: قرية على ليلتين من المدينة في طريق مكة.

(٣) كما جاء في ترجمته عند الحاكم من حديث عروة بن الزبير أن أبا لبابة بشير بن عبد المنذر والحارث بن حاطب خرجا إلى رسول الله ﷺ وخرجا معه إلى بدر فرجّعهما وأمَّر أبا لبابة علي المدينة، وضرب لهما بسهمين مع أصحاب بدر: المستدرك: ٣/ ٦٣٢.

(٤) قال ابن هشام: وكان أبيض.

(٥) وقد ذكر ابن هشام أنها كانت مع سعد بن معاذ.

(٦) سيرة ابن هشام ٢/ ٢٩٢، ٢٩٣.

مثل من التنافس على العمل الصالح
(خبر سعد بن خيثمة وأبيه)

قال الحافظ ابن حجر: قال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: استَهَم يوم بدر سعد بن خيثمة وأبوه، فخرج سهم سعد، فقال له أبوه: يا بني، آثرني اليوم، فقال سعد: يا أبت، لو كان غير الجنة فعلت، فخرج سعد إلى بدر، فقتل بها، وقتل أبوه خيثمة يوم أحد[1].

وهذا مثل من تسابق الصحابة رضى الله عنهم على الجهاد في سبيل الله تعالى الذي يعدُّونه سبيلاً للشهادة التي هي أسرع طريق إلى الجنة وإلى علو الدرجات فيها.

فهذا سعد بن خيثمة وأبوه رضى الله عنهما؛ كل واحد منهما يريد الخروج مع النبي ﷺ إلى بدر، ولا يستطيعان الخروج معًا؛ لاحتياج أسرتهما وعملهما الزراعي إلى بقاء أحدهما، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبة في الشهادة حتى اضطر إلى الاقتراع بينهما، فكان الخروج من نصيب الابن سعد.

ومع ذلك، فإن نفس أبيه خيثمة ظلت تنازعه الرغبة في الخروج، فطلب من ابنه أن يؤثره بنصيبه من ذلك، وكان ابنه في غاية الأدب مع أبيه، ولكنه في غاية الشوق إلى الجنة؛ حيث أجابه بهذا الجواب البليغ «يا أبت لو كان غير الجنة فعلت».

ولما كان الله تعالى يعلم صدق نيتهما في طلب الشهادة وهبها لهما، فحينما فاتت خيثمة في بدر نالها في أحد.

*****

(١) الإصابة ٢/ ٢٣، ٢٤، رقم: ٣١١٨.

أمثلة من مكارم الأخلاق

(خبر النبي ﷺ مع زميليه في الدَّابّة)

أخرج الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود، قال: «كنَّا يوم بدر كل ثلاثة على بعير؛ كان أبو لبابة وعلى بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ، قال: وكانت عقبة رسول الله ﷺ، فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: «**ما أنتما بأقوى مني ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما**»[1].

وفي هذا موقفان لرسول الله ﷺ:

الأول: في تواضعه الجمِّ؛ حيث عدَّ نفسه كفرد من أفراد المسلمين، فلم يجعل لنفسه راحلة مستقلة، بل أشرك معه اثنين كبقية الجيش، وهو بهذا يقرر مبدأً عاليًا من مبادئ العدالة والمساواة في الحقوق المشتركة، ويعطي بذلك مثلاً عاليًا للقائد والقدوة في الكمال الإنساني؛ حيث أفاد بسلوكه هذا بأن الكمال في الإسلام لا يكون بالترفع والأبَّهة والتميز، وإنما يكون بالتواضع والمساواة في الحقوق العامة.

والموقف الثاني: في رفضه عرض زميليه؛ علي بن أبي طالب وأبي لبابة بن عبد المنذر في التنازل له عن الراحلة؛ حيث أفاد بأن الذي له حق التَّميُّز في مثل هذه الحال هو ضعيف الجسم الذي لا يقوى على المشي، فهو معذور في تخصيصه بزيادة في المنفعة: «**ما أنتما بأقوى مني**»، كما أفاد بأن المشي في سبيل الله فيه ثواب عند الله تعالى، ولا يزهد بهذا الثواب إلا من لا يقدِّر الثواب الأخروي، والرسول ﷺ أسبق الناس إلى العمل لرضوان الله تعالى والسعادة الأخروية: «**وما أنا بأغنى عن الأجر منكما**».

---

(١) مسند أحمد بتحقيق الشيخ أحمد شاكر، وقد صحح إسناده ٦/ ٣ رقم: ٣٩٠١.

وذكره الحافظ الهيثمي وزاد نسبته إلى البزار، قال: وفيه عاصم بن بهدلة وحديثه حسن وبقية رجال أحمد رجال الصحيح: مجمع الزوائد ٦/ ٦٨، وأخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه: المستدرك ٣/ ٢٠.

وموقف للصحابيين الجليلين علي بن أبي طالب وأبي لبابة؛ حيث تنازلا للنبي ﷺ عن حقهما في البعير؛ ليركبه وحده، وهذا من خلق الإيثار الذي يُعدُّ من أعلى مكارم الأخلاق، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يؤثر بعضهم بعضًا بمتاع الدنيا ووسائل الراحة فيها، فلا غرابة أن آثر هذان الصحابيان رسول الله ﷺ.

هذا، وسبق أن ابن إسحاق ذكر أن زميلي رسول الله ﷺ هما: علي بن أبي طالب، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي، فهذا محمول على ما كان عليه الأمر بعد أن أعاد الرسول ﷺ أبا لبابة إلى المدينة، فذكر ابن إسحاق اللَّذين زاملاه أكثر الطريق.

*****

مثل من البراءة من المشركين
(رفض النبي ﷺ الاستعانة بالمشركين)

أخرج الإمام مسلم من حديث عروة بن الزبير، عن عائشة زوج النبي ﷺ، أنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قبل بدر، فلما كان بحرَّة الوبرة[1] أدركه رجل، قد كان يذكر منه جُرأة ونجدة[2]، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لأتبعك وأصيب معك، قال له رسول الله ﷺ: «**تُؤمن بالله ورسوله؟**»، قال: لا، قال: «**فارجع، فلن أستعين بمشرك**».

قالت: ثم مضى حتى إذا كُنَّا بالشجرة[3]، أدركه الرجلُ، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة، قال: «**فارجع فلن أستعين بمشرك**»، قال: ثم رجع فأدركه بالبيداء، فقال له كما قال أول مرة: «**تؤمن بالله ورسوله؟**»، قال: نعم، فقال له رسول الله ﷺ: «**فانطلق**»[4].

وأخرج محمد بن عمر الواقدي عن شيوخه:

قالوا: وكان خُبَيب بن يَساف رجلاً شجاعًا، وكان يأبى الإسلام، فلما خرج النبي ﷺ إلى بدر خرج هو وقيس بن مُحَرِّث، وهما على دين قومهما، فأدركا النبي ﷺ بالعقيق، وخُبيب مُقَنَّع بالحديد، فعرفه رسول الله ﷺ من تحت المغفر، فالتفت رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ، وهو يسير إلى جنبه، فقال: «**أليس بخبيب بن يساف**»؟ قال: بلى قال: فأقبل خبيب حتى أخذ ببطان[5]، ناقة النبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ ولقيس بن محرِّث - يقال: قيس بن المحرث، وقيس بن الحارث-: «**ما أخرجكما معنا؟**» قالا: كنت ابن أختنا وجارنا، وخرجنا مع قومنا؛ للغنيمة، فقال رسول الله

---

(١) هو موضع على نحو أربعة أميال من المدينة.

(٢) هو خُبيب بن يساف كما في الرواية التالية.

(٣) يعني حتى إذا كان المسلمون في ذلك المكان، لأن عائشة لم تكن مع ذلك الجيش.

(٤) صحيح مسلم، الجهاد رقم: ١٨١٧، ص ١٤٤٩.

(٥) البطان للقطب: الحزام الذي يجعل تحت بطن البعير: الصحاح: ٢٠٧٩.

ﷺ: «**لا يخرجن معنا رجل ليس على ديننا**»، قال خبيب: قد علم قومي أني عظيم الغَناء في الحرب، شديد النكاية، فأقاتل معك للغنيمة ولن أسلم قال رسول الله ﷺ: «**لا ولكن أسلم ثم قاتل ثم أدركه بالرَّوحاء**»، فقال: أسلمت لله رب العالمين، وشهدت أنك رسول الله، فسرَّ رسول الله ﷺ بذلك، وقال: «**امضه!**» وكان عظيم الغناء في بدر وغير بدر، وأبى قيس بن مُحَرِّث أن يسلم، ورجع إلى المدينة، فلما قدم النبي ﷺ من بدر أسلم، ثم شهد أحدًا فقتل[1].

وهذا مثال على عزم النبي ﷺ في تطبيق أحكام الإسلام حتى في حال الشدة، فالمسلمون بحاجة إلى مساعدة هذا الرجل الشجاع، وقد ظهر منهم الفرح والارتياح لطلبه مشاركتهم في ذلك المسير، ولكن النبي ﷺ رفض طلبه؛ لأنه مشرك، فجيش الإسلام جيش عقيدة، هدفهم الأول إعلاء كلمة الله تعالى، فهم يقاتلون دون إسلامهم حتى الشهادة، فليس من الحكمة أن يشاركهم في الجهاد من يريدون الدنيا، إن لاح لهم نصر ثبتوا؛ ليغنموا، وإن كانت الأخرى ولَّوا على أعقابهم هاربين ليتركوا جيش العقيدة يصلى نار الحرب وحده.

فلما أسلم ذلك الرجل سمح له النبي ﷺ بالمسير معهم؛ لأن هدفه قد تغير من إرادة الدنيا إلى إرادة الآخرة فأصبح داخلاً ضمن الهدف العالي الذي ينشده المسلمون، وبهذا يكون مأمون الجانب؛ حيث يعمل مع جيش المسلمين في السراء والضراء.

هذا ومن باب تكملة هذا الموضوع فإنني أُذكر بأن النبي ﷺ قد تحالف مع يهود المدينة على الدفاع عن المدينة إذا دهمها العدو، وقد شارك بعضهم في معركة أحد، وتحالف مع قبيلة خزاعة للقتال ضد قريش، وبعض أفراد قبيلة خزاعة مشركون، وقبل مشاركة بعض مشركي قريش في معركة حنين.

فالجواب على ذلك أن هذه الوقائع تخضع لمصلحة الدعوة، ومصلحة دولة الإسلام، فقد كان في مصلحة دولة الإسلام أن يتحالف المسلمون مع اليهود ومع قبيلة خزاعة، وقبول مشاركة بعض مشركي مكة في معركة حنين؛ لهدف دعوى وهو تألفهم للإسلام.

---

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٤٧.

أما رفضه ﷺ مشاركة خبيب بن يساف وزميله فهو جار على الأصل، وهو عدم قبول مشاركة الكفار مع المسلمين في القتال ما لم تدع الحاجةً إلى ذلك، وليس هناك حاجة لمشاركة اثنين في معركة بدر.

ويمكن أن يكون ذلك الرفض أيضًا لهدف دعوى؛ وذلك لأن الرسول الله ﷺ أراد بذلك أن يحرض خبيب بن يساف وزميله على الدخول في الإسلام، وقد تم ذلك بإسلام خبيب وهو المقصود الأول؛ لشجاعته وشهرته.

على أنه ينبغي أن يعلم بأن الاستعانة بالكفار على قتال الكفار لا تجوز أبدًا إلا إذا كانت القيادة والهيمنة للمسلمين، وألا يكون للكفار أي دور في توجيه المعركة، ولا أي ضرر على المسلمين في المستقبل.

*****

مواقف جهادية عالية لبعض الصحابة
(استشارة النبي ﷺ أصحابه في القتال)

قال ابن إسحاق: وأتاه - يعني رسول الله ﷺ- الخبرُ عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير[١].

ثم قال رسول الله ﷺ: «**أشيروا علي أيها الناس**»، وإنما يريد الأنصار؛ وذلك أنهم عَدَد الناس[٢]، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك[٣] حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا؛ نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوَّف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوِّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدوٍّ من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعدُ بن مُعاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «**أجل**»، قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عُهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة [فَصِلْ حبال من شئت،

---

(١) وقد أخرج قول المقداد رضي الله عنه الإمام البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به ... ثم ذكره نحوه -صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٣٩٥٢، ٧/ ٢٨٧، وأخرجه كذلك الحاكم من حديث عبد الله بن مسعود، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي: المستدرك: ٣/ ٣٤٩.

والمقداد بن الأسود هو: المقداد بن عمرو البهراني، وإنما اشتهر بابن الأسود؛ لأن الأسود بن عبد يغوث الزهري كان قد تبناه في الجاهلية، فنسب إليه على عادة أهل الجاهلية إلى أن جاء الإسلام بإبطال عادة التبني فنسب إلى أبيه عمرو، وقال الواقدي في برك الغماد: وبرك الغماد من وراء مكة بخمس ليال من وراء الساحل مما يلي البحر وهو على ثمان ليال من مكة: المغازي: ١/ ٤٨.

(٢) أي: أكثر الحاضرين.

(٣) أي: من معاهدتنا إياك.

واقطع حبال من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا أحب إلينا مما تركت، وما أمرت به من أمر فأمرنا تبع لأمرك][1]، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبرٌ في الحرب صدقٌ عند اللقاء، ولعل الله يريك منَّا ما تقرُّ به عينُك، فسرْ بنا على بركة الله.

فَسُرَّ رسولُ الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «**سيرُوا وأبشروا، فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين**[2]، **واللهِ لكأني الآن أنظرُ إلى مصارع القوم**»[3].

إنها كلمات معدودات صدرت من سعد والمقداد ومنْ قبلهما من أبي بكر وعمر، ولكنها في المقاييس المعنوية للحروب دفعات قوية من الإيمان، نبَّهت الغافل، ودفعت المتردد إلى الإقدام، وأيقظت المشاعر نحو التجرد من حفظ النفس، والاندفاع بقوة نحو نصرة دين الله تعالى وإن كان الثمن هو النفوس.

لقد نادوا رسول الله ﷺ: «امض يا رسول الله فنحن معك»، ولسان حالهم يقول: فما نحن إلا قبسات من ضوئك، وومضات من شعاعك، وإنه لمن المستحيل أن يتخلف القبس عن ضوئه.

وإنه لتخطيط محكم من رسول الله ﷺ؛ حيث لم يقدم بهم على دخول المعركة وأمر إقدامهم غير واضح؛ إذ أنهم لم يخرجوا أصلاً لقتال، فاستشارهم في الأمر؛ ليتثبت منهم، وليدفع أقوياء الإيمان إلى المشاركة في إنهاض الهمم وشحذ العزائم.

وإنها لشجاعة عظيمة من رسول الله ﷺ؛ حيث قاد المؤمنين، وواجه بهم جيشًا يفوقهم في العدد ثلاث مرات، كما يتميز عليهم بالاستعداد الحربي؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً، ليبوء المشركون بالهلاك والعارِ، ويفوز المسلمون بالنصر والفخار.

---

(١) ما بين القوسين زيادة من رواية ابن عائد من مرسل عروة، وابن أبي شيبة من مرسل علقمة بن وقاص، شرح المواهب: ١/ ٤١٣، ٤١٤.

(٢) يعني: القافلة التجارية، أو جيش قريش.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩٥، ٢٩٦، وأخرجه الواقدي وذكر نحوه: مغازي الواقدي: ١/ ٤٨، ٤٩، وذكره الهيثمي وقال: وراه الطبراني وإسناده حسن، مجمع الزوائد: ٧٣، ٧٤.

أما ما جاء في وصف بعض الصحابة بكراهية القتال، وذلك في قول الله عز وجل ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ** ﴾ [الأنفال: ٥]، فإن كراهيتهم للقاء العدو لا تحمل قطعًا على الفزع من الحرب، فهم أهل الطعان، وليُوث النزال في الجاهلية، فكيف يجبنون عن اللقاء الحربي في الإسلام وهم يعلمون أنهم على حق وعدوهم على باطل؟!

وإنما الظاهر في ذلك أن كراهيتهم للقاء العدو إنما هي من منطلق الشعور بنقص الإعداد لمثل ذلك اللقاء الكبير؛ حيث إنهم خرجوا من المدينة على عجل للقاء العير، فاستعدادهم كان كافيًا لها، وليس كافيًا للقاء عدو كبير خرج بكامل استعداده حسب نظرهم، ولكنَّ عتاب الله تعالى لهم جاء من منطلق التقصير في جانب الاستسلام لله تعالى الممثَّل بالانقياد لرسوله ﷺ؛ حيث وضح لهم وعد الله تعالى بالظفر بإحدى الطائفتين؛ العيرُ أوالنفيرُ، وما دامت العير قد أفلتت، فقد تحدد الأمر أمامهم بصورة لا تقبل النقاش والمراجعة، ولئن كان أولئك الصحب الكرام هم صفوة الأمة آنذاك فإن وقوعهم فيما يخدش توحيدهم ولو بنسبة يسيرة قد عرَّضهم لهذا العتاب الرباني؛ لأن الله جل جلاله، أراد لتلك الفئة المؤمنة أن تتطهر من العيوب، وأن تتمحص من النقائص؛ حيث سيقوم على أكتاف أفرادها عبء حمل الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه.

*****

مثل من الاهتمام بمعرفة واقع العدو قبل لقائه
(خبر شيخ من العرب ومولى لقريش)

قال ابن إسحاق: ثم نزل قريبًا من بدر [يعني رسول الله ﷺ] فركب هو ورجلٌ من أصحابه[1]. كما حدثني محمد بن يحيى بن حبان، حتى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه، وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أُخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**إذا أخبرتنا أخبرناك**»، قال: أذاك بذاك؟ قال: «**نعم**»، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله ﷺ، وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه قريش، فلما فرغ من خبره، قال ممَّن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نحن من ماء**»، ثم انصرف عنه، فقال الشيخ: ما من ماء! أمن ماء العراق؟[2].

وهكذا استفاد النبي ﷺ من ذلك الأعرابي فأخذ منه خبر قريش بينما عمَّى عليه خبر جيش المسلمين فلم يعرف عنه شيئًا.

وفي هذا توجيه منه ﷺ لقادة أمته كي يستفيدوا من كل من يواجهونه في طريقهم لرصد أعدائهم مع الاحتفاظ الكامل بأسرار الجيش الإسلامي.

وما قام به النبي ﷺ من معاملة ذلك الرجل داخلٌ في التوجيه العام الذي جاء في قوله ﷺ: «**الحرب خدعة**»[3].

قال ابن إسحاق: ثم رجع رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فلما أمسى بعث عليَّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه - كما حدثني يزيدُ بن رُومان، عن عُروة بن الزبير - فأصابوا راويةً[4]، لقريش؛ فيها أسلم غلامُ بني الحجاج، وعريضٌ أبو يسار غلام بني العاص

(١) قال ابن هشام: الرجل هو أبو بكر الصديق.
(٢) قال ابن هشام: يقال: ذلك الشيخ سفيان الضمْري.
(٣) صحيح البخاري، الجهاد، رقم: ٣٠٣٠
(٤) أي: فرقة من السقاة.

بن سعيد، فأتوا بهما، فسألوهما، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما، فلما أذلقوهما، قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما.

وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه، ثم سلم، وقال: «**إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقَا والله إنهما لقريش! أخبراني عن قريش**، قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى»[1] - والكثيب: العَقَنْقَل[2]- فقال لهما رسول الله ﷺ: «**كم القوم؟**» قالا: كثير، قال: «**ما عدتُّهم؟**» قالا: لا ندري، قال: «**وكم ينْحرون كل يوم؟**» قالا: يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا، فقال رسول الله ﷺ: «**القومُ فيما بين التسعمائة والألف**»، ثم قال لهما: «**فمن فيهم من أشراف قُريش؟**» قالا: عُتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام، ونوفل بن خُويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسُهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد وُدٍّ، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**»[3].

*****

(١) أي: جانب الوادي الأبعد من المدينة.

(٢) العنَقَنْقَل: الكثيب المتداخل الرمل.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩٧، ٢٩٨. وقد أخرج نحو هذا الخبر الإمام مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، كتاب الجهاد، رقم: ١٧٧٩، ص: ١٤٠٣.

أبو سفيان يُغَيِّر اتجاه العير

قال ابن إسحاق: وكان بسبس بن عمرو، وعديُّ بن أبي الزَّغْباء قد مضيا حتى نزلا بدرًا، فأناخا إلى تل قريب من الماء، ثم أخذَا شنًّا لهما يَسْتقيان فيه، ومجدي بن عمرو الجهني على الماء، فسمع عدي وبسبس جاريتين من جواري الحاضر[1]، وهما تتلازمان[2] على الماء، والملزومة تقول لصاحبتها: إنما تأتي العير غدًا أو بعد غد، فأعملُ لهم، ثم أقضيك الذي لك، قال مجديٌّ: صدقت، ثم خلص بينهما، وسمع ذلك عدي وبسبس، فجلسا على بعيرهما، ثم انطلقَا حتى أتيا رسول الله ﷺ، فأخبراه بما سمعَا.

وأقبل أبو سفيان بن حرب حتى تقدَّم العير حذرًا، حتى ورد الماء، فقال لمجديٍّ بن عمرو: هل أحْسَسْت أحدًا، فقال: ما رأيت أحَدًا أُنكره إلا أني قد رأيتُ راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شَنٍّ لهما، ثم انطلقَا.

فأتى أبو سفيان مناخَهما فأخذ من أبْعار بعيريهما، ففتَّه، فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى أصحابه فضرب وجه بعيره عن الطريق فساحل بها، وترك بدرًا بيسارٍ، وانطلق حتى أسرع[3].

*****

(١) الحاضر: القوم المقيمون الذين لا يرحلون من المكان.

(٢) يعني: تتماسكان للخصومة.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩٩.

تشاؤم قريش من رؤيا جُهيم بن الصلت وتضارب آرائهم

قال ابن إسحاق: وأقبلت قريشٌ، فلما نزلوا الجحفة[1]، رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رؤيا، فقال: إني رأيت فيما يرى النائم، وإني لبين النائم واليقظان؛ إذ نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف، ومعه بعير له، ثم قال: قُتل عُتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بن خلف، وفلان وفلان، فعدَّد رجالاً ممن قتل يوم بدر، من أشراف قُريش، ثم رأيته ضرب في لَبَّة بعيره[2]، ثم أرسله في العسكر، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح من دمه.

قال: فبلغت أبا جهل، فقال: وهذا أيضًا نبي آخر من بني المطلب! سيعلم غدًا من المقتول إن نحن التقينا.

وهذه الرؤيا ورؤيا عاتكة قبلها وغيرها من الرؤى المفزعة يراها بعض أفراد الكفار قبيل المعارك الحاسمة مع المسلمين وإنما هي جند من الجنود التي يسلطها الله على المشركين لتكون مخذِّلة لهم، وليصابوا من داخل نفوسهم بانهزام معنوي قبل الدخول في المعركة، وبضد ذلك الرؤى المشجعة التي يراها المسلمون، وستمر علينا أمثلة لهذين النوعين من الرؤى في الفتوح الإسلامية.

وقول أبي جهل في التعليق على هذه الرؤيا لا يعني عدم التأثر بها نفسيًا، وإنما هو نوع من التجلد الظاهري الذي يقوم به القادة عادة؛ ليُبْقوا على تماسك أفراد الجيش، ولكن مهما حاولوا من ذلك فإن تلك الرؤى المفزعة يظل لها الأثر الكبير في تحطيم معنوية الكفار وتخذيلهم.

قال ابن إسحاق: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قُريش: إنكم إنما خرجتم؛ لتمنعوا عيركم وأموالكم، فقد نجاه الله، فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا - وكان بدر موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم به سُوق كلَّ عام - فنقيم عليه ثلاثًا، فنْنحَر الجُزُر، ونُطعم الطعام، ونُسقي الخمر،

(١) هي: ميقات أهل الشام، وهي قرب مدينة رابغ الحالية.

(٢) يعني: مكان نحره من عنقه.

وتَعْزف علينا القيان، وتسمع بنا العربُ وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها، فامضوا[1].

وهذا لون من ألوان التعاظم والكبرياء التي يتظاهر بها قادة الكفار؛ ليثبتوا وجودهم ويفرضوا هيبتهم.

وهذا الكلام يدل على تدني مستوى الأهداف التي يسعى لتحقيقها زعماء الكفار، فهم لا يؤمنون بالحياة الآخرة أصلاً، ولهذا فإنهم لا يعملون لها ولا يقاتلون من أجلها، وكل أهدافهم التي يبذلون من أجلها الأموال ويعرِّضون من أجلها حياتهم للخطر إنما تتركز بالسمعة الدنيوية؛ من حب السيطرة، والعلو في الأرض، والهيمنة على الضعفاء، وهذا الهدف أوْهَى خيوط العنكبوت.

ولقد ذكر الله تعالى أهدافهم القاصرة المتدنية في معرض تحذير المسلمين من أن يسلكوا سبيلهم المنحرف؛ حيث يقول جل ذكره: ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ** ﴾ [الأنفال: ٤٧].

يقول الحافظ ابن كثير بعد ذكر كلام أبي جهل المذكور: فانعكس ذلك عليهم أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحِمَام[2]، ورُكِمُوا في أطواء بدر مهانين أذلاء، صَغَرَةً أشقياء، في عذاب سرمدي أبدي[3].

فكيف يقابل هؤلاء الأشقياء الرعاع أهدافهم هذه المرذولة بهدف المسلمين الأعلى الذي يتلخص بإرادة رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية، متخطِّين بذلك كل الأهداف الدنيوية، كما أثنى الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [الفتح: ٢٩]؟!.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٠.

(٢) يعني: الموت.

(٣) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٣٩.

منزل الجيشين ببدر

قال ابن إسحاق: ومضت قريش حتى نزلوا بالعُدوة القُصوى من الوادي، خَلف العَقَنْقل[1]، وبطنُ الوادي، وهو يَليَل بين بدر وبين العقنقل؛ الكثيب الذي خلفه قُريش، والقلب ببدر في العدوة الدنيا من بطن يليل إلى المدينة[2].

وهكذا نزل المشركون والمسلمون متجاورين، لا يفصل بينهم إلا وادي يليل وكثيب العقنقل، وقد كان أبو سفيان أراد أن يرِد ذلك الوادي، ولكنه شعر بإقبال المسلمين فغيَّر اتجاه العير كما سبق.

وقد ذكر الله سبحانه مكان الطوائف الثلاث بقوله: ﴿**إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[الأنفال: ٤٢].

فالمسلمون قد نزلوا بجانب الوادي الشمالي الأقرب إلى المدينة، والمشركون قد نزلوا بجانبه الجنوبي الأبعد من المدينة، ولا يفصل بينهم في ليلة المعركة إلا ذلك الكثيب الرملي الذي انحدروا منه في الصباح إلى ساحة المعركة، وأبو سفيان والركب معه خلف سلسلة الجبال الغربية، وقد سلك طريق الساحل حينما علم بقرب المسلمين منه.

ولقد شاء الله تعالى أن يصل الجيشان إلى ذلك الوادي في وقت واحد، ولو أنهم تواعدوا في ذلك المكان حينما فصلوا من بلادهم لم يستطيعوا الوصول إليه في وقت واحد، كما ذكر الله تعالى في هذه الآية.

وهكذا ذكر الله سبحانه أن نزول الجيشين كان تقديراً إلهيًّا؛ ليتم التحامهما، فيعلو الحق وينتصر أهله، وينخفض الباطل ويُسحق أهله.

ولقد كان من تقدير الله تعالى أن تنجو العير التجارية التي كانت مقصد المسلمين الأول، مع أنها لا تبعد كثيراً عن جيش المسلمين؛ لتتم تلك المعركة العظمى التي فرق الله تعالى بها بين الحق والباطل.

(١) اسمٌ لكثيب الرمل الذي كانت قريش خلفه.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٠٣.

مثلان من إكرام الله تعالى أولياءه

(التأمين بالنعاس/ إنزال المطر)

١- قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

قال الحافظ ابن كثير: يذكِّرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم؛ أمانًا أمنَّهم الله به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم.

ثم ذكر الحديث الذي أخرجه الحافظ أبو يعلى بإسناده عن عليٍّ رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح[١].

وأخرجه الإمام الطبري من طريق أبي رزين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: النعاس في القتال أمنة من الله عز وجل، وفي الصلاة من الشيطان[٢].

فالنعاس في الحرب نعمة من الله تعالى؛ وذلك لأن من اعتراه الخوف يزول عنه النوم عادة، والحرب مهما كان الاستعداد المادِّي فهي مظنة الخوف، وكلما كان الاستعداد أقل والعدو أكثر وأقوى كان ذلك أدعى إلى القلق وزوال النوم، والنوم ضروري للجسم حيث يستعيد بعده قوته ونشاطه.

ولما كان جيش الكفار في بدر يبلغ ثلاثة أضعاف المسلمين ويفوقهم كثيراً في الاستعداد الحربي كان المتوقع من المسلمين أن يعتريهم ليلة المعركة شيء من الخوف والقلق، فمنَّ الله تعالى عليهم بإنزال النعاس عليهم حتى ناموا تلك الليلة وأخذوا الراحة الكاملة استعداداً لخوض تلك المعركة المخيفة.

فهذه نعمة مَنَّ الله تعالى بها على أوليائه المؤمنين ليلة بدر، والنعمة الأخرى نزول المطر عليهم تلك الليلة، وفي بيان هذه النعمة، يقول الإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله تعالى:

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢١٢.

(٢) تفسير الطبري: ٦/ ١٩٣.

وأما قوله عز وجل ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ ، فإن ذلك مطر أنزله الله من السماء يوم بدر؛ ليطهر به المؤمنين لصلاتهم؛ لأنهم كانوا أصبحوا يومئذ مُجْنبين على غير ماء، فلما أنزل الله عليهم الماء، اغتسلوا وتطهروا، وكان الشيطان وسوس لهم بما حزَّنهم به؛ من إصباحهم مجنبين على غير ماء، فأذهب الله ذلك من قلوبهم بالمطر، فذلك ربطُه على قلوبهم، وتقويته أسبابهم، وتثبيته بذلك المطر أقدامهم؛ لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة هشاء، فلبدها المطر، حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها، توطئة من الله عز وجل لنبيه عليه السلام وأوليائه أسباب التمكن من عدوهم، والظفر بهم.

ثم ذكر الآثار في ذلك عن الصحابة والتابعين، ومن ذلك ما رواه بإسناده عن عليٍّ ابن أبي طلحة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نزل النبي ﷺ؛ يعني حين سار إلى بدر، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعْصة[1]، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ، فوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مُجْنبين، فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا، فشرب المسلمون وتطهَّروا، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان، وثبَّت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه بألف من الملائكة، فكان جبريل عليه السلام في خمس مئة من الملائكة مُجنِّبة، وميكائيل في خمس مئة مجنِّبة[2].

وهكذا امتن الله تعالى على أوليائه المؤمنين بإنزال ذلك المطر لهذه النعم العظيمة التي ذكرها، وهي:

١- أن يجدوا ماء يتطهرون به لصلاتهم؛ حيث إنهم نزلوا قبيل آبار بدر على غير ماء ولم يكن معهم ماء.

٢- إزالة وساوس الشيطان عنهم؛ حيث وسوس لهم بإثارة القلق في نفوسهم من الإقدام على الصلاة بغير طهارة.

---

(١) أي: هشَّة لينة.

(٢) تفسير الطبري: ٩/ ١٩٥، والمجنِّبة بكسر الميم وتشديدها: هي الكتيبة التي تأخذ إحدى جانبي الجيش.

٣- تسكين قلوبهم وطمأنتها بأن الله تعالى معهم بجوده وإنعامه ومن كان معهم في ذلك فإنهم جديرون بأن يكون معهم بنصره وتأييده وهو المطلب المهم عندهم.

٤- تثبيت الرمل الذي كان بينهم وبين بدر حتى استطاعوا أن يسيروا عليه هم ودوابهم بسهولة وسرعة، مما مكنهم من الوصول إلى آبار بدر، واختيار المكان المناسب للحرب قبل أعدائهم.

وفي بيان هذه النعمة يقول محمد بن إسحاق - رحمه الله تعالى -: وبعث الله السماء، وكان الوادي دَهْسا[1]، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبَّد لهم الأرض ولم يمنعهم عن السير، وأصاب قريشًا منها ما لم يقْدروا على أن يرتحلوا معه، فخرج رسول الله ﷺ يُبادرهم إلى الماء، حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به[2].

وهذا من إكرام الله تعالى لأوليائه المؤمنين، فالمطر واحد ولكنه كان رحمة وتيسيراً على المؤمنين، وكان مشقة وتعويقًا للكافرين.

*****

(١) الدهس من الأرض: المكان اللين.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٢.

مثل من أخلاق النبي ﷺ العالية
(مشورة الحُباب بن المنذر)

قال ابن إسحاق: فَحُدِّثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا: أن الحباب بن المنذر ابن الجموح قال يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدَّمه، ولا نتأخَّر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**»، فقال: يا رسول الله، فإنَّ هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس، حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نُغوِّر ما وراءه من القلُب، ثم نبني عليه حوضًا فنمْلؤها ماء، ثم نُقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أشرت بالرأي**» فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبني حوضًا على القليب الذي نزل عليه فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية[1].

وهذا يصور مثلاً من حياة الرسول ﷺ مع أصحابه حيث كان أي فرد من أفراد ذلك المجتمع يدلي برأيه حتى في أخطر القضايا، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى، ثم حصول ما يترتب على ذلك الغضب من تدني سمعة ذلك المشير الذي أشار بخلاف رأي القائد وتأخره في الرتبة وتضرره في نفسه أو ماله.

إن هذه الحرية التي ربَّي عليها رسول الله ﷺ أصحابه مكَّنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرأي السديد والمنطق الرشيد، فالقائد فيهم ينجح نجاحًا باهرًا وإن كان حديث السن؛ لأنه لم يكن يفكِّر برأيه المجرد أو آراء عصبة مهيمنة عليه قد تنظر لمصالحها الخاصة قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامة، وإنما يفكر بآراء جميع

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠١، ٣٠٢، وقد ذكر الحافظ ابن حجر هذه الرواية في ترجمة الحباب بن المنذر، قال: قال ابن إسحاق في السيرة: حدثني يزيد بن رومان، عن عروة وغيره واحد في قصة بدر.. فذكر هذا الخبر: الإصابة: ١/ ٣٠٢، رقم: ١٥٥٢، وهذا إسناد آخر للخبر غير الذي ذكره ابن هشام، فلعل ابن إسحاق ذكره مرة ضمن حديث بدر الطويل الذي رواه عن عدد من الشيوخ؛ منهم يزيد بن رومان، وذكره عن رجال من بني سلمة، ويؤيد ذلك قول الحافظ ابن حجر: «وغير واحد فى قصة بدر»، فهذا يدل على أن هذا الخبر مروي من عدة طرق، وعلى أنه ضمن حديث قصة بدر.

أفراد جنده، وقد يحصل له الرأي السديد من أقلهم سمعة وأبعدهم منزلة من ذلك القائد؛ لأنه ليس هناك ما يحول بين أي فرد منهم والوصول برأيه إلى قائد جيشه.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حُدِّث: أن سعد بن معاذ قال: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوامٌ، يا نبي الله، ما نحن بأشدَّ لك حبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير، ثم بُني لرسول الله ﷺ عريشٌ، فكان فيه[1].

وجاء في رواية الواقدي أن النبي ﷺ قال: «**أو يقضي اللهُ خيرًا من ذلك يا سعد**»[2].

في هذا الخبر موقف جليل لسعد بن معاذ رضي الله عنه، وذلك بالاهتمام بسلامة النبي ﷺ، والاهتمام بمستقبل الإسلام الذي يترتب آنذاك على بقاء رسول الله ﷺ مع البقية الباقية من المسلمين فيما لو حصل على ذلك الجيش إصابة، كما أن فيه موقفًا آخر له في ثنائه على إخوانه المؤمنين الذين في المدينة واعتذاره لهم عن تخلفهم بأنهم لم يكونوا يظنون أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا من أعدائه.

وهذا لا يعني أن رسول الله ﷺ قد بقي في ذلك العريش وترك أصحابه يواجهون المعركة وحدهم، بل كان فيه ليلة المعركة يصلي ويدعو الله تعالى، ثم قاد المعركة في الصباح بنفسه، وشارك فيها كما سيأتي.

*****

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٣.

(٢) مغازي الواقدي: ١/ ٤٩، وسيأتي في خبر دعاء النبي ﷺ الذي أخرجه الإمام البخاري أنه كان في قبة له يوم بدر.

مثل من محادة المشركين لله تعالى
(خبرهم مع ابن رحضة الغفاري)

قال ابن إسحاق: وقد كان خُفاف بن أيْماء بن رحضة الغفاري، أو أبوه أيْماء بن رحضة الغفاري، بعث إلى قريش، حين مرُّوا به ابنًا له بجزائر أهداها لهم، وقال: إن أحببتم أن نُمدَّكم بسلاح ورجال فعلنا، قال: فأرسلوا إليه مع ابنه: وصَلَتْك رحم، قد قضيتَ الذي عليك، فلَعمْري لئن كنَّا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنَّا إنما نقاتل الله، كما يزعم محمَّدٌ، فما لأحد بالله من طاقة[1].

وهل قال ذلك زعماء المشركين عن اعتقاد قلبي، أم قالوه للتقليل من شأن النبي ﷺ وأصحابه؟ الحقيقة أن أكثرهم كانوا يعلمون صدق النبي ﷺ في دعوته، وقد سبق بيان تصريح أبي جهل وغيره بذلك، ولكن منعهم من الإيمان به: الحسد واتباع الهوى المنحرف، فهم قد خرجوا في ذلك المسير وهم يعلمون بأنهم يحادُّون الله تعالى بقتال رسوله ﷺ، ولكنهم لا يريدون أن يعترفوا بأن رسول الله ﷺ موصول بربه جل وعلا؛ لأن ذلك يعطيه قوة عظمى وسمعة عالية بين العرب، بينما يؤدي ذلك إلى خذلانهم وهبوط سمعتهم الحربية.

*****

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٤.

مثل من تسامح النبي ﷺ مع بعض الكفار
(نفر من الكفار يشربون من حوض المسلمين)

قال ابن إسحاق: فلمَّا نزل الناسُ، أقبل نفرٌ من قريش حتى وردوا حوض رسول ﷺ: فيهم حكيم بن حزام، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوهم**»، فما شرب منه رجلٌ يومئذ إلا قُتل[1]، إلا ما كان من حكيم بن حزام، فإنه لم يُقتل، ثم أسلم بعد ذلك، فحسُن إسلامه، فكان إذا اجتهد في يمينه، قال: لا والذي نجاني من يوم بدر[2].

في هذا الخبر مثلٌ من تسامح النبي ﷺ مع الأعداء الذين جاؤوا وهم بحاجة إلى الماء ولم يقوموا بتحدي المسلمين ولم يظهروا غطرسة الكفار وجبروتهم، فغلب على النبي ﷺ اعتبار جانب الرحمة، فسمح لهم بالشرب من ذلك الحوض، ولم يرَ مُسوغًا لمنعهم؛ نكاية بالأعداء؛ لكونهم جاؤوا بصورة الحاجة والاستعطاف.

وما جاء في الخبر من قول حكيم بن حزام رضي الله عنه إذا اجتهد في يمينه: «لا والذي نجاني يوم بدر» تصوير للنقلة العظمى التي نقله - وأمثاله - إليها الإسلام.

*****

(١) يعني: في المعركة.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٤.

شهادة للمسلمين من أعدائهم

(عمير بن وهب يُقدِّر عدد المسلمين واختلافٌ في جيش قريش)

قال ابن إسحاق: وحدثني أبي إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم عن أشياخ من الأنصار، قالوا: لما اطمأن القوم، بعثوا عُمير بن وهب الجُمحي فقالوا: احزر لنا أصحاب محمد، قال: فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم، فقال: ثلاث مئة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أَللْقَوم كمينٌ أو مدد؟ قال: فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئًا، فرجع إليهم، فقال: ما وجدت شيئًا، ولكنِّي قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع[1]، قوم ليس معهم منعة ولا ملْجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجلٌ منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيش بعد ذلك، فَرَوْا رأيكم.

وهكذا كان عمير بن وهب ناجحًا في تقديره المقارب لعدد جيش المسلمين، وفي وصفه البليغ لقوة المسلمين ومدى ثباتهم؛ حيث أبان بأنهم ليس معهم من الإبل ما يكفي لفرارهم فيما إذا كانت الدائرة عليهم، وهذا يعني أنهم سيستميتون في الدفاع عن أنفسهم حتى يَقتُلوا على الأقل عددهم من الكفار، أو تكون الأخرى، حيث ينهزم الكفار أمامهم؛ لشدة ثباتهم، ولكون الكافر قد أعد كل واحد منهم نجيبة يفرُّ عليها عند اللزوم، وزعماء الكفار لا يريدون كلا النتيجتين.

هذا مع أن عمير بن وهب آنذاك - كسائر الكفار - لا يعتقد أي تفوق معنوي للمسلمين فهو يَعدُّ الفرد منهم كأي فرد من البشر، فكيف به لو أدرك بأن الواحد منهم في الطاقة عن عشرة؛ لما يحملونه من إرادة طلب الشهادة حيث يبذلون كل ما لديهم من طاقة في الهجوم؟!

ثم كيف به فوق ذلك لو أدرك بأنهم موصولون بحبل من الله تعالى وأنهم أهل لأن يمدهم بجنود من ملائكته؟! كيف به وبقومه لو أدركوا ذلك؟! إذًا لفزعوا فزعًا يشل حركتهم وينسيهم أوهامهم البالية التي يقدسونها ويقاتلون من أجلها.

---

(١) يعني: أن إبل المدينة جاءت تحمل سبب موتنا المحقَّق.

ومع غياب هذا التصور فإننا نجد عقلاءهم قد تأثروا ببيان عمير بن وهب، فأشاروا بالعودة وترك القتال، وإلى هذا يشير محمد بن إسحاق - رحمه الله تعالى - في روايته؛ حيث يقول:

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تُذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي، قال: قد فعلتُ، أنت عليَّ بذلك، إنما هو حليفي، فعليَّ عقله[1]، وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظليَّة[2]، فإني لا أخشى أن يشجُر أمر الناس غيره - يعني أبا جهل بن هشام - ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبًا، فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجلُ ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلُّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نَثَل درعًا له من جرابها، فهو يهنئها[3] - فقلت له: يا أبا الحكم، إن عتبةَ أرسلني إليك بكذا وكذا - للذي قال -، فقال: - انتفخ والله سحرُه[4]، حين رأى محمدًا وأصحابه-: كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعُتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمدًا وأصحابه أكلة جزُور[5]، وفيهم ابنُه، قد تخوَّفكم عليه، ثم بعث إلى عامر بن الحضْرمي، فقال: هذا حليفُك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك[6]، ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف[7]، ثم صرخ، واعمراه! واعمراه! فحميت الحربُ، وحَقب أمرُ الناس[8]، واستوثقوا على ما هم عليه من الشرِّ، وأُفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عُتبة.

(١) أي: ديته.
(٢) قال ابن هشام: والحنظلية: أم أبي جهل.
(٣) قال ابن هشام: يهيئها.
(٤) أي جبن وخاف، كأن الخوف ملأ جوفه فانتفخ سحره؛ أي رئته.
(٥) يعني: لا يزيدون على مائة، وذلك لأن الله تعالى قلَّل المؤمنين في أعينهم.
(٦) الخفرة: الذمة.
(٧) يعني: خلع ثيابه.
(٨) أي: فسد.

فلما بلغ عتبة قول أبي جهل «انتفخ سحره» قال: سيعلم مصفر استه[1]، من انتفخ سحره؛ أنا أم هو[2].

وأخرجه الواقدي وذكر نحوه، وزاد: فقال - يعني أبا جهل - لعمير بن وهب: حرِّش بين الناس، فحمل عمير، فناوش المسلمين؛ لأن ينقض الصف، فثبت المسلمون على صفهم ولم يزولوا، وتقدم ابن الحضرمي، فشدَّ على القوم، فنشبت الحرب[3].

وأخرج نحوه باختصار الحافظ البزار، ذكر ذلك الحافظ الهيثمي، وقال: ورجاله ثقات[4].

وهكذ تغلَّب رأي السفهاء الحاقدين الذين غابت عن تفكيرهم جميع مناحي المثل العليا، ونداءات العقل السليم، ومَثُلت أمام ناظرهم جوانب الحقد اللئيم ونوازع الانتقام النكد، فغطت على نداءات العقول، وشحذت بحرارة ولهيب نداءات العواطف الجامحة، والأهواء المتأجِّجة، وكان حامل كبر ذلك طاغية قريش: أبو جهل؛ فرعون هذه الأمة.

لقد ورم أنف أبي جهل وساءه أن يرى دولة الإسلام في عزٍّ ونهوض، ورام من إرادة تقويضها ما الله حائل بينه وبينه، فأبي أن يُصيخَ سمعه لنداء العقل والحكمة الذي أطلقه بعض حكماء قريش؛ كعتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام، ودفعه حقده اللئيم إلى إشعال بوادر الحرب وإثارة مهيجاتها؛ ليضيع صوت العقل والحكمة في خضمِّ الجاهلية وتلبية النداءات العاطفية الطائشة.

*****

(١) هذا كناية عن الجبن.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٥- ٣٠٧.

(٣) مغازي الواقدي: ١/ ٦٥.

(٤) مجمع الزوائد: ٦/ ٧٦.

مثل من نصر الله تعالى أولياءه
(تقليل الكفار في أعين المؤمنين)

قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٣، ٤٤].

فهذه نعمة من الله تعالى على أوليائه المؤمنين ولونٌ من ألوان نصره إياهم، يقول الإمام ابن جرير في تفسيره الآية الأولى، يريكهم في نومك قليلاً، فتخبرهم بذلك، حتى قويت قلوبهم واجترؤوا على حرب عدوِّهم، ولو أراك ربُّك عَدُوَّك وعدوَّهم كثيراً لفشل أصحابك فجبنوا وخافوا ولم يقدروا على حرب القوم ولتنازعوا في ذلك، ولكن الله سلَّمهم من ذلك بما أراك في منامك من الرؤيا.

ورَوَي في تفسير الآية الثانية بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة، قال: فأسرنا رجلاً منهم، فقلنا: كم هم؟ قال: كنَّا ألفًا[1].

وقال الحافظ ابن كثير: ومعنى هذا: أن الله تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلَّله في عينه؛ ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيَّد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعْفَيه، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منهما حق وصدق، ولله الحمد والمنة[2].

---

(١) تفسير الطبري: ١٠/ ١٢، ١٣.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٣٨.

فالضمير الأول في «يرونهم» للكفار، والثاني للمؤمنين؛ أي يرى الكفار المسلمين مثليهم بعد أن التحمت المعركة، وهذه آية عظيمة؛ لأن عدد المسلمين يبلغ ثلثهم، ومع ذلك رأوهم ضعفيهم، فأما قبل المعركة فإن الله تعالى قلَّلهم في أعين الكفار حتى قال عنهم أبو جهل في خلافه مع عتبة بن ربيعة: «ولكن قد رأى أن محمداً وأصحابه أكَلَة جزور»، كما في الموضوع السابق، والناقة عادة تكفي مائة، فكانوا يرون المسلمين بهذا القدر؛ لِما قلَّلهم الله في أعينهم.

*****

موقف جهادي لحمزة بن عبد المطلب
(خبر الأسود المخزومي ومقتله)

قال ابن إسحاق: وقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلاً شرسًا سيئ الخُلق، فقال: أُعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فلمَّا خرج، خرج إليه حمزةُ بن عبد المطلب، فلما التقيا ضربه حمزة فأطَنَّ قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخُب رجله دما نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد زَعَم أن يبرَّ يمينه، وأتبعه حمزةُ فضربه حتى قتله في الحوض[1].

وهذا أول من قتُل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقد كان النبي ﷺ قد سمح لطائفة منهم بالاستقاء من حوض المسلمين كما سبق لما كان الدافع لهم هو الحاجة إلى الماء، فلما جاء هذا اللئيم الشرس يتحدى المسلمين كان له بطل الإسلام حمزة بالمرصاد، فقضى عليه ولقَّن أمثاله من الحاقدين المتعجرفين درسًا لا يُنسَى.

*****

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٨.

مواقف بطولية لبعض الصحابة
(خبر المبارزة بين المسلمين والكفار)

أخرج الإمام أبو داود السجستاني من حديث عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: تقدم - يعني عتبة بن ربيعة - وتبعه ابنه وأخوه، فنادى: من يبارز؟ فانتدب له شباب من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنما أردنا بني عمِّنا، فقال رسول الله ﷺ: «**قم يا حمزة، قم يا عليُّ، قم يا عبيدة بن الحارث**»، فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلتُ إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة[1].

وأخرجه الواقدي، وذكر أن الشباب الذي خرجوا للمبارزة من الأنصار هم: معاذ ومعوذ وعوف أبناء الحارث، وهم بنو عفراء، ولكنه ذكر أن عليًا قابل الوليد بن عتبة، وأن عبيدة بن الحارث قابل شيبة، وزاد: فقال عبيدة يا رسول الله، ألستُ شهيدًا؟ قال: «بلى»، قال: أما والله، لو كان أبو طالب حيًا لعلم أنَّا أحق بما قاله منه حين يقول:

كذبتم وبيت الله نُخْلي محمدًا ... ولَمَّا نطاعن دونه ونناضلِ
ونُسلِمَه حتى نُصرَّع حوله ... ونَذهلَ عن أبنائنا والحلائل[2]

وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه[3].

وذكر الحافظ ابن حجر رواية أبي داود، ثم قال: قلت: وهذا أصح الروايات، لكن الذي في السير من أن الذي بارزه عليٌّ هو الوليد هو المشهور، وهو اللائق بالمقام؛ لأن عبيدة وشيبة كانا شيخين؛ كعتبة وحمزة، بخلاف عليٍّ والوليد فكانا شابَّين، وقد روى الطبراني بإسناد حسن عن عليٍّ قال: أعنت أنا وحمزة عبيدة بن الحارث على الوليد بن عتبة فلم يَعب النبي ﷺ ذلك علينا، وهذا موافق لرواية أبي داود، والله أعلم[4].

وهكذا تبين لنا من كلام الحافظ ابن حجر أن أصح الروايات في هذا الموضوع رواية أبي داود التي ساندتها أيضًا رواية الطبراني على أن المبارز لعتبة حمزة، والمبارز لشيبة

(١) سنن أبي داود، الجهاد: ٣/ ١١٩، رقم: ٢٦٦٥.
(٢) مغازي الواقدي: ١/ ٦٨- ٧٠.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٩.
(٤) فتح الباري: ٧/ ٢٩٨.

علي، والمبارز للوليد عبيدة، وانتقد هذه الرواية الصحيحة بمخالفتها لما في كتب السِّير من أن الذي بارزه علي هو الوليد، وأن هذا هو المشهور.

وهذا ذهاب من الحافظ ابن حجر - وهو من المحققين - إلى اعتبار قول أهل الاختصاص وتقديمه على أنه مجال من مجالات الترجيح بين الروايات، فرواية أبي داود أصح من حيث السند، وهذه مزية ظاهرة، ولكن اتفاق المؤرخين على اعتبار أن الذي بارز الوليد بن عتبة هو عليٌّ رضي الله عنه يُعد مزية مقابلة، وقد يكون الخبر صحيحًا من حيث الإسناد، ولكن يكون فيه خطأ في المتن، لكن الحافظ لم يجزم بترجيح أحد القولين بل ذكر ما يرجح كل قول، وأسند علم ذلك إلى الله تعالى.

وقد اتفقت روايتا الواقدي وابن إسحاق على أن المبارز لعلي هو الوليد بن عتبة، واختلفنا في المبارزيْن لحمزة وعبيدة، فجاء في رواية الواقدي أن المبارز لحمزة هو عتبة بن ربيعة، وأن المبارز لعبيدة هو شيبة بن ربيعة، وجاء في رواية ابن إسحاق أن المبارز لحمزة هو شيبة، وأن المبارز لعبيدة هو عتبة، ولكن رواية الواقدي أرجح في ذلك؛ لأنها تتفق في هذه النقطة مع رواية أبي داود، ولأن هند بنت عتبة قد حرصت - كما يأتي في أحد - على مقتل حمزة، ولمَّا قُتل أكلت من كبده؛ لأنه الذي قتل أباها يوم بدر.

هذا ومن المواقف البارزة في هذا الحدث ما كان من تسابق الصحابة إلى مبارزة المشركين، والمبارزة هي أخطر أنواع الحرب؛ حيث إنها مواجهة لخطر الموت المباشر؛ لأن الذين يتقدمون للمبارزة عادة يكونون من الشجعان المعدودين.

وحينما اعترض عتبة بن ربيعة على تقدم من تقدم، وأراد أن يكون المتقدمون من بني عمه، بادر النبي ﷺ إلى أمر حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف بأن يتقدموا لمبارزة المشركين الثلاثة.

وكون النبي ﷺ يُقدم ثلاثة من أقاربه الأدنين يُعدُّ تضحية كبيرة، وتوجيهًا لقادة الدعوة من أمته إلى أن يَعدُّوا من أهم عوامل نجاحهم أن يكون القائد هو وأقاربه في مقدمة الكفاح والقيام بالمهامِّ الشاقة.

وما ذكره عبيدة بن الحارث لرسول الله ﷺ من شعر أبي طالب يُعد نوعًا من الوفاء بالعهد الذي أبرمه أبو طالب، وكأنه يقول: إذا كان أبو طالب - وهو في حال الكفر - قد تعهد بتقديم هذه التضحية، فإن المسلمين من قرابة النبي ﷺ أحق منه بذلك.

مثل من عدالة النبي ﷺ
(خبر سواد بن غزية)

قال ابن إسحاق وحدثني حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ قومه: أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدْح[1]، يعدل به القوم فمر بسواد بن غزية، حليف بني عدي بن النجار[2]، وهو مُستنتل من الصف[3]، فطعن في بطنه بالقدح، وقال: «**استو يا سواد**»، فقال: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدني، قال فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: «**استقد**»، قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: «**ما حملك على هذا يا سواد؟**» قال: يا رسول الله، حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلدك، فدعا له رسولُ الله ﷺ بخير، وقالهُ له[4].

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة سواد بن غزية رضى الله عنه: وروى عبد الرزاق عن ابن جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه[5] أن النبي ﷺ كان يتخطى بعرجون[6]، فأصاب به سواد ابن غزية الأنصاري ... فذكر القصة[7].

وهذا الموقف من سواد بن غزية رضى الله عنه يدل على شدة تعلقه برسول الله ﷺ وكلفه بمحبته، وهكذا كان كل الصحابة رضي الله عنهم.

وكون النبي ﷺ كشف بطنه له؛ ليستقيد منه يعتبر مثالاً على العدالة الكاملة التي كان يتصف بها رسول الله ﷺ، وهو في ذلك يعتبر قدوة عليا لجميع الولاة الذين يتولون شيئًا من أمور الأمة في إنصاف أفراد رعيتهم من أنفسهم، ومن غيرهم من الكبراء من باب أولى.

---

(١) القدح بكسر القاف العصا الصغيرة، وقد جاء في الرواية التالية أنها كانت من عراجين النخل.

(٢) قال ابن هشام: ويقال: سوَّاد «مثقلة» وسواد في الأنصار غير هذا مخفف.

(٣) أي متقدم عليه، وقال ابن هشام: ويقال: مستنصل من الصف، أي خارج منه.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣١٠.

(٥) هو محمد بن علي بن الحسين الملقب بالباقر.

(٦) العرجون: هو أصل القنو الذي يكون فيه التمر.

(٧) الإصابة: ٢/ ٩٤، وذكره الحافظ الهيثمي، وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات، مجمع الزوائد: ٢٨٩٦.

دعاء النبي ﷺ ومناشدته ربه جل وعلا

قال ابن إسحاق: ثم عدَّل رسولُ الله ﷺ الصفوف، ورجع إلى العريش فدخله، ومعه فيه أبو بكر الصدِّيق، ليس معه فيه غيره، ورسولُ الله ﷺ يُناشد ربه ما وَعده من النصر، ويقول فيما يقول: **اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد**، وأبوبكر يقول: يا نبي الله، بعض مُناشدتك ربك فإن الله منُجزٌ لك ما وعدك، وقد خفق رسولُ الله ﷺ خفقة[1]، وهو في العريش، ثم انتبه، فقال: «**أبشر يا أبا بكر، آتاك نصرُ الله، هذا جبريل آخذٌ بعنان فرس يقوده، على ثناياه النقع**»؛ يعني الغُبار[2].

وقد ذكر ابن إسحاق - رحمه الله- أن النبي ﷺ قال لما رأى جيش الكفار ينحدر من الكثيب الذي جاؤوا منه: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنْهم**[3]**، الغداة**»[4].

وقد أخرج خبر دعاء النبي ﷺ ومناشدته ربه الإمام البخاري من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال وهو في قبة يوم بدر: «**اللهم إني أنشُدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تُعبد بعد اليوم**» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله ﷺ، ألححت على ربك، وهو يثب في الدرع، فخرج هو يقول: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ [القمر: ٤٥][5].

وأخرج ذلك الإمام مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسولُ الله ﷺ إلى المشركين وهُم ألفٌ، وأصحابهُ ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «**اللهُمَّ أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهمَّ إن تهلك هذه العصابةُ من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض**»، فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه، مُستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاهُ أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاهُ على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله

---

(١) أي: نام نومة يسيرة.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣١١.
(٣) أي: أهلكهم.
(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٤.
(٥) صحيح البخاري، التفسير، ٨/ ٦١٩، رقم: ٤٨٧٥.

كفاك مُناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ [الأنفال: ٩][1]، فأمده الله بالملائكة[2].

وقال الصالحي - رحمه الله تعالى-: وأخرج البيهقي بسند حسن عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما سمعت مناشداً ينشد مقالة أشد مناشدةً من رسول الله ﷺ لربه يوم بدر، جعل يقول: «**اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد**»، ثم التفت كأن وجهه شقة قمر، فقال: «**كأنما أنظر إلى مصارع القوم العشية**»[3].

وذكره الحافظ الهيثمي من رواية الإمام الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه وقال: ورجاله ثقات إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه[4].

وذكر الحافظ ابن كثير - رحمه الله - هذا الدعاء، ثم قال: هكذا حكى السهيلي عن قاسم بن ثابت أن الصديق رضي الله عنه إنما قال: «بعض مناشدتك ربك» من باب الإشفاق لما رأى من نصبه في الدعاء والتضرع، حتى سقط الرداء عن منكبيه، فقال: بعض هذا يا رسول الله، أي لم تُتعب نفسك هذا التعب والله قد وعدك بالنصر؟ وكان رضي الله عنه رقيق القلب شديد الإشفاق على رسول الله ﷺ.

قال: وحكى السهيلي عن شيخه أبي بكر بن العربي قال: كان رسول الله ﷺ في مقام الخوف، والصديق في مقام الرجاء، وكان مقام الخوف في هذا الوقت - يعني أكمل- قال: لأن الله له أن يفعل ما يشاء، فخاف ألا يُعبد في الأرض بعدها، فخوفه ذلك عبادة[5].

وهكذا كان رسول الله ﷺ مع الله تعالى أولاً وآخراً يستلهم منه النصر والتأييد، وكان مع ذلك يعمل بجميع الأسباب الممكنة للوصول إلى النصر، ولما انتهى من إعداد جيشه رجع إلى العريش يدعو ربه بإلحاح أن ينزل نصره على تلك الفئة المؤمنة.

---

(١) أي: متتابعين.
(٢) صحيح مسلم، الجهاد، رقم: ١٧٦٣، ص ١٣٨٤.
(٣) سبيل الهدى والرشاد: ٤/ ٣٧.
(٤) مجمع الزوائد: وأبو عبيدة: هو ابن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(٥) البداية والنهاية: ٣/ ٢٧١، ٢٧٢.

لقد اتصلت قوة الأرض الضعيفة بقوة الله جل وعلا القاهرة العظيمة، فاكتسبت قوة الأرض مدداً إلهيا جباراً، وأصبحت قوةً عظيمة لا يمكن الوقوف في وجهها، مهما بلغ العدد، ومهما كانت العدد.

لقد تم ربط حبل متين سام بين السماء والأرض، طرفه على لسان سيد الأولين والآخرين ﷺ، وطرفه الآخر عند الله عز وجل، لقد تم هذا الاتصال المُباشر بغير الوسائط التي يألفُها الناس؛ لأن الله جل جلالُه قريبٌ من عباده، وكان توجيه المعركة بيد الله عز وجل الذي بيده النصر، وله العزَّة والقهر.

وما أروع العباد المؤمنين وهم يستلهمون النصر من الله تعالى، ويكلُون إليه مصائرهم، ويعتمدون عليه في جميع أمورهم.

وما أتعس الكافرين وهم يستلهمون النصر من قوى البشر الضعيفة الواهية.

إن مجرد تصور وجود الله عز وجل في المعركة مع المؤمنين بنصره وتأييده ليكسبهم قوة عالية، ويرفع من كفاءتهم، مهما كانت ضعيفة في القياس المادي.

وإن تصور ذلك لدى الكافرين ليخلع قلوبهم لو عقلوا، ويسلمهم غنيمة للمسلمين من غير بذل جهد كبير.

إن الإنسان المؤمن بالله تعالى وإن طرأت عليه ظروف يكون فيها ضعيفًا أو مغلوبًا على أمره، فإن اتصاله الصادق بالله تعالى يجعله أقوى قوة في هذه الأرض، إنه موصول بحبل الله المتين، ومن كان الله معه لا يمكن أن يغلب إذا كان صادقًا مع الله تعالى.

وكان جواب الله تعالى على ابتهال نبيه ﷺ هو ما نزل في قوله تعالى: ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾، يعني يتبع بعضهم بعضًا، والله جل وعلا قادر على أن ينصر نبيه ﷺ بغير واسطة الملائكة، ولكنه جل وعلا أراد أن يبشر أولياءه بنصره، وأن يطمئن قلوبهم، قال تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ١٠].

ولقد أنزل الله عز وجل ملائكته بقيادة جبريل عليهم السلام، فخرج النبي ﷺ من العريش وهو يقول: ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾، ويقول: هنا مصرع فلان، وهنا مصرع فلان، لأناس سماهم من صناديد قريش، فما جاوزوا المكان الذي حدده رسول الله ﷺ.

مثل من الشوق العظيم للجنة
(خبر عمير بن الحمام ورغبته في الشهادة)

أخرج الإمام مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في سياقه لغزوة بدر أن النبي ﷺ قال: «**قُومُوا إلى جنة عرضُها السماوات والأرض**»، قال: يقولُ عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله! جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخ بخ[1].

فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملكُ على قولك بخ بخ**»، قال: لا والله يا رسول الله ﷺ إلا رجاءة[2]، أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**»، فأخرج تمرات من قرنه[3]، فجعل يأكلُ منهن، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياةٌ طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[4].

في هذا الخبر نجد مثلاً عاليًا من قوة ارتباط النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم بالجنة، فالرسول ﷺ يعدُ الشهداء بالجنة، والمؤمنون يتسابقون إلى الشهادة حرصًا على الظفر بالجنة.

ونجد عمير بن الحمام يبلغ به حرصه على الجنة إلى أن يرمي التمرات من يده، وأن يرى أن وقت أكلها وقت طويل؛ لأنه يفصل بينه وبين دخول الجنة، وإنْ كان ذلك الوقت في عرف الناس قصيراً.

لقد كان الشعور القوي بالحياة الآخرة متمثلاً في حياة الصحابة رضي الله عنهم، فكانت قلوبهم عامرة بالخوف من النار والشوق إلى الجنة، وكان تردد خواطرهم بين مقامي الخوف والرجاء حافزاً قويًا على تقوى الله تعالى، والزهد في الحياة الدنيا، والتسابق في ميادين الجهاد في سبيل الله تعالى.

---

(١) أي: عظيم فهي كلمة تطلق لتفخيم الأمر.

(٢) وفي رواية: رجاء، وهما بمعنى واحد.

(٣) أي: جعبة النشاب.

(٤) صحيح مسلم، الإمارة، رقم: ١٩٠١، ص: ١٥١٠، وأخرجه أبو عبد الله الحاكم بنحوه، وصحَّحه على شرط مسلم، وأقرَّه الذهبي، المستدرك: ٣/ ٤٢٦، وأخرجه ابن إسحاق بنحوه، سيرة ابن هشام: ٢/ ٣١٢.

مثل من الشوق إلى رضوان الله تعالى
(خبر عوف بن الحارث)

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عوف بن الحارث، وهو ابن عفراء، قال: يا رسول الله، ما يُضحك الرب من عبده؟ قال: «**غمْسُه يده في العدو حاسرًا**»[1]، فنزع درعًا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتُل[2].

وهذا مثل آخر من اهتمام الصحابة رضي الله عنهم بالحياة الآخرة، يتمثل في طلب مواطن رضوان الله تعالى، يُقَدِّمه عوف بن الحارث الأنصاري رضي الله عنه؛ حيث يسأل رسول الله ﷺ عن الموطن الذي يبلغ فيه الدرجات العلى من رضوان الله تعالى، فيأتي جواب النبي ﷺ بأنه يكون في إقحام النفس في المغامرات المهلكة طلبًا للشهادة، ومن ذلك أن ينطلق المجاهد في نحر العدو كالسَّهم الحديد الذي لا تحول العوائق دون بلوغه هدفه، وهو حاسر غير متدرع بما يقيه من سلاح الأعداء.

ومثل هذا يغلب على الظن وقوعه شهيدًا في ساحة الأعداء، ولكن بعد أن يثُخن فيهم قتلاً؛ لأن النفوس التي لا تؤمن بالآخرة يفرُّ أصحابها من الشجعان المغاوير، خاصة الحُسَّر من الدروع؛ لأن رمي الدرع يعتبر علامة على الاستقتال وطلب الموت، ومن كان كذلك فإن مواجهته تعتبر من الخطر الذي يحذر منه.

*****

(١) يعني: غير لابس للدرع.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣١٢.

استفتاح أبي جهل وما فيه من العبر

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير العُذري، حليف بني زهرة، أنه حدثه: أنه لما التقى الناسُ ودَنا بعضهم من بعض، قال أبو جهل بن هشام: اللهم أقْطَعنا للرحم، وآتانا بما لا يُعرف، فأحْنه الغداة[1]، فكان هو المستفتح[2].

وأخرجه الإمام أحمد والحاكم من حديث الإمام الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير أن أبا جهل حين التقى القوم قال: اللهم أينا كان أقطع للرحم، وآتانا بما لا نعرف فأحنْه الغداة، فكان ذلك استفتاحه، فأنزل الله تعالى: ﴿**إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأنفال: ١٩].

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه وأقره الذهبي[3].

من الغريب جدًا أن يدعو أبو جهل بهذا الدعاء وهو يشرك بالله تعالى ويحارب دعوة التوحيد، فهل كان حين دعا صادقًا في دعوته، وأنه يعتقد بأنه وحزبه أقرب إلى رضوان الله تعالى من رسوله ﷺ وأوليائه المؤمنين؟.

الواقع أن أبا جهل قد صرح قديمًا بأن محمدًا ﷺ رسول من عند الله حقًّا، وأن الذي منعه من الإيمان به: حسدُه لبني عبد مناف؛ حيث قال في تسويغ كفره بالنبي ﷺ: تنازعْنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه؟.

---

(١) أي: أهلكه أول النهار.

(٢) أي: الحاكم على نفسه.

(٣) الفتح الرباني: ٢١/ ٤٤، المستدرك: ٢/ ٣٢٨.

ولكن الدافع لأبي جهل في دعائه هذا سياسي، وذلك أنه أراد كسب الموقف بمحاولة تقوية معنوية جيش قريش؛ حيث إن فيهم من يميل إلى تصديق النبي ﷺ والاعتقاد بأنه منصور من الله تعالى، فدعا بهذا الدعاء تبجُّحًا؛ ليثبت لهؤلاء بأن محمدًا ﷺ ليس بأقرب منهم إلى الله تعالى.

وهكذا الكفار في كل زمن يرفعون عقيرتهم عند الضرورة بدعوى القرب من الله تعالى؛ ليؤثروا على البسطاء والسذج، وليسحبوا البساط من تحت أرجل المؤمنين، ولكن الحق واضح لكل ذي فهم ثاقب وبصيرة مدركة، إذا تجرد من الهوى المنحرف.

*****

مثل من نصر الله تعالى أولياءه

أخرج الإمام الطبراني من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - : أن النبي ﷺ قال لعليٍّ رضي الله عنه : ناولني كفًا من حصى ، فناوله فرمى به وجوه القوم ، فما بقى أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء ، فنزلت : ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال : ١٧] .

ذكره الهيثمي وقال : ورجاله رجال الصحيح ، وذكر روايتين عن الطبراني من حديث حكيم بن حزام وحسَّن إسنادهما[١] .

وهذا مثل من نصر الله تعالى لرسوله ﷺ ولعبادة المؤمنين ، كما أنه معجزة من معجزات النبي ﷺ ؛ حيث وصل كف الحصباء إلى عيون جميع الكفار .

*****

(١) مجمع الزوائد : ٦/ ٨٤ .

مثل من الوفاء لأهل الفضل
(رسول الله ﷺ ينهى عن قتل أبي البَختريّ)

ذكر ابن إسحاق خبر نهي النبي ﷺ من قتل عدد من المشركين؛ منهم أبو البختري العاص بن هشام بن الحارث بن أسد، ثم قال: وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري؛ لأنه كان أكفَّ القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريشُ على بني هاشم وبني المطلب، فلقيه المُجذَّر بن زياد البلوي، حليف الأنصار، ثم من بني سالم بن عوف، فقال المجذَّر لأبي البختريِّ: إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك - ومع أبي البختري زميل له، قد خرج معه من مكة، وهو جُنادة ابن مليحة بنت زهير بن الحارث بن أسد، وجنادة رجلٌ من بني ليث، واسمُ أبي البختري: العاص - قال: وزميلي؟ فقال له المجذر: لا والله ما نحن بتاركي زميلك ما أمرنا رسول الله ﷺ إلا بك وحدك، فقال: لا والله إذن لأموتن أنا وهو جميعًا، لا تتحدَّث عني نساء مكة أني تركت زميلي حرْصًا على الحياة، فقال أبو البختري - حين نازله المجذّر وأبى إلا القتال- يرتجز:

لن يُسلم ابنُ حُرَّة زميلَهْ ... حتى يموت أو يرى سبيله

فاقتتلا فقتله المجذَّرُ بن زياد، وقال المجذر بن زياد في قتله أبا البختري:

إما جهلت أو نسيتَ نسبي ... فأثبت النِّسبة أني من بَلي[1]

الطّاعنين برماح اليزَني ... والضاربين الكبْش حتى ينحني[2]

بشِّر بيُتم من أبيه البختري ... أو بشِّرن بمثلها منى بَنيّ

أنا الذي يقال أصلي من بلي ... أطعنُ بالصَّعدة حتى تَنثني[3]

وأعبطُ القرن بعضب مشرَفي[4] ... أرْزمُ للموت كإرزام المري[5]

فلا ترى مجذَّرًا يفري فري[6]

---

(١) بليٌّ: بطن من قبيلة قضاعة.

(٢) قوله: اليزني نسبة إلى ذي يزن، وهو والد سيف بن ذي يزن المشهور، والكبش المراد به رئيس القوم وأميرهم.

(٣) الصَّعدة: القناة المستوية.

(٤) أي: أقتل المنازل في الحرب بالسيف القاطع.

(٥) أي: أشتد للموت، وقال ابن هشام: «المري» من غير ابن إسحاق، والمري: الناقة التي يستنزل لبنها على عُسر.

(٦) أي: لا يأتي أحد بمثل عمله.

قال ابن إسحاق: ثم إن المجذر أتى رسول الله ﷺ، فقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدتُ عليه أن يستأسر فآتيكَ به فأبى إلا أن يقاتلني، فقاتلتُه فقتلتُه[1].

في هذا الخبر نلاحظ مثلاً من الوفاء لأهل الفضل والمعروف وإن كانوا كافرين، فقد نهى النبي ﷺ عن قتل أبي البختري العاص بن هشام مكافأة له على ما سبق منه من مواقف حميدة في مكة أيام ضعف المسلمين؛ حيث كان من أبرز فريق أهل الاعتدال من الكفار الذين قاموا بنقض صحيفة البغي والعدوان، وقد سبق بيان موقفه مع أبي جهل حينما آذى رسول الله ﷺ، فقام أبو البختري معه وسبَّ أبا جهل وضربه.

وفي هذا الخبر يبين لنا رسول الله ﷺ أهمية مكافأة أهل الفضل وردَّ الجميل إليهم وإن كانوا كافرين.

وموقف للمجذَّر بن زياد البلوي رضي الله عنه حفظ وصية النبي ﷺ بذلك الرجل، فحاول به أن يستأسر حتى يحقن دمه، ولكنه اضطر إلى أن يقتله حينما أصر على القتال.

والخبر يظهر لنا إلى جانب ذلك صورة من شجاعة المجذر الذي استطاع قتل أبي البختري وزميله الذي من أجله ثبت أبو البختري ورفض الاستسلام.

كما يظهر لنا براعة المجذر في شعر الرجز الحربي الحماسي البليغ، وقد كانوا يستعينون بذلك الرجز على استنهاض الهمم وكسر شوكة العدو، وقد اشتمل ذلك الرجز على شيء من الافتخار بالنفس وهذا لا يصدر من الصحابة رضي الله عنهم إلا في حال الحرب، وقد أقره النبي ﷺ؛ لما فيه من تقوية المسلمين وإضعاف الكافرين.

*****

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣١٤- ٣١٦، وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق بهذا الإسناد، تاريخ الطبري: ٢/ ٤٤٩- ٤٥١، وذكره الحافظ ابن كثير من رواية ابن إسحاق بهذا الإسناد، البداية والنهاية: ٣/ ٢٨٤، ٢٨٥، وأشار الحافظ ابن حجر إلى هذه الرواية في ترجمة المجذر، وأشار إلى روايتين لابن إسحاق من طريق الزهري ومن طريق عروة وغيرهما، الإصابة: ٣/ ٣٦٣.

مشاركة الملائكة يوم بدر وما في ذلك من العبر

مشاركة الملائكة يوم بدر مع المؤمنين مقطوع بها؛ لما نزل في ذلك من الآيات القرآنية وذلك في قول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾ [آل عمران: ١٢٣- ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]، وقوله تعالى: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾ [الأنفال: ١٢]، وهذه الآية تفيد أن الملائكة عليهم السلام شاركوا في القتال نفسه إلى جانب ما قاموا به من تثبيت المؤمنين وطمأنة قلوبهم.

أما أخبار السيرة فقد رُويتْ في ذلك مجموعة من الأحاديث، وسأكتفي بذكر ثلاثة أحاديث صحيحة.

أولها: ما رواه الإمام البخاري من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «**هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب**»[1].

وثانيها: ما رواه الإمام مسلم بإسناده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذ يشتدُّ في أثر رجل من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أَقْدم حَيْزُومُ[2]، فنظر إلى المشرك أمامهُ فخرَّ مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أنفه، وشُقَّ وجهه كضربة السوط، فاخضرَّ ذلك أجمعُ،

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣١٢، رقم: ٣٩٩٥.
(٢) اسم فرس الملك.

فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة**»، فقتلوا يومئذ سبعين، وأسروا سبعين[1].

وثالثها: ما أخرجه الإمامان أحمد والبزار من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قصة بدر وقد جاء فيه: فجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيراً، فقال العباس: يا رسول الله، إن هذا والله ما أسرني، أسرني رجل أجلح[2]، من أحسن الناس وجهًا على فرس أبلق، ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: «**اسكت، فقد أيدك الله بملك كريم**».

ذكره الحافظ الهيثمي وقال: رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة، وذكره أيضًا من رواية الإمام أحمد وقال: ورجاله رجال الصحيح[3].

إن إنزال الملائكة عليهم السلام من السموات العُلَى إلى الأرض لنصر المؤمنين حدث عظيم.

إنه قوة عظمى، وثبات راسخ للمؤمنين حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، وأنهم إذا حققوا أسباب النصر واجتنبوا موانعه فإنهم أهل لمدد السماء، وهذا الشعور يعطيهم جرأة على مقابلة الأعداء وإن كان ذلك على سبيل المغامرة كما في تلك المعركة؛ لبُعْد التكافؤ المادي بين جيش الكفار الكبير عددًا القوي إعدادًا، وجيش المؤمنين القَليل عددًا الضعيف إعدادًا، وهو في الوقت نفسه عامل قوي في تحطيم معنوية الكفار وزعزعة يقينهم، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تكرر نزول الملائكة الذين شاهدهم بعضهم عَيانًا.

إنهم مهما قدَّروا قوة المسلمين وعددهم فإنه سيبقى في وجدانهم رعب مزلزل من احتمال مشاركة قُوًى غير منظورة، لا يعلمون عددها ولا يقدِّرون مدى قوتها.

ولقد رافق هذا الشعور المؤمنين في كل حروبهم التي خاضها الصحابة رضي الله عنهم في العهد النبوي وفي عهد الخلفاء الراشدين، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك، فكان عاملاً قويًا في انتصاراتهم المتكررة الحاسمة مع أعدائهم.

---

(١) صحيح مسلم رقم: ١٧٦٣، ص: ١٣٨٤.

(٢) أي: قد انحسر شعر رأسه من الأمام.

(٣) مجمع الزوائد: ٦/ ٧٦، ٨٥.

إبليس يخذل المشركين

تقدم أن إبليس - لعنه الله - ظهر للمشركين بصورة سراقة بن مالك المدلجي وقال لهم حينما خافوا أعداءهم على ذراريهم: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه.

وقد استمر إبليس يسير معهم وهو متلبِّس بصورة هذا الزعيم القَبَلي الشجاع؛ ليقويهم ويشد من عزمهم على القتال، وقد أخرج خبره بعد ذلك الإمام الطبراني من حديث رفاعة بن رافع، قال: لما رأى إبليس ما فعل الملائكة بالمشركين يوم بدر أشفق أن يخلص إليه، فتشبَّث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك، فوكزً في صدر الحارث، ثم خرج هاربًا حتى ألقى نفسه في البحر ورفع يديه، فقال: اللهم إني أسألك نظرتك إياي وخاف أن يخلص القتل إليه[1].

وأقبل أبو جهل فقال: يا معشر الناس، لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهولنكم قتل شيبة وعتبة والوليد فإنهم عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال، فلا ألفينَّ رجلاً منكم قتل رجلاً ولكن خذوهم أخذًا حتى تعرفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم ورغبتهم عن اللات والعزى، ثم قال أبو جهل متمثلاً:

ما تنقمُ الحربُ الشموس مني ... بازلُ عامين حديثٌ سنِّي

لمثل هذا ولدتني أمي

ذكره الحافظ ابن كثير[2].

وهكذا خدع إبليس أولياءه الكافرين، فدفعهم إلى المعركة، وحلَّ لهم مشكلة كانت عائقًا لهم عن الإقدام؛ ليصل بهم إلى ما كان يريد الوصول إليه من القضاء على الإسلام، فالكفار جميعًا من جند إبليس يسخِّرهم لصد دعوة الحق؛ إما بالوسوسة وهو

(١) أي: سأل ربه ما وعده به من إنظاره إلى يوم البعث.

(٢) البداية والنهاية: ٣/ ٢٨٣.

الغالب وإما بأن يتمثل لهم بصورة بشر يعرفونهم ويعرفون مكانتهم ووزن الكلام الذي يقولونه كما في هذا الخبر، وإما في صورة رجل مجهول يمنحهم التأييد والمشورة.

ولكن إبليس - لعنه الله - لم يستطع إكمال أدوار الخداع؛ وذلك لما رأى الملائكة عليهم السلام، وقد نزلوا من السماء؛ لنصر المؤمنين وتأييدهم، فخشي أن يصلوا إليه، وولَّى هاربًا.

وهكذا يُبنى الباطل على أوهى من خيوط العنكبوت، حتى إذا ظهر جنود الإيمان وحققوا لأنفسهم شروط النصر والتمكين تداعت قواعد بنيان الباطل، فخرَّ على أهله، ثم كشف لهم بعد ذلك أن تدبيرهم كان تدميراً لهم، وأنهم قد صنعوا بمخططاتهم نهايتهم.

وقام أبو جهل يلملم خيوط العنكبوت التي تمزقت فيحاول تثبيت الكفار، فحكم على فرار الشيطان - الذي ما زالوا يعتقدون بأنه سراقة بن مالك - بأن ذلك كان على اتفاق بينه وبين المسلمين، وأن قتْل ثلاثة من زعمائهم كان بسبب استعجالهم، وكان قادراً على أن يشير عليهم قبل ذلك بالتريُّث.

ويصل به حقده وغروره إلى أن يشير على قومه بألا يقتلوا المسلمين قتلا وأن يأخذوهم أسرى؛ ليذلوهم ويُجبروهم على ترك معتقدهم.

ويشاء الله تعالى خلاف ما يريد هذا الطاغية، فتدور الدائرة عليه وعلى جيشه، ويقتل منهم المسلمون طائفة ويأسرون طائفة ويشرِّدون بقيتهم.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى موقف إبليس هذا منهم في بدايته ونهايته؛ حيث يقول عز وجل: ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وقد جاء عن حبر الأمة عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير الآية ما يوافق الخبر السابق الذي أخرجه الإمام الطبراني، وذلك فيما رواه عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين

معه رايته، في صورة رجل من بني مدلج في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جارٌ لكم، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع يده، ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب، وذلك حين رأى الملائكة[1].

*****

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٤٠، وهذا الخبر من صحيفة عليٍّ بن أبي طلحة، وإسنادها صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

مقتل أمية بن خلف وما فيه من مواقف وعبر

قال ابن إسحاق: حدثني يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، قال ابن إسحاق: وحدَّثنيه أيضًا عبد الله بن أبي بكر وغيرهما عن عبد الرحمن بن عوف، قال: كان أمية بن خلف لى صديقًا بمكة، وكان أسمى عبد عمرو، فتسميت - حين أسلمت - عبد الرحمن، ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكةً، فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اسم سماكه أبوك؟ فأقول: نعم، فيقول إني لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئًا أدعوك به، أمَّا أنت فلا تُجيبني باسمك الأول، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف! قال: فكان إذا دعاني: يا عبد عمرو، لم أُجبه، قال: فقلت له: يا أبا علي، اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، قال: فقلت: نعم، قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله، فأجيبه، فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر، مررت به وهو واقف مع ابنه علي بن أمية، آخذ بيده، ومعي أدراع، قد استَلبتُها، فأنا أحملها، فلما رآني قال لي: يا عبد عمرو فلم أجبه، فقال يا عبد الإله! فقلت: نعم، قال هل لك فيَّ، فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع التي معك، قال: قلت: نعم ها الله إذًا[1]، قال: فطرحت الأدراع من يدي، وأخذتُ بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجةٌ في اللبن؟ قال: ثم خرجت أمشي بهما.

قال ابن هشام: يريد باللَّبن أن مَنْ أسرني افتديتُ منه بإبل كثيرة.

قال ابن إسحاق: حدثني عبدُ الواحد بن أبي عون عن سعيد بن إبراهيم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال لي أمية بن خلف، وأنا بينه وبين ابنه، آخذٌ بأيديهما: يا عبد الإله، من الرجُل منكم المُعْلَم بريشة نعامة في صدره؟ قال: قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلالٌ معي - وكان هو الذي يعذِّب بلالاً بمكة على ترك الإسلام فيُخرجه إلى رَمْضاء مكة إذا حميت، فيُضْجعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتُوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا أو

(١) أي: والله، فحذف واو القسم ووضع مكانها الهاء تسهيلاً.

تفارق دين محمد، فيقول بلال: أحدٌ أحد، قال: فلما رآه قال: رأس الكفر أُمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أي بلال، أبأسيريَّ! قال: لا نجوت إنا نجا، قال قلت: أتسمع يا بن السَّوْداء قال: لا نجوت إن نجا.

قال: ثم صرخ بأعلى صوته، يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة[1] وأنا أذبُّ عنه، قال: فأخلف رجلٌ السيف، فضرب رجلَ ابنه، فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعتُ مثلها قط، قال: فقلت: انجُ بنفسكَ، ولا نجاء بك، فوالله ما أُغني عنك شيئًا، قال: فهبَّروهما بأسيافهم، حتى فرغوا منهما، قال: فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، ذهبت أدْراعي وفَجَعني بأسيرَيَّ[2].

في هذا الخبر مواقف وعبر، فمن ذلك:

أولاً: ما جاء فيه من الشهادة بشجاعة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقد جاءت هذه الشهادة من أحد زعماء الكفار أمية بن خلف؛ حيث قال عن حمزة: «ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل»، وهذا يعني أنه رضي الله عنه قد فتك بجيش الأعداء حتى أثخن فيهم قتلاً وتشريداً.

ثانيًا: ما جرى من بلال رضي الله عنه حينما رأى عدوه اللدود أمية بن خلف الذي كان يسومه أقسى وأعنف أنواع العذاب في مكة، فلما رآه في يد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أسيراً صرخ بأعلى صوته «لا نجوت إن نجا».

إنه موقف من مواقف التَّشَفِّي من أعداء الله، والتشفي من عتاة الأعداء في الحياة الدنيا نعمة يفرِّج الله بها عن المكروبين من المؤمنين الذين ذاقوا الذل والهوان على أيدي أولئك الطغاة، يقول الله تبارك وتعالى في هذا المعنى: ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

---

(١) يعني: في مثل السوار أو الخلخال.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣١٦- ٣١٨، وأخرجه الإمام البخاري مختصراً من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه رقم: ٢٣٠١ (١٤٤/ ٤٨٠).

وإن فيما جرى لأمية بن خلف من ذلك المصير المفزع عبرة للمعتبرين ودرسًا بليغًا للطغاة المتجبِّرين، الذين يغترون بقوتهم وينخدعون بجاههم ومكانتهم، فيعتدون على الضعفاء ويسلبونهم حقوقهم، إن ما يحسُّون به في أثناء ممارسة عدوانهم من فرح ونشوة ستكون عاقبته وخيمة عليهم في الآخرة، وقد يصابون بالمصير المخزي في الدنيا قبل الآخرة كما جرى لأمية بن خلف وأمثاله من طغاة الكفار.

ثالثًا: موقف لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه؛ حيث ترحَّم على بلال رضي الله عنه مع ما جرى منه من معارضته وانتزاع الأسيرين من يده بقوة الأنصار الذين استنجد بهم رضي الله عنه، أما ما تفوَّه به من مناداة بلال بقوله: «أتسمع يا بن السوداء»، فإن ذلك كان في ساعة غضب، ولهذا لم يؤاخذه بلال على ذلك.

*****

موقف لأم صفوان بن أمية

قال الواقدي: فحدَّثني محمد بن قدامة، عن أبيه، عن عائشة بنت قُدامة، قالت: قيل لأُم صفوان بن أمية - ونظرتْ إلى الحباب بن المنذر بمكة-: هذا الذي قطع رجْل علي بن أمية يوم بدر، قالت: دعونا من ذكر مَن قُتل على الشرك! قد أهان الله عَليًّا بضربة الحباب بن المنذر، وأكرم الله الحباب بضربه عليا، قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا، فقتل على غير ذلك[1].

وهذا موقف جليل من هذه المرأة المؤمنة يدل على قوة إيمانها ورسوخ يقينها؛ حيث اتضحت لها عقيدة الولاء والبراء، فأصبحت تحب المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها.

وقولها عن ابنها علي: «قد كان على الإسلام حين خرج من ههنا، فقتل على غير ذلك»؛ تعني أنه كان ممن عُرف عنهم الإسلام بمكة وخرجوا مع قومهم يوم بدر مكرهين، فلما التقى الصفان فتنوا حينما رأوا قلة المسلمين، فقالوا: قد غر هؤلاء دينهم، فنزل فيهم قول الله تعالى: ﴿**إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٤٩][2].

*****

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٨٥.

(٢) تفسير الطبري: ١٠/ ٢١، سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٣٠.

مواقف وعبر في مقتل أبي جهل

أخرج الإمامان البخاري ومسلم -واللفظ له- من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه قال: بينما أنا واقف في الصف يوم بدر، نظرتُ عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار؛ حديثة أسنانهما، تمنيتُ لو كنت بين أضلعَ منهما، فغمزني أحدُهما. فقال: يا عم! هل تعرف أبا جهل؟ قال: قُلتُ: نعم، وما حاجتك إليه يا بن أخي؟ قال: أخبرتُ أنه يسبُّ رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيتهُ لا يفُارق سوادي سوادهُ[1] حتى يمُوت الأعجلُ منَّا، قال: فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال مثلها، قال: فلم أنشبْ أن نظرتُ إلى أبي جهل يزُول[2] في الناس، فقُلتُ: ألا تريَان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنهُ، قال: فابتدراهُ، فضرباهُ بسيفيهما، حتى قتلاه، ثُم انصرفا إلى رسول الله ﷺ، فأخبراه، فقال: «**أيكما قتلهُ؟**» فقال كُلُّ واحد منهما: أنا قتلتُ، فقال: «**هل مسحتما سيفيكما؟**» قالا: لا. فنظر في السيفين، فقال: «**كلاكما قتله**»، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، «والرجلان: مُعاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء»[3].

وقال ابن إسحاق في هذا الخبر: وكان أول من لقي أبا جهل، كما حدثني ثورُ بن يزيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، وعبد الله بن أبي بكر أيضًا قد حدَّثني ذلك، قالا: قال معاذ بن عمرو بن الجموح، أخو بني سلمة، سمعتُ القوم وأبو جهل في مثل الحرجة[4]، وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخلص إليه، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني، فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطنَّت قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها، قال: وضربني ابنهُ عكرمة على عاتقي فطرح يدي، فتعلقتْ بجلدة من جنْبي، وأجهضني القتالُ عنه، فلقد قاتلتُ عامَّة يومي وإني لأسْحبُها خلفي، فلما آذتني وضعتُ عليها قدمي، ثم تمطيتُ بها عليها حتى طرحتها.

---

(١) أي: شخصي شخصه. (٢) أي: يتحرك ولا يستقر.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، رقم: ١٧٥٢، (ص) ١٣٧٢، صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، رقم: ٣١٤١ (٦/ ٢٤٦) وأخرجه الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف، وذكر مثله، المستدرك: ٣/ ٤٢٥.

(٤) قال ابن هشام: الحرجة: الشجر المتلف، وفي الحديث عن عمر بن الخطاب أنه سأل أعرابيا عن الحرجة، قال: هي شجرة بين الأشجار لا يوصل إليها.

قال ابن إسحاق: ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمانُ عثمان.

ثم مر بأبي جهل وهو عقيرُ مُعوِّذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته، فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قُتل[1].

قال ابن إسحاق: فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل، حين أمر رسول الله ﷺ أن يُلتمس في القتلى، وقد قال لهم رسول الله ﷺ - فيما بلغني -: «**انظروا، إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته، فإني ازدحمتُ يومًا أنا وهو على مأدبة لعبد الله بن جدعان، ونحن غلامان، وكنت أشفَّ منه بيسير، فدفعته فوقع على ركبتيه، فجُحش[2] في إحداهما جحْشًا لم يزل أثرهُ به**».

قال عبد الله بن مسعود: فوجدته بآخر رمق فعرفته، فوضعتُ رجلي على عنقه - قال: وقد كان ضَبَث بي[3] مرة بمكة فآذاني ولكزَني، ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدوَّ الله؟ قال: وبماذا أخزاني! أأعمد[4] من رجل قتلتموه؟ أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: قلت لله ولرسوله[5].

وأخرج الإمام البخاري مختصرًا من عدة طرق[6]، وأخرج الإمام الطبراني من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: أدركت أبا جهل يوم بدر صريعًا، فقلت: أي عدو الله، قد أخزاك الله، قال: وبم أخزاني؟ هل أكثر منْ رجل قتلتموه[7] ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولا يحتكُّ فيه شيء ومعه سيف له جيد فضربت يده فوقع السيف من يده فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه فضربت عنقه.

ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «**آلله الذي لا إله إلا هو**»، قلت: الله الذي لا إله إلا هو، قال: «**انطلق فاستثبت**»، فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك، فأخبرته، فقال رسول الله ﷺ: «**انطلق**» فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: **هذا فرعون هذه الأمة.**

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٢١.
(٢) أي: خدش.
(٣) قال ابن هشام: ضبث: قبض عليه ولزمه.
(٤) يعني: وهل أكثر، وجاء في إحدى روايات البخاري: وهل فوق رجل قتلتموه؟.
(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٢٢.
(٦) صحيح البخاري: المغازي، ٧/ ٢٩٣، رقم: ٣٩٦١، ٣٩٦٢، ٣٩٦٣.
(٧) سقط منه كلمة «هل أعمد»، أو نحوها، كما في الروايات السابقة.

رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن وهب بن أبي كريمة وهو ثقة، ذكر ذلك الحافظ الهيثمي[1].

في هذا الخبر برواياته المتعددة مواقف منها:

أولاً: ما جرى من هذين الشابين الأنصاريين من طموح إلى خوض أخطر مغامرة في قتال جيش الكفار وهي الوصول إلى أبي جهل الذي كان محميا بفرسان عشيرته وعلى رأسهم ابنه الشجاع عكرمة رضي الله عنه.

وهذا الشابان هما: معاذ بن الجموح الخزرجي، ومعاذ بن الحارث بن رفاعة الخزرجي - رضي الله عنهما -، ويسمى معوِّذًا، كما جاء في بعض الروايات، وهما أخوان من أم وهي عفراء، وقد اشتهر معاذ بن الحارث بالنسبة إلى أمه[2].

وحينما انطلقا إلى أبي جهل سبق معاذ بن عمرو بن الجموح إليه فقطع ساقه، ولكن عكرمة بن أبي جهل عاجله بضربة أطاحت بيده، أما أخوه معاذ بن الحارث فإنه ضربه بعدما سقط، ولكن بقي فيه رمق.

ونظرًا لكون معاذ بن عمرو وهو الذي سبق إلى أبي جهل فإن النبي ﷺ قضى بسلبه له، لأنه قد قام بالمهمة الكبرى في قتل ذلك الطاغية، ولكنه ﷺ أقرَّ للأخوين بالاشتراك في قتله، وفي ذلك مواساة لمعاذ بن الحارث الذي أخبر عن نفسه بأنه قد قتله.

لقد كان الدافع إلى مغامرة ذينك الشابين هو ما سمعاه من أن أبا جهل كان يسب رسول الله ﷺ إلى حد بذل النفس في سبيل الانتقام ممن تعرض له بالأذى.

وإننا لنجد في هذا الاندفاع القوي نحو ركوب المخاطر صورة من مجالات الطموح التي كانت تهيمن على أفكار شباب الصحابة رضي الله عنهم، بينما كان الشباب الآخرون في قبائل العرب وغيرهم يهيمن على قلوبهم التفكير في مجالات إشباع الشهوات، وتُعمر مجالسهم بالتنافس في الملذات الدنيوية.

---

(١) مجمع الزوائد: ٦/ ٧٩، وخبر عبد الله بن مسعود كان بعد انتهاء المعركة، أما خبر معاذ ومعوذ فكان في أثنائها بعدما أصابا أبا جهل.

(٢) الإصابة: ٣/ ٤٠٨، ٤٠٩، رقم: ٨٠٤١، ٨٠٥٣.

ثانيًا: ما جرى من معاذ بن عمرو بن الجموح حينما واصل الجهاد ويده مقطوعة، فلما أصبحت هذه اليد المتدلية بجلدتها عائقًا له دون بذل الجهد في القتال تمطَّى عليها حتى طرحها.

سبحان الله! أما كان يكفي هذا الشاب أن قُطعت يده في سبيل الله تعالى؟!

أما كان في هذه الإصابة مندوحة له عن مواصلة الجهاد؟!

أما كان يحق له أن ينزوي في ناحية من نواحي العسكر يعالج جراحه؟!

بلى، كان يحق له ذلك، ولكنه كان يحمل روحًا عالية، وهمَّة سامية، كان يحمل همَّ حماية هذا الدين العظيم، وحماية رسول الله ﷺ والمؤمنين، وما كان له - والحال هذه- أن يقدِّم حماية جسده على حماية هذه المبادئ السامية، وإن نفسه لتهون في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

ثالثًا: ما جرى بين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأبي جهل وهو في الرمق الأخير من الحوار، فيه عبرة بليغة، فهذا الطاغية الذي كان شديد الأذى للمسلمين في مكة - وخاصة المستضعفين منهم - قد وقع صريعًا بين أيدي من كان يؤذيهم.

ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على آخر رمق من حياته هو أحد المستضعفين الذين كانوا يؤذيهم في مكة، وقد كان في ذلك شيء من تشفِّي المؤمنين من أعدائهم الذي مر الكلام عليه في خبر بلال رضي الله عنه مع أمية بن خلف.

ولقد كان أبو جهل مستكبرًا جبارًا حتى وهو صريع وفي آخر لحظات حياته، فقد جاء في رواية لابن إسحاق أنه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتزَّ رأسه: «لقد ارتقيت مرتقًى صعبًا يا رويعي الغنم»[1].

وهكذا تستمر الغطرسة والكبرياء في أصحاب النفوس المريضة؛ حيث ينسون أو يتناسون كل صفات الكمال والرجولة في الرجال، ولا يتذكرون إلا شيئًا من صفاتهم أو مهنهم البسيطة، وهذا أثر من آثار خُلق الكبر السيئة، وبهذه الرؤية الناقصة القاتمة يصدر حكم هؤلاء المستكبرين على الناس، فربما حكموا على العظماء المفكرين بأحكام يزدريها العقلاء؛ لأن أولئك المتكبرين لا ينظرون إلى الناس إلا من خلال ذلك المنظار الضيق الدنيء.

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٣٣.

شجاعة عُكَاشة بن محصن ومعجزة للنبي ﷺ

قال ابن إسحاق: وقاتل عُكاشةُ بن محصن بن حُرثان الأسدي، حليف بني عبد شمس بن عبد مناف يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب، فقال: قاتل بهذا يا عُكاشة، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزَّه، فعادَ سيفًا في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمي العَوْن، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قُتل في الرِّدة، وهو عنده، قتله طليحة بن خُويلد الأسدي[1].

في هذا الخبر إشارة إلى شجاعة عكاشة بن محصن رضي الله عنه، وشدة بلائه في القتال؛ حيث انقطع السيف في يده من كثرة الجلاد.

وفي الخبر معجزة بالغة للنبي ﷺ؛ حيث ناول عكاشة أصلاً من أصول الشجرة فعاد في يده سيفًا في غاية الجودة والمتانة، ومن بركة هذا السيف أنه استمر في يد عكاشة يقاتل به أعداء الله حتى استشهد رضي الله عنه في حروب الردة.

*****

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٢٤.

موقف جهادي للزبير بن العوام

أخرج الإمام البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه قال: «قال الزبير: لقيتُ يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مُدجَّج لا يرى منه إلا عيناه وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بالعنزة فطعنته في عينه فمات، قال هشام: فأخبرت أن الزبير قال: لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطأت فكان الجهد أن نزعتها وقد انثنى طرَفاها، قال عروة: فسأله إياها رسول الله ﷺ فأعطاه، فلما قُبض رسول الله ﷺ أخذها، ثم طلبها أبو بكر فأعطاهُ إياها فلما قُبض أبو بكر سألها إياه عمر فأعطاه إياها، فلما قُبض عمر أخذها، ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها، فلما قُتل عثمان وقعت عند آل عليٍّ فطلبها عبد الله بن الزبير، فكانت عنده حتى قتُل»[1].

هذا الخبر يصور لنا دقة الزبير بن العوام رضي الله عنه في إصابة الهدف؛ حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرجل مع ضيق ذلك المكان وكونه قد وزع طاقته بين الهجوم والدفاع، فلقد كانت إصابة هذا الرجل بعيدة جدًا لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقي، لكن الزبير استطاع إصابة إحدى عينيه فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق مما يدل على قوة الزبير الجسدية، إضافة إلى دقته ومهارته في إصابة الهدف.

*****

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣١٤، رقم: ٣٩٩٨.

مثلان من شجاعة أبي دجانة

قال الواقدي فيما يرويه عن شيوخه، ولما جال المسلمون واختلطوا، أقبل عاصم بن أبي عوف بن صُبيرة السهمي كأنه ذئب يقول: يا معشر قُريش، عليكم بالقاطع، مفرق الجماعة، الآتي بما لا يُعرف، محمد! لا نجوتُ إن نجا! ويعترضه أبو دُجانة، فاختلفا ضربتين وضربه أبو دجانة فقتله، ووقف على سلبه يسلبه، فمرَّ عمر بن الخطاب وهو على تلك الحال، فقال: دع سلبه حتى يُجهَض العدو، وأنا أشهد لك به، ويُقبل معبد ابن وهب، فضرب أبا دجانة ضربة، برك أبو دجانة كما يبرُك الجمل، ثم انتهض، وأقبل عليه أبو دجانة فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيئًا، حتى يقع مَعْبد بحفرة أمامه لا يراها، وبرك عليه أبو دجانة، فذبحه ذبحًا، وأخذ سلَبه[1].

فهذا الكافر العاتي عاصم بن أبي عوف الذي خرج يتحدى المسلمين ويهدد رسول الله ﷺ بالقتل متجاهلاً من حوله من المسلمين الذين يفدونه بأرواحهم كان له بالمرصاد أبو دجانة سماك بن خرشة رضي الله عنه، فلم يثبت أمامه إلا قليلاً حتى قضى عليه وأسكت عواءه.

وينتهز أحد الكفار فرصة انشغال أبي دجانة فيضربه ضربة أوقعته على الأرض، لكنه سرعان ما نهض نهوض الأسد فقضى على عدوه.

*****

(١) مغازي الواقدي: ٦/ ٨٦.

موقف شجاعة لعلي بن أبي طالب

قال الواقدي: فحدَّثني مَعْمَر، عن الزُّهري، قال: قال رسول الله ﷺ [يوم أن كان في مكة]: «**اللهمَّ اكفني نَوْفل بن خويلد**» وأقبل نوفل يومئذ وهو مرعوب، قد رأى قتل أصحابه، وكان في أول ما التقوا هم والمسلمون، يصيح بصوت له زَجَل رافعًا صوته، يا معشر قريش، إن هذا اليوم يوم العلاء والرفعة! فلما رأى قريشًا قد انكسرت جعل يصيح بالأنصار: ما حاجتكم إلى دمائنا؟ أما ترون ما تقتلون؟ أما لكم في اللبن من حاجة؟ فأسره جبَّار بن صخر فهو يسوقه أمامه، فجعل نوفل يقول لجبار - ورأى عليًّا مقبلاً نحوه - قال: يا أخا الأنصار، من هذا؟ واللات والعُزى، إني لأرى رجلاً، إنه ليريدني! قال: هذا عليُّ بن أبي طالب، قال: ما رأيت كاليوم رجلاً أسرع في قومه منه، فيصمد له عليُّ رضي الله عنه فيضربه، فنشب سيف عليٍّ في حجفته ساعة، ثم نزعه فيضرب ساقيه، ودرعه مشمرة، فقطعهما، ثم أجهز عليه فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «**من له علمٌ بنوفل بن خويلد؟**» فقال عليٌّ: أنا قتلته، قال: فكبر رسول الله ﷺ وقال: «**الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه**»[1]!

وهكذا أقر عليُّ بن أبي طالب عين رسول الله ﷺ بالقضاء على عتاة الكفار الذي كان يصعِّد في أذى المسلمين ويصوِّب يوم أن كانوا مستضعفين في مكة، وكان الذي أسره من الأنصار لم يعلم بدعاء النبي ﷺ، ولا بما كان منه من أذى المسلمين.

*****

(١) مغازي الواقدي: ١/ ٩١، ٩٢.

١- أخرج أبو عبد الله الحاكم من طريق محمد بن عمر الواقدي قال: وعبدالرحمن بن أبي بكر الصديق لم يزل على دين قومه في الشرك حتى شهد بدراً مع المشركين، ودعا إلى البراز، فقام إليه أبوه أبو بكر رضي الله عنه؛ ليبارزه. . فذكر أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: متِّعنا بنفسك، ثم إن عبد الرحمن أسلم في هدنة الحديبية[١].

٢- وأخرج أبو عبد الله الحاكم بإسناده عن عبيد الله بن شوذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينصب الألَّ[٢]، لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجَراح قصده أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية حين قتل أباه: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [المجادلة: ٢٢][٣]، وأخرجه الحافظ الطبراني وذكر نحوه[٤].

٣- أخرج الواقدي من حديث الإمام الزهري، قال: وأقبل العاص بن سعيد يحثُّ للقتال، فالتقى هو وعليٌّ، فقتله عليٌّ، فكان عمر بن الخطاب يقول لابنه سعيد بن العاص[٥]: إني لأراك مُعرضًا، تظن أني قتلت أباك؟ [في أصل ابن أبي حَيَّة، والله ما قتلت أباك] ولا أعتذر من قتل مُشرك، ولقد قتلت خالي بيدي؛ العاص بن هشام بن

(١) المستدرك: ٣/ ٤٧٤ .
(٢) الألُّ، بفتح الهمزة وتشديد اللام: الحربة العريضة النَّصل.
(٣) المستدرك: ٣/ ٢٦٥ .
(٤) المعجم الكبير: ١/ ١٥٥، رقم: ٣٦٠.
(٥) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس، له صحبة، وكان عمره يوم أن توفي رسول الله ﷺ تسع سنين، كان من فصحاء قريش، ولذلك ندبه عثمان رضى الله عنه فيمن ندب لكتابة القرآن، أما جده سعيد بن العاص فهو من أشراف قريش ولقبه المشهور «أحيحة» وقد توفي مشركًا قبل بدر، وأما أبوه العاص فهو الذي قتله عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم بدر، الإصابة: ٢/ ٤٥، رقم: ٣٢٦٨ .

المغيرة، فقال سعيد: لو قتلته لكان على الباطل، وأنت على الحق، قال: قريش أعظم الناس أحلامًا، وأعظمها أمانةً، لا يبغيهم أحدٌ الغوائل إلا كبَّه الله لفيه[1].

٤- قال ابن إسحاق: وحدثني نُبيه بنُ وهب، أخو بني عبد الدار أنَّ رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرَّقهم بين أصحابه، وقال: «**استوصُوا بالأسارى خيرًا**»، قال: وكان أبو عزيز بن عُمير بن هاشم، أخو مصعب بن عُمير لأبيه وأمه في الأسارى.

قال: فقال أبوعزيز، مَرَّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال شُد يديك به فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك! وكنتُ في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصُّوني بالخبز، وأكلوا التمر؛ لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، قال: فأستحيي فأردها على أحدهم فيردها عليَّ مايمسها.

قال ابن هشام: وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث، فلما قال أخوه مصعب بن عمير لأبي اليسر، وهو الذي أسره ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتك بي، فقال مصعب: إنه أخي دونك، فسألت أمه عن أغلى ما فدي به قرشي، فقيل أربعة آلاف درهم فبعثت بأربعة آلاف درهم ففدته بها[2].

في هذه الأخبار أمثله رائعة من قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم، ووضوح معالم التوحيد عندهم.

فقد كان أبو بكر رضي الله عنه على استعداد لمبارزة ابنه عبد الرحمن، وقد عزم على ذلك لولا أن منعه رسول الله ﷺ.

وأقدم أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه على قتل أبيه كما أقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة.

---

(٦) مغازي الواقدي: ١/ ٩٢. وذكره الحافظ ابن حجر، وفيه أنه قال لعمر: ولو قتلته لكنت على الحق وكان على الباطل، فأعجبه قوله، الإصابة: ٢/ ٤٥، رقم: ٣٢٦٨.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٣٦، ٣٣٧.

وأقـدم عليٌّ بن أبي طالـب رضي الله عنه على قـتل ابـن عـمـه العـاص بن سـعـيـد بن العاص، وهو يلتقي مع علي بجدهما عبد مناف بن قصي.

وأخيرًا كـان مـن مـصـعب بن عـمـيـر رضي الله عنه ذلك الموقف الجليل حينما أظهر البـراءة من أخـيـه في النسب أبي عـزيز، وأثبت الولاء لأخـيـه في الدين ذلك الـرجل الأنصاري.

وهذه الأعمـال الجليلة تُعد أمثلة حية لتطبيق مبدأ الولاء للمؤمنين وإن كـانوا أباعد لا تربطهم أي رابطة من النسب أو الوطن أو غـيـر ذلك، والبراء من الكافـرين، وإن كـانوا من الأقارب الأدنين.

ومبدأ الولاء والبراء يعتبر من أصول التوحيد، وهو من التكاليف التي لا يطبقها عن طيب نفس إلا أقوياء الإيمان.

*****

عدد المقاتلين ونهاية المعركة

أخرج الإمام البخاري بإسناده من عدة طرق عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: حدثني أصحاب محمد ﷺ ممن شهد بدراً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر؛ بضعة عشر وثلاثمائة، قال البراء: لا والله ما جاوز معه النهر إلا مؤمن[1].

وجاء تحديد عددهم في رواية الإمام أحمد بثلاثة عشر وثلاثمائة[2]، وقال الحافظ ابن حجر، وهذا هو المشهور عند ابن إسحاق وجماعة من أهل المغازي[3].

وجاء في رواية للإمام مسلم أن عددهم تسعة عشر وثلاثمائة[4].

وحمل ذلك الحافظ ابن حجر على احتمال أن يكون ضُمَّ إليهم في العدد من استُصغر ولم يؤذن له في القتال؛ كالبراء وابن عمر وأنس، واستشهد على ذلك بما ذكره عن الإمام أحمد بسند صحيح عن أنس أنه سئل: هل شهدت بدراً؟ فقال: وأين أغيب عن بدر؟ قال: وكأنه كان حينئذ في خدمة النبي ﷺ[5].

أما عدد المشركين فقد سبق في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف»[6].

هذا وإن أهمية معركة بدر وتميزها ليس في كون المؤمنين قابلوا جيشًا يبلغ ثلاثة أضعافهم، فإنهم قد قابلوا بعد ذلك أضعافهم بأكثر من ذلك، ولكن هذا التميز يبرز لكون معركة بدر هي المعركة الأولى التي واجه فيها المسلمون أعداءهم بهذا العدد القليل.

وهنا يبرز سؤال مهم، وهو لماذا لم يطلب النبي ﷺ من المدينة مدداً؛ حيث إنه لم يخرج لقتال، فلم يخرج معه العدد الكافي لمواجهة جيش الكفار، والكفار لم يقصدوا

---

(١) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٢٩٠، رقم: ٣٩٥٧- ٣٩٥٩.

(٢) الفتح الرباني: ٢١/ ٤٢.

(٣) فتح الباري: ٧/ ٢٩١.

(٤) صحيح مسلم، الجهاد رقم: ١٧٦٣، ص: ١٣٨٤.

(٥) فتح الباري: ٧/ ٢٩٢.

(٦) صحيح مسلم: الجهاد رقم: ١٧٦٣، ص: ١٣٨٤.

المدينة، وإنما قصدوا بدراً؛ ليفاخروا العرب باستعدادهم الحربي الكبير، فكان بإمكان النبي ﷺ أن ينتظر في مكان بعيد عن متناول الكفار حتى يأتيه المدد من المدينة، فما الحكمة من عزمه ﷺ على القتال بذلك الجيش المحدود؟

لا شك أن في ذلك حكَمًا عظيمة، لعل منها أن تحصل العبرة العظيمة للمسلمين وجميع أعدائهم من إقدام بعض المسلمين على جيش كبير قد أخذ أفراده كامل استعدادهم للحرب، ثم انتصار المسلمين ذلك الانتصار المؤزر الذي لفت الأنظار، وأوقع الرعب في قلوب الكفار كما رفع من معنوية المسلمين وجرأهم على قتال أعدائهم وإن كانوا أضعافهم.

ولعل من الحكَم في ذلك أن يفهم الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم أن العبرة في القتال ليست بالكثرة وإنما بتحقيق عوامل النصر التي أهمها التوكل على الله تعالى واستمداد النصر منه والاستقامة على الدين.

أما نهاية المعركة فقد كانت لصالح المسلمين؛ حيث نصر الله تعالى رسوله ﷺ وأولياءه المؤمنين نصراً مؤزراً.

ولم يستشهد من المسلمين إلا أربعة عشر؛ ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، ولم يؤسر من المسلمين أحد، وقد ذكر ابن إسحاق أسماء الشهداء[1].

أما المشركون فقد قتل منهم سبعون وأسر سبعون، وقد ذكر ابن إسحاق وابن هشام أسماء أكثرهم[2].

*****

(١) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٢٧- ٤٢٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٢٩- ٤٤٥.

سحب صناديد قريش
إلى القليب وما في ذلك من عبر

أخرج الإمام أبو عبد الله البخاري من حديث قتادة قال: «ذكر لنا أنس بن مالك عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقُذفوا في طويٍّ من أطواء بدر[1] خبيث مُخْبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشدَّ عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلقُ إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الرَّكيِّ[2]، فجعل يُناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «**يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا**».

قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسُ محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**».

قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخًا وتصغيرًا ونقْمة وحسرة وندمًا[3].

وأخرجه أبو عبد الله الحاكم من حديث عائشة - رضي الله عنها - وذكر نحوه باختصار، وجاء في آخره: فلما أمر بهم فسُحبوا عُرف في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية وأبوه يسحب إلى القليب، فقال له رسول الله ﷺ: «**يا أبا حذيفة والله لكأنه ساءك ما كان في أبيك**»، فقال: والله يا رسول الله ما شككت في الله وفي رسول الله، ولكن إن كان حليمًا سديدًا ذا رأي، فكنت أرجو ألا يموت حتى يهديه الله عز وجل إلى الإسلام، فلما رأيت أن قد فات ذلك ووقع حيث وقع أحزنني ذلك، قال: فدعا له رسول الله ﷺ وآله بخير.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وأقره الذهبي[4].

---

(١) أي: في بئر من آبارها.
(٢) أي: على طرف البئر.
(٣) صحيح البخاري، المغازي: ٧/ ٣٠١، رقم: ٣٩٧٦.
(٤) المستدرك: ٣/ ٢٢٤.

في هذا الخبر عبرة للمعتبرين؛ حيث سقط هؤلاء السادة الزعماء صرعى يوم بدر، وواجهوا ذلك المصير السيئ في الدنيا التي طالما حلموا فيها بالشرف الرفيع، مع ما ينتظرهم في الآخرة من العذاب الأليم الخالد.

لقد كانت سعادة الدنيا والآخرة بأيديهم، ولو فكروا في دعوة النبي ﷺ بعقول متجردة من الهوى، ولكن الهوى الجامح المهيمن على أفكارهم قد قادهم إلى الهلاك في الدنيا والآخرة، فخسروا الدنيا التي سخَّروا عقولهم وأجسامهم لعمارتها، وخسروا الآخرة التي لم يكونوا يحسبون لها حسابًا.

وموقف إسلامي لأبي حذيفة بن عتبة رضي الله عنه الذي تغير وجهه كراهية لما رأى أباه يسحب إلى القليب، حزنًا على موته كافرًا وحرمانه من الهداية، مع ما كان يتمتع به من عقل راجح ورأي سديد، ولم يكن حزنه لمجرد أنه فقد أباه، ولهذا المقصد النبيل الذي أثار حزن أبي حذيفة دعا له رسول الله ﷺ بخير.

*****

مثل أعلى في الرقي الأخلاقي
(إكـــرام الأســـرى)

أخرج الإمام الطبراني من حديث أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير قال: كنت في الأسرى يوم بدر، فقال رسول ﷺ: «**استوصوا بالأساري خيرًا**»، وكنت في نفر من الأنصار، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني البُرَّ؛ لوصية رسول الله ﷺ.

ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن[1].

وأخرج الواقدي من حديث الزُّهري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالأسرى خيرًا**»، فقال أبو العاص بن الربيع: كنت في رهط من الأنصار -اجزاهم الله خيرًا-، كنا إذا تعشينا أو تغدينا آثروني بالخبز وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل والتمر زادهم، حتى إن الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إليَّ... وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثل ذلك ويزيد: وكانوا يحملوننا ويمشون[2].

في هذين الخبرين مثل رفيع في المعاملة الكريمة من رسول الله ﷺ حتى مع الأعداء، وشاهدٌ على سمو الإسلام فى المجال الأخلاقي؛ حيث ظفر أعداء الإسلام من معاملة المسلمين بأعلى درجات مكارم الأخلاق، التي تتمثل في خلق الإيثار، فالصحابة رضي الله عنهم يأكلون الطعام الذي يعد في نظرهم من الدرجة الثانية؛ لكثرته، ويؤثرون الأسارى بالطعام الذي يعد من الدرجة الأولى؛ لندرته، ولو أنهم اقتصروا على مساواة الأسارى بأنفسهم لكانوا قد بلغوا الكمال في العدالة، ووصلوا إلى مستويات عليا في تمثيل مكارم الأخلاق، ولم تتوجه إليهم أي ملامة من أهل العقل الحصيف والرأي السديد، فكيف بهم وقد جاوزوا مرحلة المساواة إلى مرحلة الإيثار على النفس؟!

لاشك أنهم بذلك يكونون قد بلغوا القمة العليا في الرقي الأخلاقي.

إن هذا الخبر يعطينا صورة رائعة للمقدرة الفائقة عند المسلمين الصادقين على الجمع بين القوة الخارقة في الحرب، والتمثيل العالي لمكارم الأخلاق حتى مع من كانوا قبل

(١) مجمع الزوائد: ٦/ ٨٦.
(٢) مغازي الواقدي: ١/ ١١٩.

أيام قلائل يقابلون المسلمين في الميدان، مع تصور أن الأعداء لو ظفروا بهم لمزقوهم شر ممزَّق.

إن شعور المسلم القوي بعداوة الأعداء وتطبيقه الحي لمبدأ البراء من الكفار يجعل من العجيب المدهش أن يصل هذا المسلم في معاملته للأعداء الذين هم تحت ملكه وتصرفه إلى حد الإيثار على النفس بمنافع الحياة الدنيا.

وإن الذي يواجه مقاتلين يستميتون في القتال دفاعًا عن قضيتهم، لا ينتظر من هؤلاء المقاتلين الذين خطفوا بصره في الميدان وشلُّوا بصيرته إلا الموت البطيء على أيديهم، فكيف به وهو يواجه رجالاً يؤثرونه على أنفسهم؟!

إنه لمن المستغرب المحيِّر للعقلاء العاديين أن يُقدم أناس على قتل أقاربهم الأدنين في الميدان، ثم يؤثروا الأباعد عنهم بمنافع الدنيا وهم يملكون قتلهم وما دون ذلك من الإيذاء.

فما الذي حملهم على هذا الأمر الذي ظاهره التناقض؟! إنه طاعة الله تعالى وابتغاء رضوانه في الحاليْن معا، فهو الذي أمرهم ببذل الجهد في القتال في سبيله، وأن لا تأخذهم به لومة لائم، وهو الذي أمرهم بأن يصلوا إلى القمة في الرقي الأخلاقي حتى مع أعدائهم.

*****

موقفا رحمة وحزم من رسول الله ﷺ
(خبر أبي عزة الجمحي)

أخرج الواقدي من حديث الزهري، عن سعيد بن المسيب، قال: أمَّن رسول الله ﷺ من الأسرى يوم بدر أبا عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي، وكان شاعراً، فأعتقه رسول الله ﷺ، وقال: لي خمس بنات ليس لهن شيءٌ فتصدق بي عليهن يا محمد، ففعل رسول الله ﷺ، وقال أبو عزة: أعطيك موثقًا لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبدًا فأرسله رسول الله ﷺ.

فلما خرجت قريش إلى أحد جاءه صفوان بن أمية، فقال: اخرج معنا! فقال: إني قد أعطيت محمدًا موثقًا ألا أقاتله ولا أكثر عليه أبدًا، وقد منَّ عليَّ ولم يمنَّ على غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء، فضمن صفوان أن يجعل بناته مع بناته إن قُتل، وإن عاش أعطاه مالاً كثيراً لا يأكله عياله، فخرج أبو عزة يدعو العرب ويحشرها، ثم خرج مع قريش يوم أحد فأُسر ولم يؤسر غيره من قريش، فقال: يا محمد، إنما خرجت مكرهًا، ولي بنات فامنَّ عليَّ! فقال رسول الله ﷺ: «**أين ما أعطيتني من العهد والميثاق؟ لا والله، لا تمسح عارضيك بمكة تقول: سخرت بمحمد مرَّتين!**».

وأخرج من حديث الزُّهري، عن سعيد بن المُسيَّب، قال: قال:

النبي ﷺ: «**إنَّ المؤمن لا يُلْدغ من جُحْر مرَّتين، يا عاصم بن ثابت، قدِّمْه فاضرب عنقه!**» فقدَّمه عاصم فضرب عنقه[1].

في هذا الخبر بيان أن النبي ﷺ وقف موقف رحمة من أبي عزة الجمحي لما ذكر فقره وما لديه من البنات اللاتى يعولهن، فأطلقه ﷺ بغير فداء وذلك يوم بدر، ولكنه لم يف لرسول الله ﷺ بما عاهده عليه من لزوم السلم وعدم إثارة الحرب ضده، فوقع أسيراً في معركة أحد، ومع ما سلف منه من خيانة العهد فإنه حاول أن يستدر عطف النبي ﷺ لعله يمنُّ عليه ولكنه ﷺ كان حازمًا لا يغدر به الخادعون، فأمر عاصم بن ثابت بضرب عنقه.

ولقد قرر النبي ﷺ بهذا للقادة من بعده لزوم المحافظة على عزة الإسلام ودولته، والحذر من الوقوع في خداع المخادعين؛ لأن الأمر ليس قضايا فردية وإنما هو قضية الأمة، فإذا وقع القائد في خداع الأعداء تضرر من ذلك جيشه وأمته.

(١) مغازي الواقدي: ١/ ١١٠، ١١١.

موقف رحمة وعدالة من رسول الله ﷺ

قال الواقدي في بيان أحداث غزوة بدر:

ولما أُسر سهيل بن عمرو، قال عمر رضي الله عنه :يا رسول الله، انزعْ ثنيتيه! يُدلَع لسانُه فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا! فقال رسول الله ﷺ: «**لا أُمثِّل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيًا، ولعله يقوم مقامًا لا تكرهه**»، فقام سهيل بن عمرو حين جاءه وفاة النبي ﷺ بخطبة أبي بكر رضي الله عنه بمكة - كأنه كان يسمعها - قال عمر حين بلغه كلام سهيل: أشهد إنك لرسول الله! يريد حيث قال النبي ﷺ: «**لعله يقوم مقامًا لا تكرهه**»[1].

وهكذا أبى رسول الله ﷺ أن ينزع ثنيتي سهيل بن عمرو، مع أن مقصد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن التمثيل به وإنما كان مقصدًا دعويا، وذلك من أجل ألا يقوم خطيبًا ضد دعوة الإسلام، وقد كان سهيل خطيبًا مصقعًا له تأثير على قومه، وهذا موقف رحمة وعدالة من رسول الله ﷺ.

وفي قوله ﷺ: «**لعلَّه يقوم مقامًا لا تكرهه**»، معجزة نبوية ظاهرة؛ حيث تحقق ما رجاه ﷺ، وذلك أنه أسلم يوم فتح مكة وحسن إسلامه، فلما توفي رسول الله ﷺ كاد بعض أهل مكة أن يرتدوا عن الإسلام وأظهروا التمرد على دولة الإسلام، فقام فيهم خطيبًا، فثبَّت المترددين وهدد المتمردين، وما روي من قوله في ذلك: «يا معشر قريش لا تكونوا آخر الناس إسلامًا وأولهم ردة، من رابَنا ضربنا عنقه».

ولما بلغ عمر موقفه هذا تذكر مقالة النبي ﷺ عنه بعد بدر، فقال: «أشهد إنك لرسول الله»؛ يعني حيث أخبر عن أمر مغيب فوقع كما أخبر به.

*****

(١) مغازي الواقدي: ١/ ١٠٧، وفي رواية: لعله يقوم مقامًا تحمده عليه.

مثل من تسامح النبي ﷺ واهتمامه بالدعوة
(فداء أبي العاص بن الربيع)

قال ابن إسحاق: وحدَّثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، عن عائشة، قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسرائهم، بعثت زينبُ بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها[1]، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة، وقال: «**إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا**»، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه، وردُّوا عليها الذي كان لها[2].

في هذا الخبر نجد أن النبي ﷺ منَّ على صهره أبي العاص بن الربيع فأطلقه بغير فداء، وردَّ القلادة التي بعثت بها زوجته زينب بنت النبي ﷺ؛ لفدائه، وهذا الموقف إلى جانب ما يظهر منه من مظاهر الرحمة والعطف منه ﷺ على ابنته، فهو يحمل في طياته مقصدًا آخر أهم، وهو أنه كان يتألفه للإسلام بذلك؛ لما عرف عنه من العقل السديد والرأي الرشيد، فقد كان النبي ﷺ يثني عليه وهو على شركه بحسن المعاملة.

وبمقابل هذا العطف نجد أن النبي ﷺ قد تشدد مع عمه العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه كما أخرج الإمام البخاري من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه: «أن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، قال: «**والله لا تذرون منه درهمًا**»[3]، وكما أخرج الإمام أحمد من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان الذي أسر العباس بن عبد المطلب أبو اليسر عمرو وهو كعب بن عمرو أحد بني سلمة فقال له رسول الله ﷺ: «**كيف أسرته يا أبا اليسر؟**» قال: لقد أعانني عليه رجل ما رأيته بعد ولا قبل هيئته كذا، هيئته كذا قال: فقال رسول

(١) ذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ زوَّج أبا العاص بن الربيع قبل الإسلام، وأن زينب بقيت في ذمته وهو مشرك؛ لأنه ﷺ لا يستطيع وهو بمكة أن ينفذ الأحكام الشرعية التي تتعلق بالكفار، ثم خرج أبو العاص يوم بدر وأُسر مع من أسر.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٤٧، ٣٤٨، وأخرجه الإمام أحمد من طريق بن إسحاق بهذا الإسناد، وذكر مثله، الفتح الرباني: ١٤/ ١٠٠، ١٠١.

(٣) صحيح البخاري، المغازي، ٧/ ٣٢١. رقم: ٤٠١٨.

الله ﷺ «**لقد أعـانك عليه مـلكٌ كريم**»، وقال للعباس: «**يا عبـاس، افد نفـسك وابن أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن جحدم أحد بني الحارث بن فهر**» قال: فإني كنت مسلمًا قبل ذلك وإنما استكرهوني، قال: «**الله أعلم بشأنك إن يك ما تدَّعي حقًّا فالله يجزيك بذلك فأمـا ظاهر أمرك فقد كان علينا فافد نفسك**»، وقد كان رسول الله ﷺ قد أخذ منه عشرين أوقية ذهب، فقال: يا رسول الله، احسبها لي من فدائي قال: «**لا، ذلك شيء أعطانا الله منك**» قال: فإنه ليس لي مال، قال: «**فأين المال الذي وضعته بمكة حين خرجت عند أم الفضل وليس معكـما غيركما أحد، فقلت: إن أُصبت في سـفري هذا فللفـضل كذا، ولقثم كـذا، ولعبـد الله كذا؟**» قال: فوالذي بعثك بالحق ما علم به أحد من الناس غيري وغيرها وإني أعلم أنك رسول الله، ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: فيه راوٍ ولم يسم وبقية رجاله ثقات[1].

وهذا يعني أن النبي ﷺ لم يراع أبا العاص بن الربيع لمجرد كونه صهره، وإنما كان ذلك لغرض ديني وهو محاولة اجتذابه إلى الإسلام.

وقد عامله النبي ﷺ بمثل ذلك من التسامح كما سيأتي، مما كان سببًا في دخوله في الإسلام رضي الله عنه.

*****

(١) مجمع الزوائد: ٦/ ٨٥، ٨٦.

النصر على الأعداء من نعم الله تعالى

قال محمد بن إسحاق: ثم ارتحل رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه، ومن معه من المسلمين، فقال لهم سلمة بن سلامة - كما حدثني عاصم[1]، بن عُمر بن قتادة، ويزيد بن رومان: ما الذي تهنئوننا به؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صُلعًا كالبُدن المعقَّلة، فنحرناها، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «**أي ابن أخي، أولئك الملأ**»[2].

وأخرجه الواقدي، وقد جاء فيه بعد قوله: «أولئك الملأ»: «**لو رأيتهم لهبتهم، ولو أمروك لأطعتهم، ولو رأيت فعالك مع فعالهم لاحتقرته، وبئس القوم كانوا على ذلك لنبيهم**»، فقال سلمة: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله... ثم ذكر خبرًا آخر، إلى أن قال في حكاية قول النبي ﷺ: «**وأما ما قلت في القوم، فإنك عمدت إلى نعمة من نعم الله تزهدها**»، فاعتذر إلى النبي ﷺ، فقبل منه رسول الله ﷺ معذرته، فكان من علية أصحابه[3].

في هذا الخبر بيان من رسول الله ﷺ بأن التهوين من شأن الأعداء بعد الانتصار عليهم يُعد من الغفلة عن تذكر نعمة الله تعالى؛ وذلك لأن نصر الله تعالى أولياءه المؤمنين من أعظم النعم عليهم، فإنه أعظم بكثير من قوتهم وتدبيرهم.

كما أن الاهتمام ببيان قوة أفراد الجيش والتهوين من شأن الأعداء يبعث على الغرور الذي قد يكون سببًا في الانتكاسة في موطن آخر.

فلذلك وغيره كانت كراهية النبي ﷺ لذلك الكلام الذي صدر من سلمة بن سلامة ابن وقش رضي الله عنه لقد أخبر النبي ﷺ عن زعماء قريش بأنهم علْيةُ القوم، وأن من رآهم هابهم ومن أمروه أطاعهم؛ لما يتمتعون به من قوة الشخصية وإحكام التصرف في الأمور الدنيوية، واجتذاب الناس إليهم ببعض الفعال الحميدة.

---

(١) سقط اسم عاصم من النسخة المطبوعة التي اعتمدتُ عليها، وقد أثبتُّه من الروض الأنف: ٥/ ١٥٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٣٤، وقال ابن هشام: الملأ: الأشراف والرؤساء.

(٣) مغازي الواقدي: ١/ ١١٦.

وإن في إخبار النبي ﷺ عنهم بذلك وصفًا لحجم المعاناة التي كان يواجهها هو وأصحابه في مقاومة هؤلاء الزعماء حينما كانوا تحت سيطرتهم في مكة، فإن مقاومة العدو الذي ينْفر الناس منه؛ لتخبطه واضطرابه، ووقوع الشقاق بين زعمائه، وهبوط هؤلاء الزعماء إلى التخلق بالأثرة والاهتمام بالمنافع الشخصية، ليست كمقاومة العدو الذي أحكم سادتُه أمره فيما يتعلق بالأعراف الاجتماعية والتقاليد المرعية، حتى فرضوا على الآخرين هيبتهم، واستقام الأتباع على طاعتهم.

*****

فرحة المؤمنين وغيظ اليهود والمنافقين

قال محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى:

وقدَّم رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة من «الأثيل»، فجاؤوا يوم الأحد شَدَّ الضُّحى، وفارق عبد الله زيداً بالعقيق، فجعل عبد الله ينادي على راحلته: يا معشر الأنصار، أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين وأسرهم! قُتل ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل، وقتل زمعة بن الأسود، وأمية بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة، قال عاصم بن عَدي: فقمت إليه فنحَّوته، فقلت: أحقًّا ما تقول يا بن رواحة؟ قال: إي والله، وغداً يقدم رسول الله ﷺ - إن شاء الله- ومعه الأسرى مقرنين، ثم اتَّبع دور الأنصار بالعالية - العالية بنو عمرو بن عوف وخطمة ووائل، ومنازلهم بها - فبشرهم داراً داراً، والصبيان يشتدون معه، ويقولون: قُتل أبو جهل الفاسق! حتى انتهوا إلى بني أمية بن زيد.

وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبي ﷺ القصواء يبشر أهل المدينة، فلما جاء المُصلى صاح على راحلته، قُتل عُتبة وشيبة ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل، وأبو البختري، وزمعة بن الأسود، وأمية بن خلف، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة، فجعل الناس لا يُصدقون زيد بن حارثة، ويقولون: ما جاء زيد إلا فلاًّ[1]! حتى غاظ المسلمين ذلك وخافوا، وقدم زيد حين سوَّوا على رقية بنت رسول الله ﷺ التراب بالبقيع.

فقال رجلٌ من المنافقين لأسامة بن زيد: قتل صاحبكم ومن معه، وقال رجل من المنافقين لأبي لبابة بن عبد المنذر: قد تفرق أصحابكم تفرقًا لا يجتمعون منه أبداً، وقد قُتل علية أصحابه وقُتل محمد، هذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب، وجاء فلاًّ، قال أبو لبابة: يكذب الله قولك! وقالت يهود: ما جاء زيد إلا فلاًّ!

---

(١) أي: منهزمًا.

قال أسامة بن زيد: فجئت حتى خلوت بأبي، فقلت: يا أبهْ، أحقٌّ ما تقول؟ قال: إي والله حقٌّ يا بني! فقويت في نفسي، فرجعت إلى ذلك المنافق، فقلت: أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين، ليُقدمنَّك رسول الله ﷺ إذا قدم فليضربن عنقك! فقال: يا أبا محمد، إنما هو شيء سمعتُ الناس يقولونه[1].

وهكذا صور لنا الخبر مقدار فرحة المؤمنين بنصر رسول الله ﷺ وأصحابه في بدر، وما تم في ذلك من قتل زعماء الكفار وأسر بعضهم الذين كانوا يملؤون الأرض سمعة وجبروتا.

وقد شارك في هذه الفرحة صبيان المدينة الذين رفعوا أصواتهم بإعلان فرحتهم بقتل أبي جهل الفاسق.

وفي مقابل ذلك أصابت المنافقين واليهود كآبة شديدة وغيظ خانق؛ مما دفعهم إلى تكذيب ذلك الخبر، وإشاعة انهزام المسلمين، وأن المبشِّرِيْن إنما هما من أوائل المنهزمين.

وهذا هو شعور أعداء الله تعالى دائمًا نحو أي نعمة تساق للمسلمين، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿**إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٠].

لقد كان هذا الخبر مفاجأة كبرى غير متوقعة لأهل المدينة، ولذلك جاء عاصم بن عدي سرًّا يستفسر من عبد الله بن رواحة عن صحة الخبر، وجاء أسامة سرًّا يستفسر من أبيه زيد عن ذلك، لا شكًّا في صدقهما، ولكن من باب احتمال أن يكون الخبر نوعًا من الخداع الحربي الذي يستخدم عادة لكسب المواقف ودرء الأخطار.

*****

(١) مغازي الواقدي: ١/ ١١٤، ١١٥، وأخرجه الحاكم، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه، المستدرك: ٣/ ٢١٧، ٢١٨.

مثل من الشجاعة وقوة الإيمان

أبو رافع يرد على أبي لهب

قال ابن إسحاق: وحدَّثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس عن عكرمة مولى ابن عباس، قال: قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ[1]: كنت غلامًا للعباس بن عبد المطلب وكان[2] الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس، وأسلمت أم الفضل، وأسلمتُ، وكان العباس يهاب قومه، ويكره خلافهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه.

وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وكذلك كانوا صنعوا، لم يتخلف رجلٌ إلا بعث مكانه رجلاً، فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش، كبته الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزًا، قال: وكنت رجلاً ضعيفًا وكنت أعمل الأقداح[3]، أنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها أنحت أقداحي، وعندي أم الفضل جالسةٌ، سرَّنا ما جاءنا من الخبر؛ إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر، حتى جلس على طنب الحجرة فكان ظهرهُ إلى ظهري.

فبينما هو جالسٌ إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب[4] قدم، قال: فقال له أبو لهب: هلم إلي، فعندك لعمري الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيامٌ عليه، فقال: يا بن أخي، أخبرني كيف كان أمر الناس؟

قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وايم الله مع ذلك ما لُمت الناس، لقينا رجالاً بيضًا، على خيل بلق[5]، بين السماء والأرض، والله ما تُليق شيئًا ولا يقوم لها شيء.

---

(١) هو أبو رافع القبطي رضي الله عنه، اختلف في اسمه اختلافًا كثيرًا: الإصابة: ٤/ ٦٨، رقم: ٣٩١.

(٢) في النسخة المطبوعة التي اعتمدت عليها «وكلام»، والصواب ما أثبتُه من الروض الأنف: ٥/ ١٥٦.

(٣) جمع قدح بفتح القاف والدال: آنية تروي الرجلين.

(٤) قال ابن هشام: واسم أبي سفيان المغيرة.

(٥) أي: لونها يجمع بين السواد والبياض.

قال أبو رافع: فرفعتُ طُنُب الحجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة، قال وثاورتُه فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك عليَّ يضربني، وكنت رجلاً ضعيفًا، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربته به ضربة فلَعت[1]، في رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام مولِّيًا ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة[2]، فقتلته[3].

في هذا الخبر موقف لأبي رافع مولى رسول الله ﷺ في الشجاعة وقوة الإيمان، فحينما سمع عن الذين قاتلوا المشركين على الخيل البلق بين السماء والأرض أدرك أنهم الملائكة عليهم السلام، فأعلن ذلك بوضوح غير هياب ولا متردد، مع أنه يعلم أن ذلك يغيظ المشركين الذي كانوا مع المسلمين في حالة حرب، وحينما ضربه أبو لهب على وجهه لم يرض بالضيم، بل هجم عليه على الرغم من كونه ضعيف الجسم.

وموقف لأم الفضل - رضي الله عنها - حينما قامت تنصر أبا رافع مولى زوجها العباس - رضي الله عنهما - فردَّت أبا لهب بغيظه لم ينل من أبي رافع ما يريد.

وفي الخبر مثل من غطرسة الكفار وطغيانهم، فحينما تكلم أبو رافع بمعتقده الذي يراه لم يكن لدى أبي لهب من أسلوب للرد عليه إلا أسلوب العنف والقوة البدنية، وهذا مثل من أمثلة كثيرة تقدم بعضها تدل على خواء الكفار من الحجج العقلية والأدلة البيانية؛ حيث يلجؤون غالبًا إلى أسلوب الكبت والحجر الفكري.

*****

(١) أي: شقَّت.

(٢) هي قرحة معدية كانت العرب تتشاءم منها.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٣٨- ٣٤٠، وذكره الهيثمي من رواية الإمام أحمد، وذكر أنه رواه باختصار، قال: وبعضه مرسل، ورجال غير المرسل ثقات، مجمع الزوائد: ٦/ ٨٨.

تاريخ غزوة بدر

قال ابن إسحاق - رحمه الله تعالى- : فكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان[1] .

وأخرج الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : كانت هزيمة أهل بدر لسبع عشرة مضين يوم الجمعة في شهر رمضان[2] .

يعني من السنة الثانية للهجرة كما ذكرها ابن إسحاق وغيره في حوادث هذه السنة .

*****

(١) سيرة ابن هشام : ٢/ ٣١٠ .

(٢) الفتح الرباني : ٢١/ ٤٢ .

موقف لرسول الله ﷺ في الوفاء

أخرج أبو عبد الله الحاكم من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال: ما منعنا أن نشهد بدراً إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله ﷺ، فأخذتنا كفار قريش، فقالوا: إنكم تريدون محمداً، قلنا: ما نريده إنما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرُنَّ إلى المدينة ولا تقاتلوا مع محمد ﷺ، فلما جاوزناهم أتينا رسول الله ﷺ، فذكرنا له ما قالوا وما قلنا لهم فما ترى؟ قال: «**نستعين الله عليهم ونفي بعهدهم**»، فانطلقنا إلى المدينة، فذاك الذي منعنا أن نشهد بدراً.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه وأقره الذهبي[1].

في هذا الخبر مثل من اهتمام النبي ﷺ بالوفاء بالعهد، والوفاء بالعهد وإن ظهر في بعض صوره مجحفًا بالمسلمين مُفوِّتًا لهم بعض الفرص السانحة فإنه بركة في جهدهم المبذول وإن قل، كما أنه تطبيق لمكارم الأخلاق العالية؛ حيث يرسم لهم صورة صادقة مشرقة أمام الناس، فيكون ذلك سببًا في تقوية الدعوة الإسلامية، وذلك في جذب الناس إلى الدخول في الإسلام.

*****

(١) المستدرك: ٣/ ٢٠١، ٢٠٢.

من أشعار الدعوة والجهاد

(نماذج من أشعار المسلمين في بدر)

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه بعد أبيات له كما ذكر ابن إسحاق:

إن كنت كاذبةَ الذي حدثتني ... فنجوت منْجَى الحارث بن هشام[1]

ترك الأحبَّة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرَّة[2] ولجام

تذر العناجيج الجياد بقفرة ... مرَّ الدَّموك بمُحصد ورجام[3]

ملأتْ به الفرجيْن فارمدَّت به ... وثوى أحبته بشرٍّ مقام[4]

وبنُو أبيه ورهطُه في معرك ... نصر الإلهُ به ذوي الإسلام

طحَنَتْهُم، والله يُنْفذ أمره ... حربٌ يُشبُّ سعيرها بضرام

لولا الإلهُ وجريُها لَتركْنه ... جَزَرَ السباع ودُسْنه بحوامي[5]

من بين مأسور يشد وثاقهُ ... صقرٌ إذا لاقى الأسنة حامي

ومجدَّل لا يستجيب لدعوة ... حتى تزول شوامخُ الأعلام[6]

بالعار والذلِّ المُبيَّن إذ رأى ... بيض السيوف تسُوق كل هُمام

بيدَيْ أغرَّ إذا انتمى لم يُخزه ... نسب القصار سَمَيْدع مقدام[7]

---

(١) إنما ذكر الحارث بن هشام فقط مع أن الذين فروا من المعركة من قريش كثير؛ لكونه من سادتهم وقد أسلم يوم الفتح وحسُن إسلامُه، وكان له بلاء مشكور يوم اليرموك وغيره رضي الله عنه.

(٢) أي: فرس سريع الجري.

(٣) العناجيج: الخيل النجيبة، والدَّموك: البكرة التي يستقى بها من البئر، والمُحْصد: الحبل الذي يربط به الدلو، والرجام: الحجر الذي يربط بالدلو؛ ليثقله حتى يسرع بالنزول، والمعنى: أن الفرس التي نجا عليها الحارث أسرع من ذلك.

(٤) الفرجين: ما بين يدي الفرس ورجليها، وارمدَّت: أي أسرعت.

(٥) الحامي: جمع حامية، وهي جوانب الحافر.

(٦) المجدل: المطروح على الجدالة وهي الأرض، والشوامخ: الأعالي، والأعلام: الجبال.

(٧) السميدع: السيِّد، وهذه التعليقات مع تعليقات أخرى مستفادة من هامش سيرة ابن هشام، للشيخ الهراس رحمه الله تعالى.

بيض إذا لاقت حـديدًا صـمَّـمتْ كـالبـرق تحت ظلال كل غـمـام

قال ابن إسحاق: وقال حسان أيضًا:

فـمـا نخـشى بحـول الله قـومًـا وإن كـثـروا وأجـمـعت الزحـوف

إذا مـا ألَّبُـوا جـمـعًـا علينا كـفـانا حـدهم ربٌّ رؤوف

سـمـونا يوم بدر بالعـوالي سراعًا ما تُضعضعنا حتوف[1]

فلم تُرَ عـصـبـة في الناس أنكى لمن عـادوا إذا لقـحت كَـشـوف[2]

ولـكـنـا تـوكـلـنـا، وقـلـنـا مـآثرُنا ومـعـقلنا السـيـوف

لقـيناهم بهـا لما سـمـونا ونحن عُـصـابة وهمُ ألوف[3]

قال ابن إسحاق: وقال كعب بن مالك في يوم بدر:

ألا هل أتى غـسـان في نأي دارها وأخـبَـر شيء بالأمـور عليـمـهـا

بأن قـد رمـتنا عن قـسيٍّ عـدواة مَـعـدٌّ مـعًـا جُـهـالهـا وحليـمـهـا

لأنا عـبـدنا الله لم نرج غـيـره رجـاء الجنان إذا أتانا زعـيـمـهـا[4]

نبيٌّ له في قـومـه إرث عـزة وأعـراق صدق هذَّبَتْـهـا أرومـهـا[5]

فـساروا وسـرنا فـالتـقـينا كـأننا أسـود لقـاء لا يُرجَّى كليـمـهـا[6]

ضـربناهُمُ حـتى هوى في مكرِّنا لمنخـر سـواء من لُؤيٍّ عظيـمـهـا

فـولَّوا ودسناهم ببـيض صـوارم سـواءٌ علنيا حلفـهـا وصميـمـهـا[7]

---

(١) الحتوف: جمع حتف وهو الموت.

(٢) أنكى: أي أشد نكاية وإثخانا في العدو، والكشوف بفتح الكاف: الناقة التي يقع عليها الفحل من غير اشتهاء منها.

(٣) هذا محمول على المبالغة؛ لأن جيش قريش ما كان يزيد على الألف.

(٤) أي: ضامنها، وهو النبي ﷺ؛ لأنه ضمن لهم الجنة بالجهاد.

(٥) أرومها: أي أصولها.

(٦) أي: جريحها؛ أي لا يرجى أن يشفى من جراحه.

(٧) أي: من كان من صميم قريش ومن كان حليفًا لهم، والبيض الصوارم: السيوف القاطعة.

قال ابن إسحاق: وقال كعب بن مالك أيضًا:

لعمر أبيكما بابْنَيْ لُؤَيٍّ ... على زَهْو لديكُم وانتخاء
لَمَا حامت فوارسكم ببدر ... ولا صبروا به عند اللقاء[1]
وردناه بنور الله يجلو ... دُجي الظَّلماء عنا والغطاء
رسول الله يقدُمُنا بأمر ... منَ امر الله أُحكمَ بالقضاء
فما ظفرت فوارسكم ببدر ... وما رجعوا إليكم بالسواء
فلا تعجل أبا سفيان وارقب ... جياد الخيل تطلعُ من كداء
بنصر الله روحُ القدس فيها ... وميكالٌ فياطيب الملاء[2][3]

وبعد: فهذه نماذج من أشعار المسلمين التي قالوها بمناسبة انتصارهم المؤزر يوم بدر، والشعر له مكانة عالية عند العرب، فهو يرفع أقوامًا ويخفض آخرين، ويُشعل نار الحروب ويطفئها.

وقد كان النبي ﷺ يحب من شعراء أصحابه أن يغيظوا الأعداء بشعرهم كما ستأتي نماذج لذلك في مواقف لاحقة بإذن الله تعالى.

*****

(١) لما حامت: أي لم تمنع فوارسكم جيشكم.
(٢) أي: ما أطيب الملأ الذين يقودهم جبريل وميكائيل عليهما السلام.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٥٨- ٤٧٠ .

مثل من الصبر الجميل

هجرة زينب بنت رسول الله ﷺ

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه[1]، أو وعَد رسول الله ﷺ ذلك، أن يخلِّي سبيل زينب إليه، أو كان فيما شرط عليه في إطلاقه [يعني لما أُسر يوم بدر]، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ فيُعلم ما هو، إلا أنه لما خرج أبو العاص إلى مكة وخُلي سبيله، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار مكانه، فقال: «**كونا ببطن يَأجَجَ**[2]، **حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتياني بها**»، فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو شَيْعه[3]، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فخرجت تجهَّز.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر قال: حُدِّثت عن زينب أنها قالت: بينا أنا أتجهز بمكة؛ للحوق بأبي لقيتني هند بنت عتبة، فقالت: يا بنت محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ فقلت: ما أردت ذلك، فقالت: أي ابنة عمي، لا تفعلي، إن كانت لك حاجةٌ بمتاع مما يرفُق بك في سفرك، أو بمال تتبلغين به إلى أبيك، فإن عندي حاجتك، فلا تضْطَني مني[4]؛ فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.

قالت: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل، قالت: ولكني خفتها، فأنكرتُ أن أكون أريد ذلك، وتجهزت.

فلما فرغتْ بنتُ رسول الله ﷺ من جهازها قدَّم لها حَمُوها كنانةُ بن الربيع أخو زوجها بعيراً، فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثم خرج بها نهاراً يقود بها، وهي في هودج لها، وتحدَّث بذلك رجالٌ من قريش، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طُوى، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى

---

(١) أي: على صهره أبي العاص بن الربيع، وكان آنذاك ما يزال على كفره وقد أسر ببدر كما سبق ثم أسلم كما سيأتي.

(٢) هو مكان قرب مكة بينه وبين التنعيم ميلان.

(٣) أي: نحوه.

(٤) أي: لا تستحيي مني.

الفهري، فروَّعها هبَّار بالرمح، وهي في هودجها، وكانت المرأة حاملاً -فيما يزعمون- فلما ريعَتْ طرحت ذا بطنها وبرك حموها كنانةُ، ونثر كنانته، ثم قال: والله لا يدنو مني رجلٌ إلا وضعتُ فيه سهمًا، فتكرْكر الناس عنه.

وأتى أبو سفيان في جلة من قريش، فقال: أيها الرجل، كف عنا نبلك حتى نكلمك، فكفَّ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنك لم تُصبْ خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانيةً وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظنُّ الناسُ إذا خرجتَ بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا، أن ذلك عن ذلٍّ أصابنا عن مُصيبتنا التي كانت، وأنَّ ذلك منا ضعف ووَهن، ولعمْري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك من ثُؤْرة[1]، ولكن ارجع بالمرأة، حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدَّث الناس أن قد رددناها فسُلَّها سرًّا وألحقها بأبيها.

قال: ففعل، فأقامت ليالي، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله ﷺ.

ولما انصرف الذين خرجوا إلى زينب لقيتهم هندُ بنت عتبة، فقالت لهم:

أفي السَّلْم أعيارٌ جَفاءً وغلظةً ... وفي الحرب أشباه النساء العَوارك[2]

وقال كنانةُ بن الربيع في أمر زينب، حين دفعها إلى الرجلين:

عجبتُ لهبَّار وأوباش قومه ... يريدون إخفاري ببنت محمد

ولستُ أبالي ما حييتُ عديدهم ... وما استجمعت قبضًا يدي بالمهند[3]

وأخرجه الإمام أبو داود من حديث عائشة -رضي الله عنها- قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثتْ زينب في فداء أبي العاص بمال وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة أدخلتها بها على أبي العاص، قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقة شديدة، وقال: «**إنْ رأيتُم أن تُطْلقوا لها أسيرَها وتردُّوا عليها الذي لها**»، فقالوا: نعم.

ثم ذكر نحو رواية ابن إسحاق مختصراً[4].

---

(١) أي: طلب ثأر وإدراكه.

(٢) الأعيار: جميع عير بفتح العين، وهو الحمار، والعوارك: الحُيَّض، يقال: عركت المرأة إذا حاضت.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤٨ - ٣٥٢.

(٤) سنن أبي داود، رقم ٢٦٩٢، الجهاد: ٣/ ١٤٠.

وهذا موقف عظيم من رسول الله ﷺ، فقد كان هو الحاكم والآمر الناهي، وكان باستطاعته أن يأمر بفك أسره ورد تلك القلادة من غير أن يعرض الأمر لأخذ موافقة الصحابة رضي الله عنهم، ولكن الله -تعالى- اصطفى نبيه ﷺ؛ ليكون ممثلاً للقمة في مكارم الأخلاق؛ حيث إنه القدوة العليا لأمته في تنفيذ شريعة الله تعالى.

وإذا كان هذا السلوك منه وهو نبي معصوم، فكيف بالمسؤولين من البشر العاديين إذا استبدُّوا بالأمر من غير مشورة ولا اعتبار لأصول السياسة الشرعية؟!

في هذا الخبر بيان لما كان يتعرض له الصحابة رضي الله عنهم من الأذى والإرهاب من الكفار، فقد نال ذلك حتى النساء، مع أن العرب كانوا يحترمون النساء ويترفَّعون عن أذيتهن.

لقد تعرضت زينب بنت رسول الله ﷺ لذلك الأذى والإرهاب على يد أولئك السفهاء الجفاة، وإن كل ما يصيب أحد أفراد الأسرة النبوية يُعدُّ إيذاءً لرسول الله ﷺ، فكم تحمَّل من الأذى في نفسه وأسرته!

ولقد كان أولئك الذين خرجوا لصد زينب -رضي الله عنها- جبناء في غاية النذالة؛ حيث أظهروا شجاعتهم في صد امرأة لا حول لها ولا قوة.

ولقد أجادت هند بنت عتبة في وصفهم؛ حيث شبهتهم بالحمير في السلم وبالنساء في الحرب، كما أن لها موقفًا مشكورًا؛ حيث عرضت الخدمة والمال على زينب لما سمعت بعزمها على الهجرة.

وموقف شهامة يذكر لكنانة بن الربيع؛ حيث تحدى أولئك الجبناء أن يقتربوا منه، فتراجعوا، بينما أقدم أحدهم على ترويع امرأة في هودجها.

*****

معجزة نبوية وموقف إيماني

مجيء عمير بن وهب لقتل النبي ﷺ

قال ابن إسحاق: «حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال: جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية بعد مُصاب أهل بدر من قريش في الحجْر - بيسير[1]، وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقوْن منه عناء وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، قال: فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: والله إنْ في العيش بعدهم خير، قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا ديْن عليَّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبَلَهم علةً، ابني أسيرٌ في أيديهم، قال: فاغتنَمها صفوان، وقال: عليَّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم عني شأني وشأنك، قال: أفعل».

ومن هذا المشهد تتكشف لنا بعض معالم أهل الجاهلية من التعصب الأعمى لما هم عليه من الباطل، والدفاع عنه حتى بأنفسهم وأموالهم.

إن وجودهم وكيانهم معلق بهذا الباطل، وحيث إنهم لا يتصورون غير هذه الحياة الدنيا، فإن عقولهم القاصرة تتشبث بهذا الباطل وتستميت في الدفاع عنه.

«قال: ثم أمر عمير بسيفه فشُحذ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوهم؛ إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشِّحًا السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشرٍّ، وهو الذي حرَّش بيننا[2]، وحزرنا للقوم يوم بدر»[3].

وهذه فراسة صادقة من عمر رضي الله عنه وهو الذي اشتُهر بالإصابة في الفراسة، فقد قرأ في وجه الرجل وهو قادم أنه لم يقدم مهتديًا وإنما قدم معتديًا.

---

(١) أي: بعد بدر بقليل.

(٢) أي: أغرى بنا أعداءنا.

(٣) يعني: قدر عددهم.

لقد خرج عمير من مكة إلى المدينة وهو يحمل هذا الهدف السيئ... لقد كان ينوي إطفاء المشعل الوهَّاج الذي أنار الله به جنبات الأرض، وقبل ذلك خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة وهو يريد بسط ذلك النور الساطع في الأرض، فما أبعد ما بين الرحلتين! وما أعظم التباين بين الهدفين!

«قال: ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه، قال: «**أَدْخله عليَّ**»، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبَّبه بها[1]، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ».

وإننا لا نستطيع تجاوز هذا النص حتى نقف عند قول النبي ﷺ: «**أَدخِلهُ عَليَّ**»، على الرغم من كونه من ألدِّ أعدائه وقد جاء متوشحًا سيفه فلم يأمر بتقييده ولا حتى بنزع السلاح منه، وهذا منتهى الجرأة والشجاعة وأعلى درجات اليقين بالله تعالى والتوكل عليه.

كما أنه مما يعجب المتأمل هذه الاحتياطات المؤكدة التي قام بها عمر رضي الله عنه لحماية رسول الله ﷺ.

«قال: فلما رآه رسول الله ﷺ، وعمر آخذ بحمالة سيفه، قال: «**أرسله يا عمر**»؛ يعني أطلقه، ثم قال: «**ادْنُ يا عمير**»، وفي هذا ملاطفة حانية ومعاملة سامية حتى مع الأعداء الذين ظهرت بوادر كيدهم، ومحاولة الغدر منهم، وما ذلك بغريب على صاحب المقام الرفيع والخلق الكريم ﷺ وهو الذي أخذ بمجامع القلوب، وأرغم أعداءه على التواضع له لا بقوة السلطان، وإنما برقة الجنان وعذوبة البيان.

«قال: فدنا، ثم قال: انعَموا صباحًا، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: «**قد أكرمنا الله بتحية خيرٍ من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة**»، فقال: أما والله يا محمد إن كنت بها لَحديثُ عهد».

ولنا وقفة تأمل أمام هذا الرد الكريم من رسول الله ﷺ، فإنه لم يحتمل بروز شعار من شعارات الجاهلية يزاحم شعارًا من شعارات الإسلام، فإن معالم الإسلام الظاهرة

(١) يعني: طوق بها عنقه.

يجب أن تكون بارزة في المجتمع الإسلامي، وأن يقوم المسلمون بالنكير على معالم الجاهلية حتى يقضوا عليها؛ لئلا تصبح عرفا سائدًا في يوم من الأيام، ولقد تجاوز النبي ﷺ عن كثير من أخطاء بعض الوفود الذين لم يُسلموا أو الذين أسلموا حديثًا ما دامت هذه الأخطاء في حدود الالتزام الشخصي، أما أن تصل إلى رفع شعارات الجاهلية فكانت المواجهة والمسارعة إلى تقويم الخطأ وإبراز شعارات الإسلام، ولهذا المقصد بيَّن رسول الله ﷺ لهذا الرجل تحية المسلمين مع أنه لم يدخل في الإسلام بعد، وفي هذا عبرة للمسلمين؛ كي يتمسكوا بهذه التحية الكريمة ولا يضعفوا شخصيتهم بتقليد أعداء الإسلام، فإن الجاهلية هي هي وإن اتسمت بالرقي المادي والهيمنة في الأرض.

قال ابن إسحاق -رحمه الله-: قال -يعني رسول الله ﷺ-: «**فما جاء بك يا عمير؟**» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه[1]، قال: «**فما بال هذا السيف في عنقك؟**» قال: قبحها الله من سيوف! وهل أغنت عنَّا شيئًا؟ قال: «**اصْدقني، ما الذي جئت له؟**» قال: ما جئت إلا لذلكَ.

لقد كان عمير يخفي في نفسه سرًّا خطيرًا، وكان مدفوعًا إلى أمر لا مثيل له في التخريب والتدمير، إنه يريد إطفاء الشعلة الوهاجة التي أنار الله بها ظلمات الأرض، وهو لا يدري إلى تلك الساعة أنه يعيش في ظلام حالك؛ لأنه أعشى البصيرة، مطموس الإدراك، ولأن عقله السليم لا يزال مغمورًا بضلالات الجاهلية التي تحول بينه وبين التفكير السَّويِّ.

قال: قال رسول الله ﷺ: «**بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية في الحجْر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا ديْن عليَّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بن أمية بديْنك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك**».

وهذه معجزة من معجزات النبي ﷺ الكثيرة التي تدل دلالة قاطعة على أنه نبي يتلقى الوحي من الله تعالى؛ إذ إن هذا الأمر كان سرًّا بين صفوان وعمير، وكانا حريصيْن كل الحرص على كتمانه؛ لأن إفشاءه يعني فشل خطتهما التي اتفقا عليها، ولما كان يوقن به عمير تلك الساعة من أن الأمر لا يزال سرًّا وأن صفوان لا يمكن أن يبوح به لأحد؛ لأنه

(١) يعني: ابنه.

أحرص منه على نجاح الخطة فقد سرى في نفسه كلام النبي ﷺ سريان الماء في الأعواد اليابسة فعاد حيًا بعد الموت كما يعود النبات أخضر يهتز بالحياة، فأعلن إسلامه.

قال: قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله، نكذبك بما تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق[1]، فقال رسول الله ﷺ: «**فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرؤوه القرآن، وأطلقوا له أسيره**»، ففعلوا.

وهكذا شرح الله قلب عمير للإسلام ونطق بالشهادتين، وتحوَّل في ثوان معدودات إلى رجل آخر، لقد كان رسول الله ﷺ قبل هذه الثواني أبغض رجل إليه فعاد بعدها أحب رجل إليه على الإطلاق، وكان الإسلام أبغض دين عنده فعاد عنده هو الدين الحق الذي لا يمكن أن يقاس به أي دين آخر، وكانت أوهام الجاهلية تعشش في مخه وتحجب عقله السليم فتبخرت هذه الأوهام وحلت محلها حقائق الإسلام التي تدفع العقل نحو النمو السليم وتنطلق به نحو التفكير في الآفاق العالية.

وفي مقابل ذلك نجد أنه في لحظات أصبح أخًا للمؤمنين بعدما كان قبلها من ألدِّ أعدائهم، واضمحلَّ حالاً من قلوبهم كل ما كان مستكنًا فيها من بغضه وعداوته، وإن كان قبل ذلك قد فعل ما فعل بالمسلمين وهذا يعتبر من عظمة الإسلام ومن مزايا الأخوة الإسلامية.

وفي أمر النبي ﷺ بإطلاق أسيره بتلك السرعة مثلٌ من بساطة الحكم الإسلامي وخلوه من التعقيدات، ولو حصل مثل هذه الواقعة في عصرنا هذا لكان إطلاق الأسير يحتاج إلى معاملة معقدة.

وما أكثر ما يواجه الداخلين في الإسلام اليوم من عقبات وأزمات! قال: ثم قال: يا رسول الله، إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله

(١) زاد الواقدي في روايته «وفرح المسلمون حين هداه الله، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لخنزير كان أحب إلي منه حين طلع، وهو الساعة أحب إلي من بعض ولدي»، مغازي الواقدي: ١/ ١٢٧.

ﷺ، وإلى الإسلام، لعلَّ الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم، كما كنت أوذي أصحابك في دينهم.

وهذا يُعدُّ من السمو نحو الآفاق العالية التي أصبح يتذوقها بعد دخوله في الإسلام، ولقد كان إيمانه قويًا سريع النمو؛ حيث أقدم على المطلب الذي يشكل خطرًا على حياته، فهو سيذهب إلى قومه الذين كان معهم قبل ذلك في السَّراء والضراء، والذي كانوا يؤمِّلون منه أن يقصم ظهور المسلمين، فإذا به يعود إليهم مؤمنًا بالدين الذي يحاربونه والذي ذهب من أجل القضاء عليه، ويجهر بإيمانه ويدعوهم إلى هذا الدين.

قال: فأذن له رسول الله ﷺ، فلحق بمكة، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير ابن وهب يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكبٌ فأخبره عن إسلامه، فحلف ألا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدًا.

وهذا مثلٌ من أمثلة التعصب الأعمى نحو المبادئ الموروثة من غير نظر ولا إعمال للفكر في مدى موافقتها للحق أو مخالفتها إياه، فكان النظر السليم يقتضي من صفوانَ أن يفكر طويلاً في هذه العاقبة التي آل إليها عمير بن وهب؛ ليري ما الذي دفعه إلى الإسلام وهو الذي ذهب للقضاء عليه، ثم يحكم بعقله المجرد من اتباع الهوى.

قال: فلما قدم عمير مكة أقام يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديدًا[1]، فأسلم على يديه ناس كثير[2].

*****

(١) لعل المراد أنه كان يجهر بدعوته وذلك أبلغ الأذى الذي يوجّه لقريش آنذاك لقرب عهدهم بمصاب بدر.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٥٨- ٣٦٢، وذكر هذا الخبر الحافظ ابن حجر في ترجمة عمير بن وهب من خبر موسى بن عقبة عن الزهري، وقال: وهكذا ذكره أبو الأسود عن عروة مرسلاً، قال: وجاء من وجه آخر موصولاً أخرجه ابن منده من طريق أبي الأزهر عن عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجوني عن أنس أو غيره، وقال ابن منده: غريب لا نعرفه عن أبي عمران إلا من هذا الوجه.
قال الحافظ: وأخرجه الطبراني من طريق محمد بن سهل بن عسكر عن عبد الرزاق بسنده، فقال: لا أعلمه إلا عن أنس بن مالك: الإصابة: ٣/ ٣٦، ٣٧، رقم: ٦٠٦٠.

غزوة بني سُليم بالكدر

قال ابن إسحاق: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة [يعني من غزوة بدر]، لم يقُم بها سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنبي سليم، قال: فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر، فأقام عليه ثلاث ليال، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً[1].

والموقف الجليل في هذه الغزوة هو في خروج النبي ﷺ للجهاد ولم يمض على إقامته بعد بدر غير سبع ليال، مع أنه كان باستطاعته أن يرسل سرية تنوب عنه، وهذا مثل من أمثلة كثيرة تدل على اهتمام النبي ﷺ الكبير بالجهاد، وأنه كان يقصد دفع أمته بكل طاقتهم نحو ذلك.

*****

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٩٢.

موقف إيماني فدائي
سالم بن عمير وقتل أبي عفك

قال محمد بن عمر الواقدي -رحمه الله تعالى-: حدثنا سعيد بن محمد، عن عُمارة بن غزية، وحدثناه أبو مصعب إسماعيل بن مصعب بن إسماعيل بن زيد بن ثابت، عن أشياخه، قالا: إن شيخًا من بني عمرو بن عوف يقال له أبو عفك، وكان شيخًا كبيرًا، قد بلغ عشرين ومائة سنة حين قدم النبي ﷺ المدينة، كان يُحرِّض على عداوة النبي ﷺ، ولم يدخل في الإسلام.

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى بدرٍ رجع وقد ظفَّره الله بما ظفره، فحسده وبغى، فقال:

قد عشتُ حينًا وما إن أرى ... من الناس دارًا ولا مجْمعًا
أجمَّ عقولاً وآتى إلى ... مُنيب سراعًا إذا ما دَعا[1]
فسلَّبهم أمرَهم راكبٌ ... حرام حلال لشتَّى معا[2]
فلو كان بالمُلك صدَّقتُمُ ... وبالنصر تابعتُم تُبَّعا

فقال سالم بن عُمير، وهو أحد البكائين من بني النجار[3]: عليَّ نذرٌ أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه، فأمهل فطلب له غرَّة، حتى كانت ليلةٌ صائفةٌ، فنام أبو عفك بالفناء في الصيف في بني عمرو بن عوف، فأقبل سالم بن عمير، فوضع السيف على كبده حتى خشَّ في الفراش، وصاح عدو الله، فثاب إليه أناس ممن هم على قوله، فأدخلوه منزله وقبروه، وقالوا: من قتله؟ والله لو نعلم من قتله لقتلناه به! فقالت النَّهدية في ذلك -وكانت مسلمة- هذه الأبيات:

---

(١) جاء في رواية ابن إسحاق بعد هذا البيت قوله:

منَ أولاد قيلة في جمعهم ... يهدّ الجبال ولم يخضعا

وأولاد قيلة هم الأوس والخزرج نسبة إلى أمهم قيلة.

(٢) يقصد رسول الله ﷺ، وهو بذلك يحرضهم على الكفر به.

(٣) البكاؤون: هم الذين بكوا لما لم يجدوا ما يركبون عليه إلى غزوة تبوك، ولم يجد رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه.

تُكذِّبُ دين الله والمرء أحـــمـــدَا لعمرُ الذي أمناك[1] إذ بئس ما يُمني

حـبـــاك حنيفٌ آخـــر الليل طعنةً أبا عـفك خـذها على كـبـر السن

فـــإني وإن أعلم بقـــاتلك الذي أباتك حلس الليل من إنس أو جنِّي

فحدثني معن بن عمر قال: أخبرني ابن رقيش قال: قُتل أبو عفك في شوال على رأس عشرين شهراً[2].

فهذا موقف فدائي من سالم بن عمير النجاري رضي الله عنه أراد به عزة الإسلام والمسلمين، والانتقام من ذلك الحاقد الباغي أبي عفك الذي أراد أن يفرق شمل المسلمين، وأن يصدَّ عن سبيل الله تعالى.

ولما كانت الدعوة الإسلامية فَتيَّة في المدينة، وما يزال المسلمون يعانون من هجمات اليهود والمنافقين المخذِّلة المنفرة، كان لا بد من تلقين أولئك الذين يثيرون الناس بأشعارهم ضد الإسلام دروساً بليغة رادعة لكل من تُسوِّل له نفسه أن يرخي لها العنان؛ كي تقول ما يمليه عليها الهوى المنحرف والحقد الأسود الدفين.

ولقد كان الشعر له منزلة كبيرة عند العرب، وكانوا يستخدمونه في إثارة الحروب وإسقاط الزعامات القبلية أو تثبيتها.

ولم يكن أبو عفك هذا من النوع المتجرد من الهوى، الذي ينشد الحق ويحكِّمه إذا وجده، بل كان من أصحاب الهوى المنحرف الذي يرى الحق كل الحق هو فيما عليه الآباء والأجداد، وهذا لا يجدي معه الحوار الهادف الذي يخضع لمسلَّمات العقل السليم؛ لأنه على مذهب الشاعر العربي القائل:

ومـــا أنا إلا من غُـــزيَّة إن غـــوت غـــويت وإن ترشـــد غـــزية أرشـــد

بل إن أبا عفك فاق هذا المتعصب للتقاليد القبلية؛ حيث رشدت أكثر قبيلته فلم يرشد وإنما ظل على غوايته، وتجاوز ذلك إلى التحريض على الحق وأهله.

وموقف جليل لتلك المرأة النهدية التي قرَّعت ذلك الباغي الحاقد ووبخته بشعرها الجيد، أنْ كذَّب رسول الله ﷺ وحَرَّض عليه، كما أشادت بسالم بن عمير الذي أراح البلاد والعباد من ذلك الحاقد الحاسد وانتصر لله -تعالى- ولرسوله ﷺ.

(١) أي: منَّاك وخدعك.

(٢) مغازي الواقدي ١/ ١٧٤ - ١٧٥، وأخرجه ابن إسحاق وذكر نحوه - سيرة ابن هشام ٤/ ٤١١.

موقف إيماني فدائي آخر
عمير بن عدي وقتل عصماء بنت مروان

ذكر محمد بن إسحاق -رحمه الله تعالى- حديث الحارث بن الفضيل عن خبر عمير بن عدي الخطمي وما قام به من قتل عصماء بنت مروان التي كانت تعيب الإسلام وأهله بقولها:

أطعتم أتاويَّ من غيركم ... فلا من مُراد ولا مَذحج[1]
تُرجُّونه بعد قتل الرُّؤوس[2] ... كما يُرتجي مرَق المُنضج
ألا أنفٌ يبتغي غرّة ... فيقْطع من أمل المُرتجي[3]

فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: **ألا آخذٌ لي من ابنة مروان؟** فسمع ذلك من قول رسول الله ﷺ عميرُ بن عدي الخطمي، وهو عنده، فلما أمسى من تلك الليلة سرى عليها في بيتها فقتلها، ثم أصبح مع رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني قد قتلتها، فقال: «**نصرت الله ورسولَه يا عُمير**»، فقال: هل عليَّ شيء من شأنها يا رسول الله؟ فقال: «**لا يَنتطحُ فيها عنزان**»[4].

فرجع عُمير إلى قومه، وبنو خطمة يومئذ كثيرٌ موجُهم[5] في شأن بنت مروان، ولها يومئذ بنون خمسة رجال، فلما جاءهم عمير بن عدي من عند رسول الله ﷺ، قال: يا بني خطمة، أنا قتلت ابنة مروان، فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون.

فذلك اليومُ أولُ ما عزَّ الإسلام في دار بني خطمة، وكان يستخفي بإسلامهم فيهم من أسلم، وكان أول من أسلم من بني خطمة عُمير بن عدي، وهو الذي يُدْعَى القارئ، وعبد الله بن أوس، وخزيمة بن ثابت، وأسلم -يوم قُتلت ابنة مروان- رجالٌ من بني خطمة؛ لما رأوا من عزِّ الإسلام.

---

(١) أتاويَّ أي غريب بعيد النسب.
(٢) أي: بعد قتل الأشراف، وذلك في معركة بعاث حيث قتل أكثر سادة القبيلتين الأوس والخزرج.
(٣) أنف: أي حميُّ الأنف، تريد بذلك تحريض قومها على اغتيال النبي ﷺ.
(٤) أي: أمر قتلها هين لا يترتب عليه شيء.
(٥) أي: اضطرابهم.

وقد ذكر ابن إسحاق أن حسان بن ثابت رضي الله عنه أجاب تلك المرأة بقوله:

بـــنُـــو وائـــل وبـــنُـــو واقـــف وخطـمـــــةُ دون بني الخـــــزرج
مـتى مـادَعت سـفـهًـا ويحـهـا بعَـــــوْلَتـــــهـــــا[1] والمنايا تجي
فـــهـــزَّت فـتى مـاجـدًا عـــرقـه كـــــــريم المداخل والمخـــــــرج
فـضـــرَّجـهـــا من نجـيع الدمـاء بعـــد الهـــدوِّ فلم يحـــرج[2][3]

وأخرجه محمد بن عمر الواقدي بنحوه، وزاد:

فالتفت النبي ﷺ إلى من حوله، فقال: «**إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجلٍ نصَر الله ورسولَه بالغيب، فانظروا إلى عُمير بن عدي**»، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه انظروا إلى هذا الأعمى الذي تشدَّد في طاعة الله، فقال: «لا تقل الأعمى، ولكنَّه البصير».

فلما رجع عُمير من عند رسول الله ﷺ وجد بنيها في جماعة يدفنونها، فأقبلوا إليه حين رأوه مُقبلاً من المدينة، فقالوا: يا عمير أنت قتلتها؟ فقال: نعم، فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون، فوالذي نفسي بيده، لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي هذا حتى أموت أو أقتلكم[4].

فهذا السيد الشهم الشجاع عمير بن عدي الذي أفقده الله -تعالى- البصر وأنعم عليه بالبصيرة النافذة، قد ساءه وآلمه وضع تلك المرأة الحاقدة الباغية التي شَرقت بالإسلام وغُصَّت برجاله الغُر الميامن، فتحولت تلك الغصص التي امتلأ منها قلبها رعبًا وحقدًا إلى أبيات من الشعر نفَّثت فيها حقدها، وأمَّلت بذلك أن تصل إلى مقصودها من قتل النبي ﷺ والقضاء على دعوته.

---

(١) أي: بصبحتها.

(٢) أي: لم يأثم وهو يشير إلى قول رسول الله ﷺ «**لا ينتطح فيها عنزان**». وزاد الواقدي بعد هذا البيت:

فأوردك الله برد الجنان جذلان في نعمة المولج

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٤١٢ - ٤١٤.

(٤) مغازي الواقدي: ١/ ١٢٧- ١٧٤، وأشار الحافظ ابن حجر إلى هذا الخبر في ترجمة عمير بن عدي، وقال عنه: هو البصير الذي كان رسول الله ﷺ يزوره في بني واقف، الإصابة: ٣/ ٣٤، رقم: ٦٠٤٥.

ولقد كان من أثر ذلك الشعر على النبي ﷺ أن رغب في الانتقام منها؛ لما يعلمه من أثر لذلك الشعر في تثبيط قومها عن الإسلام، خصوصًا وأن انتشار الإسلام في قومها بني خطمة بطيء، والكفر فيهم قوي، حتى اضطر بعض من أسلم منهم إلى كتمان دينه، فهذا الشعر وأمثاله في مثل ذلك الواقع السيئ يكون له أثر بالغ في الصدِّ عن الإسلام.

فكان أن تصدى لإسكات ذلك الصوت النشاز وقطع عروق دعوة الباطل البطل الشجاع عمير بن عدي الخطمي، فأقدم على قتل تلك المرأة مع ما يكتنف ذلك من خطر بالغ على نفسه؛ حيث إنه فاقد البصر، ولما يحيط بتلك المرأة من رجال يحمونها على رأسهم أبناؤها الخمسة الذين تجرأت بهم وبمن ظل على كفره من قومها على ذلك القول الشنيع الهابط.

ولقد بلغت به شجاعته وقوة إيمانه أن قام بإعلان ما قام به من ذلك وتحدى قومه حينما سألوه عن قتلها بذلك القول القوي البليغ «نعم، فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون، فوالذي نفسي بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي هذا حتى أموت أو أقتلكم».

وهنا نلمس نوعًا من التأييد الإلهي ببث الرعب في قلوب الكفار المنافقين حينما يقفون أمام أقوياء الإيمان، فهؤلاء جماعة من الرجال، وكلهم يملكون السلاح، وهم أبناء الحروب، ورثوها كابرًا عن كابر، ومع ذلك يقفون خاضعين صاغرين أمام تهديد رجل أعمى.

لكنه وإن كان أعمى البصر فإنه يملك الجوهرة الغالية التي يفقدونها جميعًا، ألا وهي الإيمان الصادق واليقين الراسخ، الذي يتوجه حضور القلب مع الله -تعالى- وشعور العبد بأن الله -تعالى- معه بنصره وتأييده ما دام عبده معه بقلبه وقالبه.

ويفوز هذا البطل الشامخ بثناء النبي ﷺ عليه أمام أصحابه، ومن ظفر بثنائه فقد ظفر بحبه، وهل تطمع نفس المؤمن الصادق إلى شيء كما تطمع إلى حب الله -تعالى- وحب رسوله ﷺ؟!

ولقد كان من أثر ما قام به هذا المؤمن المجاهد أن انتشر الإسلام وعزَّ المسلمون في دار قومه بني خطمة بعد عمله الجليل، فأظهر الإسلام من كانوا يخفون إسلامهم، وأسلم رجال كانوا يجاهرون بكفرهم لما رأوا عِزة الإسلام في قومهم.

فكم قدَّم هذا المؤمن القوى للدعوة الإسلامية آنذاك من خدمة ودعم، رضي الله عنه وأرضاه.

ولقد سجل حسان بن ثابت رضي الله عنه الثناء عليه بشعره، في الوقت الذي سفَّه فيه ما قامت به تلك المرأة وقومها من الصدِّ عن الإسلام ومحادَّةَ رسول الله ﷺ.

وهذا موقف يذكر لحسان بن ثابت في ذلك الوقت الذي كان الصراع فيه بين الإسلام والوثنية على أشُدِّه، فرضي الله عنه وأرضاه.

*****

مواقف عالية في الغيرة على المحارم
وإعزاز الدين والبراء من المشركين
«غزوة بني قينقاع»

قال محمد بن عمر الواقدي: غزوة قينقاع يوم السبت للنصف من شوال، على رأس عشرين شهرًا[1]، حاصرهم النبي ﷺ إلى هلال ذي القعدة.

حدثني عبد الله بن جعفر، عن الحارث بن الفضيل، عن ابن كعب القرظي، قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وَادَعَته يهودُ كلها، وكتب بينه وبينها كتابًا، وألحق رسول الله ﷺ كل قوم بحلفائهم، وجعل بينه وبينهم أمانًا، وشرط عليهم شروطًا، فكان فيما شرط: ألا يظاهروا عليه عدوًّا.

فلما أصاب رسول الله ﷺ أصحاب بدر وقدم المدينة، بغَتْ يهود وقطعت ما كان بينها وبين رسول الله ﷺ من العهد، فأرسل رسول الله ﷺ إليهم فجمعهم، ثم قال: يا معشر يهود، أسلِموا، فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله، قبل أن يُوقع الله بكم مثل وقعة قريش.

قالوا: يا محمد، لا يغرنك من لقيت، إنك قهرت قومًا أغمارًا[2]، وإنا والله أصحاب الحرب، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تُقاتل مثلنا[3].

وهذا مثلٌ من أمثلة غدر اليهود، وإهدارهم القيم العليا؛ حيث لم يمض على معاهدتهم رسول الله ﷺ إلا سنة وشهور، كما أن هذا الخبر يبين صفة من صفات اليهود، وهي: اعتدادهم بأنفسهم، ومحاولة رفع مكانتهم مهما كان مقدار ضعفهم، وتحقير الآخرين مهما كان مقدار قوتهم، وهذه من صفات أصحاب النفوس المريضة الذين عمرت قلوبهم برذائل الأخلاق.

ولقد أوردوا أنفسهم بهذا الخلق الدَّنيء المُنبني على مرض القلوب موارد الهلاك، فكانت عاقبتهم: إما الإجلاء والحرمان من الأموال، وإما القتل وسبي النساء والذراري، كما سيأتي.

---

(١) يعني: من الهجرة النبوية.

(٢) أي: جاهلين تنقصهم التجارب الحربية.

(٣) مغازي الواقدي: ١/ ١٧٦.

قال الواقدي: فبينا هم على ما هم عليه من إظهار العداوة ونبذ العهد، جاءت امرأةٌ نزيعةٌ[1] من العرب تحت رجل من الأنصار إلى سوق بني قينقاع فجلست عند صائغ في حُلي لها فجاء رجل من يهود قينقاع فجلس من ورائها ولا تشعُر، فخلَّ درعها إلى ظهرها بشوكة، فلما قامت المرأة بدت عورتها فضحكوا منها، فقام إليه رجلٌ من المسلمين فاتبعه فقتله.

فاجتمعت بنو قينقاع، وتحايشوا فقتلوا الرجل، ونبذوا العهد إلى النبي ﷺ وحاربوا، وتحصنوا في حصنهم، فسار إليهم رسول الله ﷺ فحاصرهم، فكانوا أول من سار إليه رسول الله ﷺ، وأجلى يهود بني قينقاع، وكانوا أول يهود حاربت[2].

وهذا الخبر يبين لنا انحطاط اليهود في الجانب الأخلاقي، وتدني مستواهم في الغيرة على المحارم، مع أنهم كانوا يعيشون بين ظهراني العرب الذين كانوا يهتمون بالأعراض اهتمامًا كبيرًا إلى حدٍّ أنهم يستسهلون سفك الدماء في سبيل المحافظة على الأعراض، فكيف باليهود إذا عاشوا في مجتمع لا تَفرض أعرافه الاجتماعية على أفراده احترام الأعراض؟!

وإن ما قام به ذلك الرجل المسلم من قتل ذلك اليهودي المعتدي على المرأة وعلى أخلاق المجتمع المسلم يُعد مثلاً على الغيرة الإسلامية التي كانت موجودة عند العرب فزادها الإسلام رسوخًا ونظَّمها فيما يتفق مع الأحكام الشرعية الحكيمة.

قال الواقدي: فحدثني محمد بن عبد الله، عن الزهري، عن عروة، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ** ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فسار رسول الله ﷺ بهذه الآية.

قال الواقدي عن شيوخه: قالوا: فحصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة أشد الحصار، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، قالوا: أفننزل وننطلق؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا، إلا على حُكمي!**»، فنزلوا على حُكم رسول الله ﷺ، فأمر بهم فرُبطوا، قال: فكانوا يُكتَّفون كتافًا، واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قُدامة السلمي[3]، قال: فمرَّ بهم ابن أُبي وقال: حلُّوهم! فقال المنذر: أتحلون قومًا ربطهم رسول الله ﷺ؟ والله لا يحلهم رجلٌ إلا ضربتُ عنقه.

---

(١) أي: قد انتقلت من قبيلة إلى أخرى من العرب.

(٢) وأخرج خبر هذه المرأة ابن هشام من حديث عبد الله بن جعفر عن أبي عون - سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٩٧.

(٣) هو المنذر بن قدامة الأوسي الأنصاري من بني غنم بن السَّلم بن مالك بن الأوس، الاستيعاب: ٣/ ٤٤٠.

فوثب ابن أبي إلى النبي ﷺ، فأدخل يده في جنب درع النبي ﷺ من خلفه، فقال: يا محمد، أحسن في مواليَّ! فأقبل عليه النبي ﷺ غضبان، متغيِّر الوجه، فقال: «**ويلك، أرسلني!**» فقال: لا أرسلك حتى تحسن في مواليَّ؛ أربع مئة دارع وثلاث مئة حاسر، منعوني يوم الحدائق ويوم بُعاث من الأحمر والأسود، تُريد أن تحصدهم في غداة واحدة؟ يا محمد، إني امرُؤٌ أخشى الدوائر! قال رسول الله ﷺ: «**خلُّوهم، لعنهم الله ولعنَه معهم**».

فلما تكلَّم ابن أُبي فيهم تركهم رسول الله ﷺ من القتل، وأمر بهم أن يُجْلوا من المدينة، فجاء ابن أُبي بحلفائه معه، وقد أخذوا بالخروج، يريد أن يكلم رسول الله ﷺ أن يُقرَّهم في ديارهم، فيجد على باب النبي ﷺ عُويمَ بن ساعدة[1]؛ فذهب ليدخل فردَّه عويم، وقال: لا تدخل حتى يأذن رسول الله لك، فدفعه ابن أبي، فغلَّظ عليه عُويم حتى جَحش وجهَ ابن أُبي الجدارُ، فسال الدم[2].

ومن هذا الخبر تتبين لنا العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين؛ حيث وقف عبد الله بن أبي مع أولئك اليهود، وتمسك بحلفهم، ولا غرابة في ذلك؛ فهم جميعًا مشتركون في الكفر بالإسلام وعداوة النبي ﷺ.

كما تبين لنا صفة أخرى من صفات المنافقين وهي أنهم كانوا لا يتوقعون انتصار الإسلام في النهاية، بل كانوا يرجون زواله وانكسار شوكة المسلمين؛ ولذلك قال عبد الله بن أبي: إني امرؤ أخشى الدوائر، فقد كان يخشى زوال الإسلام ورجوع العصبية بين الأوس والخزرج كما هي عليه قبل الإسلام، فهو لذلك يريد أن يستبقي حلفاءه من اليهود.

ويكشف لنا هذا الخبر عن حكمة رسول الله ﷺ البالغة؛ حيث عدل عن قتل اليهود الذين نقضوا العهد؛ تفاديًا لحدوث فتنة في مجتمع المؤمنين؛ حيث إن بعض الأنصار

---

(١) هو عويم بن ساعدة الأنصاري الأوسي، من السابقين إلى الإسلام في المدينة، شهد العقبة وبدرًا، الإصابة: ٣/ ٤٥، رقم: ٦١١٤.

(٢) مغازي الواقدي: ١/ ١٧٦- ١٧٩، وأخرج محمد بن إسحاق خبر حصار بني قينقاع وشفاعة ابن أبي وإجلائهم، سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٩٧- ٤٩٩، وقد حسَّن الحافظ إسناده، فتح الباري: ٧/ ٣٣٢، وأخرجه الإمام أبو داود مختصرًا، كتاب الخراج، باب: ٢٢، رقم: ٣٠٠١.

كانوا حديثي عهد بالإسلام ويُخشى أن يؤثر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أُبي؛ لسمعته الكبيرة فيهم، ولذلك لما تقادم العهد بهم، ونقض بنو قريظة العهد أقدم على قتلهم حينما أمِن من حدوث الفتنة في مجتمع المسلمين بسببهم.

وفي مقابل هذه الصورة القاتمة من المنافقين في ولائهم مع اليهود نجد صورة مضيئة لرجل من الأنصار له من حلف بني قينقاع في الجاهلية مثل ما لعبد الله بن أبي، ولكنه تبرأ منهم وقطع علاقته بهم وآثر الله ورسوله والمؤمنين.

يقول ابن إسحاق -رحمه الله-: وحدثني أبي إسحاقُ بن يسار عن عبادة بن الوليد ابن عبادة بن الصامت، قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سلول وقام دونهم.

قال: ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول ﷺ، وكان أحد بني عوف، لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول الله أتولَّى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم.

قال: ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت هذه القصة من المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾، قال: أي كعبد الله بن أبي، وقوله: إني أخشى الدوائر: ﴿**يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾، وذكر الآيات إلى أن قال: وذكر لتَولِّي عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا، وتبرُّئه من بني قينقاع وحلفهم وولايتهم: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ [المائدة: ٥٦][1].

كما أننا نجد في هذا الخبر موقفين كريمين لرجلين من الأنصار؛ أحدهما المنذر بن قدامة السَّلمي الأوسي رضي الله عنه وذلك في مجابهته القوية لعبد الله بن أبي الذي

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٩٦.

أمر بحل كتاف اليهود، فقال المنذر: أتحلُّون قومًا ربطهم رسول الله ﷺ؟! والله لا يحلهم رجل إلا ضربت عنقه.

فهذا الموقف القوي الحازم جعل ابن أُبي يتراجع عن أمره، ويلجأ إلى استصدار الأمر من النبي ﷺ بفكِّ أسرهم، ولا شك أن مجابهة رجل قوي له سيادة في قومه كابن أبي تحتاج إلى شجاعة وقلب قوي، ومن أجل ذلك اختار رسول الله ﷺ المنذر؛ لحراسة الأسرى.

أما الرجل الآخر فهو عويم بن ساعدة الأوسي، وقد كان له موقف مشابه مع عبد الله ابن أبي؛ حيث رده عويم بالقوة لما أراد أن يدخل على رسول الله ﷺ بغير إذن، وكان من أثر ذلك إصابة ابن أُبي بشجة في وجهه حينما دفعه عويم بالقوة.

ولقد كان ابن أبي يُدلُّ في كلا الموقفين -بشرفه الذي ورثه من أيام الجاهلية، فكان يتوقع -لاغتراره بذلك الشرف- أن أحدًا لن يستطيع أن يرد أمره ولا أن يمنعه من بلوغ ما يريد، ولقد باء بالفشل حينما شمَّ رائحة الموت من المنذر بن قدامة، وحينما أهينت كرامته على يد عويم بن ساعدة.

لقد كان عليه أن يدرك -لو كانت له بصيرة- بأن موازين الشرف قد تبدلت في الإسلام، وأن أمر رسول الله ﷺ فوق كل أمر، وطاعته أوجب من طاعة أي إنسان آخر، ولقد أدرك ذلك أولو البصائر من أمثال المنذر بن قدامة وعويم بن ساعدة، فكان منهما هذا الموقف المشرف.

وقال ابن إسحاق في بيان ما نزل في بني قينقاع من الآيات:

فحدثني مولى لآل زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير، أو عكرمة عن ابن عباس، قال: ما نزل هؤلاء الآياتُ إلا فيهم: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا**﴾؛ أي أصحاب بدر من أصحاب رسول الله ﷺ، وقريش: ﴿**فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣][1].

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٩٧.

يعني أن الكفار يرون المسلمين مثليْهم بعد أن التحمت المعركة مع أن عدد المسلمين ثلثهم تقريبًا، فهذه آية عظيمة من نصر الله -تعالى- أولياءه المؤمنين، فليعتبر هؤلاء اليهود بما جرى للمسلمين من انتصارهم المؤزَّر على أعدائهم في بدر مع أن الذين حضروا هم طائفة من المسلمين ولم يخرجوا لقتال، فكيف إذا توجهوا لقتال اليهود؟!

وإذا كان الله -تعالى- قد نصر المؤمنين في بدر بالرعب وبالآيات العظمى فإنه -تعالى- قادر على أن ينصرهم على كل أعدائهم بذلك.

*****

مثل من اهتمام النبي ﷺ بالجهاد

غزوة السويق

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام: حدثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن محمد بن إسحاق المطلبي، قال: ثم غزَا أبو سفيان بن حرب غزوة السَّويق في ذي الحجة[1]، وولي تلك الحجة المشركون من تلك السنة، فكان أبو سفيان -كما حدثني محمد بن جعفر بن الزُّبير، ويزيد بن رومان، ومن لا أتَّهم، عن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان من أعلم الأنصار- حين رجع إلى مكة، ورجع فلُّ قريش من بدر، نذر ألا يمس رأسه ماءٌ من جنابة حتى يغزو محمداً ﷺ، فخرج في مائتي راكب من قريش؛ ليبرَّ بيمينه، فسلك النجدية، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له: ثيب، من المدينة على بريد أو نحوه، ثم خرج من الليل، حتى أتى بني النضير تحت الليل، فأتى حُيي بن أخطب، فضرب عليه بابه، فأبى أن يفتح له بابه وخافه، فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم، وكان سيد بني النضير في زمانه ذلك، وصاحب كنزهم، فاستأذن عليه، فأذن له، فقراه وسقاه، وبطن له من خبر الناس، ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه.

فبعث رجالاً من قُريش إلى المدينة، فأتوا ناحية منها، يقال لها: العُريض، فحرقوا في أصوار[2]، من نخل بها، ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفا له في حرث لهما، فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين.

ونذر بهم الناس فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر، وهو أبو لبابة -فيما قال ابن هشام- حتى بلغ قرقرة الكدْر، ثم انصرف راجعًا، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، وقد رأوا أزواداً من أزواد القوم قد طرحوها في الحرث يتخففون منها؛ للنجاء، فقال المسلمون حين رجع بهم رسول الله ﷺ: يا رسول الله، أتطمع لنا أن تكون غزوة؟ قال: «**نعم**».

---

(١) يعني: من السنة الثانية للهجرة.

(٢) الأصوار: جمع صور، وهو النخل المجتمع المتقارب.

قال ابن هشام: وإنما سُميت غزوة السويق، فيما حدثني أبو عبيدة: أن أكثر ما طرح القوم من أزوادهم السويق، فهجم المسلمون على سويق كثير، فسميت غزوة السويق[1].

وفي هذه الغزوة مواقف منها:

أولاً: شدة اهتمام النبي ﷺ بالجهاد، فما يكاد يطرق المدينة طارق شرٍّ إلا ويكون ﷺ في مقدمة المنتدبين؛ لملاحقة ذلك الطارق، ولقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يظل في أمن وطمأنينة، وأن يرسل سرية في كل أمرٍ يهمه، خاصة أن لديه من الجنود من يفْدونه بأرواحهم وما ملكت أيديهم.

ولكنه ﷺ مشرِّع للأمة، فهو يطمح دائمًا إلى معالي الأمور، والقمم العليا من الأعمال الصالحة؛ لأنه قدوة حسنة للمؤمنين، فإذا رأوه يخرج بنفسه إلى الجهاد في سبيل الله -تعالى- مع مقدرته على أن ينيب عنه من يؤدي المهمة بنجاح، فإنهم يتنافسون على هذا العمل الصالح العالي، وبالتالي فإن الأمة المستقيمة على منهج نبيها ﷺ لن تمر عليها ظروف يقل فيها عدد المجاهدين عن حاجة المسلمين.

وقد أبان النبي ﷺ رغبته الشديدة في الجهاد بقوله الذي أخرجه الإمام البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لَوددت أن أُقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل**»[2].

ثانيًا: قول الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله، أتطمع أن تكون لنا غزوة؟ قال: «**نعم**».

فهذا يعتبر تطبيقًا عمليًّا لما رباهم عليه النبي ﷺ من حب الجهاد والأمل الكبير في ثوابه الجزيل، فحينما رجعوا بدون قتال خافوا ألا تكتب لهم تلك السفرة غزوة في سبيل الله تعالى، فطمأنهم النبي ﷺ على حصول ما يحبون من ذلك.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٤٩٣، وأخرجه الواقدي وذكر نحوه، مغازي الواقدي: ١/ ١٨١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد: ٦/ ١٦، رقم: ٢٧٩٧.

موقف لرسول الله ﷺ في الثبات والشجاعة
غزوة غطفان بذي أمر

قال محمد بن عمر الواقدي رحمه الله تعالى:

وكانت في ربيع الأول، على رأس خمسة وعشرين شهرًا، خرج رسول الله ﷺ يوم الخميس لثنتي عشرة خلت من ربيع[1]، فغاب أحد عشر يومًا.

ثم روى عن عدد من شيوخه أنهم قالوا: بلغ رسول الله ﷺ أن جمعًا من ثعلبة ومُحارب بذي أمر، قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطراف رسول الله ﷺ، جمعهم رجلٌ منهم يقال له: دعثور بن الحارث بن محارب.

فندب رسول الله ﷺ المسلمين، فخرج في أربعمائة رجل وخمسين، ومعهم أفراس، فأخذ على المُنقَّى[2] ثم سلك مضيق الخُبيت[3]، ثم خرج إلى ذي القصَّة[4]، فأصاب رجلاً منهم بذي القصة يقال له: جبار من بني ثعلبة. فقالوا: أين تريد؟ قال: أريد يثرب. قالوا: وما حاجتك بيثرب؟ قال: أردت أن أرتاد لنفسي وأنظر.

قالوا: هل مررت بجمع، أوبلغك خبر لقومك؟ قال: لا، إلا أنه قد بلغني أن دعثور ابن الحارث في أناس من قومه عُزل.

فأدخلوه على رسول الله ﷺ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، وقال: يا محمد، إنهم لن يُلاقوك، إن سمعوا بمسيرك هربوا في رءوس الجبال، وأنا سائرٌ معك ودالُّك على عورتهم. فخرج به النبي ﷺ وضمه إلى بلال، فأخذ به طريقًا أهبطه عليهم من كَثيب، وهربت منه الأعراب فوق الجبال، وقبل ذلك ما قد غيَّبوا سرْحهم في ذُرى الجبال وذراريِّهم، فلم يلاق رسول الله ﷺ أحدًا، إلا أنه ينظر إليهم في رءوس الجبال.

---

(١) يعني: في السنة الثالثة للهجرة.

(٢) المنقى: اسم للأرض التي بين أحد والمدينة، وفاء الوفا: ٢/ ٣٧٩.

(٣) الخبيت: على بريد من المدينة، معجم ما استعجم: ٣٠٦.

(٤) ذو القصة: موضع على بريد من المدينة تلقاء نجد، وفاء الوفا: ٢/ ٣٦٢.

فنزل رسول الله ﷺ ذا أمَرّ، وعسكر معسكرهم فأصابهم مطرٌ كثير، فذهب رسول الله لحاجته فأصابه ذلك المطر فبلَّ ثوبه، وقد جعل رسول الله ﷺ وادي ذي أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه فنشرها؛ لتجفَّ، وألقاها على شجرة، ثم اضطجع تحتها والأعراب ينظرون إلى كل ما يفعل.

فقال الأعراب لدُعثور، وكان سيدها وأشجعها: قد أمكنك محمد، وقد انفرد من أصحابه؛ حيث إن غوَّث بأصحابه لم يُغَث حتى تقتله. فاختار سيفًا من سيوفهم صارمًا، ثم أقبل مشتملاً على السيف حتى قام على رأس النبي ﷺ بالسيف مشهوراً، فقال: يا محمد، من يمنعك مني اليوم؟ قال رسول الله ﷺ: «**الله!**» قال: ودفع جبريل عليه السلام في صدره ووقع السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، وقام به على رأسه فقال: «**من يمنعُك منِّي اليومَ؟**» قال: لا أحد. قال: فأنا أشهد ألا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، والله، لا أكثِّر عليك جمعًا أبدًا! فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه، ثم أدبر، ثم أقبل بوجهه، فقال: أما والله لأنت خير مني. قال رسول الله ﷺ: «**أنَا أحقُّ بذلكَ منكَ**».

فأتى قومه فقالوا: أين ما كنت تقول وقد أمكنك والسيف في يدك؟ قال: والله كان ذلك، ولكني نظرت إلى رجل أبيض طويل، دفع في صدري فوقعت لظهري، فعرفت أنه ملكٌ وشهدت ألا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، والله لا أكثِّر عليه! وجعل يدعو قومه إلى الإسلام، ونزلت هذه الآية فيه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [المائدة: ١١][1].

وكانت غيبة النبي ﷺ إحدى عشرة ليلة، واستخلف النبي ﷺ على المدينة عثمان بن عفان رضي الله عنه[2].

---

(١) والمشهور عند المفسرين أن هذه الآية نزلت حينما أراد بنو النضير أن يفتكوا بالنبي ﷺ، وقيل: إنها نزلت حينما أراد رجل أن يفتك بالنبي ﷺ في غزوة ذات الرقاع، ومعنى الآية ينطبق على الوقائع الثلاث.

(٢) مغازي الواقدي: ١/ ١٩٣- ١٩٦، وأخرجه ابن إسحاق مختصراً، سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٩٥.

وهكذا كان النبي ﷺ في غاية الثبات ورباطة الجأش والسيف مصلت عليه، وقد حمله رجل شجاع، كما كان في غاية التوكل على الله -تعالى- حينما قال له دُعثور: من يمنعك مني؟ فقال: «**الله**»، والنبي ﷺ يعطي بهذا درسًا بليغًا في التوكل على الله -جل وعلا- واستحضار عظمته ومعيته لأوليائه بالنصر والتأييد، وقد استفاد من ذلك أولياء الله -تعالى- على مرِّ الزمن، فمنع الله -سبحانه- عنهم أعداءهم وحماهم حتى من السباع المهلكة، وكانت كرامات منه تعالى لأوليائه المؤمنين الصادقين.

وأدرك ذلك الرجل الذي جاء ليغدر بالنبي ﷺ أنه ممنوع منه، ورأى بعينه الملك الذي جاء يحميه؛ حيث ظهر له بصورة رجل أبيض طويل فدفع في صدره حتى وقع لظهره، فكان ذلك سببًا في استسلامه وإسلامه، وكفه الله -تعالى- بذلك وقومه عن المؤمنين؛ لأنه كان فيهم سيدًا مطاعًا.

كما أن هذا الخبر مثلاً عاليًا من العفو عند المقدرة، فإن النبي ﷺ كان قادرًا على أن يقتل ذلك الرجل بعد أن أخذ سيفه، ولكنه عفا عنه، وكان ذلك من أسباب دخوله في الإسلام، ولقد حاز النبي ﷺ في ذلك غاية الكمال، وذلك في ثباته والسيف مصلت عليه، ثم في عفوه عند المقدرة.

*****

مواقف في الرصد الحربي الدقيق

سرية القَرَدَة[1]

قال محمد بن عمر الواقدي: فيها زيد بن حارثة، وهي أول سرية خرج فيها زيد رضي الله عنه أميراً، وخرج لهلال جمادى الآخرة على رأس سبعة وعشرين شهراً.

حدثني محمد بن الحسن بن أسامة بن زيد، عن أهله، قالوا: كانت قريش قد حذرت طريق الشام أن يسلكوها، وخافوا من رسول الله ﷺ وأصحابه، وكانوا قومًا تجارًا، فقال صفوان بن أمية: إن محمداً وأصحابه قد عوَّروا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعوهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رءوس أموالنا ونحن في دارنا هذه ما لنا بها بقاء، إنما نزلناها على التجارة، إلى الشام في الصيف وإلى أرض الحبشة في الشتاء.

قال له الأسود بن المطلب: فنكِّب عن الساحل، وخذ طريق العراق. قال صفوان: لست بها عارفًا. قال أبو زمعة: فأنا أدلك على أخبر دليل بها يسلكها وهو مُغمض العين -إن شاء الله. قال: من هو؟ قال: فُرات بن حيَّان العَجْليُّ، قد دوَّخها وسلكها. قال صفوان: فذلك والله! فأرسل إلى فُرات، فجاءه فقال: إني أريد الشام وقد عوَّر علينا محمدٌ متجرنا؛ لأن طريق عيراتنا عليه، فأردت طريق العراق. قال فرات: فأنا أسلك بك في طريق العراق، ليس يطؤها أحدٌ من أصحاب محمد، إنما هي أرض نجد وفياف. قال صفوان: فهذه حاجتي، أما الفيافي فنحن شاتون وحاجتنا إلى الماء اليوم قليلة.

فتجهَّز صفوان بن أمية، وأرسل معه أبو زمعة بثلثمائة مثقال ذهب ونُقَر[2] فضة، وبعث معه رجال من قريش ببضائع، وخرج معه عبد الله بن أبي ربيعة وحويطب بن عبد العزَّى في رجال من قريش، وخرج صفوان بمال كثير - نُقَر فضة وآنية فضة وزن ثلاثين ألف درهم - وخرجوا على ذات عرق.

---

(١) القردة: من أرض نجد بين الرَّبذة والغمرة، ناحية ذات عرق، طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٦.

(٢) النقرة: القطعة المذابة من الذهب والفضة.

وقدم المدينة نُعيم بن مسعود الأشجعي، وهو على دين قومه، فنزل على كنانة بن أبي الحُقيق في بني النضير فشرب معه، وشرب معه سليط بن النعمان بن أسلم -ولم تُحرَّم الخمر يومئذ- وهو يأتي بني النضير ويصيب من شرابهم فذكر نعيم خروج صفوان في عيره وما معهم من الأموال، فخرج من ساعته إلى النبي ﷺ فأخبره.

فأرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في مائة راكب، فاعترضوا لها فأصابوا العير، وأفلت أعيان القوم وأسروا رجلاً أو رجلين، وقدموا بالعير على النبي ﷺ فخمَّسها، فكان الخُمُس يومئذ قيمة عشرين ألف درهم، وقسم ما بقي على أهل السرية، وكان في الأسرى فُرات بن حيان، فأُتيَ به، فقيل له: أسلم، إن تسلم نتركك من القتل. فأسلم فتركه من القتل[1].

وأخرج ابن إسحاق خبر هذه السرية دون بعض التفاصيل المذكورة، وذكر في آخر روايته أبياتًا لحسان بن ثابت رضي الله عنه يشيد فيها بجهود الصحابة رضي الله عنهم في حصار المشركين؛ حيث يقول:

دعوا فَلَجات الشام قد حال دونها ... جلادٌ كأفواه المخاض الأوارك[2]

بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم ... وأنصاره حقًّا وأيدي الملائك

إذا سلكَتْ للغور من بطن عالج ... فقولوا لها: ليس الطريق هنالك[3][4]

في هذه السرية مواقف وعبر، فمن ذلك:

أولاً: في الحوار الذي دار بين صفوان بن أمية وبعض زعماء قومه وصف للأثر الكبير الموجع الذي أحدثه ما قام به المسلمون بقيادة النبي ﷺ؛ من ذلك الحصار التجاري المحكم على قوافل الكفار؛ حيث أغلقوا عليهم الطريق الأساسي إلى الشام بما يقومون به من اعتراض قوافلهم، فلجأوا إلى سلوك الطريق الشرقي البعيد المحفوف ببعض

(١) مغازي الواقدي: ١/ ١٩٧.

(٢) أي: دعوا مزارع الشام وخيراته فقد حالت بينكم وبينها حرب ضروس كأفواه الإبل الحوامل التى ألفت أكل شجر الأراك، والمقصود من ذلك تضخيم شأن الحرب التي أثارها المسلمون ضد تجارة أهل مكة.

(٣) يعني: إذا سلكت عير قريش ذلك الطريق لتأمين تجارتهم فلن يظفروا لأن المسلمين قد رصدوا لهم في جميع الطرق ما يعوق سيرهم.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٠٠.

المخـاطر، ولكـن المسلمين تنبَّـهـوا لذلك، فكان بعث هذه السـرية التي أفـزعـتـهم وأوجعتهم.

وهكذا كـان النبي ﷺ خبيـراً دقيق المعرفـة بالوسـائل الحربية التي تُخضع الخصوم وتقضي على عوامل قوتهم، فكانت حربُه موجهة لقريش من السنة الأولى للهجرة في مجال إضعاف مصدرهم الوحيد للقوة والتمكين، ألا وهو المجال التجاري؛ حيث لم يكونوا أهل زراعة ولا صناعة ولا رعي، فإذا انقطع موردهم التجاري الكبير إلى الشام رجعت معيشتهم إلى الكفاف ولم يستطيعوا بعد ذلك أن يمولوا المعارك الكبرى كما صنعوا يوم بدر.

ثانيًا: أن الله -تعالى- ساق نُعيم بن مسعود الأشجعي[1]؛ ليبيت ليلة عند كنانة بن أبي الحقيق أحد زعماء اليهود، ويشاء الله -سبحانه- أن يحضر معهما أحد المسلمين وهو سُليط بن النعمان بن أسلم بحكم الصداقة بينهم، فيجرهم الحديث إلى أن أخبر نُعيم عن عير قريش التجارية التي غيرت مجال سيرها تلك المرة، ولعل هذا التغيير هو الذي لفت نظر نعيم، فأصبح الحديث عن تلك العير ذا بال، ويأخذ الخبر سُليط ويوصله للنبي ﷺ، فيكون على أثره تجهيز تلك السرية.

وهكذا كان حديث الكفار بعضهم مع بعض في مجلس عادي نصراً للمسلين ودحراً للكفار، ولكن ذلك إنما تم ليقظة المسلمين ودقتهم في الرصد الحربي؛ فسليط لم يضع تلك الفرصة، بل سارع إلى إخبار النبي ﷺ بذلك الخبر، وهذا يفيد بأن جميع أفراد المسلمين آنذاك -حتى غير المشهورين منهم- على وعي تام بقضاياهم في السلم والحرب، وكانوا جميعًا جنود استخبارات لدولة الإسلام من غير أن يُكَلفوا بذلك، ومن غير أن يتقاضوا على ذلك أجراً دنيويًا.

فالواحدُ من الصحابة كان يقوم بعمل عدد من الناس في عصرنا الحاضر؛ فهو في السلم طالب علم، مجتهد في أداء الشعائر التعبدية، يشارك في عمارة الأرض بزراعة أو صناعة أو تجارة أو رعي، فإذا دعا داعي الحرب كانوا كلهم مشاركين فيها، إما في وقت واحد إذا لزم الأمر أو بالتناوب، وهو في السلم والحرب رجل استخبارات خبير يقظ حريص على مصلحة أمته ودولته.

---

(١) سيأتي له ذكر في غزوة الخندق حيث أسلم وقام بدور فعال في نصر المسلمين.

ومن هذا المنطلق وجدنا سُليط بن النعمان قد أفاد من مجلس واحد نصراً مؤزراً للمسلمين.

ثم إن هذا الخبر ما كان ليفعل فعله لو كانت قيادة المسلمين متوانية مترددة، أو مشتَّتة الرأي متفرقة الكلمة، لكنه وافق قيادة النبي ﷺ الحازمة الحكيمة المطاعة، فكان تجهيز تلك السرية بتلك السرعة التي أدت إلى كسبٍ لصالح المسلمين.

ثالثًا: موقف لحسان بن ثابت رضي الله عنه فيما قاله في هذه المناسبة من شعر قوي بليغ، كان له أثر بالغ في رفع معنوية المسلمين، وخفض معنوية الكفار وتيئيسهم من العثور على طرق يأمنون فيها على تجارتهم ما دام المسلمون الأبطال الأتقياء قد وقفوا لهم بالمرصاد، مدعومين بقيادة حكيمة حازمة من النبي ﷺ، مؤيدين بالملائكة الأطهار -عليهم السلام- الذين لا تنسب قوة البشر إلى قوتهم، معتمدين -قبل ذلك كله- على خالق الكون ومدبره -جل وعلا- فأين سيذهب أولئك الكفار الأقزام أمام قوة القاهر الجبار -جل وعلا- ثم أمام جنوده من المؤمنين الصادقين والملائكة المقربين؟!

*****

مثلٌ عالٍ من البطولة الفدائية
مقتل كعب بن الأشرف

لما أصيب المشركون في بدر وقُتل عدد من زعمائهم وأسر عدد آخرون أحدث ذلك اضطرابًا وفزعًا لدى سائر الكفار المجاورين لمكة والمدينة، وبدأوا يفكرون بجد ونشاط في وسائل حرب المسلمين ومحاولة القضاء عليهم أو إضعاف قوتهم.

وكان من هؤلاء الكفار الذين بذلوا جهدًا كبيرًا في التأليب على رسول الله ﷺ كعب بن الأشرف اليهودي.

قال ابن إسحاق -رحمه الله تعالى-: وكان من حديث كعب بن الأشرف أنه لما أصيب أصحاب بدر، وقدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة، وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية بشيريْن، بعثهما رسول الله ﷺ إلى من بالمدينة من المسلمين بفتح الله - عز وجل - عليه، وقُتل من قتل من المشركين، كما حدثني عبد الله بن المغيث بن أبي بردة الظفري، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وعاصم بن عمر بن قتادة، وصالح بن أبي أمامة بن سهل، كلٌّ قد حدثني بعض حديثه، قالوا: قال كعب بن الأشرف -وكان رجلاً من طيِّيء، ثم أحد بني نبهان، وكانت أمه من بني النضير - حين بلغه الخبر: أحق هذا؟ أترون محمدًا قتل هؤلاء الذين يسمِّي هذان الرجلان - يعني زيدًا وعبدَ الله بن رواحة- فهؤلاء أشرافُ العرب وملوكُ الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لَبطن الأرض خير من ظهرها.

فلما تيقن عدو الله الخبر، خرج حتى قدم مكة، فنزل على المطلب بن أبي وداعة بن ضُبيرة السهمي، وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فأنزلته وأكرمته، وجعل يحرض على رسول الله ﷺ، ويُنشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش، الذين أصيبوا ببدر، قال:

طَحَنتْ رحى بدر لَمَهْلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع

قُتلَتْ سَراةُ الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا، إن الملوك تُصرَّع

إلى أن قال:

نُبِّئتُ أنَّ الحارث بن هشامهم ... في الناس يبني الصالحات ويجمع

ليزورَ يثرب بالجموع، وإنما ... يحمي على الحسب الكريمُ الأروع

قال ابن إسحاق: ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة فشبَّب[1] بنساء المسلمين حتى آذاهم.

فقال رسول الله ﷺ -كما حدثني عبد الله بن المغيث بن أبي بردة-: «**مَن لي بابن الأشرف؟**»، فقال له محمد بن مسلمة، أخو بني عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله. قال: «**فافعلْ إن قَدرتَ على ذَلك**»، وذكر الحافظ ابن حجر أن في رواية عروة: «**إن كنتَ فاعلاً فلا تعجلْ حتى تشاورَ سعد بن معاذ**»، قال: فشاوره، فقال له: «**توجَّه إليه، واشك إليه الحاجة، وسله أن يسلفكم طعامًا**»[2].

قال ابن إسحاق: فرجع محمد بن مسلمة، فمكث ثلاثًا لا يأكل ولا يشرب إلا ما يُعْلق به نفسه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فدعاه، فقال له: «**لم تركت الطعام والشراب؟**» فقال: يا رسول الله، قلت لك قولاً لا أدري هل أفيَنَّ لك به أم لا؟ فقال: «**إنما عليك الجهدُ**». فقال: يا رسول الله، إنه لا بد لنا من أن نقول[3]. قال: «**قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حلٍّ من ذلك**».

فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة، وسلكان بن سلام بن وَقْش، وهو أبو نائلة، أحد بني عبد الأشهل، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، وعباد بن بشر بن وقش، أحد بني عبد الأشهل، وأبو عبس بن جبر، أحد بني حارثة.

ثم قدَّموا إلى عدو الله كعب بن الأشرف قبل أن يأتوه سلكان بن سلامة أبا نائلة، فجاءه، فتحدث معه ساعة، وتناشدا شعرًا، وكان أبو نائلة يقول الشعر، ثم قال: ويحك يا بن الأشرف! إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني. قال: أفعل، قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاءً من البلاء، عادتْنا به العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنَّا السُّبل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا

(١) أي: تغزل.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٣٣٨.

(٣) يعني: أن نقول فيك وفي الإسلام غير ما نعتقد.

وجهد عيالنا. فقال كعب بن الأشرف: أما والله لقد كنتُ أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول. فقال له سلكان: إني قد أردت أن تبيعنا طعامًا ونرهنك ونُوثق لك وتُحسن في ذلك. فقال: أترهنوني أبناءكم؟ قال: لقد أردت أن تفضحنا، إنَّ معي أصحابًا لي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم، فتبيعهم وتُحسن في ذلك، ونرهنك من الحلقة[1] ما فيه وفاء، وأراد سلكان ألا ينكر السلاح إذا جاءوا بها، قال: إن في الحلقة لوفاء.

جاء في رواية الإمام البخاري أن الذي ذهب إليه وخاطبه هو محمد بن مسلمة، وقال الحافظ ابن حجر في ذلك: وقع في هذه الرواية الصحيحة أن الذي خاطب كعبًا بذلك هو محمد بن مسلمة، والذي عند ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي أنه أبو نائلة، وأومأ الدمياطي إلى ترجيحه، ويحتمل أن يكون كل منهما كلمه في ذلك؛ لأن أبا نائلة أخوه من الرضاعة ومحمد بن مسلمة ابن أخته[2].

قال ابن إسحاق: فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره، وأمرهم أن يأخذوا السلاح، ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: فحدثني ثور بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم، فقال: «**انطلقوا على اسم الله، اللهم أمِّنهم**». ثم رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، وهو في ليلة مقمرة.

وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة، وكان حديث عهد بعُرس، فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها، وقالت: إنك امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة. قال: إنه أبو نائلة، لو وجدني نائما لما أيقظني. فقالت: والله إني لأعرف في صوته الشرَّ. قال: يقول كعب: لو يُدعى الفتى لطعنة لأجاب. فنزل، فتحدث معهم ساعة، وتحدثوا معه، ثم قالوا: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب العجوز، فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم. فخرجوا يتماشون، فمشَوا ساعة، ثم إن أبا نائلة شام يده في فَوْد رأسه[3]، ثم شَم يده، فقال: ما رأيت كالليلة طيبًا أعطر قطُّ. ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن،

(١) يعني: السلاح.
(٢) فتح الباري: ٧/ ٣٣٨.
(٣) يعني: أدخل يده في شعره، وفود الرأس: جانبه.

ثم مشى ساعة، ثم عاد لمثلها، فأخذ بفوْد رأسه، ثم قال: اضربوا عدو الله. فضربوه، فاختلفت عليه أسيافهم، فلم تُغن شيئًا.

قال محمد بن مسلمة: فذكرت مغْولا[1] في سيفي، حين رأيت أسيافنا لا تغني شيئًا، فأخذته، وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا وقد أوقدت عليه نار، قال: فوضعته في ثُنَّته[2] ثم تحاملتُ عليه حتى بلغت عانته فوقع عدو الله، وقد أصيب الحارث بن أوس بن مُعاذ، فجرح في رأسه أو في رجله، أصابه بعضُ أسيافنا.

قال: فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد، ثم على بني قريظة، ثم على بُعاث حتى أسْندنا في حرَّة العُريض وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس، ونَزَفه الدم فوقفنا له ساعة، ثم أتانا يتبع آثارنا قال: فاحتملناه، فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل، وهو قائم يصلي، فسلمنا عليه، فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدو الله، وتفل على جرح صاحبنا، فرجع ورجعنا إلى أهلنا فأصبحنا وقد خاف يهود لوقعتنا بعدو الله، فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه[3].

وقد ذكر ابن إسحاق والواقدي أشعارًا لبعض شعراء الصحابة رضي الله عنهم في الإشادة بما قام به هؤلاء الأبطال.

قال ابن إسحاق: فقال كعب بن مالك:

فغُودر منهم كعبٌ صريعًا ... فذلَّت بعد مصرعه النضير

---

(١) المغول: سيف دقيق له قفا كهيئة السكين.

(٢) الثُّنَّة: ما بين السرة إلى العانة.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٠٢- ٥٠٩، وقد أشار الحافظ ابن حجر إلى هذا الخبر، وحكم على إسناده بأنه حسن «الفتح ٧/ ٣٣٨»، وخبر مقتل كعب بمجمله أخرجه الإمام البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، صحيح البخاري، المغازي، رقم: ٤٠٣٧ «٧/ ٣٣٦»، وأخرجه الحافظ إسحاق بن راهويه في مسنده من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- وذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: ٤/ ٢١٤- ٢١٦، وقال: هذا إسناد حسن متصل، وأخرجه الإمام أحمد مختصرًا من حديث عبد الله بن كعب بن مالك عن عمه، ذكره الحافظ الهيثمي، وقال: ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد: ٦/ ١٩٦.

على الكفَّين ثم وقد علته بأيدينا مشهَّرة ذكور[1]
بأمر محمد إذ دسَّ ليلاً إلى كعب أخا كعب يسير[2]
فما كَرَهُ فأنزله بمكر ومحمودٌ أخو ثقة جسور[3]

وقال حسان بن ثابت يذكر قتل كعب بن الأشرف وقتل سلام بن أبي الحقيق:

لله در عصابة لا قيتَهم يا ابن الحقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسْرُون بالبيض الخفاف إليكم مرَحًا كأسد في عرين مُغرف[4]
حتى أتوكم في محل بلادكم فسقوكم حتفًا ببيض ذُفَّف[5]
مُستنصرين لنصر دين نبيهم مُستصغرين لكل أمر مُجحف[6]

في هذا الخبر مواقف وعبر منها:

أولاً: اهتمام النبي ﷺ بقطع جذور الفساد والإفساد قبل استفحالها، فقد كان خطر كعب بن الأشرف على المسلمين آنذاك عظيمًا؛ لكونه سيِّدًا من سادات اليهود، ولكونه شاعرًا، والشعر له أثره الكبير عند العرب، فكان لابد من القضاء عليه قبل أن ينجح في تأليب قريش والقبائل الأخرى على المسلمين فتكون تضحية المسلمين كبيرة والبلاء عليهم عظيمًا؛ فلذلك انتدب النبي ﷺ محمد بن مسلمة وأصحابه لهذه المهمة.

وهذا الأمر من النبي ﷺ يدل على أن جهاد الكفار لا يقتصر على مواجهتهم في ميدان المعارك، وإنما يتعدى ذلك إلى كل عمل تحصل به النكاية بالأعداء ما لم يكن إثمًا، فإن الأعداء يتمنون الفتك بالبارزين من المسلمين بأي صورة تكون لو قدروا على ذلك، وقد يوفر القضاء على رجل له دوره البارز في حرب المسلمين جهودًا كبيرة وخسائر فادحة يتكبدها المسلمون.

---

(١) مشهرة: أي مرفوعة، وذكور: أي حادة. (٢) يعني: أخاه من الرضاعة وهو أبو نائلة.
(٣) يعني: محمد بن مسلمة.
(٤) يسرون: أي يسيرون ليلاً، والبيض هي السيوف، ومُغرف: أي كثير الشجر.
(٥) أي: بسيوف سريعة القتل. (٦) سيرة ابن هشام ٢/ ٥٠٩، ٥١٠.

وهذا مشروط بالأمن من الفتنة؛ وذلك بأن يكون للمسلمين دولة وقوة؛ بحيث لا يترتب على العمل الفدائي الفتك بالمسلمين، وإفسادٍ في مجتمعهم قد يضعف من مستوى الاستقامة الدينية والدعوة إلى الإسلام.

ثانيًا: ما جرى من محمد بن مسلمة رضي الله عنه من الانصراف عن الطعام والشراب إلا بقدر الضرورة حينما توجه لهذا الأمر.

وهذا مثلٌ مما كان يتمتع به الصحابة رضي الله عنهم من الحساسية المرهفة نحو الشعور بالمسؤولية؛ لقوة إيمانهم بالله -تعالى- وعظيم خشيتهم منه، وهذه الحساسية المرهفة تشغل تفكيرهم وتفتق آذانهم حتى يتعرفوا على السبل الموصلة إلى الغرض المقصود بإنتاجٍ أكثر ومؤنة أيسر، مع وضع الاحتياطات اللازمة للنجاح والبعد عن المخاطر المفسدة للعمل قبل نهايته.

ولما كان هذا الأمر الذي استعد له محمد بن مسلمة رضي الله عنه مما لا يضمن نجاحه؛ لاحتمال أن يذاع السرُّ قبل تنفيذه، الأمر الذي يجعل ابن الأشرف يحتاط لنفسه كثيرًا، وقد يُقتل ابن مسلمة قبل أن ينفذ ما التزم به، وهو لا يهمه إزهاق روحه، إنما يهمه أن ينفذ أمر رسول الله ﷺ، وليكن عليه من الأذى ما يكون... لما كان الأمر كذلك حصل منه ما حصل من التأثر والقلق، وقد بيَّن له رسول الله ﷺ أن عليه أن يبذل جهده في محاولة الوصول إلى الهدف وليس عليه إدراك الهدف؛ لأن الأقدار بيد الله -عز وجل- وحده، ولو فكَّر كل إنسان بنتائج العمل، وساورته الهموم من خوف الإخفاق فيه، وعدم الوصول إلى النتائج المطلوبة لما أقدم على العمل إلا القليل من الناس، وصدق القائل:

وعليَّ أن أسعى وليـ ـس عليَّ إدراك النجاح

وحينما قال: يا رسول الله، إنه لا بد من أن نقول -يعني أن نقول أمرًا مخالفًا للحقيقة؛ لنخدع به الرجل- قال: «**قولُوا ما بدَا لكُم، فأنتم في حلٍّ من ذلك**»، فسُرِّي عن محمد بن مسلمة، وانجلى عنه كثير من الهمِّ الذي كان يساوره؛ إذ إنه كان يعلم أن نجاح مثل هذا الأمر لابد له من الحيلة؛ لكسب ثقة العدو، ثم الإيقاع به بعد ذلك، ولما

كان ذلك في ظاهره يخالف الأخلاق الإسلامية في المعاملة تردد في الإقدام عليه، ثم استأذن رسول الله ﷺ فأذن له وبيَّن أنهم لا يرتكبون إثمًا في ذلك ماداموا في حال حرب، وهذا موافق لقوله ﷺ: «**الحربُ خُدعةٌ**»[1].

وإنما أبيحت مخادعة الأعداء في الحرب مع أنها محرَّمة بين المسلمين؛ لأنها من التمهيد للنكاية بالأعداء، شأنها شأن تتبع غفلات العدو؛ للإيقاع به.

وجاء في صحيح الإمامين البخاري ومسلم من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس الكذَّاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرًا أو يقول خيرًا**»، قالت: ولم أسمعه يُرخِّص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها[2].

وكل هذه الأمور مقيَّدة بحصول المصلحة للمسلمين والخلو من الإثم.

ثالثًا: في هذا الخبر مثل من المقدرة الفائقة على الحفاظ على السرية وذلك في كتمان هذه الخطة مع كثرة مَن في المدينة من اليهود والمنافقين ومع تأخر تنفيذها، وكون النبي ﷺ عرض هذا الأمر في مشهد من الصحابة وجرت فيه مشورة، وهذا دليل على قوة إيمان هؤلاء الصحابة وإخلاصهم لدينهم.

رابعًا: في قول رسول الله ﷺ: «**انطلقُوا على اسْم الله**» تذكير لهم بإخلاص القصد والتجرد لله عز وجل واستصحاب ذكره، ثم دعا لهم بهذه الدعوة الكريمة: «**اللهُم أَعِنْهم**»، ولا شك أن هذا الدعاء الصادر ممن لا ينطق عن الهوى قد زودهم بثقةٍ كبيرة وقوة عالية، فانطلقوا وهم على طمأنينة من نجاح أمرهم.

مع ثقتهم بهذا الدعاء الكريم فإنهم لم يغفلوا الأسباب الموصلة بهم إلى نجاح مقصودهم؛ لأن المسلم مأمورٌ بالجمع بين التوكل على الله -تعالى- وأخذ الأسباب التي شرعها الله سبحانه.

---

(١) صحيح البخاري، الجهاد، رقم: ٣٠٢٧، ٦/ ١٥٧، صحيح مسلم، الجهاد رقم: ١٧٤٠، ص: ١٣٦٢.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الصلح، رقم: ٢٦٩٢، ٥/ ٢٩٩، صحيح مسلم، البر، رقم: ٢٦٠٥، ص٢٠١١.

وهكذا كان هؤلاء الصحابة المغامرون يقومون بتنفيذ أدوار الخطة المحكمة التي اتفقوا عليها حتى أدركوا مقصدهم الأسمى، ورسول الله ﷺ معهم بإحساسه الكبير ومشاعره الفياضة، لقد كانوا يقومون بتنفيذ العملية بعقولهم وأجسامهم، ورسول الله ﷺ يتولى قيادتها العليا بالاتصال بالله -تعالى- ودعائه لهم بالنصر والإعانة.

إن الوسائل التي شرعها الله -سبحانه- للوصول إلى المقاصد المترتبة عليها تبقى لها فعاليتها ما لم يكن قدر الله -تعالى- يقضي بغير ذلك، فعند ذلك تنزع منها فعاليتها، وقد يكون ذلك بسبب دعاء أولياء الله الصالحين، وكم أمَّل المسلمون بالنصر وتشوقت له نفوسهم حينما يكون في معيتهم رجال صالحون يتوجهون إلى الله -تعالى- بالدعاء، ويشعرون في قرارة نفوسهم بأن الله -تعالى- معهم بنصره وتأييده.

هذا وإن البطولة والفدائية في قتل ابن الأشرف لا تكمن في عملية قتله حينما تم إفراده من قومه، فهي عملية يسيرة حتى لو كان مُقَابلُه فرداً واحداً من المسلمين؛ لأن المسلم قد تم إعداده؛ ليقف مقابل عشرة من الكفار، وإنما البطولة والفدائية في كون هؤلاء الصحابة قد دخلوا منطقة من مناطق اليهود، واستطاعوا بالحيلة استدراج ذلك الرجل، مع أن الاحتمال واردٌ بأن يدرك اليهود خطرهم فيحيطوا بهم من كل جانب سواء بعد تنفيذ العملية أو قبلها، فالقيام بهذا العمل بحَدِّ ذاته يُعدُّ مغامرة جريئة.

وتم ما أراده الرسول ﷺ من إرهاب كل من تُسول له نفسه من اليهود أن ينقض العهد ويتعرض للمسلمين بالأذى، كما جاء في سياق رواية ابن إسحاق: «فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله، فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه».

وهكذا تم تأديب هؤلاء الخائنين الناكثين العهد بقطع بعض رءوس الشر فيهم، وحين يكون الداء في العضو مستفحلاً فإنه لا يجدي معه الدواء وإنما يحُدُّ من استشرائه بترُه وتخليص الأعضاء السليمة منه.

رابعًا: فيما جرى من كعب بن الأشرف من تصديق أولئك الصحابة الذين أتوا إليه متذمرين -ظاهرًا- من وضعهم مع النبي ﷺ عبرة؛ حيث كان كعب معروفًا بالدهاء، ولم يكن من المتعارف تصديق رجال جاءوا من العدو بهذه السهولة، ولقد أدركت امرأته خطورة الموقف، ولم تكن المرأة هذه أدهى من ابن الأشرف، ولكن قضاء الله ماضٍ وحكمه نافذ، فقد طغى على فكره حقدُه الأسود على رسول الله ﷺ وشوقه الشديد إلى تفريق أصحابه عنه، ومازال لكلام أبي نائلة رنين في أذنيه، فهو يؤمل أن يكسب به طائفة من أصحابه تكون مصدر إزعاج لرسول الله ﷺ، ونواةً لتفريق الناس عنه، وما ذلك إلا سببٌ لمضيِّ قدر الله -تعالى- ولا ننسى دعاء النبي ﷺ لهؤلاء الرهط الكرام بالإعانة، فما نزول هذا الرجل المحارب في هذه الساعة من الليل إلا سبب من أسباب النصر؛ أجراه الله -تعالى- ليتم به ما قضاه وقدَّره من نصرة الحق وخذلان الباطل.

وإذا أراد الله -سبحانه- نصرة دينه على يد أوليائه المؤمنين هيأ لهم أسباب النصر وأعمى أعداءهم عن سُبل الحذر والوقاية، فلا يُفزعنَّ المسلمين ما يملكه أعداؤهم من وسائل الهجوم وأسباب الوقاية، فهي لا ترد شيئًا من قضاء الله وقدره، ولو أن هؤلاء الرهط الكرام نظروا إلى حصن هذا الرجل الشامخ وكونه بين قومه وعشيرته لما أقدموا على محاولة القضاء عليه.

خامسًا: مما يتعلَّق بهذا الموضوع ما أخرجه الواقدي من حديث إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: قال مروان بن الحكم وهو على المدينة، وعنده ابن يامين النَّضْري: كيف كان قتل ابن الأشرف؟ قال ابن يامين: كان غدراً. ومحمد بن مسلمة جالسٌ شيخ كبير، فقال: يا مروان، أيغدر رسول الله عندك؟ والله، ما قتلناه إلا بأمرِ رسول الله ﷺ، والله لا يؤويني وإياك سقف بيت إلا المسجد، وأما أنت يا ابن يامين، فلله عليَّ إن أفلتَّ وقدرتُ عليك وفي يدي سيف إلا ضربتُ به رأسك، فكان ابن يامين لا ينزل في بني قريظة حتى يبعث له رسولاً ينظر محمد بن مسلمة، فإن كان في بعض ضياعه نزل فقضى حاجته ثم صدر، وإلا لم ينزل.

فبينما محمد بن مسلمة في جنازة وابن يامين بالبقيع، فرأى نعشًا عليه جرائدُ رطبةٌ لامرأة، جاء فحلَّه، فقام الناس فقالوا: يا أبا عبد الرحمن، ما تصنع؟ نحن نكفيك، فقام إليه، فلم يزل يضربه بها جريدة جريدةً حتى كسر تلك الجرائد على وجهه ورأسه حتى لم يترك فيه مصحًا، ثم أرسله ولا طَباخ[1] به، ثم قال: والله لو قدرت على السيف لضربتك به[2].

فهذا موقف يُذكر لمحمد بن مسلمة رضي الله عنه في غيرته الدينية ودفاعه عن رسول الله ﷺ وقيامه بتعزير من تطاول عليه واتهمه بالغدر.

*****

(١) أي: لا قوة به.

(٢) مغازي الواقدي: ١/ ١٩٢، ١٩٣.

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٥
المقدمة	٩
نبذة عن المنهج الأمثل في اعتماد الأخبار	٩
توثيق الروايات المختارة	١٧
منهج العلماء في قبول الأخبار	١٨
منهج العلماء في تدوين السيرة	١٩
منهج الباحثين في العصر الحاضر	٢٢
الآثار السلبية لهذا المنهج	٢٦
المشكلة والحل	٢٧
ابن إسحاق الإمام في السيرة	٣٠
سيرة ابن هشام	٣٣
الواقدي الإمام في المغازي	٣٤
حال العالم قبل الإسلام	٣٧
الحالة الدينية	٣٧
الحالة السياسية	٣٨
الحالة الاجتماعية	٣٩
أخبار النبي ﷺ قبل البعثة (إخبار أهل الكتاب عن نبوته ﷺ قبل مولده)	٤٢
العلامات التي صاحبت مولده ﷺ	٤٤
رضاعه ونشأته في بني سعد	٤٥
شق صدره وغسله وذر السكينة فيه	٤٧

وفاة أمه وكفالة جده ثم عمه له ٤٩
حفظ الله تعالى إياه في شبابه من المخالفات السلوكية ٥٠
شهوده ﷺ حلف الفضول..... ٥١
سفره إلى الشام وإخبار بَحيرَى الراهب عن نبوته ﷺ..... ٥٢
خبر بنيان الكعبة وموقف الرسول ﷺ..... ٥٤
خبر زواجه ﷺ بخديجة بنت خويلد..... ٥٦
تسليم الحجر على رسول الله ﷺ..... ٥٧
خبر أمية بن أبي الصلت عن بعثة رسول الله ﷺ..... ٥٨
إشراقة النور الإلهي (بدء الوحي)..... ٦٤
أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة (إسلام خديجة بنت خويلد وجهودها في الدعوة)..... ٦٧
أول من أسلم..... ٧٤
إسلام أبي بكر وجهوده في الدعوة..... ٧٧
دعوة بني عبد المطلب (وموقف لعلي بن أبي طالب)..... ٨٠
مثل من ثبات الصحابة على دينهم (خبر سعد بن أبي وقاص وأصحابه)..... ٨١
مثل من تواضع النبي ﷺ (إسلام عبد الله بن مسعود)..... ٨٢
مثل من الثبات على الشدائد (إسلام خالد بن سعيد بن العاص)..... ٨٣
موقفان لرسول الله ﷺ في العفة والقناعة..... ٨٣
الدعوة بالتبشير والإنذار (الجهر بالدعوة ومخاطبة عموم قريش)..... ٨٤
مثل من الدعوة الناجحة والتضحية الخالدة (إسلام عمرو بن عبسة السلمي).... ٨٨
مواقف في الدعوة وإيثار الإسلام (قدوم أسرة زيد بن حارثة لطلبه)..... ٩٠
نماذج من قوة تأثير النبي ﷺ بالقرآن (تأثر بعض زعماء قريش - تأثر وفد النصارى)..... ٩٣

مثل من دعوة رسول الله ﷺ المؤثرة (إسلام ضماد الأزدي ورجل من بني عامر). ١٠٠
مثل من قدرة النبي ﷺ على اختراق حصار الأعداء (إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي) ١٠٦
لون آخر من الصد عن سبيل الله (خبر أعشى بني قيس) ١١٣
مثل من مساومة أهل الباطل وإصرار أهل الحق ١١٧
مثل من ثبات النبي ﷺ في دعوته (شكوى قريش لأبي طالب) ١٣٤
مثل من تضحية الصحابة بأنفسهم في سبيل الله (استعداد الزبير للدفاع عن رسول الله ﷺ) ١٣٨
نموذج من الجرأة في قول الحق والثبات على الشدائد (ابن مسعود يتحدى الكفار) ١٣٩
إسلام أبي ذر وتحدي الكفار ١٤٢
مواقف عالية من صبر النبي ﷺ على الأذى ١٤٦
مواقف من صبر الصحابة على الأذى ١٥٩
أثر دعوة النبي ﷺ في تحطيم الطغيان ١٧٣
مواقف في هجرتي الحبشة الأولى والثانية ١٨٠
مثل من تأثر الصحابة بالقرآن وقوة تأثيرهم به ٢٠٠
أبو بكر أول خطباء الدعوة من الصحابة ٢٠٣
مثل من التنافس في العمل الصالح (عثمان بن مظعون يتحدى الكفار) ٢٠٩
مثل من العزة والشهامة (إسلام حمزة بن عبد المطلب) ٢١٢
إسلام طليب بن عمير وجهوده في الدعوة ٢١٥
مثل أعلى للتحول بعد الهداية (إسلام عمر بن الخطاب) ٢١٧
مثل من الصبر على الشدائد (حصار الشعب) ٢٣٢
انتصار رسول الله ﷺ للمظلومين (خبر الإراشي والزبيدي) ٢٤٢

تفوق النبي ﷺ في الدعوة (شكوى قريش لأبي طسالب فى مرضه)..... ٢٤٨
صبر جميل وعزيمة نافذة (وفاة الحاميين: خديجة وأبى طالب)..... ٢٥٢
مواقف وعبر فى دعوة أهل الطائف..... ٢٥٤
مثل أعلى للشجاعة فى قول الحق (خبر الإسراء برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس)..... ٢٦٨
نماذج من الانطلاق بالدعوة خارج مكة.....
منهج حكيم فى الدعوة (موقفان لرسول الله ﷺ في دعوة بنى كلب وأبى جهل) ٢٧٧
وضوح دعوة الحق فى غبش الجاهلية (موقفان لرسول الله ﷺ مع بنى عامر ومع عمه أبى لهب)..... ٢٧٩
من صفات حملة الرسالة (دعوة قبيلة ربيعة)..... ٢٨٢
بدء إسلام الأنصار..... ٢٨٨
مثل من الالتزام بتطبيق الإسلام (بيعة العقبة الأولى)..... ٢٩٣
داعية ناجح ونفوس متجردة (مصعب بن عمير والدعوة فى المدينة)..... ٢٩٦
فهم دقيق وإيمان عميق وتضحية خالدة (بيعة العقبة الثانية)..... ٣٠٢
من مغامرات الشباب المؤمن..... ٣١٥
مثل من الاهتمام بأمور المسلمين..... ٣١٨
الهجرة إلى المدينة النبوية..... ٣١٩
هجرة أبى سلمة ومثل من الصبر الجميل..... ٣٢٢
مثل من فطنة عمر بن الخطاب وإيثار إخوانه (هجرة عمر وخبره مع عياش بن أبى ربيعة)..... ٣٢٥
مثل عظيم على الإيثار والتوكل على الله تعالى..... ٣٢٩
الهجرة النبوية..... ٣٣١
خبر سراقة بن مالك المدلجى..... ٣٤٥

نزول النبى ﷺ على أم معبد..... ٣٤٩
خبر الراعى مع رسول الله ﷺ..... ٣٥٣
خبر اللصِّين ومواقف لرسول الله ﷺ..... ٣٥٤
وصـول النبى ﷺ إلى المدينة..... ٣٥٦
هجرة على بن أبى طالب..... ٣٦١
مثل فى التضحية (هجرة صهيب بن سنان)..... ٣٦٣
مواقف وعبر مـا بين الهجرة وغزوة بدر..... ٣٦٥
رسـول الله ﷺ في المدينة..... ٣٦٧
مثل من زهد النبي ﷺ (بناء بيوته في المدينة)..... ٣٦٩
مثل من جهـاد النفس وتحكيم العقل (إسلام عبد الله بن سلام)..... ٣٧٣
مثل من دعوة رسول الله ﷺ (خبر عبد الله بن أبيّ في عدم إجابة الدعوة)..... ٣٧٦
موقف لأسعد بن زرارة (أول جمعة أقيمت بالمدينة)..... ٣٧٨
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار..... ٣٧٩
مواقف من إيثار الأنصار..... ٣٨٣
مثل من جهود النبي ﷺ وصحابته في جهاد المنافقين..... ٣٨٦
موقف لرسول الله ﷺ في الحكم بما أنزل الله (حكمه على اليهود بما في توراتهم) ٣٨٨
مثل من مقدرة النبي ﷺ علي إخماد الفتنة وموقف للأنصار بالسمع والطاعة... ٣٩٠
مـواقف لرسـول الله ﷺ في بناء المجتـمع الإسـلامي (صـحيفـة المعـاهدة بين أهل المدينة)..... ٣٩٤
وفد النصارى وخبر المباهلة..... ٤٠٠
موقف لسعد بن معاذ في تحدي الكفار..... ٤٠٣
المغازي والسرايا قبل بدر الكبرى..... ٤٠٦
سرية عبيدة بن الحارث إلى رابغ..... ٤٠٨

سرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر..... ٤٠٩
سرية عبد الله بن جحش إلى وادي نخلة..... ٤١٠
غزوات النبي ﷺ قبل بدر الكبرى..... ٤١٥
مواقف وعبر في غزوة بدر الكبرى..... ٤١٧
أمر النبي ﷺ أصحابه بالخروج للعير..... ٤١٩
رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب وإضعاف معنوية الكفار..... ٤٢١
استعداد قريش للحرب..... ٤٢٣
خبر جزور أبي جهل وموقف لعداس..... ٤٢٥
خروج النبي ﷺ وأصحابه لتلقي العير..... ٤٢٧
مثل من التنافس على العمل الصالح (خبر سعد بن خيثمة وأبيه)..... ٤٢٨
أمثلة من مكارم الأخلاق (خبر النبي ﷺ مع زميليه في الدابة)..... ٤٢٩
مواقف جهادية عالية لبعض الصحابة (استشارة النبي ﷺ أصحابه في القتال).. ٤٣٤
مثل من الاهتمام بمعرفة واقع العدو (خبر شيخ من العرب ومولى لقريش)..... ٤٣٧
أبو سفيان يغير اتجاه العير..... ٤٣٩
تشاؤم قريش من رؤيا جهيم بن الصلت..... ٤٤٠
منزل الجيشين ببدر..... ٤٤٢
مثلان من إكرام الله تعالى أولياءه (التأمين بالنعاس/ إنزال المطر)..... ٤٤٣
مثل من أخلاق النبي ﷺ العالية (مشورة الحباب بن المنذر)..... ٤٤٦
مثل من محادة المشركين لله تعالى (خبرهم مع ابن رحضة الغفاري)..... ٤٤٨
مثل من تسامح النبي ﷺ مع بعض الكفار (نفر من الكفار يشربون من حوض المسلمين)..... ٤٤٩
شهادة للمسلمين من أعدائهم (عمير بن وهب يقدِّر عدد المسلمين)..... ٤٥٠
مثل من نصر الله تعالى أولياءه (تقليل الكفار في أعين المسلمين)..... ٤٥٣

موقف جهادي لحمزة بن عبد المطلب (خبر الأسود المخزومي وقتله) ٤٥٥
مواقف بطولية لبعض الصحابة (خبر المبارزة بين المسلمين والكفار) ٤٥٦
مثل من عدالة النبي ﷺ (خبر سواد بن غُزَيَّة) ٤٥٨
دعاء النبي ﷺ ومناشدته ربه جل وعلا ٤٥٩
مثل من الشوق العظيم للجنة (خبر عمير بن الحُمَام) ٤٦٢
مثل من الشوق إلى رضوان الله تعالى (خبر عوف بن الحارث) ٤٦٣
استفتاح أبي جهل وما فيه من العبر ٤٦٤
مثل من نصر الله تعالى أولياءه (رمي النبي ﷺ الكفار بالحصباء) ٤٦٦
مثل من الوفاء لأهل الفضل (رسول الله ﷺ ينهي عن قتل أبي البَختَري) ٤٦٧
مشاركة الملائكة عليهم السلام يوم بدر ٤٦٩
إبليس يخذل المشركين ٤٧١
مقتل أمية بن خلف وما فيه من مواقف ٤٧٤
موقف لأم صفوان بن أمية ٤٧٧
مواقف وعبر في مقتل أبي جهل ٤٧٨
شجاعة عكاشة بن محصن ٤٨٢
موقف جهادي للزبير بن العوام ٤٨٣
مثلان من شجاعة أبي دجانة ٤٨٤
موقف شجاعة لعلي بن أبي طالب ٤٨٥
نماذج عالية من الولاء والبراء ٤٨٦
عدد المقاتلين ونهاية المعركة ٤٨٩
سحب صناديد قريش إلى القليب ٤٩١
مثل أعلى في الرقي الأخلاقي (إكرام الأسرى) ٤٩٣
موقفا رحمة وحزم من رسول الله ﷺ (خبر أبي عزة الجمحي) ٤٩٥

موقف رحمة وعدالة من رسول الله ﷺ (خبر سهيل بن عمرو) ٤٩٦
مثل من تسامح النبي ﷺ واهتمامه بالدعوة (فداء أبي العاص بن الربيع) ٤٩٧
النصر على الأعداء من نعم الله تعالى (خبر سلمة بن سلامة) ٤٩٩
فرحة المؤمنين وغيظ اليهود والمنافقين ٥٠١
مثل من الشجاعة وقوة الإيمان (أبو رافع يرد على أبي لهب) ٥٠٣
تاريخ غزوة بدر ٥٠٥
موقف لرسول الله ﷺ في الوفاء (خبر حذيفة بن اليمان وأبيه) ٥٠٦
من أشعار الدعوة والجهاد (نماذج من أشعار المسلمين في بدر ٥٠٧
مثل من الصبر الجميل (هجرة زينب بنت رسول الله ﷺ) ٥١٠
معجزة نبوية وموقف إيماني (مجيء عمير بن وهب لقتل النبي ﷺ) ٥١٣
غـزوة بني سليم بالكُدْر ٥١٨
موقف إيماني فدائي (سالم بن عمير وقتل أبي عفك) ٥١٩
موقف إيماني فدائي آخر (عمير بن عدي وقتل عصماء بنت مروان) ٥٢١
مواقف عالية في الغيرة وإعزاز الدين (غزوة بني قينقاع) ٥٢٥
مثل من اهتمام النبي ﷺ بالجهاد (غزوة السويق) ٥٣١
موقف لرسول الله ﷺ في الثبات والشجاعة (غزوة غطفان بذي أمَرَّ) ٥٣٣
موقف في الرصد الحربي الدقيق (سرية القَردَة) ٥٣٦
مثل عال من البطولة الفدائية (مقتل كعب بن الأشرف) ٥٤٠
فهرس الكتاب ٥٥١